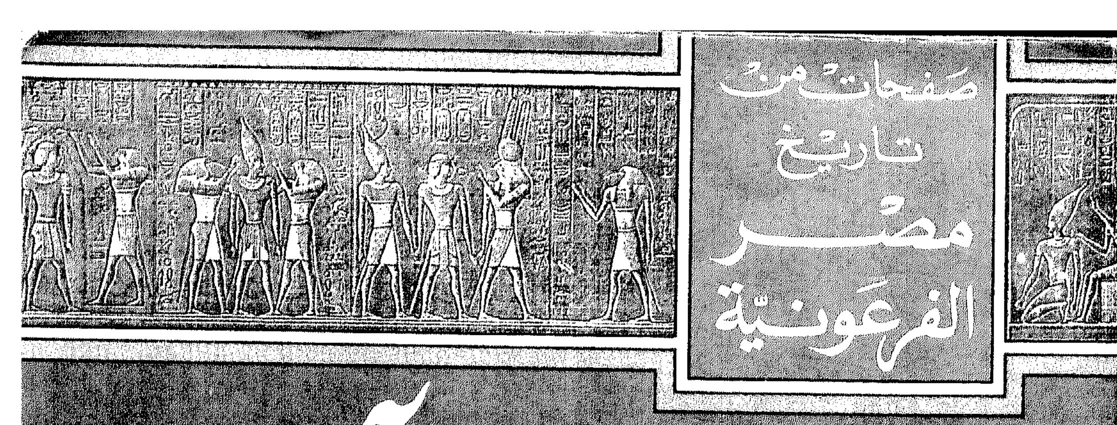
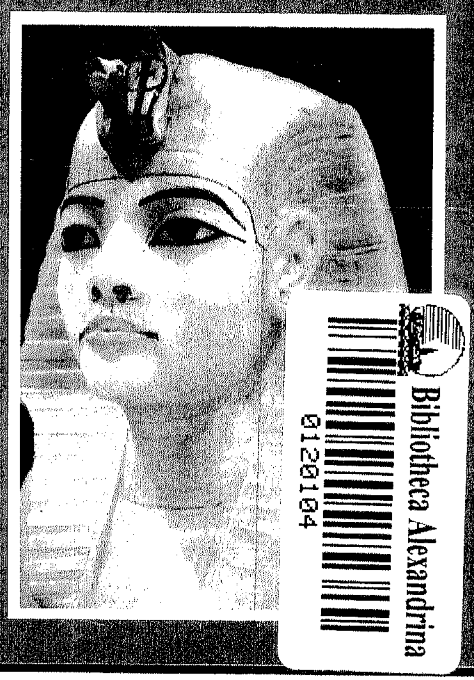


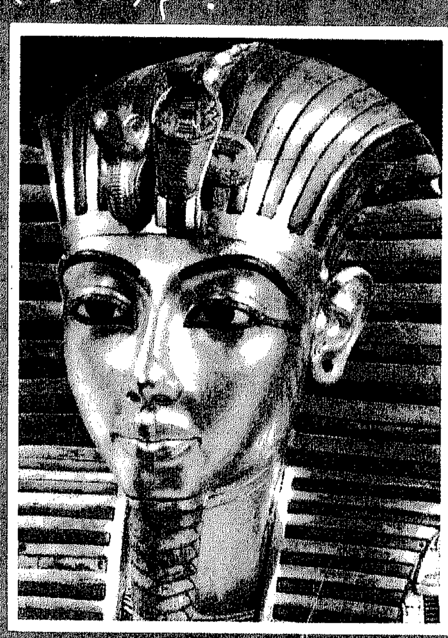
صفحات من تاريخ مصر الفرعونية

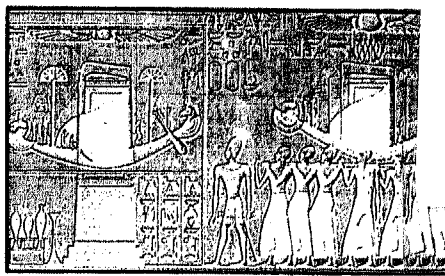
تاريخ توت عنخ آمون

محرر مصر العظيم

بقلم (م. ي)

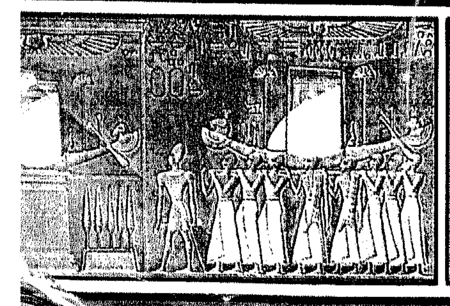








الناشر
مكتبة مدبولي
القاهرة



تاريخ

توت عنخ آمون

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

الناشـــر
مكتبة مدبولى
ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع
تليفون ٧٥٦٤٢١

تاريخ توت عنخ آمون
مُحرّر مصر العظيم

وهو بحث أثري نفيس
في كثير من عادات وأخلاق وأحوال وصناعة وتجارة قدماء المصريين
في عصر توت عنخ آمون الذهبي

ويتبعه

تاريخ عالم الفراعنة

موجزاً مستخلصاً عن أوثق المصادر التاريخية وأشهر المؤلفات العصرية
بقلم (م. ي)

مكتبة مدبولي
القاهرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد

إن القبلة التى يممنا بوجهنا شطرها والغرض الذى من أجله نشرنا هـذا الكتاب هو خدمة التاريخ الشرقي الدارس وسد ثلمة فى عالم الأدب العربي . .

وان القارئ ليرى معنا أن لغتنا الشريفة أشد اللغات عوزا وحاجة الى كتب في قدماء المصريين تكشف لنا عن تلك السدول الكثيفة التى تحجب عيوننا عن رؤية ماوراء العصور من أنوار ساطعة وما وراء الأيام من أضواء مشعة

وأردنا تنبيه القارىء ولفت نظره ألى فكرة عامة عن المدنية المصرية الغابرة بما نقلناه له عن علماء الفرنجة وكبار رجال الآثار الغربيين وكذا لم نأل جهداً فى لفت نظره الى أوثق المصادر الافرنجية التى يرجع أليها اذا شاء الاطلاع والتعمق فى شئون قدماء المصريين من عامة الوجوه

ولما كانت المصادر الافرنجية المهمة كثيرة لايحصى لها عدد ولا يجمع لهاشمل عمدنا الى التجوال بين صحفها وفصولها منتقين ماقل ودل ولذ وطاب وجلنا جولة بين ذاك البحر الخضم العميق بحر المؤلفـات الافرنجيـة وخرجنا من الأعماق المدهشة حاملين شيئا من محتويات ذاك القاموس لنقدمه الى القارىء الظامىء الى مثل تلك الكنوز حتي يتشوق الى سبر غوره واقتحام مجاهله

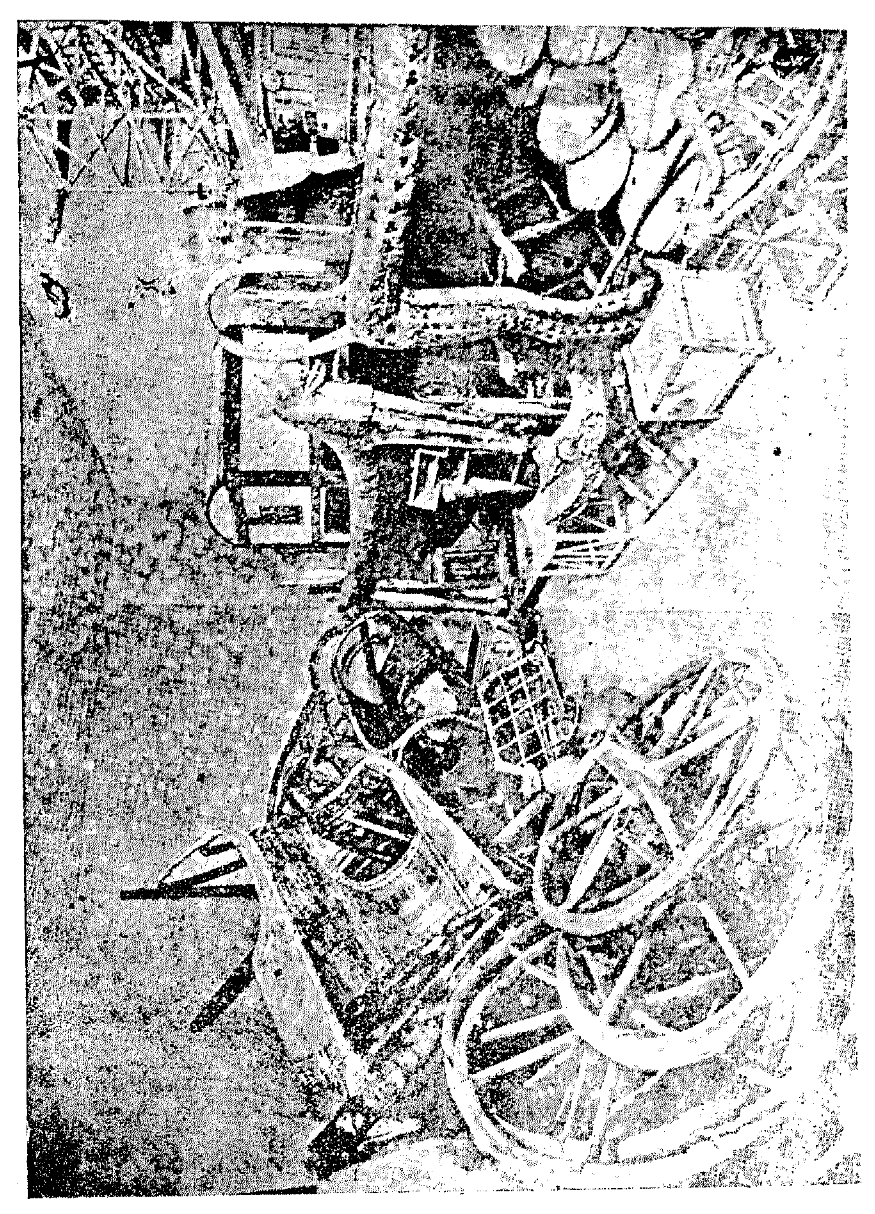
وقد يلاحظ القارىء فى أثناء قراءة هـذا الكتاب ماحولنادمن ربط شتات المواضيع ومختلف الأبواب بعرى الائتلاف إذ كان الغرض كما قدمنا الفكرة العامة فمن تاريخ الى دين ومن اخلاق وعادات الى أدب وكتابات

ولعلنا نفتح بنشر هـذا الكتاب باباً يتسابق اليه الشرقيون ويدخلون الى عالم التأليف والترجمة ثم يخرجون حاملين لنا من آثار الأجداد والأسلاف حباً ونباتاً وجنات ألفافا. وفقنا الله إلى مافيه رقي الشرقيين والسلام م؟

ن • ى •



صورة رسمية فوتوغرافية لنعل الملك توت عنخ آمون كان يلبسه فى رجله وقد وجد فى المدفن وهذا النعل مزخرف جداً ومصفح بالذهب ومزين بشكل زهرة اللوتس وبرأس بطة



منظر من صورة فوتوغرافية رسمية لداخل الغرفة الخارجية فى مدفن توت عنخ آمون
كما كانت قبل أن تنقل منها القطع تظهر فيه المركبات الملكية وعجلاتها
والصناديق والكراسى والسرارير وعلب الأكل



هيكلين فى الاقصر



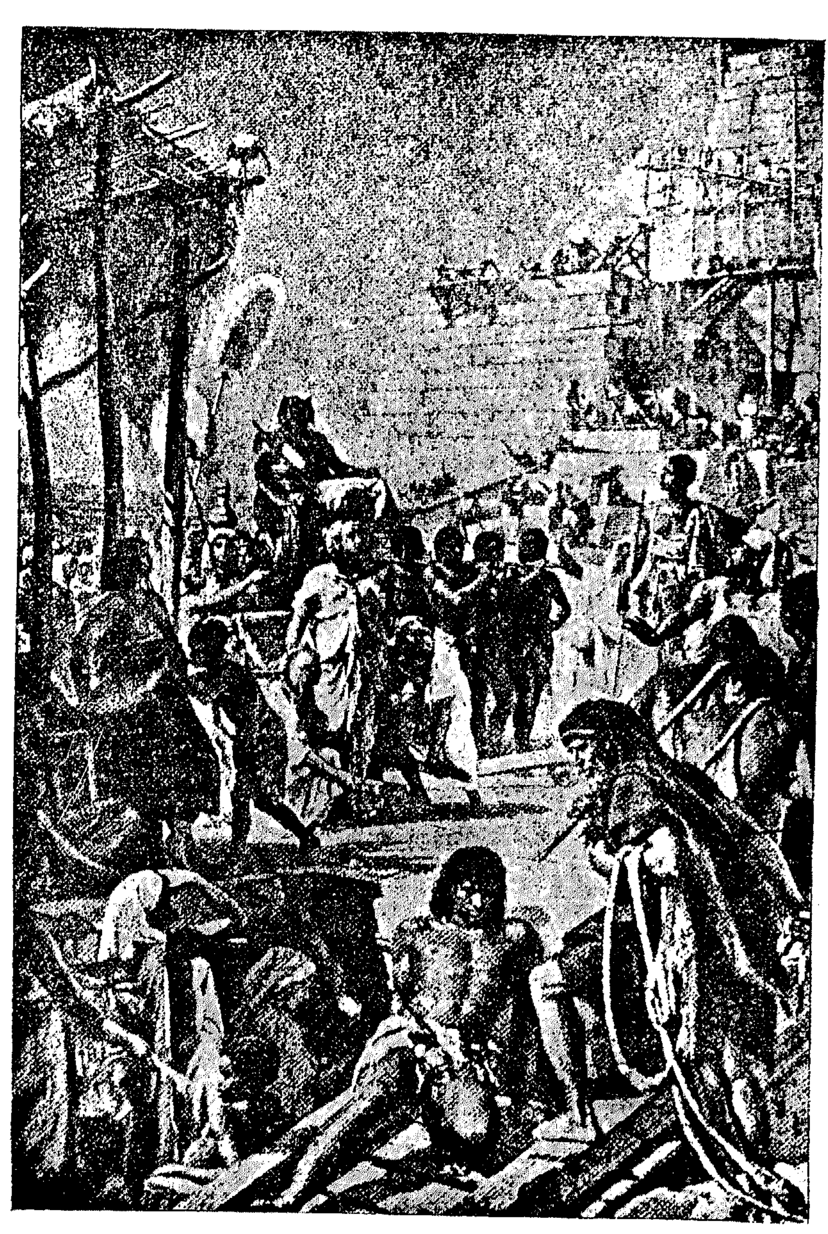
صورة المرحوم اللورد كارنارفون فى مكتبه فى قصر هاى كار وهو الذى قضى ١٧ عاماً فى البحث والتنقيب فى وادى الملوك
بمساعدة المستر كارتر على آثار توت عنخ آمون العجيبة



تمثال الملك توت عنخ آمون وهو أحد التمثالين الواقفين على جانبي باب الحجرة المقفلة
التى يظن ان جثة الملك فيها



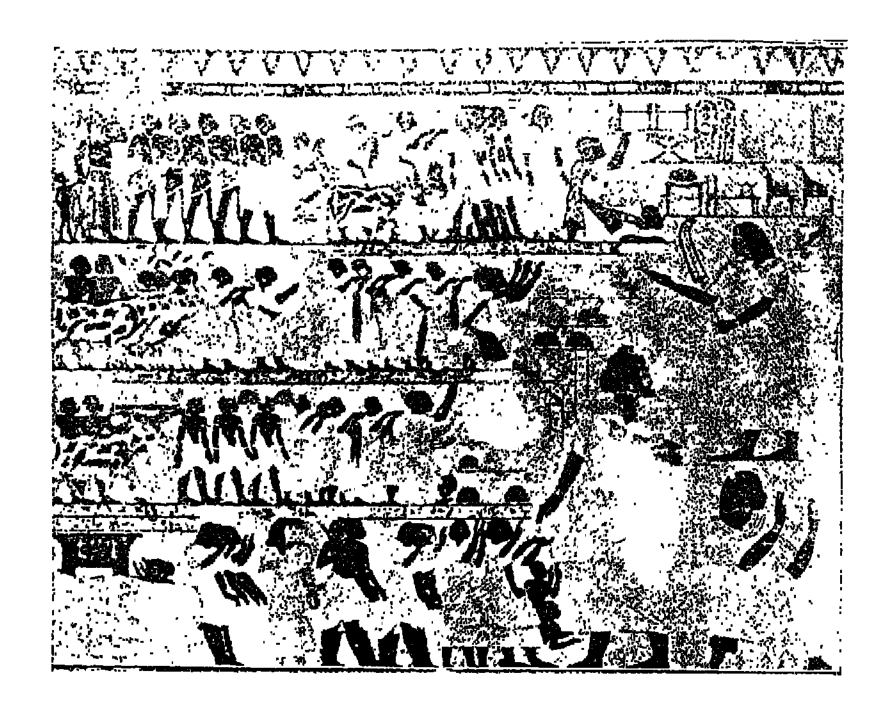
هوروس مع ابيروس



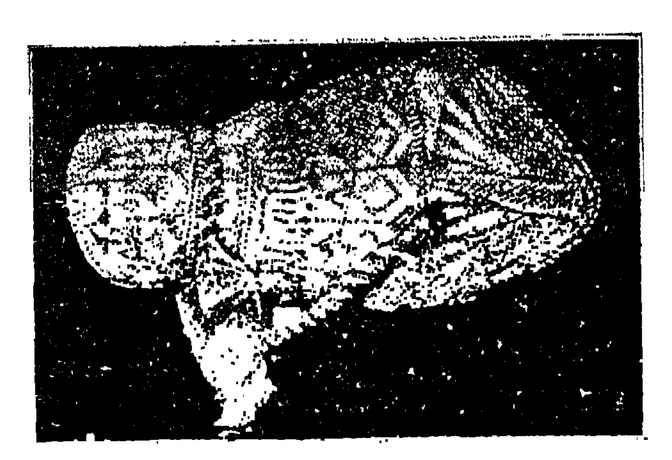
العمال الذين كانوا يشتغلون فى بناء الاهرام الكبير



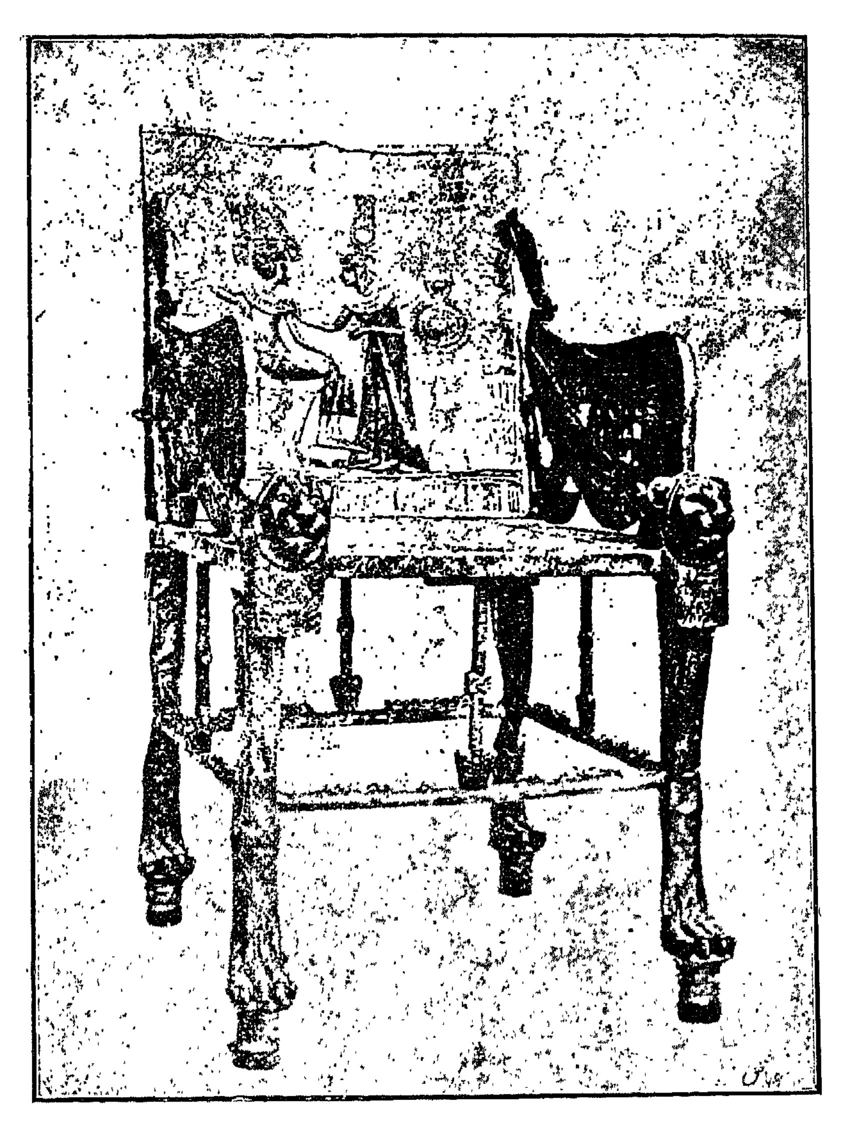
صورة توت عنخ آمون بارزة على جدران احد معابد الاقصر



مناظر النقوش والرسوم الملونة المزخرفة التى تمثل تاريخ الملك توت عنخ آمون منقولة بالفوتوغراف من مدفن القائد هوى الذى كان تحت قيادته و وجدت فى مدافن طيبة وكان هذا القائد ينوب عن توت عنخ آمون فى بلاد الحبشة ويرى القارىء فى النقوش المثبتة هنا الملك توت عنخ آمون على عرشه يتقبل الهدايا والاسرى وقد جلس على عرش من عروشه التى وجدت الآن فى مدافنه



حذاء لابن الملك مصنوع من القش والخرز الملون الجميل



كرسي عرش توت عنخ آمون المصفح بالذهب المزخرف والمنزل بالحجارة الكريمة الملونة وبالخرز وقوائم الكرسي تمثل الاسود والجانبان يمثلان الافاعي المقدسة وفي مسند الكرسي زخرفة رمزية تمثل الملك والملكة جالسين في القصر الملكي والشمس المقدسة تشرق عليهما باشعتها الحيوية والصورة محاطة باطار بديع الصنع



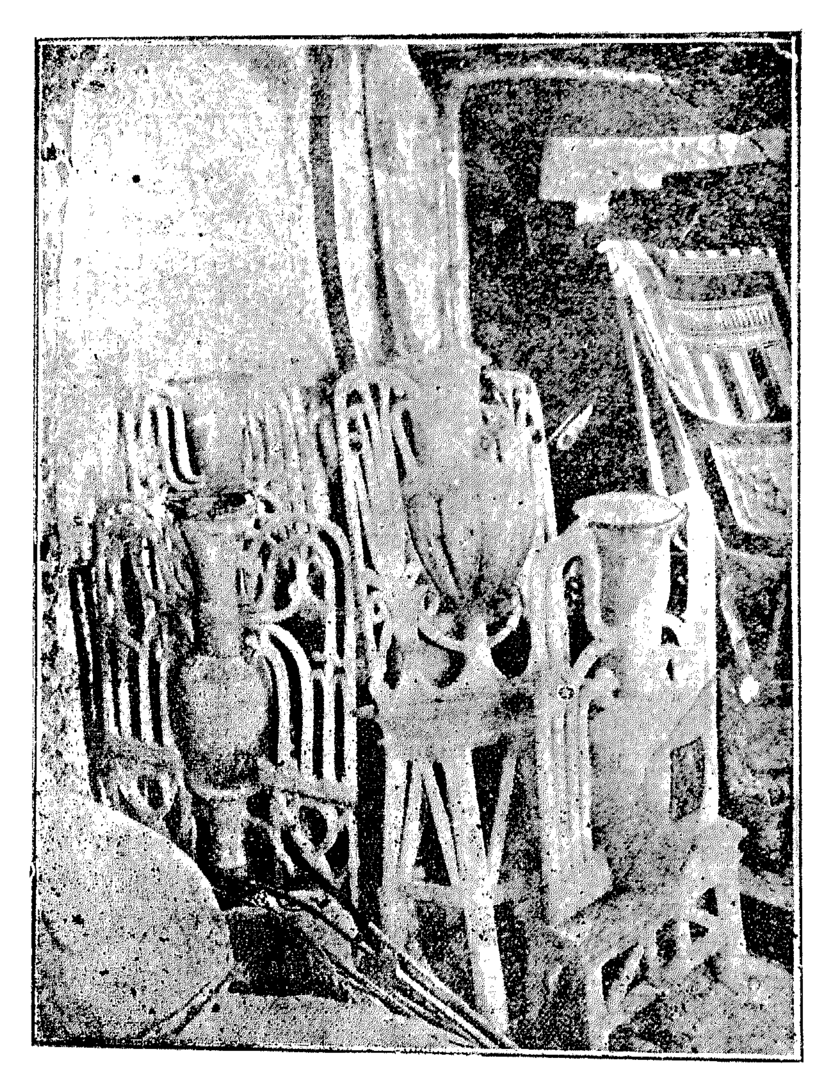
المغفور له العلامة الأثرى المصرى الكبير صاحب السعادة احمد باشا كمال الذى اخترمته
المنية عن ٧٥ سنة قضاها فى خدمة العلم والتاريخ المصرى القديم



منظر داخل الغرفة الاولى لمدفن توت عنخ آمون وقد صورت بناء على رسومات قدمها اللورد كارنارفون مكتشف المدفن



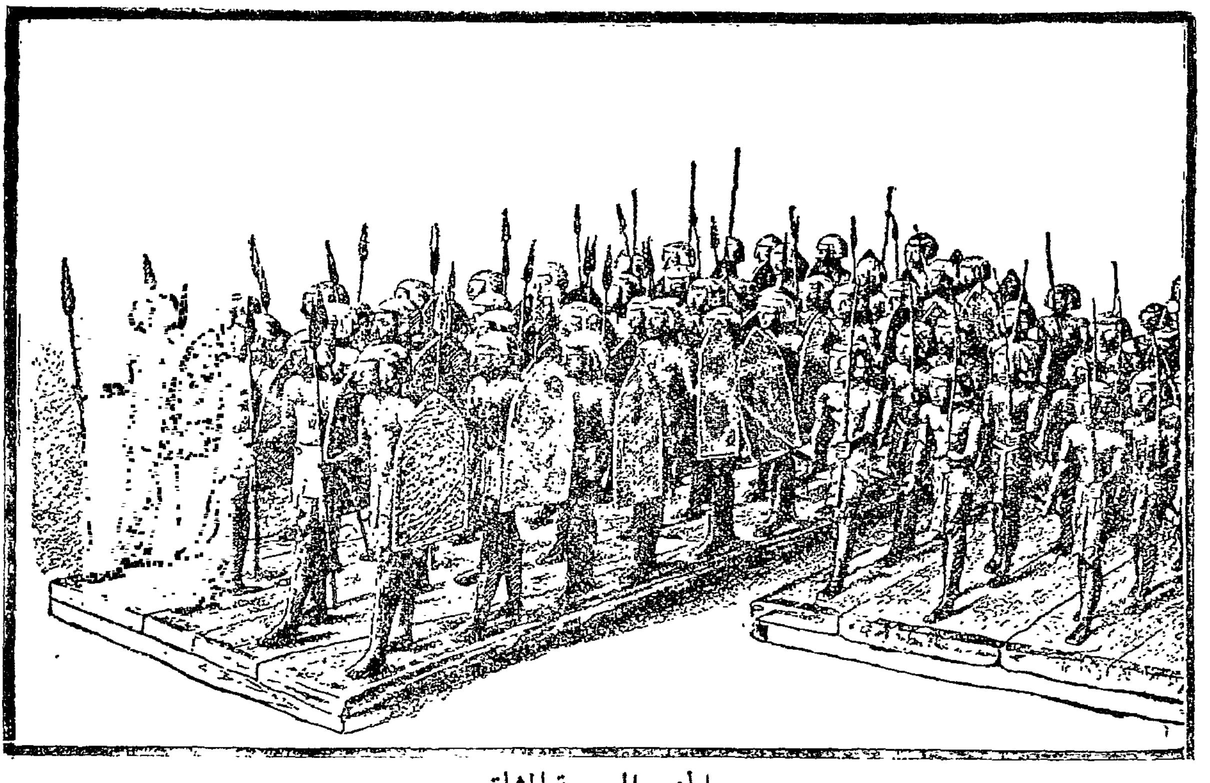
اغرب ما وجدوه فى أحد الصناديق فى المدفن قفاز (جوانتى) من القماش
المتين ليد طفل صغير يظن أنه قفاز الملك لما كان طفلا
وهو أقدم قفاز عرف فى التاريخ



هذه صورة فوتوغرافية رسمية لبعض الزهريات والقالل المصنوعة من المرمر الشفاف
كما وجدوها فى الغرفة الخارجية لمدفن توت عنخ آمون وهى مزخرفة
ومصنوعة باشكال جميلة تشهد بسلامة ذوق المصريين القدماء ويرى
أيضا طرف احد الكراسى التى نقلت من المدفن



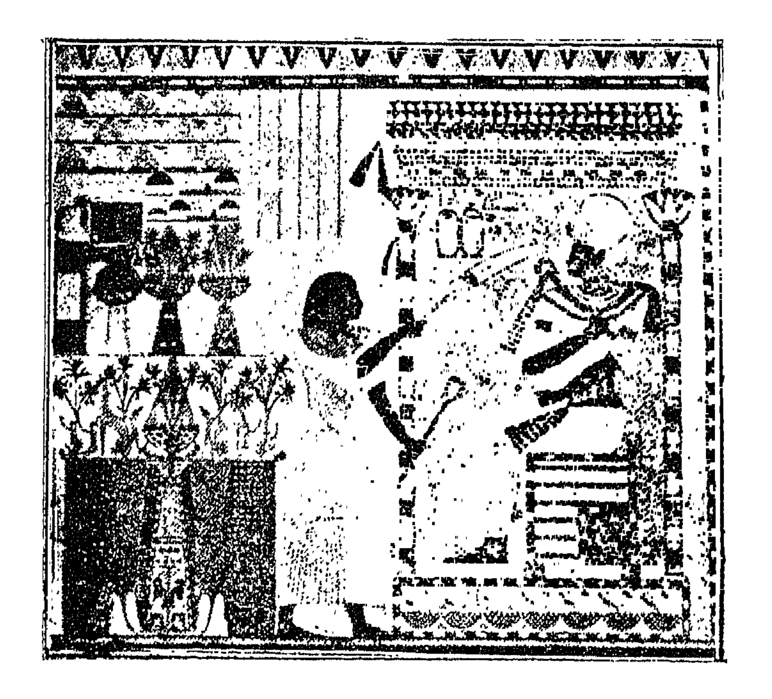
هوروس أماس انوبيس



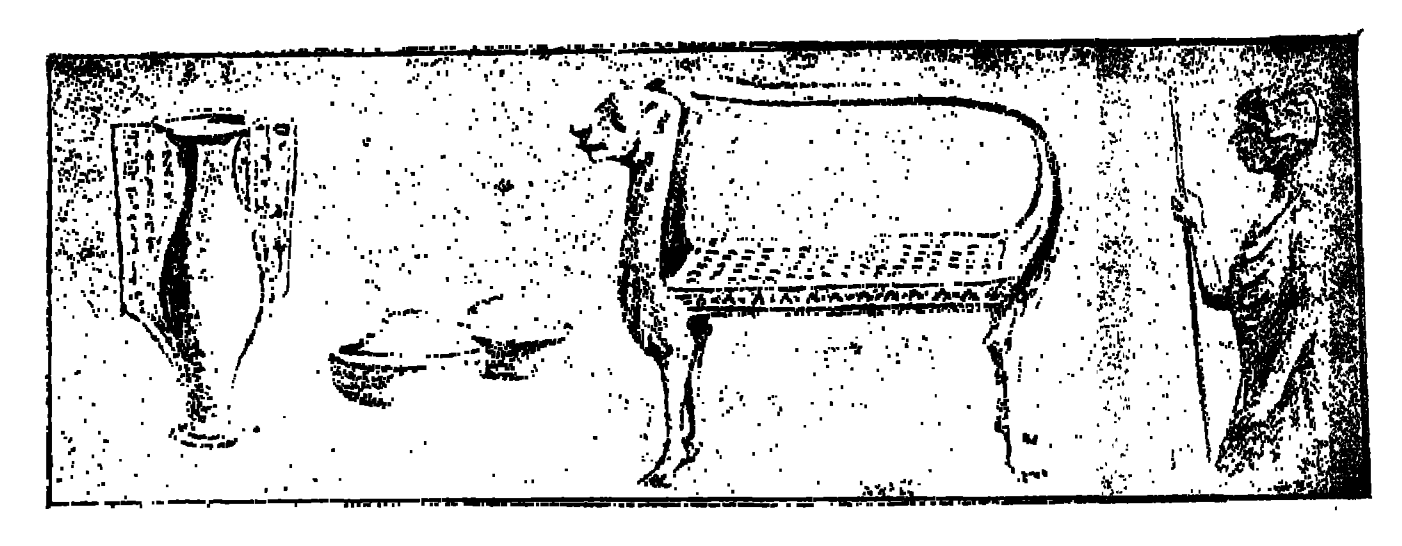
الجنود المصرية المشاة



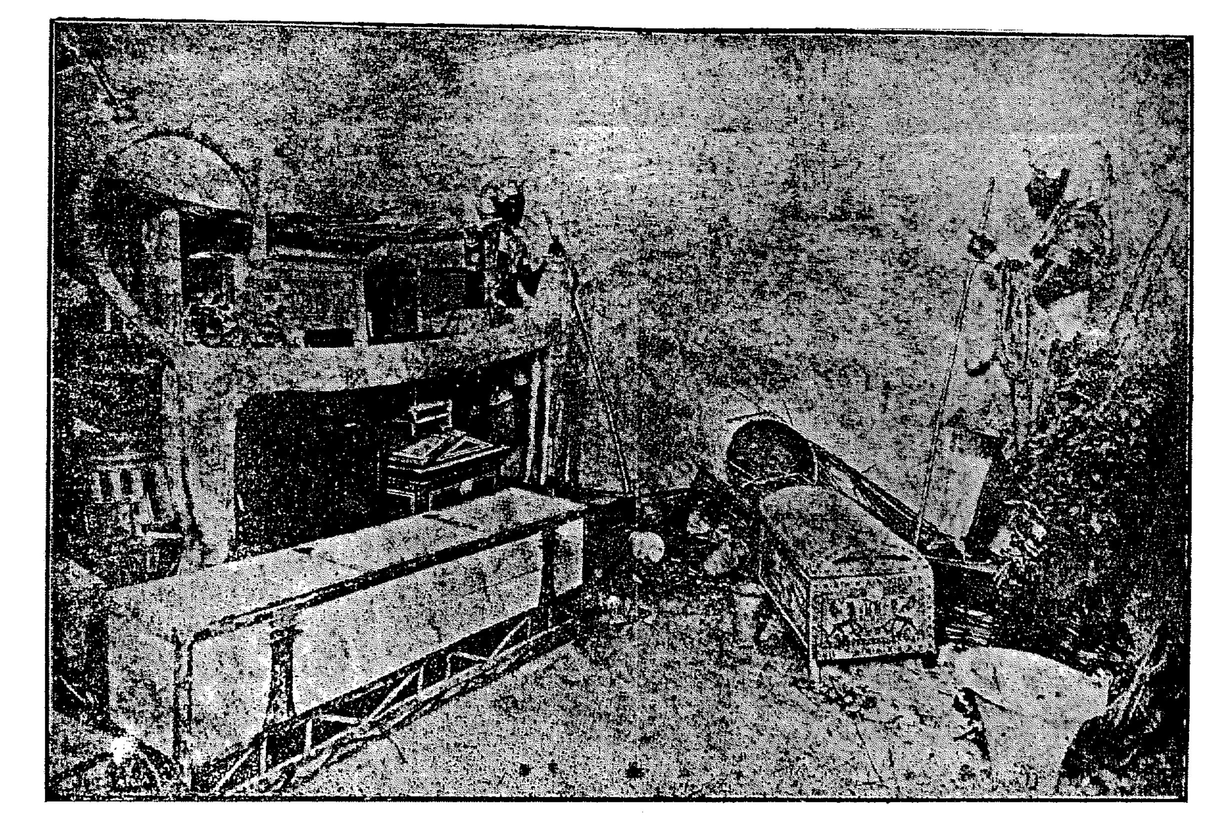
تمثال الملك توت عنخ آمون الذى اكتشف قبره فى الاقصر



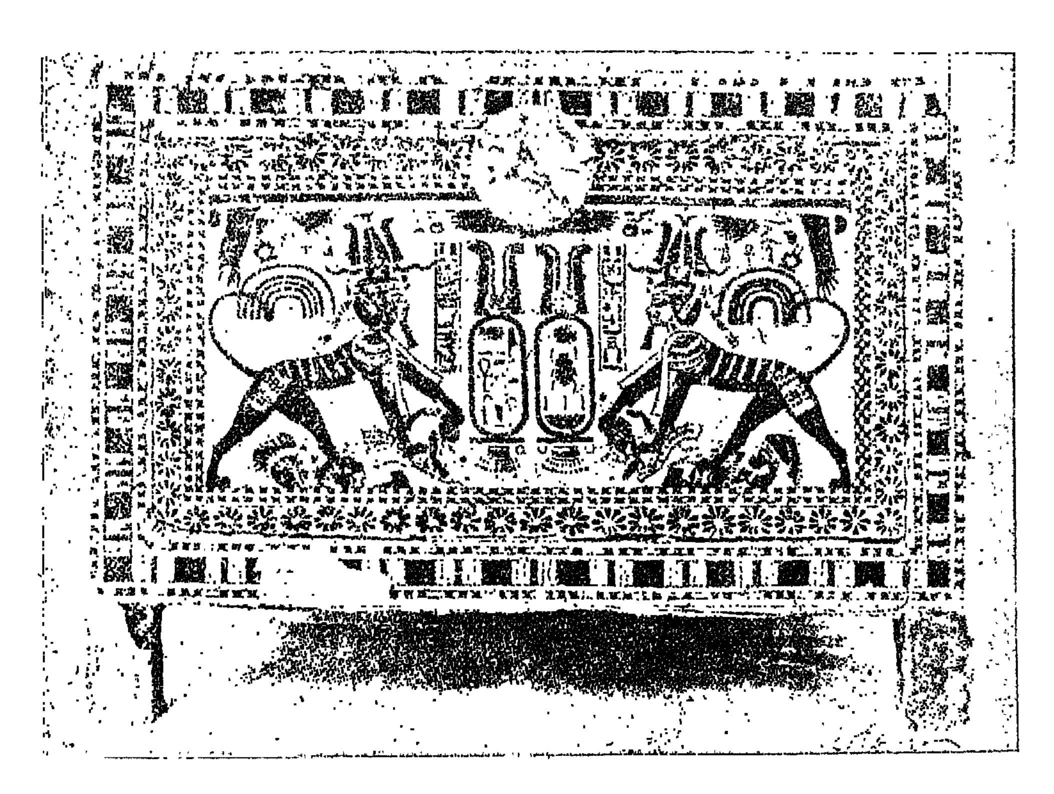
منظر النقوش والرسوم الملونة (راجع ما كتب تحت شكل نمرة ٣)



صورة تمثال من الابنوس والذهب وكرسي مستطيل قوائمه كالحيوان وحلل ومزهرية كلها من المرمر أو المعدن المنزل والمزخرف



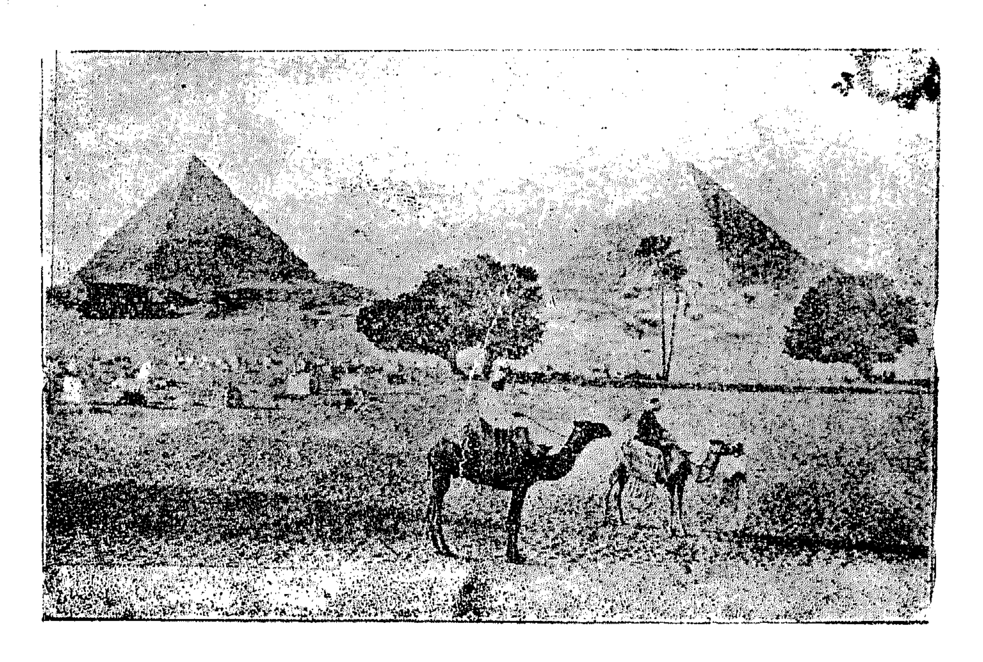
صورة القطع المختلفة التي شوهدت داخل الغرفة الأولى عند ما دخلوا اليها وقد صورت بالنور الكهربائي بمعرفة رجال اللورد كارنارفون وهذه الصورة تمثل ناحية من انحاء الغرفة ويرى فيها التمثالان الواقفان على جانبي الغرفة المختومة ويرى أيضاً صندوق طويل على الارض في داخله ملابس الملك وفوقه سرير له قوائم شكلها كحيوان هاتور وقد رفع ذيله الطويل وفوق هذا السرير صندوق منزل بالحجارة الكريمة وفوقه سرير آخر عليه



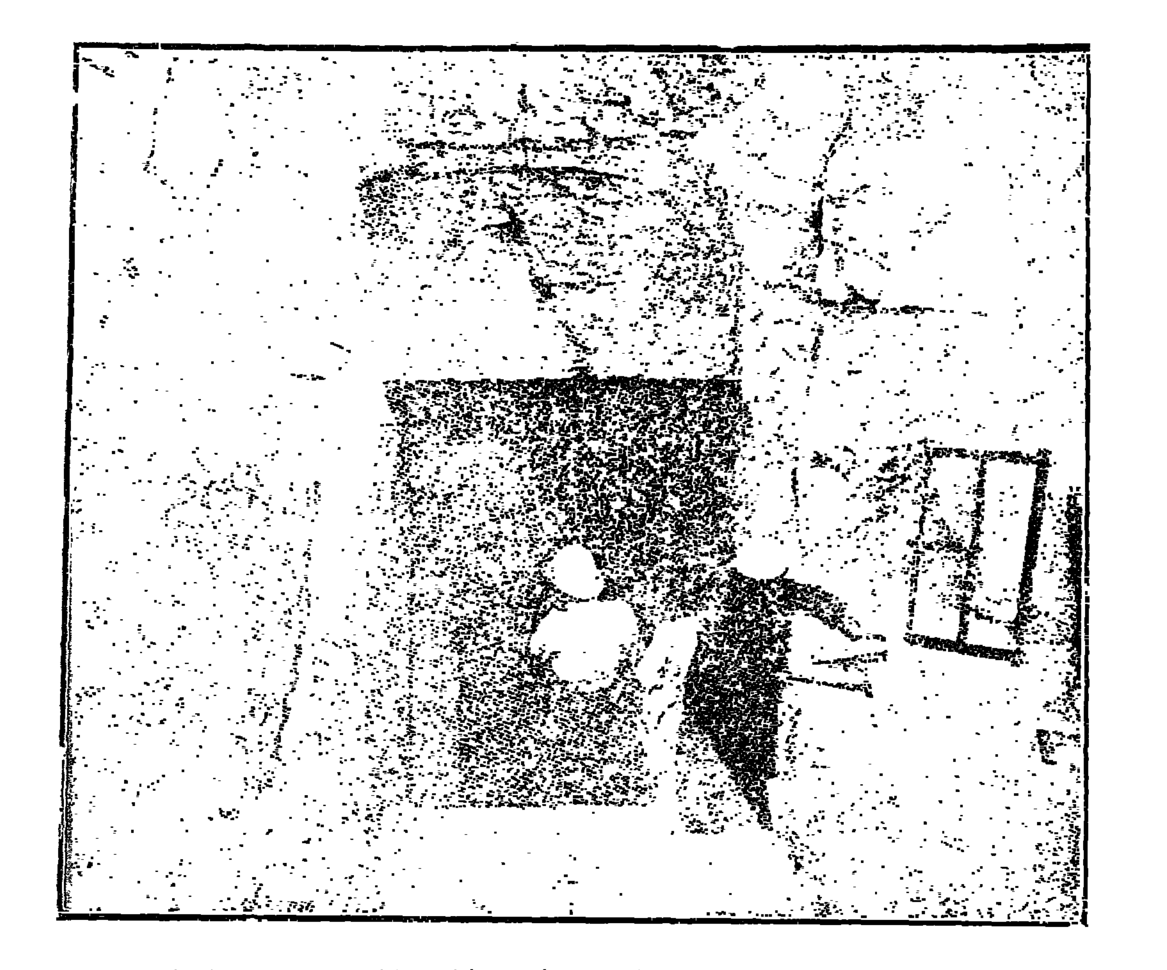
صورة رسمية فوتوغرافية لصندوق مزخرف آية في الجمال والبهاء ودقة الصنع للملك توت عنخ آمون
وجد في مدفنه وقد رمز للملك بأسد رأسه رأس الملك وقد وقع بين يديه اعداءه وفي وسط الصوره
ختم الملك بالهيروغليفية وهذا الصندوق يفوق جمالا واتقاناً سائر ما وجد في المدفن



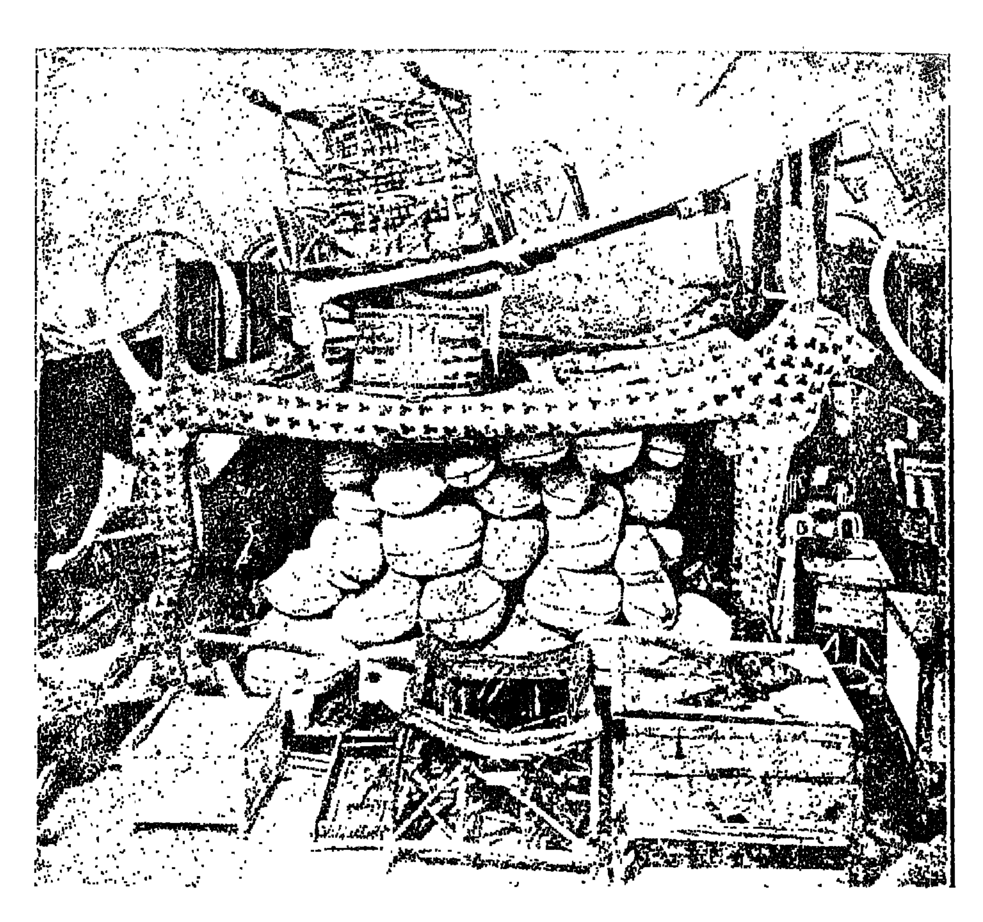
باقة من الزهور على حمالة . هذه الباقة كسيت بالجيلاتين الشفاف كي لا تتفتت اجزائها



منظر الهرمين الـكبيرين بالجيزة



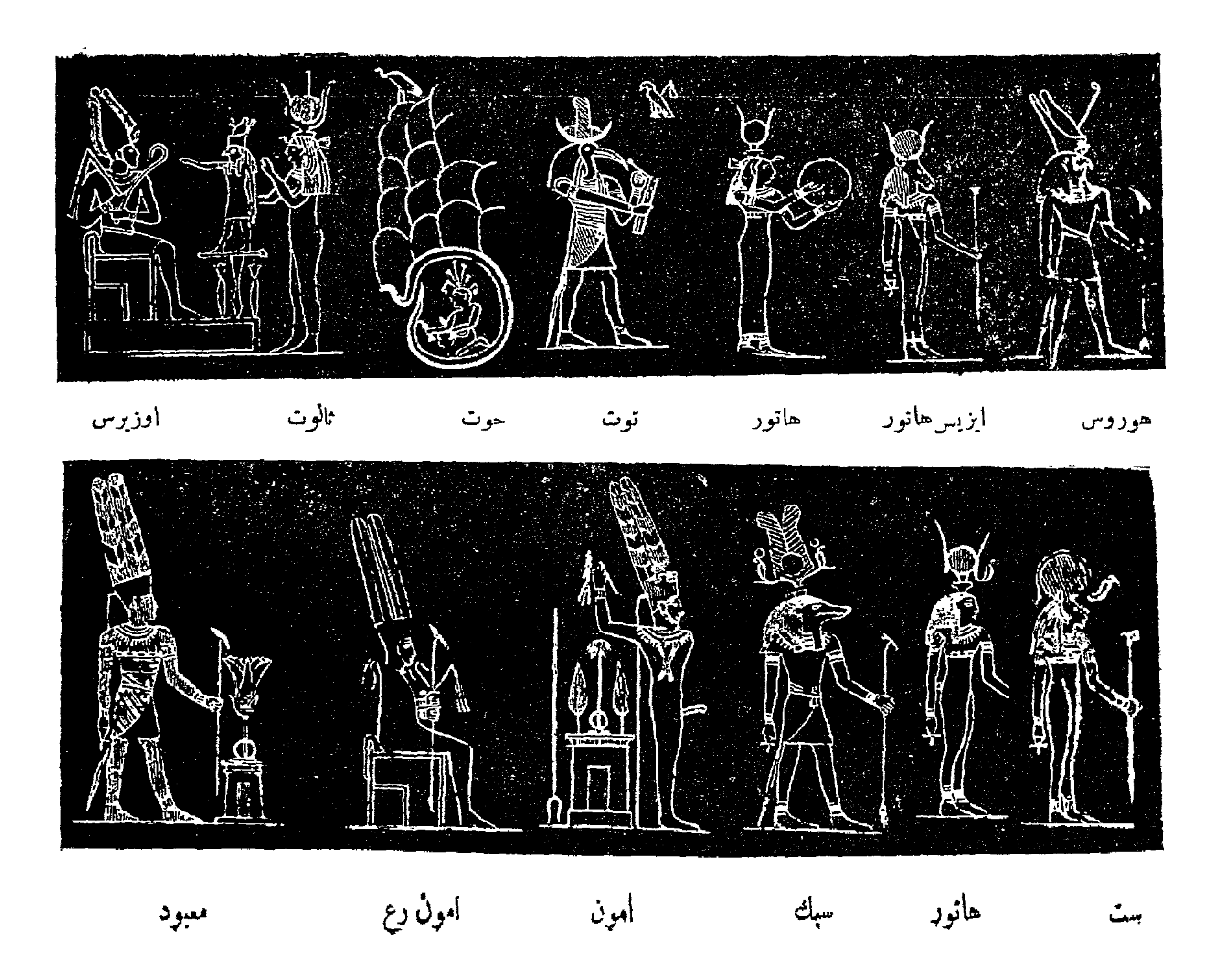
مدخل قبر توت عنخ امون في الاقصر اثناء نزع الالواح الخشبية التي كانت موضوعة على مدخله



صورة فتوغرافية رسمية داخل المدفن وفيه سرير الملك وتحته
وصناديق الطعام وكراسي وقطع مختلفة

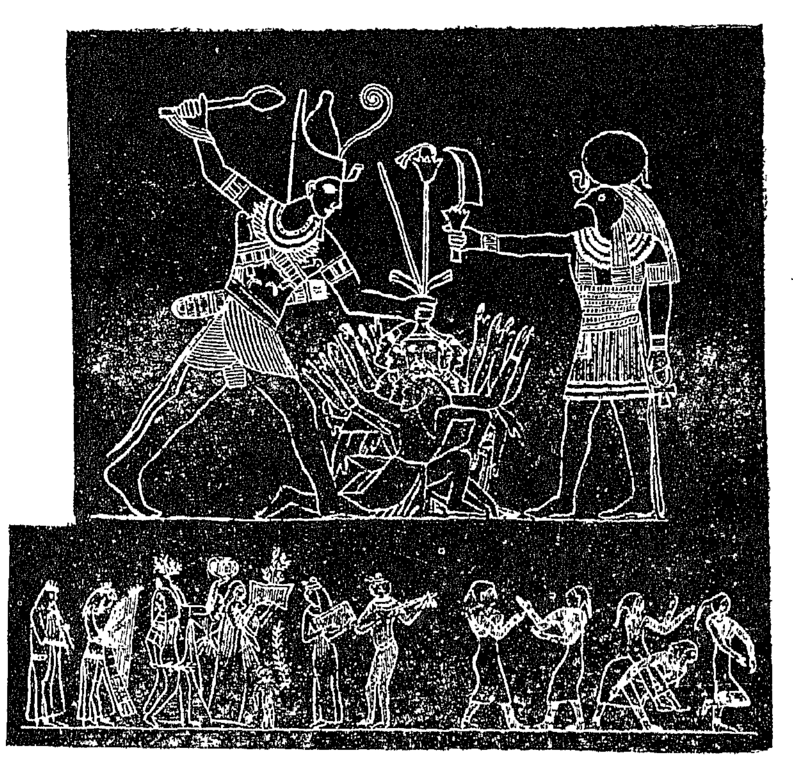


قميص من النسيج المتين لطفـل صغير وجد في أحد
الصناديق الثمينة في مدفن توت عنخ آمون
ويظنون انه قميص الملك لما كان طفلا

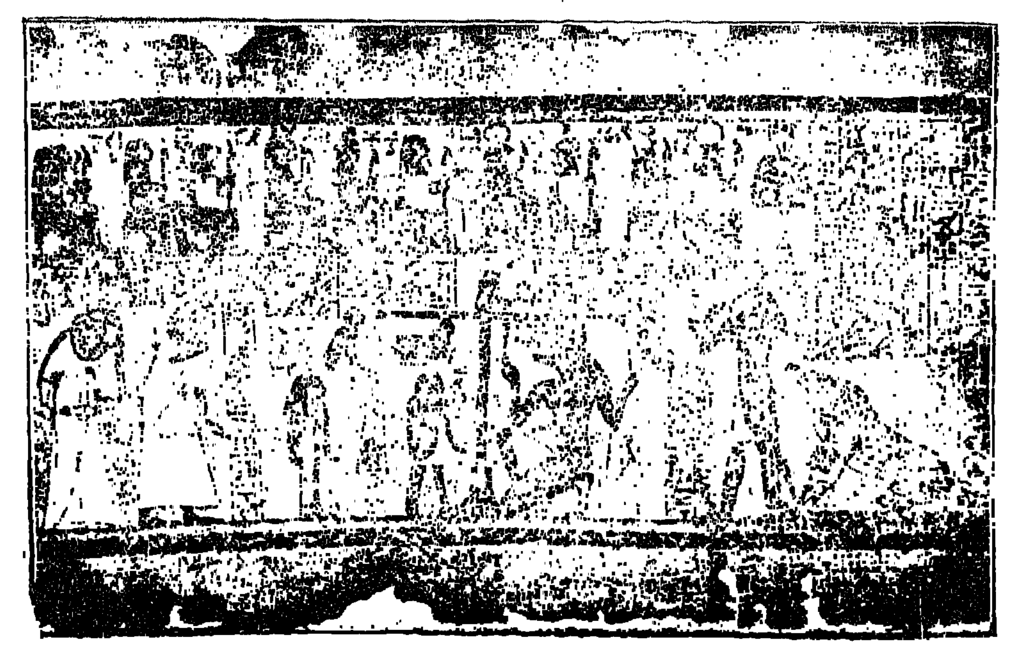


هوروس — ایزیس هاتور — هاتور — توت — حوت — ثالوت — اوزیرس

بست — هاتور — سبك — امون — امون رع — معبود



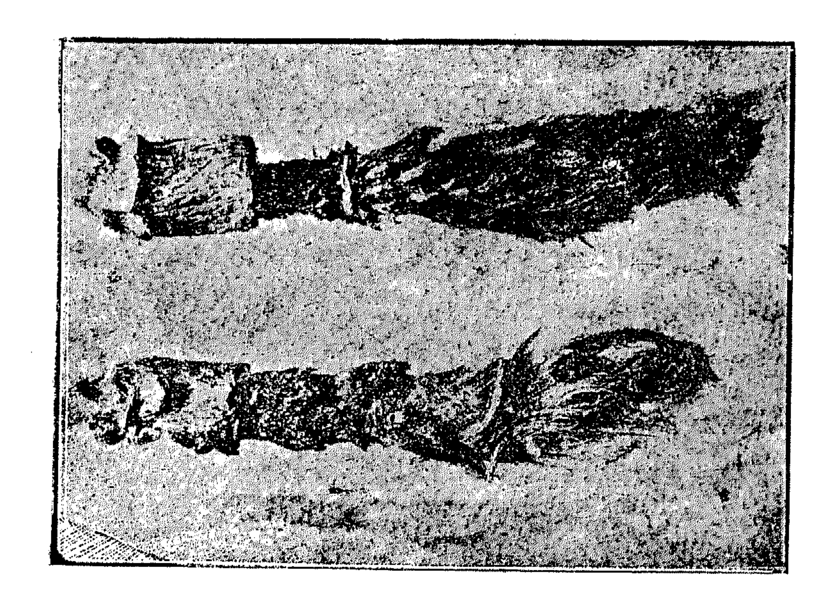
الصورة العليـا : اعدام العاصين على المعبود
الصورة السفلى : رسم الرقاصين والمغنين من الفراعنة



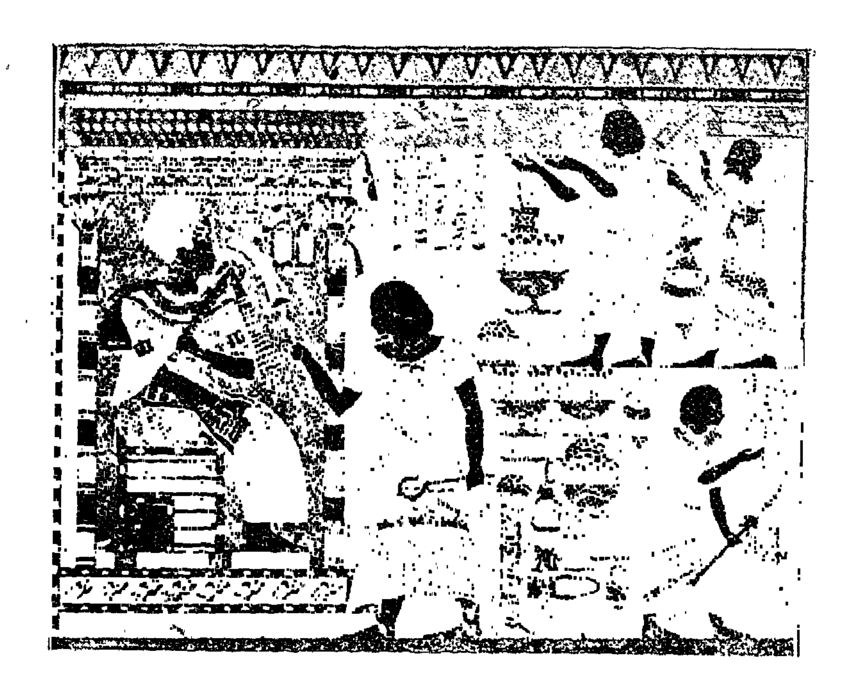
نقوش ورموز مختلفة موجودة على ورق البردى



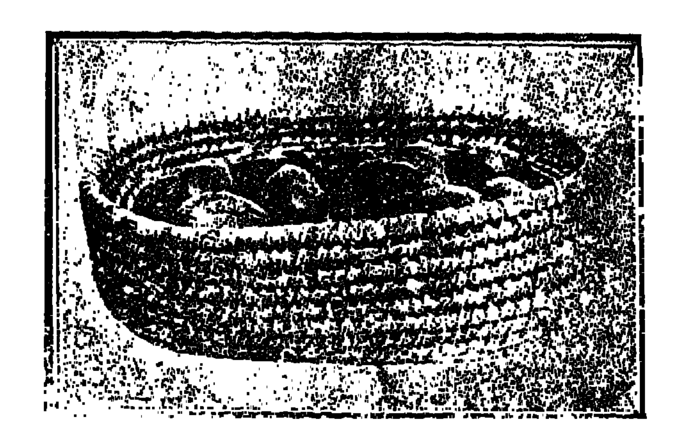
جزيرة فيلى



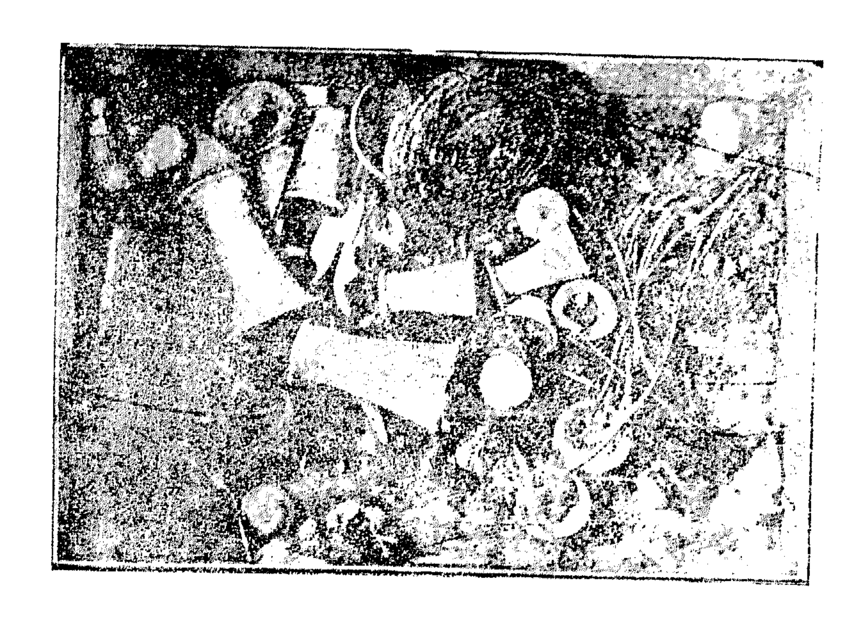
منشتان لاجل نش الذباب مصنوعتان من النخل



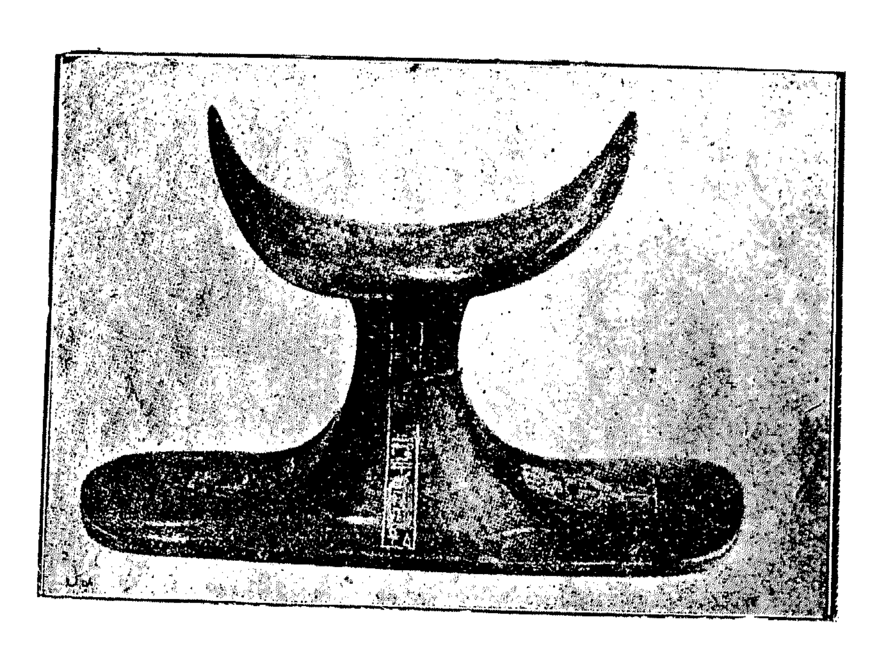
منظر النقوش والرسوم الملونة المزخرفة (راجع ما كتب تحت شكل نمرة ٣)



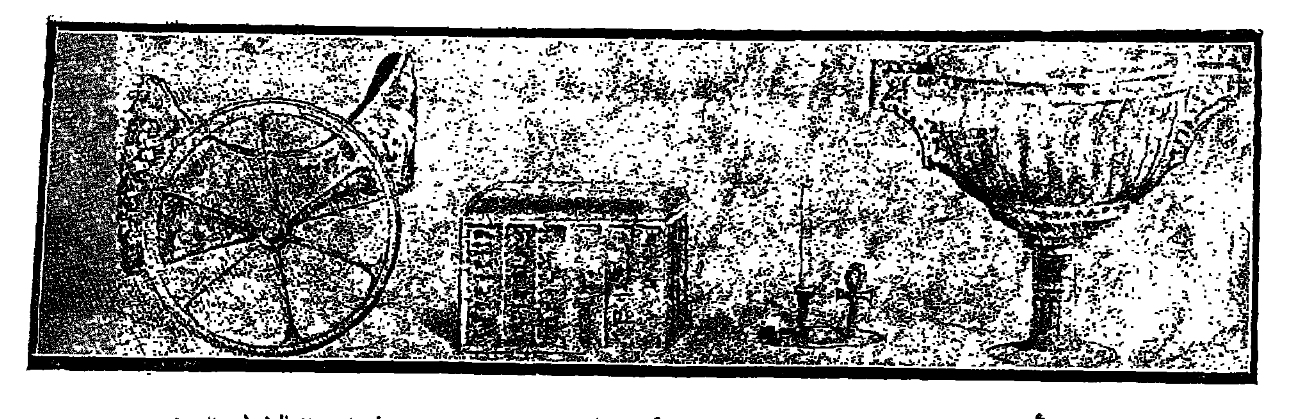
سل من القش فيه آثار الدوم



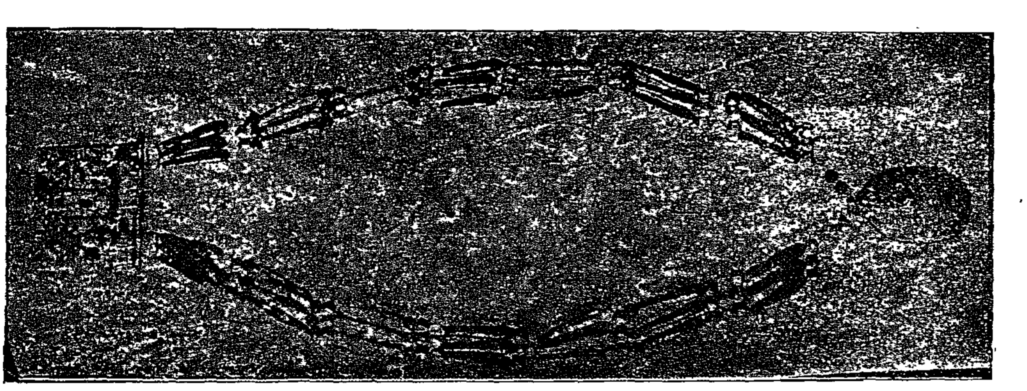
منظر داخل أحد الصناديق المزخرفة لدى فتحها وفيها أجزاء مختلفة مبعثرة بدون ترتيب



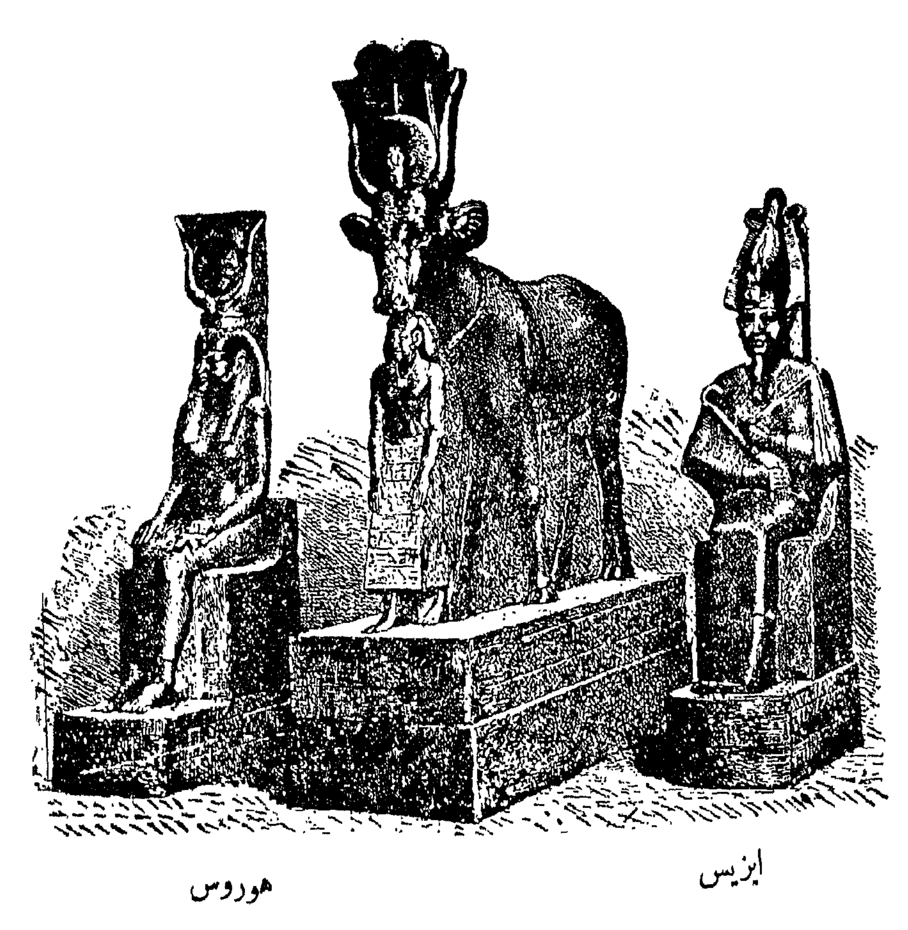
مسند من خشب الابنوس كان الملك يسند رأسه أو رقبته عليه عند النوم



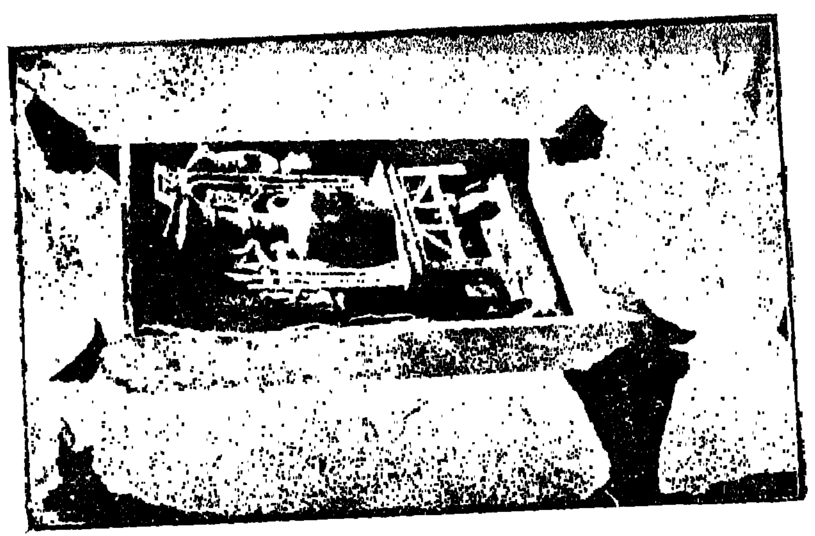
صورة كأس من المرمر وشمعدان وصندوق ومركبة ذات عجلتين وجدت فى الغرفة الاولى للمدفن



عقد جميل الصنع من الخرز والقطع الخشبية المنزلة بالخرز والزجاج الملون وفي آخره قطعة ذهبية منقوشة والخرز شفاف جداً



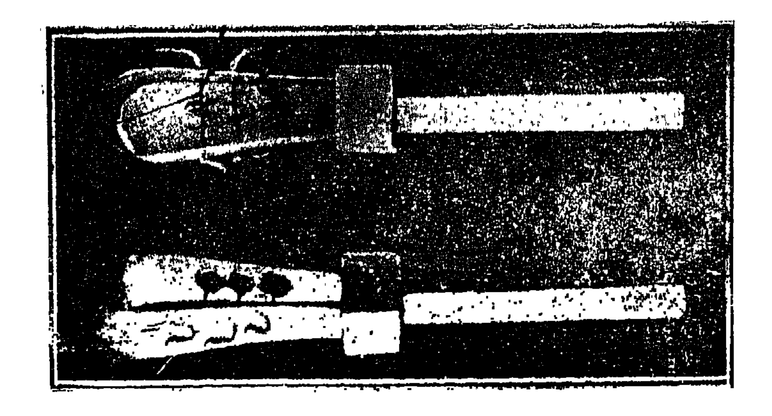
هوروس　　　　　　　　ايزيس



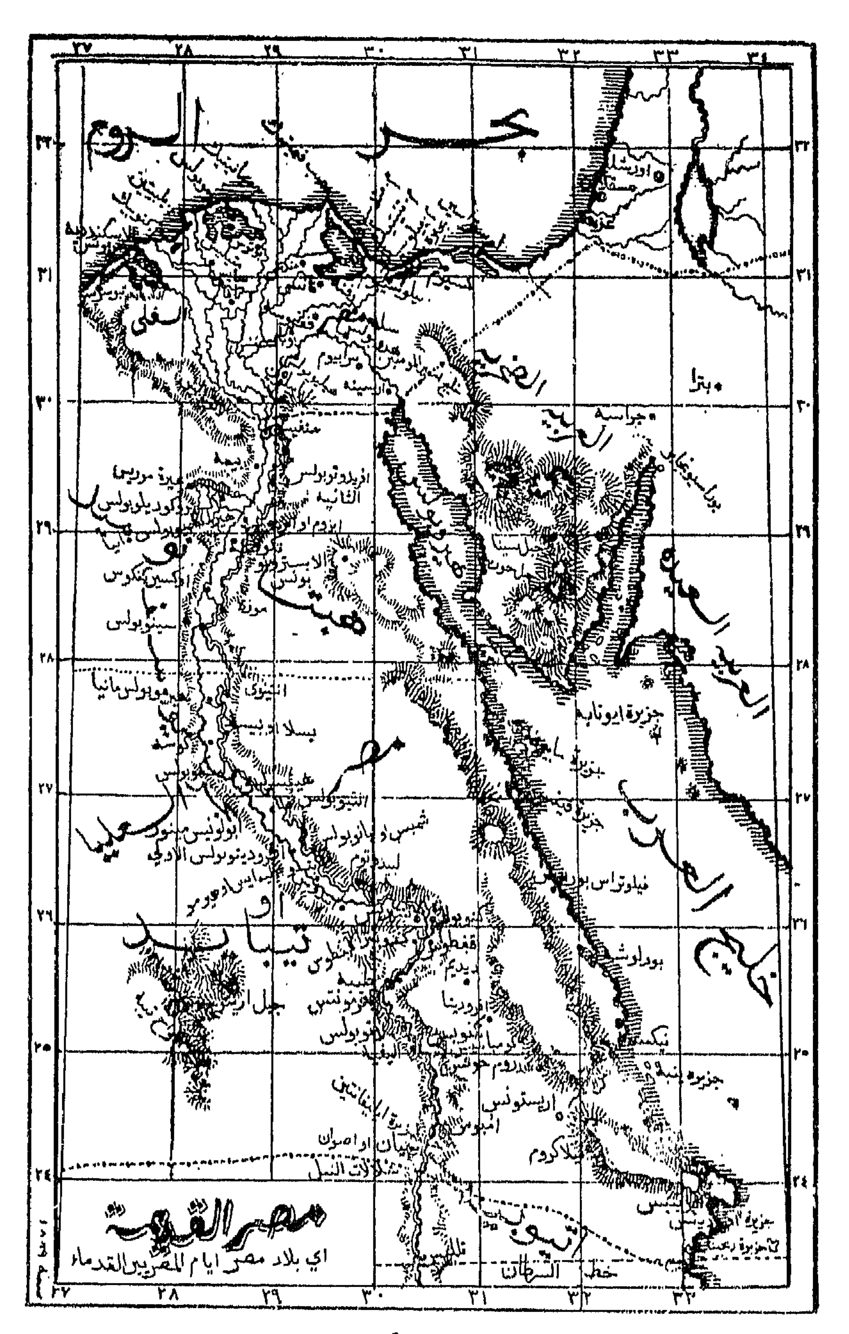
منظر احدى الاواني المرمرية تنقل على حمالة



الملك ومعبوده



قطعتان موسيقيتان مثل الصنوج لهارنين جميل تستعملان في الحفلات الدينية



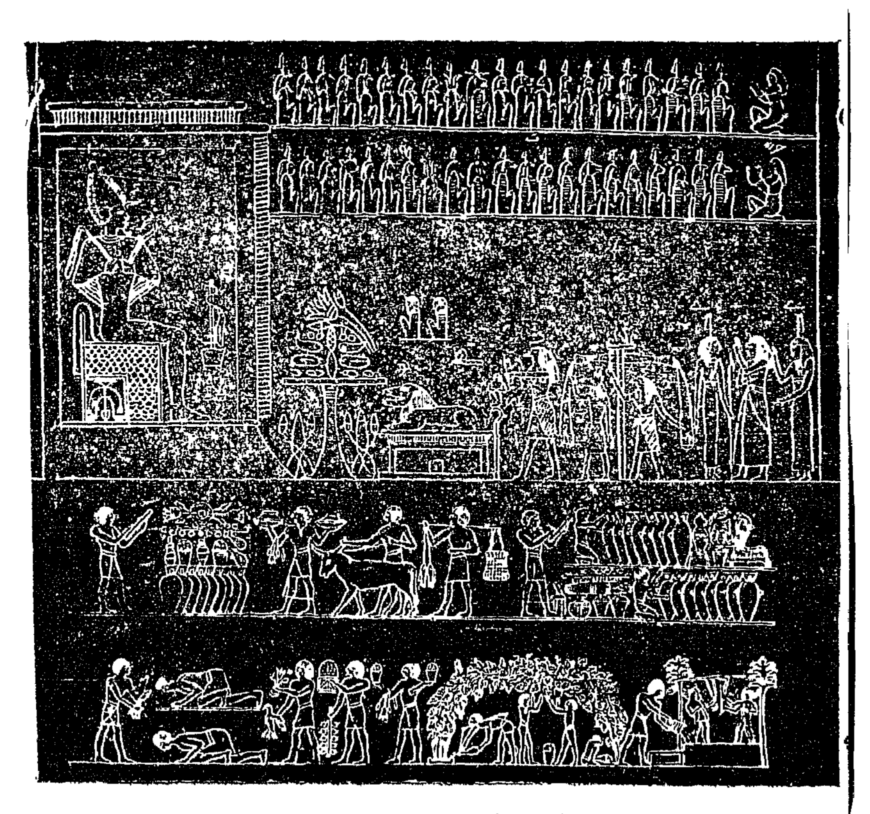
خريطة مصر فى أيام الفراعنة



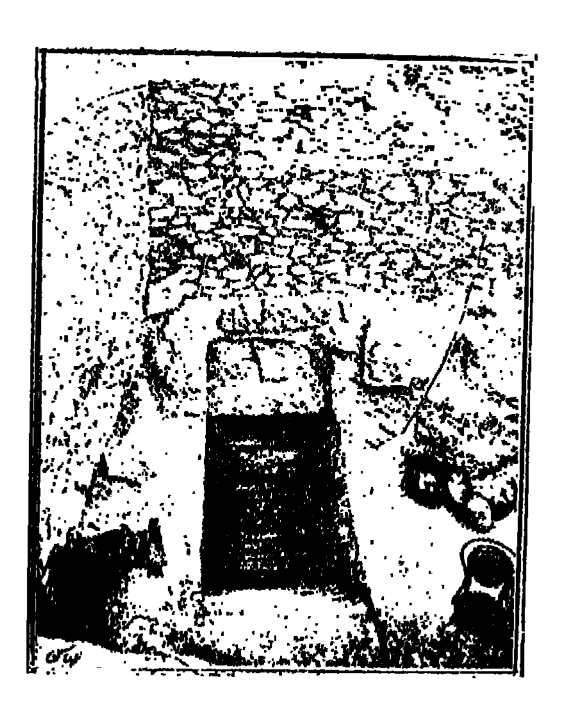
مستر كارتر الذى اكتشف مدافن الملك توت عنخ آمون
بعد تنقيب ٣٠ سنة



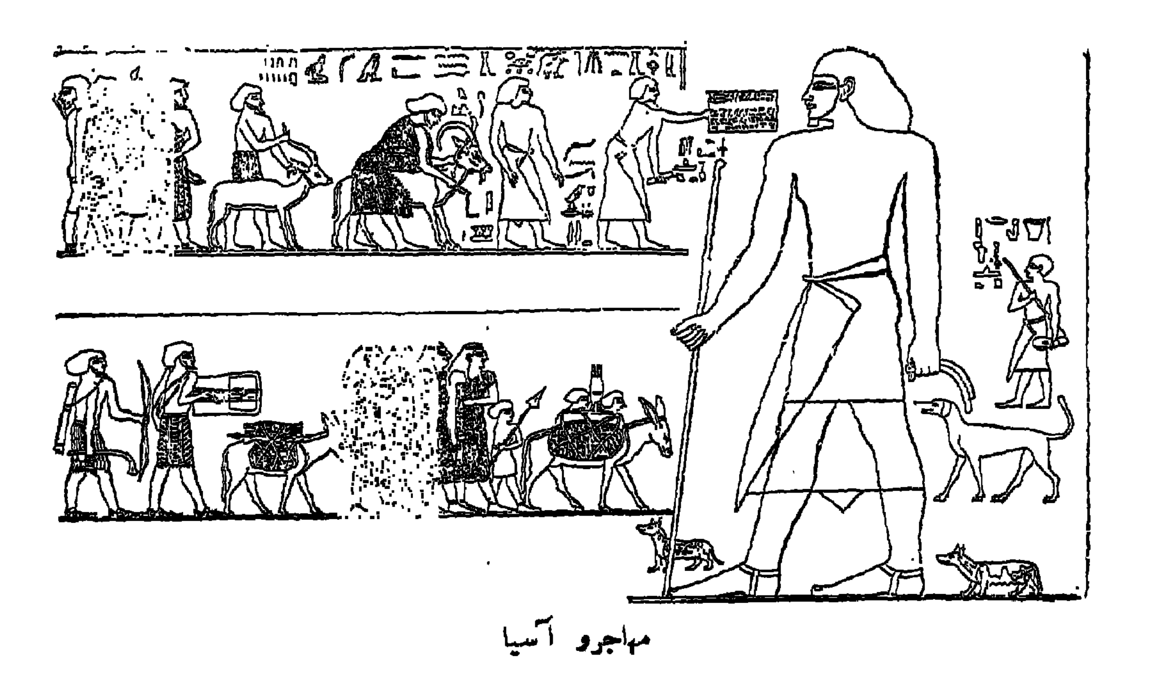
صندوق بديع الصنع مزخرف ونزل بالعاج والذهب



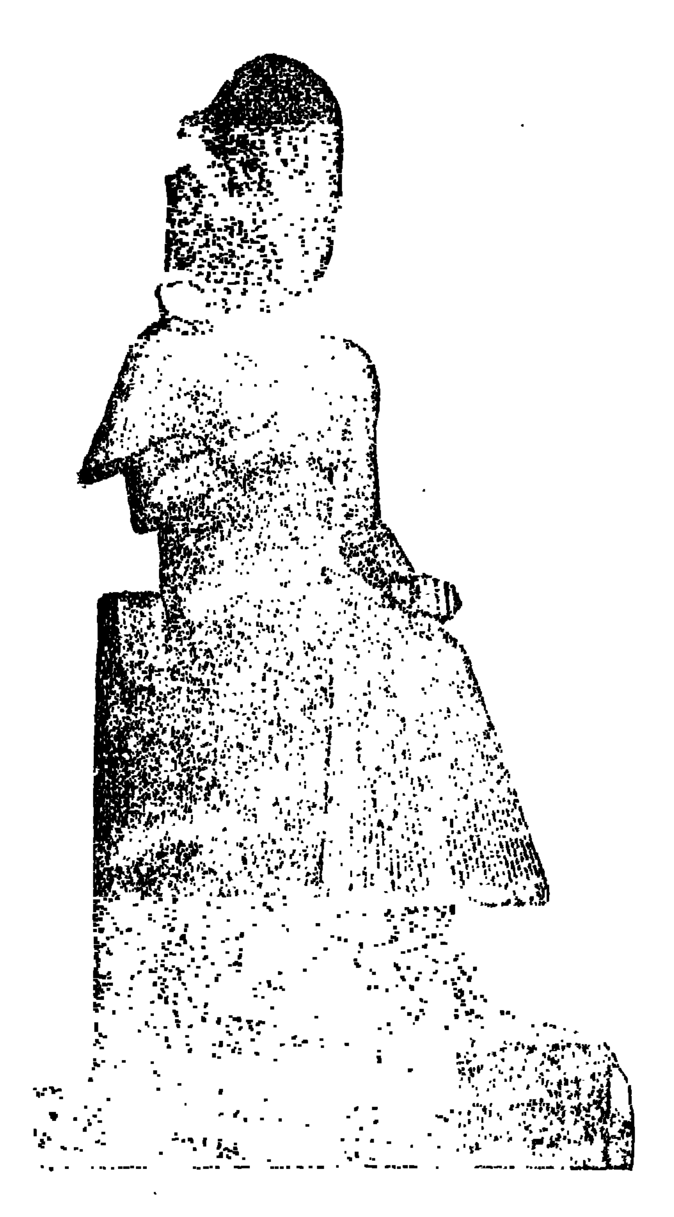
المحكمة الجهنمية لمعبود اوزريس



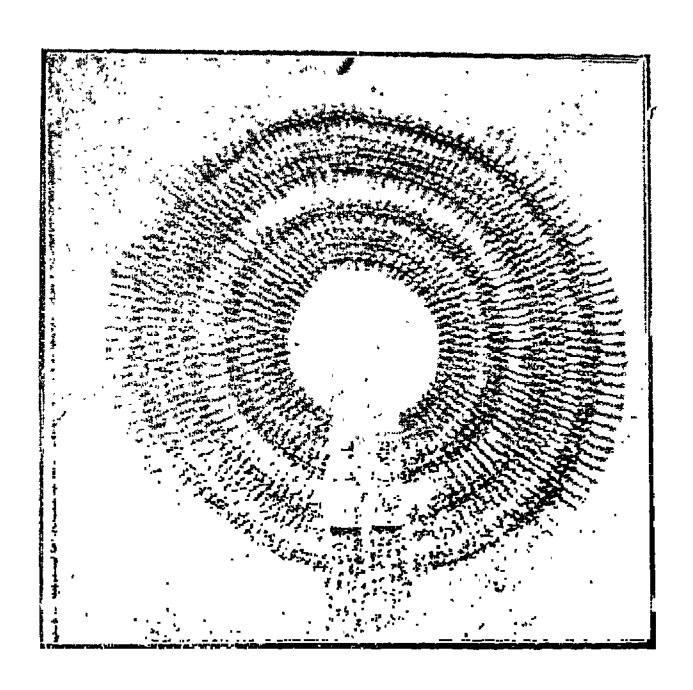
مدخل مدفن الملك توت عنخ آمون الذى وقف فيه الزائرون والصحافيون
ولم يتخطوه الى الداخل فأمكنهم التفرج على ما فى داخل الغرفة



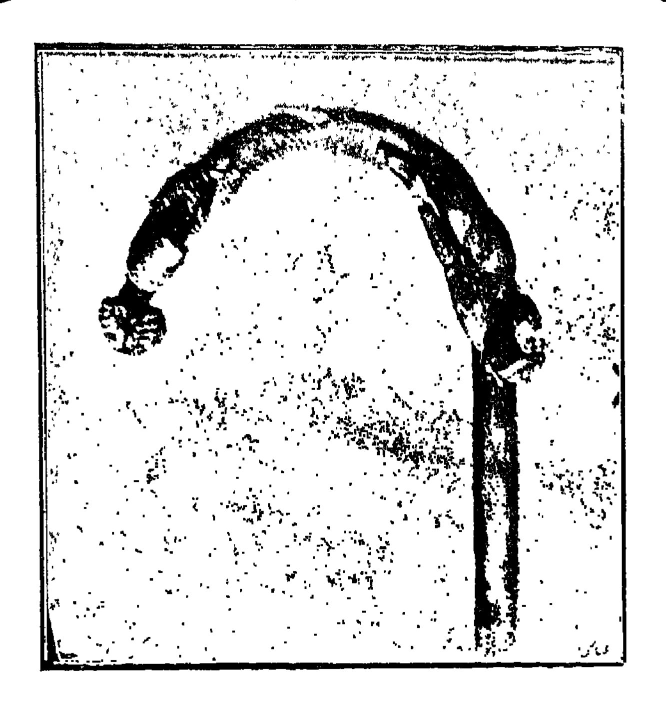
مهاجرو آسيا



هيكل رامسيس الثانى



عقد من الحجارة الملونة والخرز كان حول (قبة) قميص الملك توت عنخ



قبضة عصا الملك توت عنخ آمون من العاج والابنوس وهى مزخرفة بنفس د
بلاد مصر من الحدود الجنوبية والشمالية وتظهر ملامح الوجوه المحفورة باتق



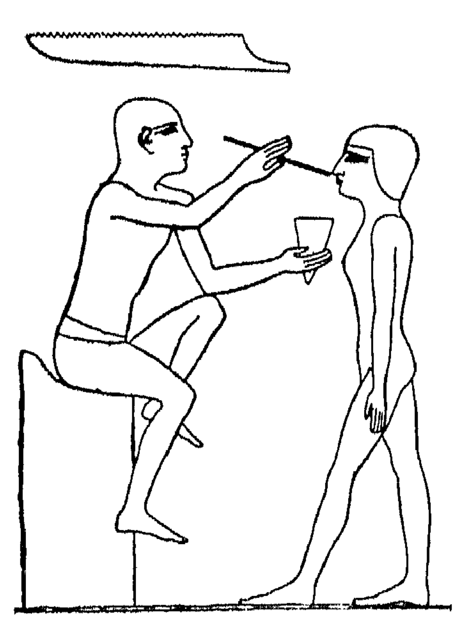
سرجون ملك اشور بيده الصولجان



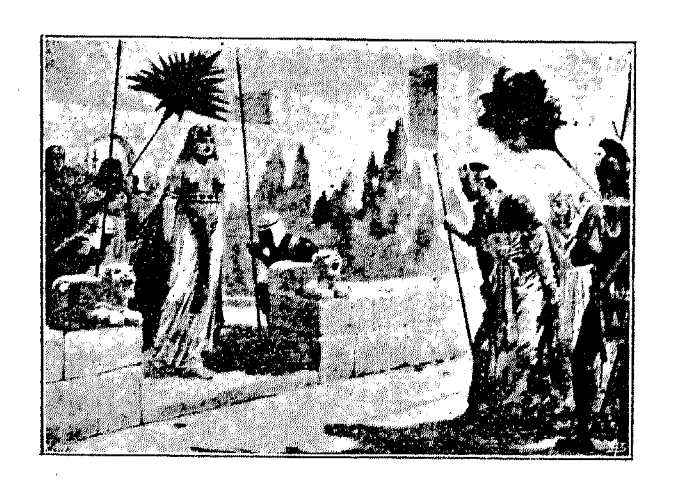
رعميس الثانى



أمن رع



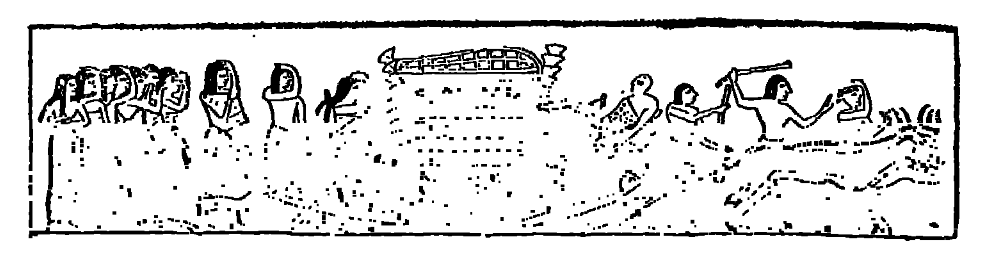
مصور مصرى يلون تمثالا حجر



کلیو باطره تزور هیرودس



کاتب مصری قدیم



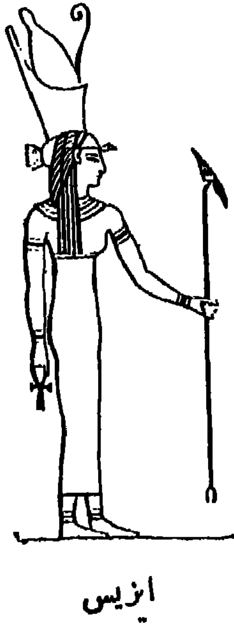
جنازة مصرية قديمة



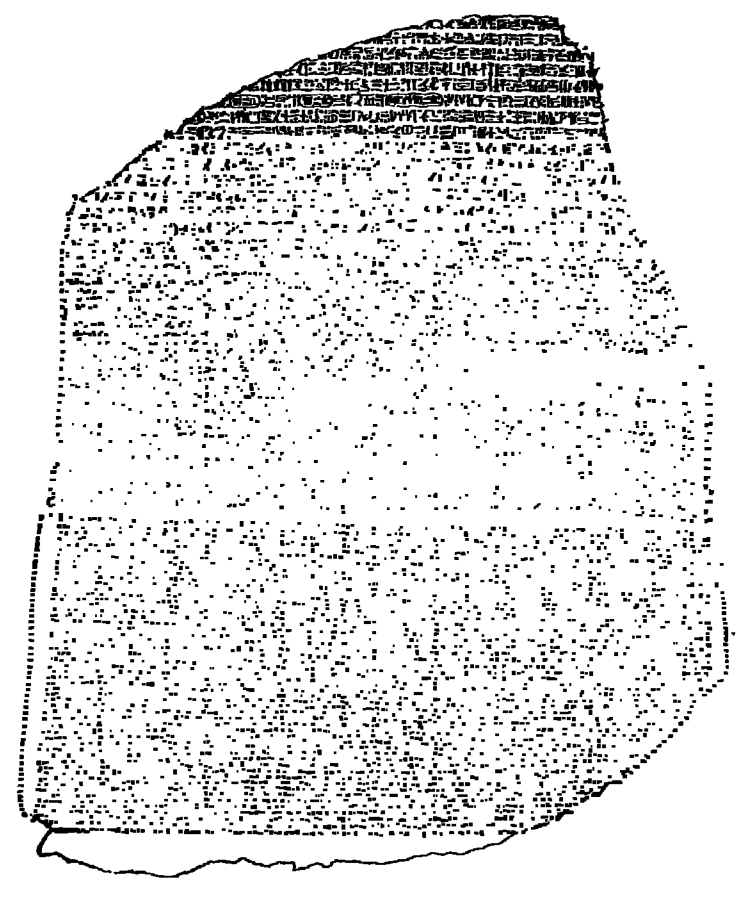
بطليموس فيلادلفوس وأمران



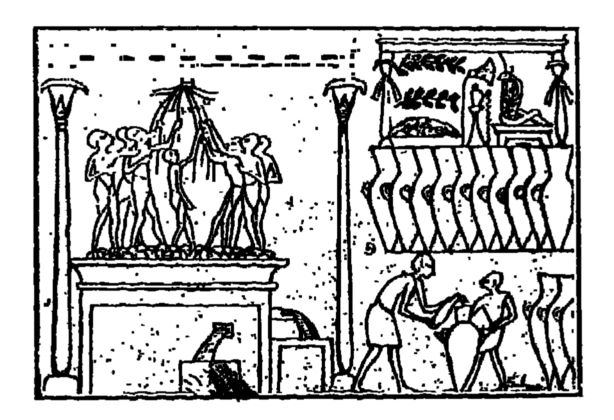
اوزيريس



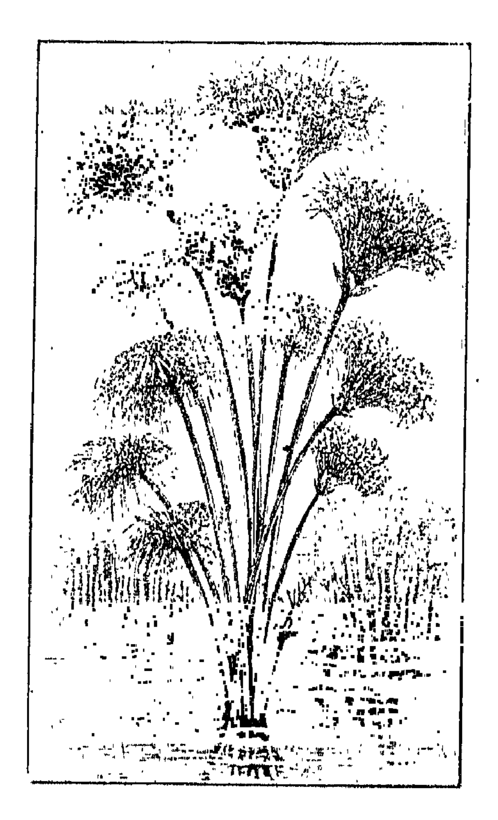
ايزيس



حجر رشيد



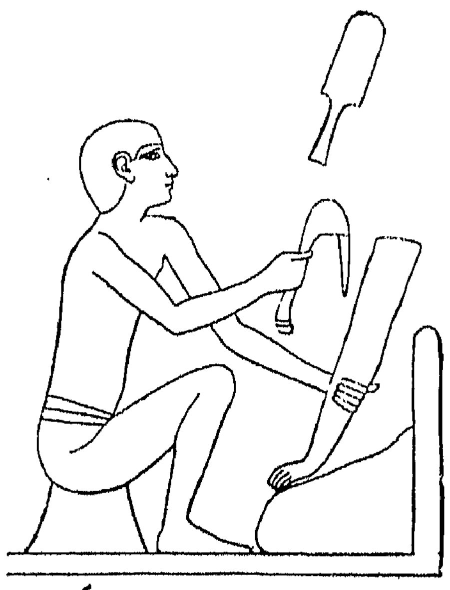
معاصر العنب عند المصريين



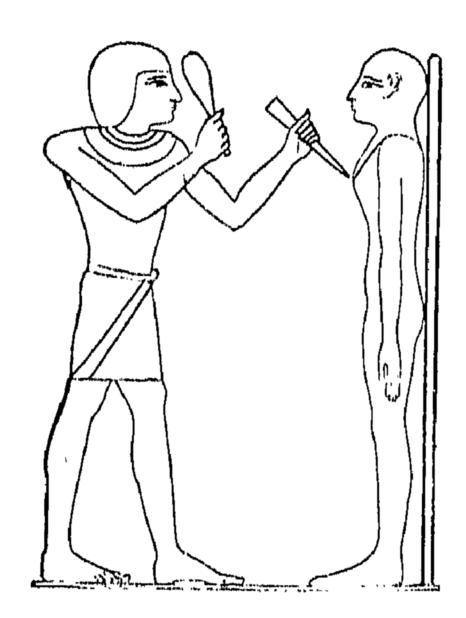
شجر الدرى



اسر حدود يعود ظهراق
ملك مصر



حفار مصرى ينحت ذراعاً



حفار مصرى يصنع تمثالا

الكتاب الاول

توت عنخ آمون

الفصل الاول

عناية الغرب بآثارنا

لقد عني الغربيون منذ القدم بآثار أجدادنا المصريين وبذلوا كل غال ومرتخص فى سبيل اعلان سر من أسرارهم أو كشف مجهول من عادياتهم أو وصف شأن من شئونهم أو نقل رسم من رسومهم أو ترجمة كتابة من أوراقهم . ولم تدخر حكوماتهم وأفرادهم من الجهد وسعاً ولم ينفكوا منذ القديم يرسلون البعوث الى أرض مصر وغشاها منهم غير قليل من العلماء والأثريين الذين جابوا قفارها وفتشوا فى جبالها وتربتها فعثروا على مخبآت الدهور وكشفوا عن كنوز كرت عليها الغداة ومرت العشى وهى فى خدرها مصونة فكم من قبور نشرت وهيا كل وتحف وآيات وزخارف وزينات وأصنام وتماثيل ونقوش وتهاويل ظهرت ثم نقل أولئك المجدون العاملون الى بلادهم من بقايا القرون الغابرة ما راق لهم وحملوا الى متاحفهم كل غال ونفيس فاذا فى كل متحف من دور الآثار طائفة كبيرة من آثار النيل تحدث بما حدثه الشاعر الانجليزى هنت إذ قال « النيل يجري فائضاً فى أرض مصر القديمة الصامتة وينساب بين رمالها كأنه الفكر القوي المفعم بالأحلام وتبدو الوقوت والأشياء فى تلك الأحلام كأنها ثابتة ثبوت الخلود . فمن كهوف وأعمدة وأهرام ومن هكسوس تجولوا فى ذاك العالم الغني بالمجد البهي ومن أمثال سيزوستريس السامي وتلك الشعلة الجنوبية المنيرة وتلك الملكة الطروب التى ضربت على أيدي العالم القوية . ثم يحل صمت أقوى وسكوت أشمل وإذا بالفضاء الخالي يثقل نفوسنا ثم نستيقظ فاذا به كحالم قد زالت معالم لجبه وعفت أطلال صخبه ونسمع خرير المجرى الزاهي ينزلق وينحدر بين القرى ونفكر كيف نقضي مرحلتنا الهادئة فى سبيل البشر »

ثم شمر أولئك العلماء عن ساعد الجد فنقلوا الى لغاتهم ما احتوته أوراق

البردى الكثيرة وما صانته جدران المعابد والهيا كل من نقوش وألغاز وفسروا تلك الكتابة التى خلفها وراءهم قدماء المصريين فكانت تاريخاً صادقاً وأثراً ناطقاً يحدث عما كان عليه القوم من مجد وجبروت ورقي ونشاط ثم قابلوا تلك الكتابات بما وصل الى علمهم عن المصريين من كتب قليلة كالتي خلفها هيرودوت مؤرخ اليونان ومانيتون وديودور وبلوتارك فأخرجوا للعالم مكتبة هائلة ألفوا كتبها وصنفوا تاريخها فألفينا فى كل أمة من أمم الغرب عدداً لا يحصى من كتب مؤلفة ومترجمة تحدث الناس حديثاً شائقاً عن الفراعنة وقدماء المصريين فحوت تلك المؤلفات شيئاً كثيراً عن تاريخهم وأخلاقهم وعاداتهم ودياناتهم ومعبوداتهم وملوكهم وملكاتهم وفتوحاتهم ومستعمراتهم ومعابدهم وفنونهم وصناعاتهم وتجاراتهم الخ . ولم يكتف أولئك المؤلفون بنقل ما تركه المصريون أنفسهم من بردي ونقوش وما سطروه وحفروه بل توسعوا في التأليف توسعاً مقبولا وأضحى تاريخ قدماء المصريين علماً خاصاً وأصبح البحث في عادياتهم فناً خاصاً دعوه (بالأجيبتولوجيا) وتخصص الكثيرون من علماء الغرب في ذلك بل منهم من تخصص لتاريخ المصريين ، ومنهم من برز فى مباحث عاداتهم ، ومنهم من أخذ على عاتقه حل رموز الهيروغليفية (١) ودرسها وتأليف الكتب فى قواعدها وترجمة صحفها وكلمها وشرح مفرداتها وجمعها فى معاجم وموسوعات وتعليم تلك اللغة وهى أم اللغات فى الجامعات ، ومنهم من قام يلقي المحاضرات عن بعض ما أحاط به من تلك العلوم ومنهم من سعى لكشف الستر عن كيميائهم وطبهم وحنوطهم ومومياتهم ومنهم من أصدر المجلات الخاصة بهم دون غيرهم . وقد ملك نفر غير قليل من هؤلاء العاملين ناصية الشهرة والصيت وان مجملا صغيراً كمقدمة لهذا الكتاب ليضن على القارئ المصرى الكريم أن يسمع بعضاً من أسماء أولئك المشهورين فى ما يختص بآثار بلاده وأجداده ولكنه إن صبر حتى آخر هذا الكتيب عثر على أسماء عدة لنفر من أولئك العلماء الغربيين ولا إخاله بعد ذلك إلا عاضاً مثلي

(١) معنى « هيروغليفيه » الخط المقدس (باليونانيه هيروس أى مقدس وغليفى أى خط)

بنانه حسرة وأسى على اهمال مصريي اليوم فى العناية بشيء مما عني به الغربيون من أمر مصر القديمة وآسفاً على فقر اللغة العربية من مؤلفات ومصنفات ذلك الفقر المدقع الذى شعر بوطأته شباب اليوم إذ بينا يرتع الغرب في عالم من نور تلك المصنفات اذا بمصر نفسها وهي أحوج من غيرها الى ذاك النور تتخبط في ظلمات من الجهل بأمر أسلافها القدماء وبما كانوا عليه من عز ورفعة

إنا لا نجحد فضل تلك النهضة التى أحدثها ذاك الاستكشاف العجيب لقبر الملك توت عنخ آمون فرغب المتعلمون فى الحج الى آثاره وزيارة المتحفات ورأت الحكومة أخيراً أن تنشىء مدرسة لتعليم الهيروغليفيه واللغات القديمة لمن أولع بذلك غير أن تلك النهضة ما زالت فى دور النشوء وربما رأينا منها خيراً فى شبابنا حين نجد بين أيدينا ترجمة أوراق البردي القديمة وترجمة ما على كل معبد وما في كل اهرام ومقبرة من نقوش وكتابة كما نرى أمامنا عدداً وافراً من مؤلفات عربية منتشرة فيأنحاء القطر تحدث عن سيرة الأسلاف . وكذلك ترى في كل حاضرة من عواصم المديريات متحفاً للآثار. وقد نرى من اللائق ذكر كلمة نشرت للمرحوم العلامة الأثرى أحمد كمال باشا (وسنورد فيختام هذا الكتيب كلمة عنه) عن متحفات العواصم يقول فيها : « اطلعنا اليوم على صفحات الجرائد على أن بعض المديرين فطن الى كلمتنا التى نشرناها فى هذه الجريدة (الاهرام) منذ بضعة أيام لانشاء المتاحف ودور الكتب العمومية فى العواصم وايجاد المكاتب القروية لتسهيل الدراسة وتمهيد سبيل الرشاد لسكان العواصم والقرويين حتى لا يحرموا فى هذا العصر الزاهر من اقتباس العلوم والصنائع لا سيا آثار أجدادهم التى أدخروها لهم فى بطون الارض من كنوز ثمينة وتحف غريبة عظيمة تدلهم الدلالة الحقيقية الواضحة على تمدن البلاد ورقيها فى العصر القديم وعلى أحوالها وزراعتها وصناعتها وأنواع أحكامها ونظام أوقاتها وكيفية تدبير مصالحها والمحافظة على البلاد وحدودها وبيان هذه الحدود بالاعلام الحجرية المنقوشة بقلم الحفر وعلى طريقة الأمن العام والقوانين المتبعة الحاسم

وغير ذلك مما لا يحصيه القلم . واعلم أنه لا يتيسر الحصول على هذا الغرض ولا الوصول الى فهمه وادراكه إلا بانشاء المتاحف ودور الكتب والمكاتب القروية إذ هى الطريقة الوحيدة التى تمكننا من الوصول الى هذه الضالة المنشودة ولا نجهل أنه حتى الآن لم يهتم منا أحد تمام الاهتمام بهذا المشروع لتعميم فوائده الجزيلة التى يقتبس منها كل عامل وصانع وفلاح وملاح وطبيب وفلكي ومهندس ومساح وتاجر وسياسي وحاكم وقد قل من بيننا من يحث عليها ان لم نقل أنه نادر بالمرة فياليت شعرى الى متى هذا الخمود والرقاد والصمت المتناهي وضياع الفرص الثمينة التى تحين لنا فنطرحها ظهريا . أنظر الى قول (بتاح حتب) (١) فى اللوحة الثامنة عشر من نصائحه فقد قال ما معناه : « إذا كنت رجلا عاقلا رب إبنك ليكون مرضياً عند الله فان أصلح أموره على خطتك واشتغل بمصلحته كما يجب عليه اصنع معه كل خير قدر استطاعتك لانه ابنك ومنسوب اليك وخلفه صلبك ولا تبتعد عنه بقلبك . لكن لو ساءت أعماله وتجاوز الحد وأنف الكلام (أى النصيحة) وأطلق لسانه بقبيح القول أضربه اذن على فمه » ـ ثم قال « نفذ أمرك فى الذين يفعلون السوء بلا مؤاساة » الى أن قال فى اللوحة الثامنة والثلاثين « إذا سمعت عنه النصائح التى ذكرتها فان حكمتك تصير فى تقدم حقيقى ومهما تكن فانها الواسطة فى الوصول الى الخير » ثم قال فى اللوحة الحادية والاربعين « الرجل الذى لا خبرة له لا يسمع ولا يفعل شيئاً ويرى العلم فى الجهل والربح فى الخسارة ويفعل كل شىء بضلال فهذا يكون فعله مخالفاً للصواب » وقال (قاقنه).(٢) من ضمن نصائحه أيضاً « اجتهد ليذكر كل انسان اسمك . اه » — أنظر فصول الحضارة القديمة (٣) — وبالتأمل فى هذه النصائح التى أتحفنا بها رجال الفضل من الأسرة الخامسة نرى أن الانسان لا يكون له اسم ولا شهرة

(١) كتاب الأديب المصرى بتاح حتب هو أقدم كتاب فى العالم ويتضمن حكماً قيمة سنورد بعضها فى آخر كتيبنا هذا وقد نقل الى كل اللغات الحية الآن تقريباً

(٢) سنذكر بعضا من حكم «قاقنه» فى آخر الكتيب (٣) كل هذه الاشياء سنذكرها بعد

فى هذا العالم إلا بمعارفه وآدابه التى يقتبسها عن أبيه ومعلميه فالمديرون الآن هم آباء تلك القرى المتروكة وهم المسئولون عنها فيما يثقف عقولها ويقدم عمالها ويرشدها الى طرق التعليم والى تمهيد الوسائل النافعة لها إذ كل راع مسئول عن رعيته . فيأيها المديرون أهل الفضل والمعارف القائمون باصلاح شؤون البلاد المعهود اليكم أمرها وتقدمها أسوق اليكم حديثى هذا لبذل كل ما تستطيعون من الوسائل لانشاء المتاحف ودور الكتب والمكاتب القروية . . هذا ولا يخفى أن مجالس المديريات والبلديات يمكنها القيام بصرف ما تحتاج اليه هذه المتاحف ودور الكتب والمكاتب القروية لأنه أمر متيسر لكل مدير غيور على بلاده — فالمتاحف لا تكلفهم شيئاً فان المتحف المصرى العام عليه أن يورد الآثار التى لا تفيده والتى يبيعها الآن للأجانب فى قاعة المبيعات بابخس الأثمان وان يعطيهم القواعد والنصبات والدواليب وأنواع الاثاث المودعة فى المخازن بلا فائدة وليكن لكل مدير الحق فى حفظ كل ثمر يجده السباخة فى الخرائب والاطلال من الآثار التى تبدد بدون ثمرة ولا فائدة وبذلك تصبح كل مديرية حافظة لآثار سكانها القدماء تنافس أختها فى التقاط ما يؤخذ منها أثناء أخذ السباخ . وليس عليهم أن يفكروا فى شرح هذه الآثار أو نشر فوائدها فانى عليم بالنهضة التى قام بها الشبان الآن بتعليم اللغة المصرية القديمة وأنى من جهة أخرى مستعد للقيام بهذه الخدمة وان شاء الله لا يمضي زمن بعيد حتى يجد المديرون شباناً أولى خبرة ومعارف يشغلون هذه المتاحف ودور الكتب ويلقون فيها المحاضرات العلمية والخطب العصرية فيستضيء بها أهل البلاد وتنهض بها نهضة الجهاد

الفصل الثانى

تقدير علم الاثار

ولامراء أن كل مصرى غيور يرى مارأى المرحوم العالم المصري ويعلن سخطه على قاعة المبيعات وأسفه على تلك الآثار النفيسة التى خرجت من مصر فاكتظت بها متحفات الغرب والشرق حتى كبار التماثيل والمسلات العظيمة التى حملوها الى أقصى الجهات ورب قائل يقول ان لتلك الآثار التى حملت إلى أوروبا وأمريكا وغيرهما فضلا كبيراً إذ يشاهد فيها الغربيون ما كان عليه المصريون من مجد وعظمة فتكون هنالك بمثابة الاعلان عن رفعة المصريين القدماء فنقول أن الغربيين أعلم منا بتاريخنا وأدرى بمدنيتنا وأن بين أيديهم من ألوف الكتب وربوات التآليف والصور والرسوم لمغن عن سلب مصر أنفس آثارها وأن المتحف المصرى لأحق بها من متحفات مبعثرة فى أنحاء المعمور وأن الجو المصرى لأجدر بها وبصيانتها تحت جناحيه حيث نبتت وعاشت قبل أن يستيقظ التاريخ وتهب العصور من سباتها العميق وأحق بها من الغربة والتشتيت والتمزيق والتفريق يتنازعها الغرباء ويتهادى بها العظماء ويفخر بجمعها العلماء .ولكن ماذا تجدى الأقوال والمسرات والواجب علينا أن نحتفظ بالبقية الباقية من أن تتسرب الى خارج القطر وأن نهتم بتلك البقية فندرسها ونقرأ ماكتبه الغرب عنها من عجائب وماصنفه عن موضوعها من غرائب وأن تجد دار الكتب فلا تألوجهداً فى سبيل اقتناء تلك المؤلفات التى دبجتها براعة كتاب الغرب وعلماؤه وتنشط وزارة المعارف فتشترى لمكاتب مدارسها الحاوية بعضاً من تلك الكتب التى تساعد الطلبة على تفهم سيرة الفراعنة وينشط كتابنا فينقلوا الى الناطقين بالضاد عدداً من تلك المؤلفات المشهورة ويعربوا لنا بعضاً من

كتابات العلماء المأثورة وقد يجد القارئ بعضاً من أسماء تلك الكتب الجليلة الشهيرة فى ختام هذا الكتيب ولو شاء الأجل وسمح الوقت نقلنا منها كتاباً يكون هذا الكتيب مقدمة له وماأردنا باصدارهغير لفت النظر الى عناية الغرب بقدر اهمال الشرق بعالم الآثار وقد أدى بهم البحث الى أن مصر (١) مهد المدنية واليك نبذة ترجمتها صحيفة الاهرام :

الفصل الثالث

مصر مهد المدنيه

نشرت كبريات الصحف الانكليزية نبأ يعد من أهم الأنباء العلمية وهو أن مصدر الجنس البشري أصبح معروفاً الآن باكتشاف الحلقة المفقودة بين الانسان والقرد وأن من العقدالتى حلت كيفية بدء المدنية والأدوار التى انتشرت بها من مصر الى جميع أنحاء العالم . أما صاحب هذه الاكتشافات الجديدةفهو الأستاذجرافتون اليوت سميث أستاذعلم طبائع البشر « الانثروبولوجيا » وهذا الاستاذ معروف فى مصر إذ كان أستاذاً لعلم التشريح بمدرسة الطب المصرية وكان قد جاء الى مصر للبحث فى دراسة طريقة التحنيط عند قدماء المصريين وعمل ابحاث فى المخ والجماجم ومقارنتها تشريحاً فكانت تعرض عليه جميع التوابيت التى تكتشف فىمقابر قدماء المصريين لاتمام الابحاث التى يريدها وبعد أن أتم ابحاثه وجمع ما يحتاجه من النماذج لتحقيقاته العلمية انتقل من مصر الى جامعة ليفربول أستاذاً للتشريح وعلم طبائع البشر وقد نشر ابحاثاً كثيرة وهو

(١) كان اسم مصر فى القديم « خيمن » أي الارض السوداء نسبة الى تربتها السوداء والشمس بالعبرية « مصرايم » التى كثيرا ما تطلق على مصر السفلى وبالاشورية « موصرى » ومصرى وباليونانيه اجيبتوس التى يقال أنها مشتقة من قفط وقبط

يعد من كبار الثقات فى هذه العلوم ثم نقل الى جامعة لندن

والمفهوم من أقوال الصحف الاوروبية أنه كتب الفصل الخاص بعلم طبائع البشر فى دائرة المعارف البريطانية الحديثة الطبع « الثانية عشر » التى توشك أن تظهر

وقد اهتم العلماء بما كتبه فى ذلك الفصل حيث قال أن الابحاث التى تمت منذ سنة ١٩١٠ قد حلت كثيراً من اعظم المعضلات ـ ماعدا مصدر الحياة نفسها ـ وان العلم وقف عند معرفة مبادىء النوع الانسانى فكان علماء طبائع البشر يظنون من عشرة اعوام خلت ان هذه المسائل لايمكن أن تحل وستبقى الى الابد بغير حل ولكنه حلها وعرضها للأنظار

ينقض الاستاذ اليوت سميث جميع النظريات التى سبقه اليها علماء طبائع البشر ويعدها الآن فى حكم المسائل التى انقضى زمن الأخذ بها بما فى ذلك آراء الاستاذ ادوارد بارنت تيلر الاستاذ بجامعة اكسفورد وهو الذى كتب فصل علم طبائع البشر فى الطبعة الحادية عشر لدائرة المعارف البريطانية سنة ١٩١١ فقد رفض الاستاذ اليوت سميث هذه الآراء بصفة خاصة ويقول صاحب الاكتشاف الجديد ان النوع الانسانى نشأ من جبال « سواليك » الواقعة فى سفوح جبال « الهملايا » بالهند فقد ظهر بهذه المنطقة قرود شبيهة بالانسان فى العصر الثلاثى المتوسط « العصر الميوسينى » وقد اختلف علماء طبقات الأرض على تقدير أزمان هذا (العصر الميوسينى) فقد يكون ثلاثة ملايين سنة أو أربعة ملايين والاستاذ اليوت سميث يقول « ان التشعب العظيم للانواع والاجناس تطور فى تلك المنطقة ولم يقتصر على أجداد « الاورانج » و «الشمبانزى » و « الغورلا» بل الاسرة الانسانية أيضا . وقد انتشر أجداد القرود والانسان غربا حتى وصلوا الى افريقيا واوروبا قال « وفى اثناء جولانها بين الهند الشمالية وافريقيا ظهرت الخواص الانسانية فى احدى هذه الاشكال « القردية »

واكتشف الاستاذ اليوت سميث فى عظم الجمجمة المسماة « بلتدون » والتى وجدت فى سوسكس سنة ١٩١٢ حلقة كانت مفقودة وهذه الجمجمة ذات فك « قردى »

ولكن بتجويف الجمجمة علامات لاشك فيها تثبت اكتسابها للانسانيــة فى عصر بعيد جدا وقد اختلف الآراء وصرح بانها جمجمة رجل عاش فى العصر « البليوسينى » وكان ذلك أول العصر الجيولوجى الثالث او الرابع ويرى بعض الجيولوجيين أن هـذا العصر كان منذ مليون سنة قال : « وكان جميع البشر الاصليين سوداً كالاقربين من اقاربهم الغورلا والشمبانزى ولكن فرعا من الاسرة البشرية أصفر جلده وكبرت جماجمه وفى العصر الجليدى تفرعت هذه الاسرة الصفراء اللون الى اربعة الوان بسبب حواجز الجليد التى فصلت بينها الوفا لاتعد من السنين فعاش فريق منها بالقرب من النهر الاصفر ومنه نشأ الجنس المغولى وعاش الآخر شمال شرق افريقيا حيث تطور الى اللون الاسمر . وحجز الثلج فريقا منها فى التركستان . أما القسم « النوردى » ومنه اجدادنا « بريد الانكلين» فقد كان فى شمال شرق التركستان فلما ذاب الثلج عادت هـذه الاجناس الى الاتصال ببعضها فاختلطت وامتزجت ولـكنها لم تفقد مطلقا الميزات التى تميز بعضها من بعض »

ويقول الاستاذ اليوت سميث ان مصر هى مهد المدنيــة لابابل كما كان مفروضاً الى عهد غير بعيد فان دراسة بناء الاهرام والتحنيط تثبت كيف أن الفنون انتشرت من مصر الى « غينا الجديدة » والى « استراليا » ثم عبرت المحيط الباسيفيكى الى امريكا الوسطى وامريكا الجنوبيه وكان المصريون وجيرانهم السمريون الذين تلقوا عنهم المدنية يطلبون الذهب واللؤلؤ والجزع والبخور العطرى فأرسلوا طلابهم للبحث عن هذه الاشياء قبل المسيح بالاف من السنين . وقد تعقب الاستاذ اليوت سميث الآثار فى ضوء الاكتشافات الاثريه الحديثه اعمال الحفر والتنقيب الطرق التى اتبعها اولئك المستعمرون القدماء فاثبت كيف اكتشفوا مناطق القصدير فى بحر قزوين وكيف اخترعوا البرونز الذى احدث هـذا الانقـلاب العظيم فى العالم ثم تتبع الاستاذ بابحاثه أقدم الناس مدنيــة « المصريين » فى هجرتهم الى ارمنيا والقوقاز وآسيا الصغرى فى الغرب ووصولهم

على الاقل الى البلوغستان بل ربما الى الهندشرقا

وقد أدّى سعى المصريين فى بحثهم عن النحاس الى سلسلة من الاعمال لاستخراج الذهب من اكسوس الى بخارى ومنها الى اواسط سيبريا . واكتشف المصريون الذهب وحجر الشب « سليكات المغنسيا » فى أرض الصين وقال « وهم الذين غرسوا فعلاً بذرة المدنيــة فى الصين » اما الطرق التى سلكوها فرسومة فى أنظمة الرى الاثرية

وقال الاستاذ ان كهنة هليوبوليس فى مصر هم الذين نشروا عبادة الاصنام « الرمزية » وعبادة الشمس فى جميع انحاء العالم فى أواخر الاسرة الرابعة أى قبل الميلاد بثلاثة آلاف سـنة ووضعوا عقائدهم فى قالب ليتمكنوا به من القبض على ذمام الحكومة وقد نجحوا بعض النجاح فى غرضهم ولكن معتقداتهم انتشرت فى جميع انحاء الارض من استونهنج « بانكلترا » الى بيرو بامريكا الجنوبيه

هــذه خلاصة ماذكره بعض الصحف عن آخر رأى لثقة كبير من أكبر علماء العصر الحالى ولا شك ان أراءه مبنية على اكتشافات ونماذج وغير ذلك من الأدلة المحسوسة التى يثبت بها العلماء مثل هذه الآراء الهامة وان مثل هذا الاكتشاف الجدير بالثقة وغيره ليثبت لنا أن مصر كانت على جانب كبير من المدنية قبل عصر التاريخ وقد عقد أحد كبار علماء الآثار (١) فصلاً مسهباً فى المصريين القدماء وذكر عن مصر قبل التاريخ ما نلخصه :

---

(١) هو الاستاذ فلندرس بيتري الأثري المشهور

الفصل الرابع

مصر قبل التاريخ

« خلف المصريون القدماء قبل الميلاد بنحو ثمانية آلاف سنة مدنية بالغة وتركوا آثارا جليلة قيمة لعلها تكون وحدها دليلا على انهم تفوقوا فى ذلك العهد البعيد على كثير من الأمم التي ظهرت بعدهم بقرون متطاولة . وقد برع اولئك القدماء فى صناعة الآنية من الخزف ونقشها نقشا هندسيا بديعا. واستنبطوا صناعة الامشاط وتأنقوا فى صنع الهراوى والأسلحة الصوانيـة تأنقاً دل على مقدار عبقريتهم وذكائهم وكانت عندهم حراب يصيدون بها الغزلان لها شعبتان يرمونها على قوائم الغزال حتى يسهل عليهم ادراكه وكانوا يربطونها بحبل طويل يجزبونها به قبل ان تصل الى الارض لئلا تتكسر

وفوق ذلك استخرجوا النحاس . وصنعوا منه كثيراً من الحلى . كما صنعوا منه الدبابيس التى كانوا يستعملونها فى ملابسهم وايصالها ببعضها البعض . واتخذوا من الجلد لباسا ونعالا تشد بالسيور . وتأنقوا فى تصفيف شعورهم وتزيينها بالامشاط التى كانت تصنع من العظم لـكى تبقى على الهيئة التى يريدونهـا أى كما تصفق السيدات شعورهن فى هذا العصر الحديث

ولبثت تلك الحضارة الف سنة تقريبا . ثم قامت بعدها حضارة ثانية عاشت من سنة ٩٠٠٠ قبل الميلاد الى سنة ٧٨٠٠ اى ١٢٠٠ سنة وظهرت فيها مصر بمظهر واضع اساس الحياة والعمران فى العالم . فقد انتعشت الصناعات كلها وجىء باللازورد والفضة من الاقطار الاسيوية وتقدم بعض الفنون واتسع نطاق التجارة ونشطت الآداب اللغوية . وعملت المدى من الصوان وكانوا يفضلون من هـذه المدى ما كان منها مضلعاً متموجاً لانهم كانوا يضلعونها بدقة قد يعجز عنها ابرع

الصناع اليوم ونحتوا الآنية من الصخر الأصم بأن صنعوها من المرمر والصوان وصقلوها بحكها بالسنباذج . بل صنعوا من السنباذج نفسه آنية غاية فى الدقة والابداع

ولم يقتصروا على ذلك بل استخدموا المعادن فصنعوا من النحاس آلات للنجارة وقد عثر على خنجر من ذلك العصر متقن الصنع ثم استعملوا الفضة والذهب والرصاص . واتخذوا من الحديد خرزات نظموها عقوداً مع خرز الذهب مما يدل على أن الحديد كان عزيزاً جداً فى ذلك العصر حتى أنه كان يتحلى به مع الذهب

أما معيشتهم فتدل الآثار الباقية منهم على أنهم كانوا على شيء كثير من الترف والرفاهية فكانوا يأكلون على موائد فاخرة فى صحاف من الخزف الملون ويزينون تلك الموائد بالورود والأزهار وأما دورهم فكانت تبنى بالطوب بناء محكماً وتفرش بأثاث انيق منسق بحسب ثروة رب الاثرة . وكانت مدافنهم على شيء من الزخرف والتفنن الا ان الفقراء منهم كانوا يدفنون عراة تحت الثرى فى الجهات الرملية وذلك على عمق متر تقريباً . وبقيت حال الفقراء كذلك الى مابعد ظهور الفراعنة بقرون متطاولة

ويجب ان نشير فى الوقت نفسه الى ان أكثرية المصريين وقتئذ كانت فى رخاء متواصل للثروة الوافرة التى كانت تنهال عليهم من متاجرهم الواسعة ومصنوعاتهم النفيسة حتى انه كان لبعض اولئك الأغنياء اساطيل تجارية عديدة لنقل المتاجر من بلدة الى اخرى ومعامل كثيرة لصناعة مايلزم لمصر وللامم الاخرى . ومن هذا يستدل انهم سبقوا شعوب الارض فى انشاء السفن والاساطيل التى طافوا بها من الشمال الى الجنوب حتى بلغوا سواحل الاناضول وارض العرب واليمن . وكان طول تلك السفن يبلغ من ستين الى مئة قدم ولها ستون مجذافا على كل من جانبيها فى حين انه لم يكن فى اكبر السفن الحربية من سفن البنادقة التى اشتهرت بانتصاراتها فى القرون الوسطى اكثر من اثنى عشر

مجذافا على كل جانب . وكانوا يجعلون لهـا ثلاث دفات لادارتها وقمرتين يصل بينهما جسر . ويشحنون البضائع بتنضيدها بعضها فوق بعض ملاصـقة لجوانب هاتين القمرتين . ويقيمون فى مقدم السفينة مقعداً للربان الذى يراقب حالة البر والجهات وعموداً عليه شعار المدينة التى منها السفينة وفى مؤخرها دفة ذات صفحة كبيرة ولبعض السفن دفتان او ثلاث وبالاجمال فقد وضعت مصر قبـل عصر التاريخ أساس العمران والحضارة والرخاء فى العالم وخـدمت كل الشعوب بذكاء ابنائها واختراعاتهـم وأنك لتجد ابحاثاً جميـلة لألوف من الأساتذة والعلماء تؤيد النظريتـين السابقتـين وهما أن مصر هى مهد المدنيـة وأن مصر كانت متمدينة قبل عصر التاريخ وقد كشفت لنا الهيروغليفية تاريخا هاما هو فى الحقيقة تاريخ أقدم مدنيـة والفضل كل الفضل فى حل طلاسمها وفك رموزها يرجع الى اكتشاف حجر رشيد سنة ١٧٩٩ فى قلعة رشيد وقت أن غزا نابليون بونابرت مصر فى غارته المعروفة فوجـد ذلك الحجر المشهور أحد ضباطه وما زال الحجر محفوظا فى متحف لندن ويتضمن عبارة مكتوبة بلغات ثلاث : بالهيروغليفية وتحتها ترجمتها بالديموطيقيه (وهي اللغة المصرية القديمة الدارجة) وتحتهما باللغة الاغريقيه ولما قابل الباحثون العبارات الثلاث احداها بالأخرى تمكنوا من حل رموز الهيروغليفية وأول من خطا فى ذلك الخطوة الأولى هو توماس يانج الانجليزى ١٧٧٣ — ١٨٢٩ م

الفصل الخامس

شمبليون وأعماله

ثم اراد الله ان يظهر للعالم أسرار القرون الغابرة ويكشف الستر عن مخبآت الاجيال الماضية فهدى أحد أبناء فرنسا العاملين الى التغلب أخيرا على حل رموز الهيروغليفية وتمكن من قراءة مادونه المصريون القدماء على جدران معابدهم واهرامهم ومقابرهم وأوراقهم البردية وكان هذا العظيم الذى دوّن التاريخ ذكره وأشاد العالمون بفضله وأثنوا على صبره وهو « فرنسوا شامبليون » الخالد الذكر وهاك لمحة فى تاريخ مكتشف سر الهيروغليفية ومؤسس اكتشاف التاريخ المصرى القديم (١) :

« ولد جان فرنسوا شمبليون فى مدينة فيجاك من أعمال فرنسا سنة ١٧٩٠ من سلالة الاسرة المالكة ولقب بالفتى . مات والده فى صغره فقام بتربيته اخوه . وكان نجيباً ذكيا درس بغير معلم اللغات العبرانية والكلدانية والسريانية واليونانية والعربية والصينية وهو فى الثالثة عشر من عمره ثم تعلم كثيراً غيرها وامتاز بمعرفة اللغة القبطية حتى انه كتب مرة لاخيه يقول « لايوجد بين جميع الشعوب الذين أحبهم من يعادل المصريين فى قلبى » وكان يميل كثيرا لمعرفة اللغة الهيروغليفية وساعده فى ذلك ماقرأه فى كتب اليونان والرومان باللغة القبطية والأخذ باراء علماء الآثار وهم زويجا وا كربلاد وينج ومن حسن الحظ أنه عثر على حجر رشيد ومسلة فيلا المكتوب عليهما اسماء الملوك باللغتين الهيروغليفية واليونانية . وبعد بحث واستقصاء اكتشف الأحرف الابجدية الهيروغليفية التى

(١) الملخة الآتية عن الاهرام بقلم انطون افندى ذكرى بالمتحف المصرى ومن كتاب له تحت الطبع عن آداب المصريين الدينية والدنيوية وعاداتهم وهلم جرا

نال بسببها حظوة لدى لويس الثامن عشر ملك فرنسا الذى كافأه على هـذا الاكتشاف البديع بعلبة من الذهب منقوش عليها هذه العبارة « هدية من الملك لويس الثامن عشر الى شمبليون لاكتشافه الاحرف الهجائية الهيروغليفية » وأراد شمبليون بعد ذلك معرفة مدلولات هذه اللغة فأتقن اللغة القبطية التى هى نفس اللغة الهيروغليفية » لكنها مكتوبة بأحرف يونانيه وسافر الى ايطاليا وزار متاحفها وأتى مصر والنوبة وأقام سنتين فى هذه الرحلة التي جعلها ذريعة الى مطلبه ووسيلة الى بغيته ولم يزل يجد فى البحث ويمعن فى الفحص حتى فاجأه الموت فى ٤ مارس سنة ١٨٣٢ حيث كان عمره ٦٢ سـنة وآخر عبارة نطق بها « أترك أجروميتي وقاموسي ومذكراتي فى اللغة الهيروغليفية كبطاقة للخلف »

قال شاتوبريان « لايزال اسم شمبليون حياً مادامت هذه الآثار التى كشف لنا أسرارها الغامضة » . نعم مات شمبليون ولكنه لايزال حياً بأعماله التى أظهرت لنا آثار مجدنا السابق فلابد أن نكافئه باقامة تمثال له اعترافا بذكائه وفضله

مشروع اقامة تمثال لشامبليون بثغر الاسكندرية :

« بقى جمالها مخفيا ولم يستطع أحد أن يكشف عنها هذا الغطاء » هذه آية أصلها من نشيد أسيس ربة الجمال ثم أطلقت أيضا على مصر القـديمة حتى أول القرن التاسع عشر ب . م . الذى جاء فيـه شمبليون واكتشف اللغـة الهيروغليفية فرفع لنا بمهارته هذا الغطاء عن هذا الجمال الذى صار موضوع اهتمام العالم المتمدين

يأتى السائحون مصر ويزورون كل آثارها ويرجعون الى بلادهم معجبين بجمالها ويبذلون نحو المليون من الجنيهات كل سنة فى هـذا السبيل ولولا علمهم بمزايا هذه الآثار السامية لما أتوا اليها من جميع انحاء العالم وتكبدوا لأجلها هذه المشاق فالفضل فى ذلك راجع الى اكتشاف اللغة الهيروغليفية التى لولاها لما ظهر لهذه الآثار معنى فى الوجود . قد اكتشف شمبليون هـذا الخط على جدران المعابد والاهرام والاوراق البردية فأحيى لغة الفراعنة العظام التى دلت على شعائرهم القديمة وعلومهم العالية وفنونهم السامية وعاداتهم الراقية . وقف المصريون بفضل

شمبليون على تاريخ آبائهم العظام وأجدادهم الكرام وعرفوا أنهم كانوا رجالا حين كان اليونان اطفالا وبفضل شمبليون لاتزال الاكتشافات متواصلة متتابعة فان مندوبي ألدول يأتون مصر ويجرون التنقيب الاثرى مهما كلفهم من الأموال والاتعاب والزمن لاستخراج ما فى بطون الثرى من الكنوز الثمينة التى نراها فى متحفنا المصرى وفى جميع متحفات العالم والتي ستظهرها الأيام المقبلة . وبفضل شمبليون أسست حكومتنا مصلحة الآثار التاريخية والمتحف المصري المشتمل على كثير من التحف القديمة

إحتفلت فرنسا فى ١٠ يوليه سنه ١٩٢٢ بيوبيل شمبليون تذكارا للتقرير الذى قدمه فى مثل هذا اليوم من سنة ١٨٢٢ (١) لمعهد العلوم والفنون الجميلة بباريس بنتيجة اكتشافه الابجدية الهيروغليفية وبهذه المناسبة الف جاليادرو بك الفرنسى لجنة برياسة رجل المروءة صاحب السمو الامير عمر باشاطوسون وا كتتب لها بنحو خمسة الآف جنيه أغلبها من عظماء المصريين لاقامة تمثال لشمبليون يخلد ذكره واقترح أن يكون هذا الاثر الجليل فى ثغر الاسكندرية فى الفضاء الواقع خلف قنصلية فرنسا ويكون مرتفعا عن مستوى الأرض بمتر ونصف متر وحوله درابزين وفى وسطه مسلة بها ناووس فيه شاهد منقوش عليه أنموذج من حجر رشيد ويعلوه تمثال شمبليون . والى يمين ويسار هذا الناووس تمثالان الاول لتحمدث اله العلوم والفنون والمعارف والثانى لسافخ سيدة الكتابة وأمينة ديار الكتب المصرية

(١) قدم شمبليون تقريره لمعهد العلوم فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٢٢ ولكن احتفلت فرنسا بعيده المئوى فى ١٠ يوليه سنة ١٩٢٢ لمناسبة وجود جميع الاوروبيين وغيرهم فى هذا التاريخ بباريس

الفصل السادس

حل اللغة الهيروغليفية

ظهر فى أواخر القرن الثامن عشر جتيس وزويجا فانتقدا رأى الاب كرشر بعد أن أعياهما البحث فى تطبيقه وبمقابلة الحروف الهيروغليفية بالحروف الصينية اتضح لهما أن اللغة المصرية القديمة أحرفاً متممة أى غير صوتية وهى مستعملة فى أواخر الكلمات لتحديد معنى الكلمة واستنتجا أخيراً أن اشارات هذه اللغة صوتية ولها حروف يجب الوصول الى معرفتها

وفى سنة ١٧٩٩ وجد أحد قواد بونابرت بالقرب من رشيد شاهداً من الحجر البسالت عليه نقوش باللغات الهيروغليفية والديموطيقيه واليونانية فاهتدى العلماء الى قراءة الكتابة اليونانية فاذا مفادها أن كهنة منف كتبوها للملك بطليموس ابيفان سنة ١٩٦ ق . م . شكراً لما أسبغ عليهم من النعم الجزيلة وأنهم وضعوا صورة من هذا الشكر فى كل هيكل من هيا كل الطبقة الثانية والثالثة بجانب تمثال ذلك الملك العظيم إذاعة لمكارمه وتخليداً لمناقبه

وقد لفتت النظر أولا اللغة الديموطيقية المنقوشة على حجر رشيد لأن حروفها تشبه أحرف اللغة العربية وفى سنة ١٨٠٢ بيَّن العالم الفرنسى سلفستر دى ساسى أن اللغة الديموطيقية كتابة عامية وأن حروفها هجائيه وليست تمثيليه فكون أبجدية لها من ٢٥ حرفا وقد ساعدته اللغة القبطيه على قراءة اسماء بطليموس وبرينيس والكسندر وارسينوي المنقوشة باللغة الديموطيقية

وبعد مضي سبع عشرة سنة من ذلك شرع الدكتور ينج الانجليزى يدرس الكتابة الهيروغليفية المنقوشة على حجر رشيد فقرأ اسمى بطليموس وبرينيس ولكنه لم يميز حروفها تماما ولم يهتد لقراءة الاسماء التى فيه كافرجت واتوكراتور ، بل التبس الأمر عليه واشكل وكلما حاول استكشافه استعجل واستبهم

جاء جان فرنسوا شمبليون واستعان بآراء زويجا وساسى واكربلاد وينج وقد

تقدم فى ترجمة حياته أنه درس اللغة القبطيه فى حداثة سنه وعرف رأي كرشر من أن اللغة الهيروغليفية هى نفس اللغة القبطية المكتوبة بأحرف يونانية ولم يزل يجد فى البحث ويمعن فى الفحص حتى وقف على دخائلها ودقائقها وكشف اللثام عن حقائقها ودقائقها وكيفية ذلك أنه فهم أن الكتابة الهيروغليفية رمزية وليست هجائية ثم عدل عن هـذا الرأى لما رأى أن الدكتورينج تمكن من قراءة بعض الأعلام وعثر بفرنسا على مسلة صغيرة (منقولة من جزيرة فيلا بقرب اسوان) منقوش عليها كتابة بالهيروغليفية واليونانية. وكان من عادة قدماء المصريين أنهم يكتبون اسم الملك أو الملكة داخل حلقة مستطيلة فوجـد شامبليون اسمى كليوباطره و بطليموس بالكتابة اليونانية على هذا الحجر ولاحظ أن الباء والطاء واللام فى بطليموس موجودة ايضافى أسم كليوباطره فجاش فى خاطره أنه لا بد أن تكون هذه الأحرف ذاتها موجودة ايضا فى هذين الاسمين باللغة الهيروغليفية داخل الحلقتين المستطيلتين . ثم تحقق من نظرية الدكتورينج أن أسماء الملوك مكتوبة بأحرف هجائية وليست باشارات رمزية

وكانت هذه الفكرة قد أتت للدكتورينج عفواً بدون أن يتجشم فيها مشقة أما شامبليون فلم يزل يفرغ مجهوده حتى تحققها بالشواهد الصادقة والدلائل الناطقة وقدم عنها تقريراً علمياً ثم استرشد بقول اكليمندس الاسكندرى أن النوع الأول من الخط الهيروغليفي موضوعة له أحرف هجائية والنوع الثانى مركب من اشارات رمزية فبحث شامبليون عن الأحرف الهجائية الهيروغليفية الموجودة فى اسمى كليوبطرا وبطليموس أولا فى المعنى الذى يمثله كل حرف وكان كلما وصل الى معرفة شيء وجد اسمه باللغة القبطية فاكتشف أن كل إشارة هيروغليفية صوتية تمثل صوت أول حرف من الكلمة المصرية القديمة أو القبطية

أما طريقة شمبليون فى اكتشافه اللغة الهيروغليفية فهى :ــ

(١) لاحظ شمبليون أن الحرف الاول فى خانة كليوبطرا صورة ركبة ومعنى الركبة فى اللغة القبطية «كل أو كلى» فاسم الركبة فى القبطية يبتدىء بحرف الكاف فعرف انه حرف الكاف

(٢) الحرف الثانى فى خانة كليوبطرا صورة أسد رابض ومعنى الأسد فى اللغة المصرية القديمة لبو وفى القبطية لافو. فاسم الأسد فى اللغتين الهيروغليفية والقبطية يبتدىء بحرف اللام فهو صورة حرف اللام وهو الحرف الرابع من اسم بطوليس

(٣) الحرف الثالث من اسم كليوبطرا صورة سكين ومعنى السكين فى اللغة القبطية « ابك أو بيك » وهو يشابه اللام أو الياء وهو الحرف الرابع والسادس في اسم بطوليس أو بطليموس

(٤) الحرف الرابع صورة عقدة ويضاهى الواو فى كليوبطرا وهو الحرف الثالث فى بطوليس

(٥) الحرف الخامس يشبه شباكا واسم الشباك فى القبطية يبتدىء بالباء فهو حرف الباء

(٦) الحرف السادس نسر ومعنى النسر باللغة القبطية « أهوم » وهو يبتدىء بالألف فهو حرف الالف وهو الحرف السادس والتاسع من اسم كليوبطرا

(٧) الحرف السابع صورة يد ومعنى اليد فى اللغة القبطية « توت » واسم اليد فى القبطية يبتدىء بالطاء فيكون هو الطاء فى كليوبطرا

(٨) الحرف الثامن صورة فم ومعنى الفم بالقبطية « رو » واسم الفم يبتدىء فى القبطية بحرف الراء فهو حرف الراء من كليوبطرا

(٩) الحرف التاسع يشبه الحرف السادس المتقدم ذكره وهو آخر حرف فى اسم كليوبطرا

(١٠) الحرف العاشر فى شكل نصف دائرة ونصف الدائرة معناه بالقبطية « تى » ويبتدىء بحرف التاء فهو حرف التاء أو الطاء

(١١) الحرف الحادى عشر فى شكل بيضة لاحرف له باليونانية فعرف بعد ذلك أنه علامة تلحق آخر الاسماء المؤنثة

وفى اسم بطوليس (بطليموس) حرفان وهما الخامس والسابع (الميم والسين) غير موجودين فى اسم كليوبطرا

نشر شمبليون فى خطاب أرسله للمسيو داسير السكرتير الدائم للأكاديمى نتيجة اكتشاف اللغة الهيروغليفية المخالف لنظرية اكتشاف الدكتور ينج وخالف أيضاً كل من تقدمه فى مقدمات ونتائج كثيرة منها أنه لم يعتبر الخط الديموطيقى مختلفاً عن الخط الهيروغليفى والهراطيقى بل لاحظ أنه مختصر من الخط الهيروغليفى وأن نتيجة بحث ساسى وينج أثبتت وجود إشارات تمثيلية فى اللغة الديموطيقية ولكنها صوتية فاذا كانت اللغة الديموطيقية مشتقة من اللغة الهيروغليفية المائلة وجب فى الثانية وجود إشارات تمثيلية وصوتية معاً ووجد فى العصرين اليونانى والرومانى آثار عليها أسماء للملوك البطالسة والقياصرة فيها أصوات معروفة . فاذا كانت الأصوات فى هذه الاسماء المكتوبة بالهيروغليفية ممثلة بالأحرف ذاتها فتحقق من الحروف التى اكتشفها فى خانتى كليوبطرا وبطليموس وبعد أن طبق هذه المبادئ تمكن من قراءة ٧٦ اسم ملك فى اللغة المصريه القديمة وكون منها أبجدية صوتية للغة الهيروغليفية

لم يتفق لشامبليون مبدئياً أن ينظر إلا فى أسماء ملوك اليونان والرومان وكان قد لاحظ فى حجر رشيد أن نقوشه الهيروغليفية هى ذات النقوش الموجودة فى أسماء الملوك الأجانب مثلا فى خانة بطليموس نجد عبارة تقرأ « بتاح ميرى » فان الحرفين الأولين من بتاح هما الحرفان الأولان فى اسم بطليموس أى الباء والطاء ومذكور فى الترجمة اليونانية هذه العبارة « بطليموس حبيب بتاح » فاستنتج شمبليون من ذلك أن الحرف الثالث من بتاح لا بد أن يكون هو الحاء وهكذا استمر فى تطبيق هذا المبدأ حتى تمكن من قراءة كثير من الكلمات الموجود مثلها فى النطق والمعنى فى اللغة القبطية ثم ألف بعد الأبجدية قاموساً وأجرومية فى اللغة الهيروغليفية

عانى شمبليون ماعاناه فى اكتشاف اللغة الهيروغليفية حتى اتضح له أن الأحرف الهيروغليفية الصوتية ليست اختراع الملوك الأجانب بل هى من أوضاع العصور الأولى وكان اسم الملك خوفو مشيد هرم الجيزة الأكبر مكتوباً بأحرف هجائية

ففكر فى درس جميع النقوش القديمة حتى عرف سر هذه اللغة وفتح مغلقها وساعده فى ذلك معرفته التامة باللغة القبطية فتوصل الى فصل الكلمات بعضها من بعض وعرف القواعد وقرأ نقوشها وترجم معانيها وسهلت له اللغة القبطية معرفة معان كثيرة أصلية وبعد أن اكتشف هذه اللغة وقاوم صعوباتها وعراقيلها اتضح له أن لها أحرفاً هجائية ومقاطع وإشارات تمثيلية ومتممة

وانتشرت اللغة الهيروغليفية بعد موت شمبليون بخمسة عشر سنة بمساعى العلماء نستور ولوت وشارل لزمان من الفرنسيس وروزيلينى وانجاريلى الطليانيين وليمنس الهولندى واكنش وهنكس وبرتسن الانكليزيين ولبسييس الألمانى ثم جاء عمانويل دى روجيه وفرانسواه الفرنسيان وأتما قاموس شامبليون وأجروميته وأشتهر أيضاً أوغست مرييت باشا باكتشاف السرابيوم بقرب منف وهو المؤسس لمصلحة الآثار المصرية والمتحف المصرى وظهر أيضاً علماء الآثار منهم شاباس ودفيريا الفرنسيان وهنرى بروكسن وديمتشن الألمانيان ولباج رينوف وجودين الانكليزيان ثم اشتهر أخيراً ماسبرو وبيرلاكو وداريسي وفوكار الفرنسيين وأرمن الألمانى وجولونيشف الروسى ونافيل السويسرى والمرحوم أحمد باشا كمال المصرى وكثير غيرهم .

الفصل السابع

حب البحث

وباكتشاف شامبليون الآنف الذكر تولد فى العالم حب البحث فى عالم مملوء بالمدهشات والغرائب عالم الآثار المصرية الذى مرت فوقها القرون والأجيال مر السحب فى سماء الصيف الصافية وكم من دول عبثت بها أيدى الزوال وكم من آثار وأطلال قشعت ظلالها قوى الفناء وأما ذلك العالم الغني بكنوزه وذخائره فباقٍ صامت حتى أنطق شمبليون لسانه وأتى بعد شمبليون من شيد له منبراً

يشمخ فوقه بأنفه ويخطب فى الأرض والتاريخ بحديث مروع عجيب

وهكذا ماذر شارق نهار حتى ظهر معه نجم عالم فى الآثار المصرية أو بزغ معه كوكب مؤلف نال حظوة فى أعين القراء وعجباً .

كل ذلك من نشاط الغرب ماكان لمصر إلا كالنغم الحلو يزيد النائم استسلاماً لسلطان الهبوع والسكون ثم قرعت طبول النهضة المصرية الحديثة نخلعت مصر الهادئة عنها رداء التقاعس ودخلت مع الأمم المستيقظة فى حلبة التقدم ومضمار الترق وتلفتت حولها فرأت ماسرق من كنوزها وسلب من آثارها وامتص من دمائها . هنا علت وجه مصر بوادر الحمية واستفاقت

الفصل الثامن

الاكتشاف العظيم

وما هى إلا هنيهة قصيرة بعد تلك الحركة المباركة حتى اهتز العالم لنبأ اكتشاف قبر الملك توت عنخ آمون (١) وكان نصيب مصر من تلك الهزة أشدها وهاهى اليوم تخطر فى ثوب قشيب سيستملح العالم بهاءه وسناءه

وقد طنطنت صحف الأمم كلها بهذا النبأ ونشرت طوال المقال وأطنبت فى الوصف وأظهرت فى صحفها المصورة كثيراً من الصور والرسوم ولما كان لذلك الاكتشاف فضل كبير لايجحد رأيت أن أترجم مقالا شائقاً لكاتب انجليزى قدير وأن ماننقله هنا لنقطة ضئيلة من بحر ما نشر وفاضت به صحف العالم أجمع :

مدينة طيبة عاصمة مصر القديمة ومقر الفراعنة العظام ولست أدرى كيف

(١) عثر الفعلة الذين ينقبون عن الآثار بأرشاد المستر كارتر على سلم القبر فى شهر اكتوبر سنة ١٩٢٢ وقد قضى المستر كارتر ثلاثين عاما ينقب ويبحث فى طيبة وقد تعرف به اللورد كارنارفون منذ ١٩ سنة فاشترك معه منذ ذلك الحين وأمده بالمال

أصف عظمة مدينة الهياكل وفخامة معابدها ومقابرها وعمدها التي يتراءى للناظر اليها أنها بنيت على جانب عظيم من الدقة والاتقان

هنا أنى التفت الانسان ير ما يحقق له أنه فى مصر القديمة حيث يشاهد فى كل مكان عظمة وفخامة، وجلالا واتقاناً ، ونفاسة وكمالا ، وكل شىء ناطق بأفصح لسان وشاهد لاجلى بيان على القوة والمصافة وسلامة الذوق التى امتازت بها تلك الأمم العظيمة التى عاشت قروناً متطاولة على ضفاف النيل الساطع وتركت وراءها ذرية تتجلى فى حركاتها آثار الحذق والذكاء

وقد جئنا الى مدخل القبر الجديد الذى اكتشفه اللورد كارنارفون فى الوادي المعروف بأبواب الملوك بعد أن اخترقنا طريقاً موصوفة منسقة تمتد على مسيرة ساعة ونصف ساعة من مدينة الاقصر . وهناك رأينا ذلك القبر الذى يحوى جثة الملك « توت عنخ آمون » آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة قائماً بين أسوار صخرية هائلة ومحفور تحت قبر رعمسيس السادس الذى تولى الملك بعده بنحو مائتى سنة ويبلغ مدخله خمسة عشر متراً بانحدار بسيط وفى آخره حجرة منحوتة داخل الصخر مستطيلة الشكل مساحتها نحو ٢٠٠ متر تقريبا والآثار مكدسة فيها بشكل يثير الدهشة كما ترى فى البيان الذى نشره المكتشف فى إحدى صحف الانجليز وأثبتناه فى آخر هذا المقال

أما تاريخ صاحب المقبرة التى اكتشفت فيرجع الى منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد حيث تولى الملك سنة ١٣٥٦ وبعد ذلك بثلاث سنين نقل عاصمة ملكه الى مدينة طيبه وأرجع عبادة الاله « أمون رع » وأزال الأثر المقدس الذى أقامه الملك « خون أتون » سلفه بمعبد الاقصر « لهور مخوتى » أى قرص الشمس البهى فمحيت بذلك كل آثار للدين الجديد ودرست معالمه وأبطلت مظاهره ومفاخره وعادت الحياة المصرية الى ما كانت عليه كأن ذلك المفكر العظيم لم ينطق ببيان .

ويؤخذ من المباحث العديدة التي قام بها علماء الآثار فى أخريات القرن

الماضي وأوائل هذا القرن أن هذا الملك لم يكن من السلالة الملكية بل تولى الملك بواسطة زواجه بابنة الملك « خون أتون » سلفه والمعروف باسم امنوفيس الرابع وأقام زمناً بتل العمارنة وكانت وقتئذ عاصمة المملكة المصرية ودان بدين أهلها وعبد الاله «أتون» حتى اسمى نفسه ـ توت عنخ أمون ـ الى أن استتب له الملك واستقامت أموره فذهب الى طيبة ورجع الى دين آبائه من عبادة الآله أمون وعمر الهياكل وجدد المعابد التى هدمها الملك ـ خونأتونسلفه(١) ووضع

(١) اشتهر الملك امنوفيس الرابع بميله الى عبادة الشمس التى أحييت زمنا طويلا فى مدينة بعلبك واعتنقتها أمه الملكة « تى » فصبغته باعتقادها حتى اعتنقها بتعصب وسيم كاهناً لها فلما آل اليه الملك بالوراثة عن والده وهو بعد شاب لا يتجاوز السبع عشرة من العمر أمر الناس بعبادتها دون سواها وغير اسمه لما فيه من ذكر آمون لبغضه له وأسمى نفسه ـ خون اتون ـ اعنى نور قرص الشمس وبعد ذلك أمر بتخطيط مدينة جديدة باسم تل العمارنة على مسيرة ١٩٥ ميلا من القاهرة لتكون عاصمة جديدة للدولة المصرية بدل مدينة طيبه التى كانت مقراً للمعبود آمون . ونقل الى مدينته المستحدثة تمثال قرص الشمس وسماه ـ اتن ـ وبنى له معبداً كبيراً بقيت آثاره الى الآن ويشتمل على دهليزين وعلى ستة عمد مدرجة الوضع كانت منصوبة فى وسطه وشوهد أيضا على جدرانه رسم الشمس مشرقة فوق الملك ورجاله وهم وقوف يقدمون القرابين اليها ولها أشعة ذات أيد كأنها تنشر الحياة على المخلوقات وحول ذلك أدعية وقصائد يتلوها المرتلون مصحوبة بنغمات الأوتار ومعهم غانية تدعى ـ سنرو ـ تقول مدحة لقرص الشمس مطلعها :

لله الثنايا ياصاحب الاعوام ✻ ياموجد الشهور والايام
يامسدد الساعات ✻ فى سائر الاوقات

ولعل الاعتقاد بان قوة الشمس المشعة مصدر كل حياة هو المذهب المادى العلمى الوحيد الذى قبل كعقيدة دينية فى دهر من الدهور ومصر من الامصار

ولم يأل اخناتن جهداً فى طلب الحق فى الديانة والحق فى الفنون والصناعات وفى كل مناهج الحياة فكان شعاره الدائم « السالك فى الحق » فالانقلاب الفائق العادة الذى أحدثه من اتساع مدى أفكاره وخواطره ينزله أسمى منزلة جديرة بأعظم مفكر ولد فى مصر . ولو كان عاش فى مستوى أدنى من مدنية المصريين لعد نبياً تكرمه الناس على مر الاجيال

ولهذا الملك مقبرة فى الجهة الجنوبية من تل العمارنة اكتشفت حديثاً وهى على مسيرة أميال قليلة من النهر . وبجوارها مقبرة الامير « آى » أحد أصهاره ومقبرة الاميرة « توتو » وبها نشيد جميل للشمس . وهناك مقابر أخرى منتثرة فى شمال المدينة المذكورة أهمها مقبرة أحمس منقوش عليها قصيدة لقرص الشمس ذات أهمية أدبية ودينية فمقابر لبعض الأمراء والعظماء فمقبرة لحصل الجزية من المستعمرات وصور هؤلاء جميعا ظاهرة على الجدران تتراءى للناظر اليها كأنها صور حقيقيه .

الشرائع وسن القوانين واهتم بمصلحة البلاد وسهر على راحة الرعية وأقام للمعبود أمون تمثالا من الذهب كما أقام تماثيل أخرى من الذهب ـ لفتاح معبود ممفيس وشيد لباقي الآلهة معابد وخصص لها أوقافا وملاها بالآنية المقدسة الغالية الثمن والقيمة واصطنع لها سفنا من خشب السنط الذى جلبه من البحر الاحمر ومن الشام وكان طلاؤها من الذهب فكانت تضيء على ضفتى نهر النيل المبارك

ويقول العلامة احمد باشا كمال الاثرى المعروف ان اسم هذا الملك المدرج فى خانته مركب من كلمتين الاولى «توت عنخ أمون» أسمه والثانية «حق ان ريس» اسم وظيفته التى اشتهر بها قبل استيلائه على الملك ومعناها «حاكم مدينة ارمنت» وقد يشاهد رسمه فى مقبرة بطيبة جالسا فوق عرش وأمامه رؤساء قبائل أشوره والرتنو وهم واقفون بمماليكهم وعليهم حلل العز والفخار يقدمون له الجزية وهى عبارة عن آنيـة من الذهب والفضة والمعدن متقنة الصنع وعدد كبير جدا من الخيول والسباع وجلود النمور وغير ذلك مما كان يصنع ويوجد فى الجزيرة بين دجله والفرات ويرى حول ذلك نقوش معناها « لقد وردت جزية الاشوريين تحت اشراف امنحتب والى الاتيوبيا وحاكم الاقطار الجنوبية» وفوق الاشوريين نقوش معناها : هؤلاء كبار رؤساء الشورة كانوا يجهلون مصر قبـل ان يحكمها الملك وقد جاءوا الآن من بلادهم يسألونه العفو والرضا قائلين ان النصر معقود بلوائه والعالم كله فى أمن وراحة ويمن وسلام فى أيامه

ويرى فى جهـة أخرى من تلك المقبرة أن الاتيوبيين مقبلون بالجزية فى سفنهم على ظهر النيل وبجوارهم نقوش معناها « وردت من بلاد الايتوبيا الجزية العظيمة المنتخبة من نفائس السودان ووصلت الى طيبة تحت اشراف أمير الايتوبيا ـ هوبو » ومن هذا نستدل ان مصر كانت فى عصر هذا الملك السعيد رافلة فى أرغد عيش وبالغة منتهى العز والشوكة والمجد

وفى المتحف المصرى تمثـال جميل لهذا الملك نقل من الكرنك وهو من الحجر الجرانيت وتدل نحافة جسمه وملامح وجهه على انه كان مصابا بالسل(١)

(١) هذا حكم يحتاج الى برهان لأن نحافة الجسم وملامح الوجه لاتثبت مرض السل

وفى متحف لندن تمثال أسد منقوش عليه اسم هذا الملك . وفى الكرنك مسلة كبيرة كان منقوشا عليها مدة حكم هذا الملك وأعماله ولكن محتها يد الزمان وهناك مسلة أخرى اكتشفها الاستاذ « لجران » العالم الاثرى بتلك الجهة ايضا ووجد عليها نقوشا استدل منها على عناية هذا الملك العظيم بأمته وبلاده وما أداه لها من الخدمات الجليلة التى خلدت أسمه الى الذرية والاجيال المقبلة

الفصل التاسع

كلمة للورد كارنارفور

أما محتويات القبر فقد وصفها اللورد كارنارفون مكتشفه وصفاً موجزا ألم فيه بأعمال سبعة من رجال الآثار فى الحفر والتنقيب وخلاصته ما يأتى :

« يصح أن يقال أن (بلزونى) كان أول منقب فى العصر الحديث فى وادى الملوك وقد قام بأبحاثه بين سنة ١٨١٥ وسنة ١٨٢٠ فاكتشف مدفن سيتي الاول الذى لايزال يعرف حتى الآن « بمدفن بلزونى » وكان قد لعبت به أيدى النهب ولكن بلزونى وجد فيه مايكفي لجعل اسمه مشهورا بين أسماء الرواد والمنقبين عن الآثار فى هذا العصر وكان أعظم كنز عثر عليه فى هذا المدفن ناووس الملك المذكور وهو مصنوع من الحرير فباعه الى السرجون سوان وهو موجود الآن فى متحف « لنكلن انفيلوس » . ويخيل أن البعثة الفرنسوية كانت تعمل فى الوقت عينه فى هذه المدافن الملكية فاكتشف فى « وادى عين » أو الوادى الثانى مدفن « امحوتب الثالث » و « تي » وكان هذا المدفن قد فتح بعضه ونهب منه شيء كثير من قبل ما دعا بلزونى الى البحث فى ذلك الوادى حيث عثر على مدفن « اى » وبحث شمبليون وروسلينى ودومشان ونقبوا كلهم فى تلك المدافن وجاء بعدهم بقليل لبسيوس المشهور ففتح مدفن رعمسيس الثانى والجانب الاكبر من مدفن « موزوليوم » منفتاح الكبير . وترك هذا المدفن بعد لبسيوس على

حاله دون أن يمس إلى أن اكتشف المسيو لوره مدير متحف القاهرة في أوائل العقد الأخير من القرن الماضي مدفن امحوتب الثاني فوجد فيه عدا مومياء الملك موميات بعض ملوك مصر المفقودة وجثث رجلين أو ثلاثة لم يعرف من هم ولكن يستنتج أنهم من أصحاب المقامات الرفيعة .

وجاء بعد ذلك السنيور تشيابرلي فلم يلق نجاحا يذكر ثم بدأ المستر تيودور دايفس من بوستن بالحفر في الوادي وظل يعمل إلى سنة ١٩١٣ — ١٩١٤ حتى اعتلت صحته ورسخ في ذهنه أن هـذا الجزء من مدافن الملوك استنفد البحث فيه كله فأقلع عن مواصلة العمل . وقد نجح المستر دايفس نجاحا باهراً فاستهل بحثه بالعثور على مدفني توتميس الرابع (١) والملكة هتشوبسيتو وقد حفرهما له المستر كارتر الذي كان حينئذ مفتشا للآثار في الوجه القبلي ولما استقال المستر كارتر من وظيفته واصل المستر دايفس أبحاثه على يد المستر كيبل « الذي كان مفتشاً » والمستر ارتون جونس والمستر برتون وكان أعظم اكتشافاته مدفن «يويا» و « تويا » والدي الملكة تي . واكتشف اكتشافا آخر يستحق الذكر وهو ما يدعى قبر « تي » مع أنه ليس له علاقة ما بتلك الملكة الشهيرة بل هو في الحقيقة المكان الذي خبيء فيه الملك اخناتون ابنها الملحد بعد ما أتى به من تل العمارنة . وقد بلغت جملة ما عثر عليه المستر دايفس من ٨ الى ١٠ مدافن وآبار كانت جدران بعضها مزينة زينة جميلة وقد وجد في كثير منها أدوات بديعة تستوقف الانظار . وقضى المستر دايفس السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة من حفرياته دون أن يعثر على شيء تقريباً .

وألف جميع المنقبين السابقين في وادي الملوك في حفرياتهم نظام السير أي

(١) عثر المستر دافيس على مدفن الملك توتميس الرابع عام ١٩٠٣ وهو أحد فراعنة الأسرة الثامنة عشرة ووجد في المدفن مركبة الملك أما جثة توتميس المذكور فقد وجدت من قبل في مدفن امنحتب الثاني وكان كهنة الأسرة الثانية والعشرين قد أخفوها هنالك لسبب مجهول

أنهم كانوا يحفرون حفراً في أكوام الانقاض والردم في الأماكن التي يحتمل أن يكون فيها شيء علهم يوفقون الى العثور على مدخل مدفن . ولما أعطاني المرحوم السر جاستون ماسبرو الامتياز لم يكن له أمل كبير بعثوري على شيء ما . ووفق المستر دايفس إلى اكتشافاته بسهولة بعدد يسير من الرجال وحفر في عدة أماكن وقد كان يشك كثيراً في أن يكون قد ترك هو أو المنقبون السابقون شيئا وراءهم ولذلك قررت أنا والمستر كارتر أنه يتعين علينا الحفر إلى أن نصل إلى الطبقة الصخرية وأن لا نسير التفاتاً إلى الأنقاض التي تركها الذين سبقونا في العمل وأظن أننا رفعنا نحو مائة وخمسين الف طن إلى مائتي ألف طن من الأنقاض وبلغنا مكانا لم يبلغه أحد قبلنا واذا استثنينا بعض الزهريات المصنوعة من المرمر والاشياء الأخرى التافهة التي كان معظمها مكسراً فاننا لم نجن ثمرة تعبنا إلا في هذا الخريف

ففي اليوم الخامس من شهر نوفمبر سنة ١٩٢٢ كان المستر كارتر يعمل في مكان لم نستطع مسه من قبل لأنه كان أمام مدفن رعمسيس الرابع وهو مقصد الزوار والسياح فعثر على درجة منقورة في الصخر وأزال الأنقاض ثم كشف درجات أخرى إلى أن بلغ جداراً مغطى بالسمنت وعليه أختام المدافن الملوكية ولكنها غير واضحة تماما . أما الختم فمؤلف من تسعة أسرى واقفين في صفوف في كل صف منها ثلاثة وفوقهم ثعلب رابض وهو ختم لا يستعمل الا في الاماكن الملكية من مدافن طيبة وبعد أن فحص المستر كارتر السقوف فحصا دقيقا أرسل إليّ تلغرافا يقول فيه انه عثر أخيراً على اكتشاف بديع ثم عاد فردم المكان ومكث ينتظر وصولي . ولما وصلت إلى طيبة شرعنا في الحال في إزالة الردم وعثرنا على أشياء عديدة مكسرة من خزف وأزهار وقرب ولما بلغنا الباب فحصنا السقوف فرأينا في الزاوية اليمنى مدخلا فتحه لص ثم عاد المفتشون في عهد رمسيس التاسع فسدوه وختموه لأن القسم السليم من الحلقة البيضاوية المكتوب فيها اسم « توت عنخ أمون » لا يزال ظاهراً وان كان قد طمس كثيراً وكذلك

ختم الأسرى التسعة فانه لا يزال يرى على القسم الصغير من الملاط الذي تقبه اللصوص ولكن هذه الأختام كلها غير واضحة وقد حفظ الجانب الأكبر منها لفحصه فيما بعد

وقضينا نهاراً بطوله في صنع باب من الخشب على منوال « الشعرية » وأحكمنا غلقه بأربعة أقفال احتياطا من السرقة ولكن المدفن صار يحرسه الآن جنود ورجال من الهجانة السودانيين في مصلحة خفر السواحل ومقدموا العمال الذين يعملون معي وكان المستر كارتر ومساعده المستر كالندر يبيتان في المدفن حيناً بعد آخر وكانت الأحوال الجوية لحسن الحظ حسنة والهواء ساكنا والحرارة شديدة .

وفي اليوم الثاني بدأنا بتطهير المدخل « الدهليز » فوجدنا أن طوله نحو ثمانية أمتار وكنا نلق في طريقنا أشياء كثيرة معظمها مكسر وكان في جملة ما لقيناه صندوق محطم منقوش على ضلعه الأعلى أسماء عديدة ضمن حلقات بيضاوية قد تساعد كثيراً على إعادة البحث في حكمين سابقين . ولما أكلنا تطهير المدخل بلغنا بابا مختوما أو جداراً عليه عين الأختام التي على الجدار السابق فتساءلنا هل يمكن أن يكون وراء هذا الجدار سلم آخر مسدود على ما يحتمل أو هل اننا سنبلغ غرفة أخرى من الغرف . وكلفت المستر كارتر أن ينزع بضعة أحجار وينظر إلى الداخل ففعل ذلك في دقائق معدودة وأطل من الثغرة حيث شاهد ما في الداخل على نور شمعة وتلا ذلك سكوت عميق فسألته بصوت مرتجف « ما هذا » فأجابني « ان هنا أشياء عجيبة غريبة » فكان جوابه بشرى عظيمة ونزل من مكانه فذهبت أنا وكريمتي إلى الثغرة وأطللنا منها فما استطعنا ان نضبط أنفسنا من شدة الانفعال والاعجاب

على ان أهم نقطة في اكتشاف هذا الاثر العظيم هي ان مقبرة « توت انخ امن » أول مقبرة وجدت سليمة إلى درجة ما بحيث يستطاع على وجه التقريب معرفة الأدوات التي دفنت مع الملك ولكن يظهر لسوء الحظ ان الادوات التي

لها قيمة حقيقية قد ضاعت وربما سرقها لصوص المعادن في عهد الأسرة العشرين بيد انه يظهر بالرغم من ذلك كله أن جميع الحلي الصغيرة موجودة مع جميع الأدوات الأخرى التي تشمل الاثاث والرموز وتماثيل الآلهة التي تتولى حراسة الملوك في العالم السفلي وتماثيل الملك والمركبات وصناديق الثياب والاواني الخزفية وزوارق الدفن والكراسي والأسرة وغيرها .

ومن أعظم مزايا هذا الاكتشاف أن الأدوات تبين فنون ـ تل العمارنة ـ كما تبين فنون « طيبة » ولهذا لا يوجد لبعضها مثيل من وجهة الفنون المصرية الجميلة . وتدل طبعة الأختام الموجودة على الابواب المغلقة على انه يوجد على الأقل أربعة أنواع . منها اختام مقبرة الملك « توت أنخ امن » الملكية وأختام أخرى يظهر انها كانت لرجال قصره ولكن لما كانت طبعة هذه الأختام غير ظاهرة تماما فلا مندوحة من مضي قليل من الوقت قبل حل رموزها والوقوف على معناها الحقيقي

وقد عثرنا خارج مدخل المقبرة على بقايا صناديق عليها رمز مزدوج « لاخناتن» (١) والملك « سنخ كارع » وزوجته وهي ابنة « اخناتون » وتسمى « مرت اتون » ولما كانت هذه نسيت الا أثارا وجدت في مقابر قديمة عليها رمز الملكين فانه يظهر ان الملكين اما ان يكونا توفيا أو تنازلا عن العرش معاً ويدل وجودهما في قبر هذا الملك على أن الملك « توت أنخ امون » خلفهما على الأثر

وعثرنا أيضا على صندوق مملوء بأوراق البردي ويؤخذ من المظهر الخارجي أن المستندات تاريخية أكثر منها دينية لأنها ملفوفة بحيث قلبت أطرافها وختمت . ثم هناك عدد من العلب بها خطوط طويلة قد تساعد على حل السر وتوجد أدوات على أعظم جانب من الأهمية من الوجهة الفنية نخص منها

---

(١) سبق ذكر شيء عن تاريخه في (الهامش) وسنأتي بنبذة أخرى عنه في الجولة الثانية التاريخية

بالذكر كرسيا أو عرشاً يمثل الملك والملكة وهما جالسان تحت أشعة الشمس وهذا العرش مصنوع صنعاً بديعا يفوق الوصف مرصع ظهره بأحجار شبه غالية مختلفة الألوان وقد نقش على جوانبه وقوائمه اسم الملك « توت أنخ امون » وبعبارة أخرى يعد هذا العرش من فنون « الفراعنة » المحضة ونموذجا لتماثيل — شدابتي — وأصنامها (١) وهناك أنواع كثيرة من التماثيل التي تبين الزي مصنوع من الخشب يمثل الملك وهو مقطوع من الوسط وليس له ذراعان . ومن المحتمل انه كان يستخدم لأعداد شعر مستعار للملك كما يستخدم الحلاقون اليوم التماثيل لترتيب الشعر الاصطناعي

وبين الأدوات الأخرى الهامة نحو عشرين مشداً وعصا للسير صنعت أيدي بعضها من الذهب المزركش والبعض الآخر من العاج وصنعت أيدي عصى أخرى من العاج نقشت عليها صورة تمثل أسرى الحرب . وهناك علبة نقشت عليها مناظر بديعة تمثل الملك راكبا عربته مع رجاله وهم يشتغلون بصيد الأسود والغزلان وبقر الوحش وفي داخلها عباءة موشاة بحب وأزرار من الورد الذهبي وتحت هذه العباءة مئزر مزركش بالذهب كذلك وقلادة كبيرة من الكهرمان وعدد من الآثار الأخرى التي ليست ظاهرة بحيث يمكن رؤيتها تماما. وفي صندوق آخر سهام من الفضة وأوعية للزينة ودرع من الزرد به لوحات مرصعة بالجواهر

وهناك أيضا مقصورات من الخشب تحتوي على رموز من التماثيل الخاصة بالعالم السفلي كالثعابين وغيرها . وهذه مصنوعة من الخشب المغشي بطبقة من

(١) وهي تماثيل صغيرة يطلقون عليها اسم التماثيل الجنائزية وتصنع في هيئة موميات من حجر اخضر او أزرق او من الفخار الصيني او من خشب وتوضع عادة في مقابر الاموات منثورة في جهاتها الاربع في كل جهة ١٠١ تمثال وكانوا يقصدون من وضعها قيامها بكل خدمة تطلب من المتوفي في حقل الفلاحة حسب امر المعبود « اوسر » رئيس وحاكم الأموات والأحياء

الذهب . أما المركبات فمن المصنوعات الجميلة المزينة بنقوش بارزة من الذهب وبأحجار الشب الغالية ونقوش أخرى عادية تمثل أسرى الحرب وغير ذلك من النقوش التي تشاهد على المركبات التي وجدت في مقبرة الملك تموتمس الرابع . وقد نزعت العجلات من المركبات اذ لا يوجد فراغ كاف لاخراجها كلها . وتوجد أيضا — أطقم — مختلفة للجياد منها سرج وقضبان . وهناك غير ذلك قسى الملك وجعبة سهامه وهي سليمة ولكن لما كانت الآثار الموجودة في هذه الغرفة مكدسة بعضها فوق بعض فانه يستحيل إحصاء ما فيها تماما

وقد وجد فوق أحد متكآت الملك وهي على ثلاثة أنواع : على شكل رأس أسد وعلى شكل رأس هاتور وعلى شكل ريح زعزع ثلاثة تماثيل غريبة على شكل أنمل لها أذرع وأيد بشرية والظاهر أن هذه أدوات لعمل صور صغيرة أو مصابيح أو مشاعل واذا صدق زعمنا هذا فانها تعد الطراز الأول الذي اكتشف إلى الآن وتبين لنا بعد هذه الأجيال العديدة وسائل الانارة التي كانت لدى قدماء المصريين في تلك الأيام البعيدة

ان جمال كثير من هذه الآثار يفوق حد الوصف . والظاهر ان هناك آثارا غير معروفة إلى الآن لدى علماء العاديات . ومما يلاحظ باهتمام وعطف أننا وجدنا باقة كبيرة من الزهور مستندة إلى أحد الجدران — عدا التماثيل — يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة أقدام وأربعة لم يمسها اللصوص . ولما دخلنا هذه الغرف لأول مرة ورأينا آثارها مبعثرة اعتقدنا أننا اكتشفنا مخبأ أخفي فيه أثاث أحد الملوك نقلت من تل العمارنة . أما الآن فلا يساورنا شك في أننا اكتشفنا مقبرة ملك وأن الابواب المختومة التي لا تزال سليمة تؤدي إلى الغرفة أو الغرف التي دفن بها الملك . ولما كان من عادة المصريين في عهد الأسرة الثامنة عشرة أن لا يزينوا الغرف الخارجية لدفن الملك فمن المحتمل أن تكون الغرفة أو الغرف الداخلية مزينة

ولما كان معظم الآثار التي وجدت إلى الآن في الغرف الخارجية يشتمل على

أثاث الملك فاننا نتوقع العثور في الغرف الداخلية على آثار تبين بحالة أجلى عادات المصريين القديمة في دفن ملوكهم لانه لا يوجد في دور التحف التي لدينا غير بقايا قليلة من تلك الآثار

ومن المشاهد الفريدة أن نجد مومياء الملك — توت عنخ امون — في الغرفة التي دفن فيها ومن مميزات هذه المقبرة أنها صغيرة بالنسبة إلى مقابر الملوك الأخرى ولا تماثل الطريقة التي كانوا يتبعونها في تشييد القبور بمدينة — طيبة — فقد وجدت مقبرة في طيبة لأحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة تشتمل على ثلاثة أقسام ومدخل وممر منحدر وسلم أما في المقبرة التي اكتشفناها فان الممر الأول يؤدي مباشرة إلى غرف متلاصقة وعلى ذلك تشبه هذه المقبرة الطراز الذي يوجد في تل العمارنة أكثر مما تشبه الطراز الموجود في طيبة ومن الصعب أن نعرف من هذا ما سنعثر عليه في المستقبل بالضبط لكن لا ريب في أن هذا الاكتشاف سيحدث كثيرا عن ذاك الوقت المظلم ويميط اللثام عن كثير من الحوادث التي وقعت حوالي سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد . » انتهى

و نثبت مقالا ثانيا كتكملة للأول نشرته صحيفة الاهرام في فبراير سنة ١٩٢٣ وهو من خير ما نشرته الصحف المصرية عما وجد في مدفن « توت عنخ آمون » من الآثار الشائقة التي قام لها العالم وقعد (١)

---

(١) والمقال بقلم الاستاذ الأثري سليم حسن افندي الامين المساعد بالمتحف المصرى

توت معناها صورة وعنخ معناها حية فمعنى اسم الملك « صورة آمون الحية » وستكشف لنا الاوراق البردية التي اكتشفت في قبره عن تاريخ طويل لهذا الملك

الفصل العاشر

توت عنخ آمون فى مخدعه الازلى

وصف قبره : في منتصف الساعة الثانية من يوم الجمعة ٢١ فبراير سنة١٩٢٣ نبش مخدع «توت عنخ آمون» بعد أن ظل هادئا مطمئنا في سباته الأزلي مايربي على ٣٣٦٠عاما . واذا كان في نبش المخدع مايؤلم روحه فان فيه مايثير روحا جديدة في أمة بأسرها . أمة ناهضة تريد أن تثبت للعالم أجمع أنها من سلالة عريقة جديرة بكل إجلال واحترام . وقد جاء هذا الكشف الجديد لمخدع — توت عنخ آمون — مؤيداً بالبراهين القاطعة اننا شعب تاريخه من أمجد التواريخ ومدنيته لا تقل عن مدنية أوروبا الحاضرة وأن كل مدنية قديمة لم تستمد نور العرفان الا من مدنيتنا وسيرى القاريء أن ما نقوله حق صراح عند ما يقرأ عجائب هذا المخدع . على أن « توت عنخ آمون » لم يكن له من الجاه والسلطان ما كان « لتحتمس» الثالث أو « امنحوتب » الثالث وغيره من الفراعنة الذين بلغت مصر في عهدهم شوطا بعيدا في المدنية والحضارة وليت الأيام حفظت لنا مخدعا واحدا من مخادع هؤلاء الملوك ليعلم العالم ما كانوا عليه من العز السؤدد ويدهش من تفوق هؤلاء الملوك وما بلغت مصر في عهدهم من المجد والرفعة . ولكن لنا في توت عنخ آمون ما يكفي .

لم أذهب في اليوم الأول لفتح هذا المخدع بل رأيته بعد أن اطمأنت القلوب وهدأ الروع ذهبت مع زميلي يوم الثلاثاء إلى ذلك الوادي الذي يكون بين جوانحه مجد مصر ونخارها . فاستقبلنا المستر كارتر بوجه باش وبعد هنيهة طرقنا باب المخدع وكلي رهبة لعلمي انني سأكون بين جدران مخدع احد أجدادي

دخلنا الحجرة الأولى للمخدع (المقبرة) التي وصفتها في مقال سابق فوجدت التمثالين المموهين بالذهب والمطليين بالقار في الوجه والأرجل في مكانهما على باب الغرفة التي كانت عليها الأختام غير ان هذا الباب قد أزيل معظمه وظهر من

ورائه صندوق عظيم الحجم على شكل مستطيل (وهو التابوت الذي يشتمل المياء) وهو موضوع في حجرة ينخفض مسطحها عن سطح الحجرة الخارجية نحو المتر تقريبا . وهذا الصندوق قد شغل كل الحجرة . وليس بينه وبين جدارها أكثر من ثلاثين سنتيمترا . ويبلغ طوله نحو ستة أمتار وعرضه نحو أربعة أمتار أما ارتفاعه فيربو على ثلاثة أمتار

وهذا التابوت مصنوع من الخشب الصلب (وربما كان من خشب الارز) ومغطى بطبقة من الجبس المحكمة الصنع وعلى هذه الطبقة الجبسية طبقة رقيقة من الذهب مطعمة بالمينا الزرقاء الغالية وله « كرنيش » مقوس مطعم بالمينا كذلك ومحلى بالرموز الدينية . أما جوانبه فقد نقشت كلها برموز هرغليفية وأشكال دينية كان لابد للميت من نقشها على تابوته وأهم هذه الرموز الدينية رمزان الأول إشارة خاصة تدل على المعبود « أوزريس » والثانية علامة تدل على الالاهة « ايزيس » أخت أوزريس وزوجته . وسبب ذلك أن « أوزريس » هو إله الآخرة وكان لابد لكل ميت أن يتشبه به ويعمل عمله . أما « ايزيس» فهى الالاهة التي ساعدت على احياء « اوزريس » بعد الموت فكان لابد لكل ميت أن يرسم صورتها على قبره أو على تابوته

كذلك رأيت صوراً عدة لالاهة العدل (معت) على هذا التابوت وهي إلاهة في شكل امرأة على رأسها ريشة وفي يدها علامة الحياة وهي جالسة القرفصاء . كل هذه الصور قامت مقام الزينة على التابوت .

ويرى على سطح جانب هذا الصندوق الشرقي صورة الاله « انوبيس » . « ابن آوى » وهو إله التحنيط عند قدماء المصريين . غير انه مقطوع الرأس . وسبب ذلك ان قدماء المصريين كانوا يعتقدون ان رسم الحيوانات الضارية أو الحشرات المؤذية (ولو في الكتابة) على توابيتهم قد تلحق بهم أذى إذ ربما انقلبت إلى صورتها الحقيقية فتنهش الجسم في القبر . ولذلك رسم « انوبيس » (ابن آوى) مقطوع الرأس . وقد لوحظ ذلك في كثير من التوابيت وعلى جدران

الاهرام المنقوشة باللغة المصرية القديمة . فاذا كانت هناك إشارة تدل على حيوان ضار أو حشرة مؤذية رسمت مقطوعة الرأس . وقد شاهدت على جانب التابوت المواجه لباب الحجرة من أعلى رسم ثعبان ملتو من الذهب البارز ينتهي برأس عليه تاج ملك مصر ، وله جناحان منشوران وهو يشغل طول التابوت بأجمعه وسبب ذلك ان المصريين كانوا يعتقدون أن الانسان في سفره الأخير إلى دار الآخرة لابد من أن تعترضه شياطين وعقبات لاقدرة له على مقاومتها . لذلك استعان بالثعبان ليتقي به كل غائلة . وهو إله عندهم خاص بهذا العمل . فكان يرسمه على تابوته فاذا مااعترضه شر نفث الثعبان في وجهه سماً فيقضي عليه . كذلك كان يرسم نوعا خاصا من الثعابين على باب المقبرة لتكون بمثابة حراس له .

وهذا الصندوق (التابوت) له باب بمصراعين وحلقتين من النحاس مثبتتين في نهاية كل مصراع ويدفع في وسطها قطعة من الخشب فيقفل الباب . وقد كان هذا الباب مغلقا ومختوما بخاتم الملك وكان أول من فتحه المستر كارتر . وقد وجد بالباب ستار من القماش الأسمر اللون مغشى بأهلة من الذهب البديعة الصنع . ومن وراء هذا الستار صندوق آخر له باب كالاول لم يفتح إلى الآن وينتظر أن يكون في داخله ثالث ورابع فخامس من الجرانيت فيه بقايا الملك توت عنخ آمون . . وقد وجد في الفراغ المتخلف بين الصندوق الكبير والثاني الذي في داخله صندوق فيه مجوهرات الملك التي كان يعتز بها في حياته والتي كان لا بد له من حفظها معه في قبره . وأهم هذه المجوهرات صدرية عظيمة (عقد) كان الملك يحلي بها صدره . وفي هذه الصدرية من بدائع الفن ودقة الاتقان ما يقف القلم مقصراً عن وصفه . على انه من المحتم أن يوجد في الصناديق الداخلة في هذا الصندوق الكبير أشياء كثيرة من الطرائف التي كان يعتز بها الملك وربما وجد فيها بعض أوراق بردية بل ربما وجد تاج الملك معه كذلك ! !

وغاية ما أقوله في وصف هذا الصندوق أو التابوت انه آية من آيات الفن لم

يعرف له مثيــل إلى الآن ولم يمتع ملك من ملوك العالم بمثـله . وأنى له ذلك !
لفت نظري بعد ذلك في أحــد أركان الحجرة في الفراغ المتخلف من التابوت عصوان معلق على كل منهما جلد . فسألت المستر كارتر أن يصوب نحوهما النور وإذا بهما إشارتان يرمز بكل منهما إلى المعبود « انوبيس » إله التحنيط وهــذه الاشارة أو الرمز عبارة عن جلد ابن آوى معلق في عصا . وهــذه العصا في قبر « توت عنخ آمون » مطلية بطبقة من الذهب والجـلد لا يزال حافظا لرونقــه الأصلي . وهــذه أول مرة عثر على مثل هــذه الاشارة إذ كنا قبل ذلك نراها مرسومة ولم تقع العين على حقيقتها إلا اليوم

وقد كتب الملك على ظاهر تابوته بحروف من الذهب البارز الدقيقة الصنع العبارة الآتيــة : « خطاب لجميع المعبودات الذين يقطنون العالم الأخروي : أنا الملك مارب الأرضين (الوجـه القبلي والبحري) رع خـيرونب ابن الشمس توت عنخ آمون ، منح الحياة أزلياً . »

وقــد رسم على وجهة الصندوق المواجهة لباب الحجرة عينان من الذهب وذلك لسببين : الأول لتمنعا الحسد والثاني لتمـكنا الملك من رؤية ما يجرى في عالم الدنيا خارج القبر ومنهما يستدل كذلك على ان رأس الملك في هذه الجهة

ومما يدهش له علماء الآثار ان ليس على جدران هذه الحجرة من النقوش إلا الشيء اليسير وفي اعتقادي أن ذلك يرجع إلى سرعة حفر هذه المقبرة أو إلى تأثير عبادة قرص الشمس . اذ يلاحظ أولا ان سقف هــذه الحجرة عار من كل نقش .

أما جدرانها فالنقوش التي عليها تنحصر فيما يأتي : —

على الجدار الشرقي ترى رسم مماء الملك بلون أسود على زحافة وعلى رأسها الالاهة « ايزيس » وتحت رجليها الالاهــة « نفتيس » ليعيداه إلى الحياة فوق هذا الرسم مكتوب اسم الملك ولقبه وبعض أشياء أخرى لم يكن لدى متسع من الوقت لفك رموزها

وعلى الجدار الشمالي رسم الملك بحجمه الطبيعي على رأسه خوذة الحرب وعلى جسمه جلد فهد كأنه كاهن واقف أمام المعبود « اوزريس » إله الآخرة وقد لفت نظري رسم الملك وبنوع خاص رأسه الذي يشبه تمام الشبه رأس إخناتون وهو الملك الذي تطورت في عهده الفنون الجميلة إذ خلعت عنها قيود الدين وأصبحت حرة طليقة من كل كلفة تجتهد في محاكاة الطبيعة وقد كان كل هذا بتأثير الملك إخناتون ولا شك ان توت عنخ آمون قد حذا حذوه

ويعتقد المستر كارتر أن هذه الصور ليست متقنة الصنع . وقد فاته ان هذا العصر كان يجتهد في محاكاة الطبيعة خالعاً تلك القيود التي كانت تحتم على الراسم أن يتبع قوانين خاصة فتخرج الصورة جميلة غير انها بعيدة عن الحقيقة

لفت نظري بعد ذلك المستر كارتر إلى مكان أملس في جدار الحجرة إذ دق بأصبعه على هذا المكان فسمع له رنين . فدهشت وسألته عنه فقال إنه يوجد في كل جدار من جدران الغرفة الاربعة حفرة فيها تمثال مكتوب عليه تعويذة سحرية . وبعد وضع هذه الصورة في الثغرة كانت تغطى بطبقة رقيقة من الجبس لتحفظه من التلف : وسبب وضع هذه التعاويذ أو الصور أن قدماء المصريين كانوا يعتقدون في السحر كثيراً فكانوا يضعون هذه التماثيل المسحورة في الجهات الأربع من جدران الحجرة التي فيها التابوت لتحفظ الممياء من كل شر.

الغرفة الثانية — التي في شرق حجرة التابوت .

في الجهة الشرقية من التابوت (أو الصندوق العظيم) غرفة ثانية يبلغ طولها نحو خمسة أمتار ونصف متر في عرض أربعة أمتار ونصف متر كلها مكدسة بالآثار الفاخرة التي كان لابد للملك من الاحتفاظ بها . غير انه لم يمكني في مدة لا تتجاوز نصف الساعة أن أعي ما فيها . ولست مبالغاً اذا قلت ان الانسان عندما ينظر في هذه الحجرة لأول مرة يخيل اليه أنه نقل إلى عالم آخر . أشياء كنت أسمع بوصفها في الكتب أو أرى رسمها على الورق فاذا بها أمام عيني في حقيقتها الناصعة ! وسأذكر هنا على وجه الاجمال ماوعته ذاكرتي موضحا

كنه كل أثر وعلة وجوده في هذه الحجرة :

يستقبل الزائر في هذه الغرفة تمثال المعبود « انوبيس » (ابن آوى) وهو رابض بحجمه الطبيعي على ناووس أمام الباب . وهـذا الناووس يرتـكز على قاعدة لها أربع أيد وعلى كل ذلك غلاف كثيف من الذهب . ويكاد الانسان من فرط إبداع هذا الحيوان يحسبه حقيقياً ولا سيما عند مايراه مكشراً عن أنيابه فاغراً فاه . وانوبيس هذا هو إله التحنيط وحارس الموتى عند المصريين ويلاحظ أن هذا التمثال قـد وضع على باب الحجرة الثانيـة أمام باب الصندوق الذي فيه الممياء (أي أمام مصراعي الباب) حتى إذا ماسطا انسان او حيوان على الممياء انقض عليـه انوبيس والتهمه ولذلك رسم وهو فاغر فاه متحفز للوثوب على كل من اعتدى على الجثة ! !

استرعى نظري بعـد ذلك تمثال رأس البقرة حاتمور (إلاهة السماء) بحجم طبيعي ، بقرنين من ذهب خالص مرفوعين إلى أعلى بينهما قرص الشمس وجهها من ذهب وهاج وعيناها من حجر أسود وأبيض يحا كيان الأعين الطبيعية . وسبب وجودها هنا أن المصري كان يعتقد أنهـا إلاهة السماء وإلاهـة الجبانة ، وكان لهـا أيضاً ميزة خاصـة في عالم الأموات وذلك ان الميت كان لابد له ان يجتاز عقبات كثيرة أثناء ساعات الليل في العالم الأخير وكان من تلك العقبات مستنقع عظيم لا يخلصه منـه إلا البقرة حاتمور فاذا كانت أعماله مرضية في الدنيا حملته على ظهرها ورفعته إلى السماء وهو على شـكل ممياء سوداء فاقدة الحياة ثم تتبناه وترضعه من ألبانها فتدب فيـه الحياة ويجري في عروقه الدم ويصبح إبنها (وهذا هو أصل التبني في العالم . وفي المتحف المصري بقرة أمامها « تحتمس » الثالث وهو أسود اللون فاقد الحياة فلما رضع من لبنها رجع إلى الحياة وجرى في جسمه الدم فانقلب لونه أحمر) اجتذب نظري وراء هـذه البقرة صندوق كبير الحجم يبلغ طوله نحو المترين وعرضـه متر ويزيد كله مغشى بالذهب والأحجار الـكريمـة . ولا غرابة إذا قلت إنه عجيبة من عجائب الفن . هـذا الصندوق

ظاهره محلى بالرموز الدينية بدلا من الزينـة وإطاره الأعلى محلى بثعابين رافعـة الرأس من فوقها ثعبان عظيم من الذهب البارز يحرسه . أما أسفل هذا الصندوق فيحيط به أربع إلاهات كل منهن ناشرة جناحيها على جهة من جهات الصندوق. ويخيل إلى أن هذه التماثيل الأربعة من الذهب الخالص ويبلغ طول الواحد منها نحو الثلاثين سنتمترا .

وهذا الصندوق يشتمل على أربع أوان من المرمر في كل منها جزء من أحشاء الملك . وكل غطاء على شـكل إله خاص موكل بحراسة الأحشاء وهـذه الآلهة الاربعة تعرف عند المصري بأولاد حوريس الأربعة وهي : امستي ، قبح سنوف دوامتف ، وحابي . أما الالاهات التي تحيط بخارج الصندوق فهى الالاهـة ، ايزيس ، ونفتيس ، وسلـكت ، والمعبودة نيت وكلها موكلة بالدفاع عن هـذه الأحشاء وحفظها حتى يستردها الميت عنـد ما يبعث . وكان المصري ينتزعها بعد الموت ويحنطها حتى تبقى مدة طويلة أو لحين بعثه

لفت نظري بعد ذلك كثرة المراكب الشراعيـة المفرقة في أنحاء الحجرة وكلها كاملة العـدة . غير انه قد استوقفني من بينها مركبان الأول يبلغ طوله نحواً من متر ونصف متر بمجاذيفه وأمراسـه : والثاني أصـغر بكثير لا يتجاوز نصف متر . ولـكنه مستكمل العدد بشراع بديع الصنع وهو موضوع فوق مشنة كالمشنات التي نستعملها إلى يومنا هذا إلا أنها مصنوعة من سـيقان البردي . ويبلغ عدد هـذه المراكب المبعثرة في أنحاء الحجرة نحو العشرة كلها صـغيرة الحجم . وسـبب ذلك ان المصري كان يعتقد أنه سيتمتع في الآخرة بمـا كان يتمتع به في الدنيا . ولما كان يؤمن بالسحر كان يعتقد أنه إذا صنع نماذج للاشياء التي لا يمكنه حملها معـه في القبر يمكن أن تنقلب إلى صورتهـا الحقيقية إذا قرأ عليها عزيمة خاصة . ولما كان من الصعب حشر مراكب كبيرة في قبره الصغير صنع هـذه النماذج ووضعها في القبر . على انه قد وجـد مدفونا في بعض المقابر مراكب بالحجم الطبيعي (اسرنس الاول بالمتحف المصري له مركبان)

استوقف نظري بعد ذلك مخزن للغلال على شكل حوض . وهو نموذج كذلك يبلغ طوله نحو الأربعين سنتمترا وفيه ما يقرب من ربع كيلة من القمح الذي لا يزال حافظا لشكله وإن كان قد ذهب عنه لونه قليلا وهذا من الاشياء النادرة جداً . رأيت كذلك بعض عربات للركوب بالحجم الطبيعي (ثلاث منها) كلها مموهة بالذهب وقوائمها مشغولة بالميناء الزرقاء غير انها مفككة قطعا

وجرارات هذه العربات مغطاة بقماش أبيض ذهب عنه لونه بل أصبح بالياً تقريباً . وقع نظري بعد ذلك على صندوق مكشوف فيه تمثالان مزملان بالقماش على شكل المومياء . غير أن الجزء الظاهر منهما يشعر بدقة صنعهما وسبب وجودهما هو أن المصريين كانوا يعتقدون أن الميت بعد بعثه لا بد أن يؤدي عملا يومياً للاله « اوزريس » في حقوله الاخروية (حقول يالو) ولما كان الملك يريد أن يتخلص من هذه الاعمال كان يضع تمثالين أو أكثر ويكتب عليها انها ستقوم عنه بالأعمال التي تطلب اليه في حقول « يالو » فاذا ماقرئت عليها عزيمة خاصة انقلبت إلى أشخاص حقيقية وقامت بالعمل . وأمثال هذه التماثيل تسمى « الاوشيتي » أي المجاوب . وقد وجد في قبور بعض الملوك نحو ٣٦٥ تمثالا « اوشيتي » ليقوم كل منها بعمل يوم من أيام السنة . وهذا هو السبب في كثرة التماثيل الزرقاء اللون في القبور وفي المتاحف .

رأينا بعد ذلك عدة صناديق بعضها بلون الخشب الطبيعي وبعضها أسود بحزام من ذهب وبعضها مطعم بالعاج . وبعضها عليه قشرة من الذهب . ويبلغ عددها بالضبط ٣٥ صندوقا مختومة بخاتم الملك لم تفض بعد ولا يعلم محتوياتها إلا علام الغيوب . وفي اعتقادي انها لابد أن تحتوى على مجوهرات غالية ووثائق تاريخية وملابس للملك وأواني بديعة الصنع .

وبعد أن فرغنا من الزيارة وصعدنا إلى الغرفة التي فيها التمثالان استوقف نظري إناآن من المرمر استخرجهما المستر كارتر من حجرة التابوت : الأول على شكل قدح له كرسي عليه نقوش مفرغة في المرمر وتنتهي هذه النقوش

بصورة علامة ملايين السنين وهي على شكل امرأة راكعة هذا من جانب وفي الجانب الثاني نفس النقش والصورة وفي يد هذه الصورة علامة الحياة (وهو مايسميه العامة مفتاح النيل) وكل ذلك في قطعة واحدة من المرمر الشفاف

أما الاناء الثاني فهو على شكل كأس كبيرة يتفرع منها فرعان كل منهما على شكل ساق البردي وينتهي كل فرع بكأس ثانية وعلى كل منهما كتب اسم الملك ولقبه. كل ذلك مفرغ كذلك في قطعة واحدة من المرمر الشفاف. وعلى كثب من هاتين الكأسين رأيت أوزة محنطة واقفة على رجليها بلون أسود ومنقار أبيض ولا تزال حافظة لشكلها الأصلي ويخيل إلى الناظر أنها أوزة حية وقد وضعها الملك في قبره لتكون غذاء له في العالم الأخير . . انتهى »

وإلى القارىء نبذة جميلة للكاتب الانجليزي (ﻫ . مورتن) نعربها ختاما للجولة الأولى من هذا الكتيب وقد وقع عليها اختيارنا من بين ألوف المقالات لروعة خيالها ورقة عبارتها قال : —

الفصل الحادي عشر

«عصر توت عنخ آمون»[1] الذهبي

أو . مرأى الحياة منذ ٣٠٠٠ عام.

« بعث أخيراً من لحده فرعون عظيم كانت تحف به الأبهة والجلال بعد أن مضى عليه نيف وثلاثون قرنا . . وأن الناس اليوم ليمدوا بأبصارهم ويحملقون في وجه ذلك الفرعون الذي عجزت يد البلى عن أن تعبث به أو بحنوطه فيعرفون فيه فرعون مصر الذى عرفه حجابه وحاشيته منذ ثلاثة آلاف من السنين

(١) توت معناها صورة وعنخ معناها حية فمعنى اسم الملك « صورة آمون الحية » وستكشف لنا الاوراق البردية التى اكتشفت فى قبره عن تاريخ طويل لهذا الملك

وما بعث فرعون بالأمر الهين الصغير ولا عجب إذا زلزل هذا النبأ ارجاء المعمور فطالع النساء والرجال بشغف وعجب عن تلك العروش الذهبية والفرش والرياش المذهبة وتلك العربات التي كشف عن كنزها في مدفنه وتساءل القوم قائلين « ترى ماذا كان شأن الحياة حينما كان توت عنخ آمون أقوى رجل في الأرض ؟ »

ولو فرضنا أن إنسانا من العائشين في ظل القرن الحاضر تناولته يد الزمان وطوحت به إلى عصر غابر كر عليه حتى اليوم أربعة وثلاثين قرنا أبان حكومة الأسرة الثامنة عشرة من أسرات مصر ثم عادت به تلك اليد الينا ثانية لا مراء أنه يقضي ما بقى من أيام حياته لاهجا بتلك العجائب التي رآها ناظره ساعة واحدة فى طريق من طرق « طيبة » فى ذلك العصر القديم المجيد . .

انه لم يظهر للاسرة الثامنة عشر المصرية فى العز والترف والأبهة شبيه فى أى زمان غير أبهة امبراطورية رومه . وانه فى أثناء المائة وخمسين عاماً بين عام ١٥٠٠ وعام ١٣٥٠ قبل الميلاد بلغت مصر أعلى ذروة فى العالم القديم تلك هي المدة التي نرى صورتها فى سفر « الخروج » من كتاب التوراة ومن المحتمل أن أول ملوك هذه الاسرة هم الذين اضطهدوا بني اسرائيل ذلك الاضطهاد الذى انتهى بخروجهم مع قائدهم موسى الكليم بعد بضع مئات من السنين

ومن حكام تلك الاسرة الاقوياء فرعون « امنوفيس » الثالث والد « توت عنخ آمون» اذ فى ابان حكمه بلغت الاسرة رفعتها وعظمتها وقد اهالتها تجاريب الحروب والسلام لأن تدخل فى غمار اول معمعة تجارية فى تاريخ البشر

وما كان يمر عام فى ذلك الحين الا وكنت ترى الجيوش المصرية سائرة الى عاصمة بلادها ومعها صفوف من العبيد الاسرى والبنات وعدد كبير من الخيل والعربات وأسلحة اسيا وكذا الأقمشة النادرة والروائح العطرية والخمور والأخشاب الثمينة ورخام قصور البلاد السورية . وكانت تلك البضائع الاجنبية تعرض على

جميع طبقات الامة فيقبل النساء على روائح البلاد الاخرى العطرية واحجارها الكريمة ويطلب الرجال الفولاذ والجلود وعربات القتال

وسرعان ماأضحت طرق الجيوش سبلا تجارية ومواقع القتال اسواقا وكان يرى الناظر آنئذ على طول شواطئ البحر الابيض المتوسط قبل ان يبزغ فجر المدنية الاوروبية والشرق الأدنى قوافل تنقل البضائع الى القطر المصرى بينا كان الاسطول المصرى يطرد قرصان البحر من أمام الدلتا والجيش المصرى يحمى قوافل التجارة

وكانت عاصمة القطر مدينة « طيبة » ـ طيبة البعيدة القائمة على جانبي النيل تصطلي بشعاع الشمس السرمدى . حيث تزدان بقصور من رخام لامع ومعابد ذات أعمدة هي اعجوبة العصر وفخاره . وحيث كان الاله العبوس «آمون رع» الها للنفوس بينا كان فرعون الها للأجسام . ومن وراء « طيبة » الجميلة ترتفع الارض الى تلال قائمة منحدرة حيث يختبيء وادى المقابر ..

هلم نحاول التغلغل وسط ضباب أربعة وثلاثين قرناً ونسير فى طيبة وقت أن كان « امنوفيس » الثالث فرعونا وكان « توت عنخ آمون » غلاما يلعب فى قصر أبيه . واذا بنا في الصباح الباكر واذا بالشمس قد هبت ترسل شعاعها من سمائها الصافية الزرقاء فوق عاصمة البلاد . واذا بالمدينة محاطة بقصور النبلاء ذات الحدائق الغناء واذا في تلك الحدائق بحيرات من صنع الانسان تسبح فيها خفاف القوارب وصغار المراكب وآجام صغيرة غرست لصيد الغزلان . .

هنا طرق على جانبيها تماثيل أبي الهول وآلهة عجيبة ذات رؤوس حيوانية وهذه الطرق تؤدى بنا الى قلب المدينة حيث تسير جموع غفيرة تتحدث بلغات شتى وتلبس أردية لايحصى لالوانها عد . وهناك فى ظل معبد وقف تاجر يعامل سوريا يعرض فتيات جميلات على جمع كثير واذا برجال من أهل الصحراء يخترقون الجموع مع ثيرانهم . ثم فينيقون بلحاهم المجعدة يعرضون اردية حمراء ومصنوعات رقيقة من ذهب . وهناك شيخ واقف عند بائع النبيذ يتذوق خمرا قبرصيا نادرا .

واذا بوكيل من القصر الملكي يفتش على بائعي الخشب ويكتب مذكرة عن ثمن أرز لبنان . ثم غلام سوري من الرعاة يتطلع الى المعابد الشاهقة ويتقدم نفر من الكهنة حاملا صنم الاله في تابوت وهم يرتلون احدى ترانيمهم . وهنا سيدة من العظماء تسير في الطريق محمولة في محمل ولاذرع عبيدها السود بريق في ضياء الشمس وهم يحركون مراوح من ريش الطاووس وينادون باخلاء الطريق لسيدتهم واذا بجمع من رماة السهام المصريين يسيرون رافعي الرؤوس اذ يعلمون ان كل الارض تخشى بأسهم . وهنا يسمع صوت حوافر خيـل ويقدم امير من العائلة المـالكة في عربة خفيفة يجرها جوادان سوريان ويقودها الامير بنفسـه موثقا سرع الخيل في وسطه .

وسمع فجأة صوت أبواق الحرب واذا بالناس يكتظون ويزدحمون ويشاهدون بريق الدروع والأسلحة في ضوء الشمس وتبدو مركبات قد علاها الغبار تجرها خيول يتصبب العرق من أجسادها واذا بمشاة الجيش يسيرون ثم صف من عربات مثقلة بالغنائم والأحمال ثم مئات من الأجانب في القيود والأصـفاد ومئات من الفتيات العراة والخيول والثيران والأغنام . ان هذا الا مشهد لظافر يسير الى قصر فرعون ليقدم بين يديه ثمار النصر والفوز واذا بفيل افريقي هائل يقوده بعض الرجال يتبع المشهد فيتفرق الجمع حين رؤياه واذا بعـدد من الزرافة يتبعها عدد من قرود أفريقية تقف أحيانا وتتمم للقوم الضاحكين والمتفرجين . والكل ذاهب الى القصر تتبعه سحابة من غبار الطريق وينقضي المشهد فيعود القوم الى تجارتهم وأسواقهم فترى هناك سيدة تبتاع حجراً أخضر ورد من بابل ويشترى عجوز عبداً أتوا به من جزيرة كريت . ويرخي الليل سدوله فيملأ القمر شوارع « طيبة » بشعاع بنفسجي وتشع في المدينة أنوار وتسرى فوق صفحة النيل قوارب صغيرة ويسمع صوت فتاة تنشد أغنية غراميـة مع نغم الاوتار وتتطاير أطيار الماء بين الغاب ويسمع لأجنحتها حفيف اذا اقترب منها قارب في مقدمة نبراس يضيء في الظلام . أما في القصر الملكي فيرى الرائي فرعون ذا الاوتاد

يرفع كأساً من الذهب ويشرب نخب قائده المظفر ثم تصمت نغمات الموسيقى ويجلس الحسان الراقصات فيأتي بعض العبيد حاملين ممياء مزينة ويعرضونها أمام عيون الضيوف قائلين : « اشربوا ومتعوا أنفسكم لأنكم ستكونون كهذه يوم تموتون » .

تلك كانت مرآى الحياة التي عرفها — توت عنخ آمون — في صباه ولكن قدر له أيضاً أن يرى ضياء ذلك العصر الذهبي ينطفيء وثم ينقشع مثل غمامة الصباح

ولقد عاش معه في القصر أمير صغير ابن الملكة « تي » وكان غلاما غريباً ذا رأس مشوهة تنتابه نوبات عصبية وأما أمه التي كانت أجنبية عن البلاد فقد غرست في نفسه بذور مذهب التوحيد وأخبرته عن عبادة الشمس في هليوبوليس وقارنت عبادتها بعبادة الاله ـ آمون ـ الذى كان كهنته أقوى عصبة في مصر

ومات فرعون العظيم فتبوأ عرش البلاد بعده ذلك الغلام الذى يبلغ السابعة عشرة من سنيه أعني فرعون « اخناتون » (١) فشن على آلهة المصريين القديمة حرباً وبشر بديانة التوحيد قبل ميلاد المسيح بثلاثة عشر قرنا معلما الناس بقوله إن الله لا تراه العيون وأنه لايجب أن يسجد الانسان للأصنام

ولما لم يطق صبراً على رؤية جامعة الكهنة في طيبة أو سماع الترتيل للاله آمون ليل نهار أو شم رائحة الذبائح والبخور المحترق أمام الصنم عزم على نقل عرشه وبناء عاصمة جديدة جميلة حيث يكون قادراً على تعليم ديانته الجديدة نخلف طيبة حاضرة الاقليم بعد أن كانت حاضرة القطر كله وإذا بحاضرته الجديدة قد قامت في المكان المعروف اليوم بتل العمارنة وأسماها « مدينة شعاع الشمس » (٢) وملأ هذا البلد في سنين قلائل بكنوز مصر وغنى فيها الاناشيد

(١) سيأتي شيء من تاريخه في النبذة التاريخية ومعنى اخناتون روح اتون

(٢) « اخيتاتون » واما تل العمارنة الحالي فقد اشتهر برسائل تل العمارنة التي وجدت فيه تبودلت بين امنحتب الثالث والرابع وبين ملوك بابل وقبرص وغيرها

للشمس وأبحر في النيل مع زوجه وبناته ليؤسس أول نظرية فلسفية سمع بها العالم ولكن العالم لم يكن مستعداً لذلك منذ ثلاثة آلاف سنة فابى ولاته إرسال الجزية وتمردت القبائل الشمالية ووصل إلى مسمعه أنباء هذا التمرد لكنه لم يشأ أن يسفك دما واذا بالحكومة تضطرب ومناجم الذهب تخمد ومات اخناتون ولم يبلغ الثلاثين من عمره مرقناً ان ديانته قد فشلت وانها أدت بحكومته الى هاوية الافلاس . وفي أثناء هذه التجربة الدينية كان توت عنخ آمون حاجباً في البلاط الملكي وتزوج من احدى بنات اخناتون ثم خلفه على العرش

ففي بادىء أمره عبد توت عنخ آمون الله اخناتون الغير المنظور ولكن لم تمر سنة حتى انتصرت كلمة الكهنة فنقل — توت عنخ آمن — عرشه ثانية الى طيبة مدينة « آمن رع » حيث حاول أن يهدم ما أسسه اخناتون فأعاد أسماء الآلهة القدماء واصلح المعابد المهجورة فى كل أنحاء البلاد ولم تمر عليه ثمانية أعوام حتى انتقل من صفحة الوجود الى صفحة التاريخ »

حول مدفن توت عنخ آمون

ان اوثق المصادر لحقيقة الجنائز المصرية ومعناها هو ما كتبه الدكتور (الان جاردنر) فى كلمته عن «قبر امنمحعت » وفسرتها (نينا دى جاريس) وطبعت عام ١٩١٥ بعناية جمعية الاكتشاف فى مصر

يصف الدكتور جاردنر الحالة مما استخلصه من مقبرة خاصة من قبور طيبة من عهد الاسرة الثامنة عشرة (في حكم تحتمس الثالث اى قبل توت عنخ آمون بنحو قرن من الزمان) وتوصل بفضل علمه ودرسه الى ادراك مغزى نظام المقبرة ولاسيما المناظر والنقوش المحفورة والملونة فوق الجدار والتى اجادت مسز جاريس ديفز فى رسمها وشرحها بدقة ومهارة وهذا الكتاب العجيب يهم كل من يريد الاطلاع على ما كان قدماء المصريين أنفسهم يكتبونه لتوضيح معتقداتهم أو تفسير عاداتهم

وكتب الاستاذ جيمس هنرى برستد منها « تاريخ مصر » و « نشوء الدين والفكر في مصر القديمة » هي خير مرشد للالمام بتاريخ وديانة مصر القديمة.
وكتاب المرحوم السير جاستون ماسبرو عن « الفن المصرى » (طبع لندن عام ١٩١٣) يتضمن شيأ كثيرا يساعد على توضيح ماوجد في مقبرة توت عنخ آمون ولكن صور المستر برتون الفوتوغرافية عن محتويات مدفن توت عنخ آمون وماوجد فيه من أدوات قد اكسبت طبعة المستر برس لكتاب السير جاردنر ويلكنسون عن « عادات وخلق قدماء المصريين » (طبع لندن ١٨٧٨) رونقا ولذة خاصة لان كثيرا من محتويات المدافن والمناظر الجنائزية الواردة في هذا الكتاب المشهور تساعدنا على تصور وادى المقابر حيث وجد مدفن توت عنخ آمون وحيث كشف المستر هوارد كارتر عن أدوات كثيرة مطابقة لماورد في كتاب ويلكنسون المذكور..

وما علم عن حياة توت عنخ آمون قبل اكتشاف مدفنه وحياة حرمحب الذي تولى بعده الحكم ضمنه السير جاستون ماسبرو في كتاب « متلبرتا حرمحابي وتوت عنخ آمون » بارشاد حفريات المستر ديفز

وان الكتب والتقارير التي طبعها المستر تيودور ديفز لنافعة في درس نتائج اكتشاف مدفن توت عنخ آمون وأهم تلك الكتب كتاباه عن « مدفن اريا وتوييو » (١٩٠٧) ومدفن الملكة تي (١٩١٠)

وكتاب المستر ارثر ويجال عن « حياة وأزمنة اخناتون » يعطينا صورة هامة مؤثرة عن تاريخ عصر توت عنخ آمون وتاريخ والد زوجته

نظرة حول مدفن توت عنخ آمون

لم يظهر من قبل في تاريخ علم الآثار حادثة أثارت دهشة الناس كما حدث في اكتشاف المستر هوارد كارتر لمدفن توت عنخ آمون في شهر نوفمبر عام ١٩٢٢ .

وأن ما يعلم عن الملك نفسه قبل القبر لنذر يسير ولكن سرعان ما تكشف مومياه أسرارها وربما يكشف الستر أيضا عن تاريخ حياة الملك الذى نخاله الآن شابا حكم سنين قلائل وقرن اسمه بفضيلة الضعف أكثر من قوة الخلق اذ أن آراءه الدينية والسياسية تبدو مرنة مثل آراء كاهن براى المشهور وانها لتتطور بسهولة ولا يزيد ما وجد في قبره من معلوماتنا التاريخية ولكن رغما عن عدم أهمية توت عنخ آمون نفسه فان ما سببه الاكتشاف في العالم من تأثير ألبس قيمته التاريخية ثوبا هاما قشيباً

فالمدفن يرينا صورة جديدة عن المدنية المصرية ورخائها أثناء ذلك العصر الباهر فان ما وجد فيه من ذهب ونفائس ليفوق في قيمته أى شيء عثر عليه منذ الازمنة القديمة . واذا حكمنا عليها من وجهة العدد والكثرة لوجدنا أن كمية الأثاث والرياش أعجب ماوجد وان كل من فحصها يشهد ان الأدوات الجنائزية المكتشفة في قبر توت عنخ آمون غاية في جمال الصنع وكمال الاتقان

والحقيقة أن قبراً كمدفن توت عنخ آمون قد ذود بمثل هذه الابهة والفخامة ليزيد في أهمية الاكتشاف لأنه اذا كان لمثل هذا الشاب الذى لم يحكم أكثر من ست أو سبع سنين في احدى عصور مصر الضعيفة مثل تلك الثروة التي وضعت فى مقبرته فكم يحاول المرء أن يتصور تلك الرياش والأثاث التي وضعت فى مقابر الفراعنة الذين عاشوا مدة طويلة فى شهرة واسعة مثل تحتمس الثالث الذى شيد أسس الامبراطورية المصرية فى آسيا واستطاع أن يملك زمام العالم المتمدين وقتئذ أو الملك امنحتب الثالث الذى بلغت أثناء حكمه من قوة الملك

والسلطان والابهة والبذخ وما عسى أن يكون ما قد وضع فى المقابر الواسعة التى دفن فيها سيتى الأول ورمسيس الثانى من أولئك الفراعنة الأقوياء الذين استرجعوا ممتلكات الدولة المصرية فى آسيا التى فقدها اخناتون وزوج ابنته توت عنخ آمون

ولا بد ان كان وادى الملوك قبل المسيح بألف سنة يدفن فى جوفه وطياته مقادير الذهب الكبيرة والأثث الفاخرة التي لم يوجد مثلها فى بقعة واحدة فى تاريخ العالم .

وهذا سبب ما أثاره هذا الاكتشاف فى العالم من اهتمام سيظل دائماً مقرونا باسمي اللورد كارنارفون والمستر كارتر

ولكن رغماً عن ذلك الشوق الذي أثير في العالم كأنه يقظة فنية فان للاشياء المكتشفة في القبر قيمة لاتقدر أهميتها من الوجهة العلمية وأنها فيها لمهارة عجيبة والبذخ دفعا الاديب والعامي الذي في الطريق أن يدركا اتساع أعمال المدنية المصرية القديمة وليسألا نفسيهما إذا كان هذا التقدم المعنوي قد أثر على الممالك المتاخمة لمصر تلك الممالك التي ربطتها مصر معها بأواصر المتاجرة بعد أن شيدت سفنا تمخر عباب البحر وتصل البلاد المصرية بالشام وكريت وبشرق أفريقيا وبلاد العرب وبالخليج الفارسي

وإن الشوق في كشف أعمال المصريين وإعلانها بعد ثلاثين قرناً ليهيىء العقول إلى دراسة الحقائق البارزة التي خرجت للملأ بعد أبحاث المستر هوارد كارتر في قبر توت عنخ آمون

وهذا يدفعنا إلى دراسة وتقدير ماعلى جدران القبور من نقوش ومناظر وما فى أوراق البردي من كتابات وصور

والآن قد ظهرت كتابات بلزونى ولبسيوس ووزوليني وويلكنسون فى نرب قشيب منذ اكتشف قبر توت عنخ آمون

وحينما يتم فحص ذلك المدفن ودرسه ونتعلم كثيراعن مومياء الملك وظواهره

وعمره وعلله نستطيع أن نقرأ تاريخ عصره بأكثر وضوح وجلاء وربما استطعنا أن ندرك شيأ كثيرا عن تاريخ المدنية المصرية فى عصر توت عنخ آمون أخذت الشعوب التي شيدت صروح المدنية تفقد سلطانها ونفوذها وكانت قوى مصر تتخاذل وأدركها الضعف الذى كان سببه اخناتون وأزواج بناته وسياستهم الرخوة الهادئة وحينما جاء دور الأسرة التاسعة عشرة التي حكمت مصر بقوة وسلطان ولكنها لم تحدث الا انتعاشاً قليلا في قوة مصر قبل اضمحلالها

وقبل حكم توت عنخ آمون بخمسين سنة خرب قصر كنوسوس في كريت مؤذنا بسقوط قرصان البحر العظيم وسلطانه في البحر الأبيض المتوسط ذلك السلطان الذي ورثته بعده اليونان ثم اوروبا

ووصلت بابل أيضا الى ذروة نفوذها واذ خارت قوى تلك السلطات الثلاث الاولى اتسع المجال للحثيين والاشوريين فقام كلاهما يتنازعان الرئاسة ويتصارعان حبا في كسب السلطان

ولما ذهب بهما الاعياء والكلال مذهبهما مهد السبيل لدولة الفرس للخروج الى حوض البحر الابيض المتوسط وثمة سبب آخر يفسر الضعف الفجائي الذي لحق بالنفوذ المصري في آسيا في عهد اخناتون وتوت عنخ آمون وهو ذات أهمية وحادث كبير في تاريخ المدنية وهو أنه حدث في زمان كانت فيه الآداب اليهودية سائدة على الحياة الاجتماعية . فلو فرض أن الحكم المصري لم يضعف في ذلك الزمن المعلوم ولم تخضع فلسطين للتأثيرات السورية والحثية والأشورية ما كان كتاب التوراة ليظهر في نغمته الخاصة الممتازة ويبدو لنا اليوم مبالغا في تعظيم أهمية الحروب وقيمة الشجاعة الحزبية . .

ولكن اذا كان ضعف اخناتون وتوت عنخ آمون معزوا من بعض وجوه الى حرب فلسطين وأثر ذلك على الآداب المقدسة في العالم فان الأزمنة التي وقعت فيها تلك الحوادث كانت ملآى بنقائص جديدة في سير المدنية ولم يكن هذان الملكان الضعيفان مسئولين عنها . .

وظهر على مسرح التاريخ لأول مرة قوم يتكلمون بالاريانيـة وبدأ ظهورهم في آسيا الصغرى وحول منابع الفرات في سوريا وقدر أن يكون نفوذهم ظاهراً في فارس والهند وله الاثر على العقائد الدينية والاطوار الاجتماعية .

وتقع بين آسيا وأوروبا اقليم له الفضل في نشر عناصر المدنيـة في عـدة قرون منها عصر توت عنخ آمون وما تلاه — تلك هي فينيقيا التي نعرف مالها من شهرة في التجارة والذين مثلوا الدور الذي وصف في كتاب حزقيال النبي

اكتشاف مقابر طيبة الملكية

يمكننا أن نقول ان أعمـال الحفر في وادي مقابر الملوك بدأت عام ١٨١٩ حينما فتح الرحالة بلزوني مدفن الملك سيتي الاول وكتب وصفه وفي عام ١٨٨١ كشف السـتار عن مجموعة من الموميات الملـكية التي خبأ أكثرها منـذ نحو ثلاثين قرنا في وادي المقابر ثم نقلت عام ألف قبل الميلاد وخبئت في حجرة في التـلال الـكبيرة القائمة وراء الدير البحري مواجهة للنيل في سهول طيبـة فأثار ذلك حب البحث في المدفن المشهور « وادي المقابر » ولـكنه حتى عام ١٨٩٨ أسفرت أعمال الاكتشاف عن كشف مقبرة امنحتب الثاني المحتوية على مومياء الملك نفسه وهي الممياء الوحيـدة لفرعون وجدت في مدفنـه قبل اكتشاف مدفن توت عنخ آمون الذي لايشك في الاعتقاد بوجود مومياء الملك نفسه فيه آمنة لم تزعج وان جثة الملك امنحتب الثاني نهبت مثل كل الموميات التي اكتشفت قبلها او حتى فتح قبر توت عنخ آمون الذي يرى أهل هذا العصر لأول مرة قبراً لملك من قدماء المصريين لم تعمل فيه أيدي السطو والسرقة . .

ولما عين المستر هوارد كارتر مفتشا للآثار في الوجه القبلي كان أول واجبه واهتمامه موجها الى حراسة آثار طيبة . ولقد اعتادت الحـكومة المصرية بهمة مصلحة الآثار حتى عامنا هذا الترخيص لعلماء الآثار بالحفر في البقاع التاريخية القديمة

كما سمحت لهم بالاستيلاء على نصف ما اكتشفوه ولكن وادى مقابر الملوك خرج عن دائرة هذا الترخيص لان مصلحة الآثار حفظت لنفسها الحق في الاستيلاء على كنوز مثل ذلك المكان الهام في التاريخ وعلى ذلك لما أخذ المستر هوارد كارتر على عاتقه التفتيش في طيبه كان في مأزق حرج إذ أن وادي مقابر الملوك القصي الذي يحوي أكبر مجموعة للعاديات الثمينة كان في عهدته وكان من أهل الاقصر الحاليين الشيخ عبد الجرناح فئة من لصوص المقابر الماهرين الذين اعتادوا النبش والسرقة منذ عدة قرون ولكن المستر كارتر لم يستطع أن يذلل هذه الصعوبة بالمراقبة اللازمة الشديدة اعني باستمرار الحفر هناك لان مصلحة الآثار لايتوفر لديها ذلك المال الكافي لمثل هذا العمل وللأسباب المذكورة لم يسمح للحافرين المخصوصين بالعمل في وادي المقابر . ولقد كان المستر كارتر سعيد الحظ اذ وجد حلا للمسألة والتغلب على تلك المصاعب . فقد زار مصر في شتاء عام ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣ المستر تيودور ديفز من مدينة نيوبورت بجزيرة رود ووهب مصلحة الآثار المال اللازم للحفر في وادي المقابر دون أن يطالب بأية مكافأة وعليه ففي عام ١٩٠٣ بدأ المستر هوارد كارتر يحفر في الوادي على حساب مستر ديفز واكتشف مدفن تحتمس الرابع . ولم تكن مومياء هذا الفرعون التي وجدها عام ١٨٩٨ مسيو لوريه في قبر امنحتب الثاني ملفوفة بعد ان وجد مدفنه الأصلي وقد طبع مستر ديفز كتاباً نفيساً تقريرا عن العمل في المدفن ونتائج فحص المومياء وفي السنوات التالية وجدت البعثة التي يمدها المستر ديفز بالمال ستة قبور أخرى مهمة منقوشة وهي مقابر الملكة « حتشبوت » و (يوا) و (توا) (والدي الملكة تي) والملك « سبتاح » والامير « منتوحر خبشف » والملك « اخناتون » والملك « حرمحب » وتسعة قبور غير منقوشة يحتوي احداها على حلي الملكة « توسرت » النهبية الجميلة وزوجها الثاني « سيتي الثاني » وفي أخرى قطع من الذهب مكتوب عليها « سرقت أثناء حكم حرمحب من مقابر الملكين توت عنخ آمون وآي »

وأكمل مستر ديفز قبل الحرب نصيبه من العمل وزعم أنه وجد مدفن توت عنخ آمون ويقول في مقدمة آخر مجموعة تقاريره « أخشى أن وادي المقابر قد أدركه التعب والكلال » ولكن لحسن الحظ لم يقره المستر هوارد كارتر على رأيه . وبعد ان وضعت الحرب اوزارها طلب اللورد كارنارفون الذي كان المستر كارتر يعمل معه منذ عام ١٩٠٧ من مصلحة الآثار ترخيصا ليواصل العمل في وادي مقابر الملوك حيث تركه المستر تيودور ديفز وقد ادى مجهود اللورد كارنارفون والمستر كارتر قبل ان يحلا محل المستر ديفز الى اكتشافات هامة طبعت نتائجها عام ١٩١٢ في الكتاب الجميل المسمى « خمس سنين اكتشاف في طيبة »

وقد ادى بحثهما في وادي مقابر الملوك الى اكتشافات باهرة تفوق ما اتى به من سبقهم وبدلا من ان يحفرا فتحات اكتشافية في اكوام الرمال بدآ يزيلان ما على الارض من الاكوام الهائلة التي قدرت بنحو مائتي الف طن وبالرغم من عدم تشجيعهما في عملهما الشاق وما يتكبدانه من النفقات الباهظة دون ان ينالا اي جائزة من ذلك العمل المجهد ظلا يعملان بصبر واستمرار حتى اليوم الخامس من شهر نوفمبر عام ١٩٢٢ فنالا ثمرة عملهما من اعجب ما اكتشف في تاريخ علم الآثار واعلن اللورد كارنارفون اكتشافه فى اليوم الذي سبق يوم سفره من لندن الى مصر . .

ان المكتشفين لم يجدوا فى مدفن الوزير « رخمارا » اي اداة مما دفن معه وبعد البحث عنها بقرب القبر تقرر ان يجري التنقيب فى وادي المقابر وفى اثناء تنظيف ارض الوادي من الرمال والأتربة لهذا الغرض وجد المستر كارتر سلما منحوتا فى الصخر فواصل الحفر حتى وجد جدارا من المصيص منقوشا عليه خاتم المدافن الملكية وما هى إلا برهة حتى كشف عن وجود قبر فتح بعد الدفن بزمن قصير وانه يحمل خاتم الملك توت عنخ آمون . .

وقد روت الصحف اليومية قصة الكنوز للدهشة التى وجدت في هذا القبر

أولا فأولا منذ نوفبر ١٩٢٢ حتى ديسمبر عام ١٩٢٥ وأرتنا رسوم المستر برتون الفوتوغرافية صورة حقيقية عنها . .

وثمة فرق جلي بين رسم هذا المدفن وبين المقابر المألوفة في طيبة ولكنه يصبح غامضا اذا ماقورن بتلك القبور التي صنعت في عاصمة الملك اخناتون الخارج على دينه .

وفحصت الحجرة الاولى من الأربع الغرف في المدفن وفحصت الاخرى ويظهر لنا فيها اعجب مجموعة من الرياش القديمة

ولكن أعجب مافي المدفن من مشاهد هو ما في مخدع المومياء فيظهر لنا التابوت والاكفان وغيرها وكيف كانت مومياء ملكية تعد لمقرها الابدي

وقد صنع رسم مقبرة رمسيس الرابع منذ اكثر من قرنين بعد زمن توت عنخ آمون وكان هذا الرسم الدليل الوحيد الذي وجدناه عن كيفية ترتيب الاكفان داخل التوابيت ثم انأ كفان «يوا» و «توا» جدي زوجة توت عنخ آمون قد سبقت فأنبأت عما ستكون عليه اكفانه ولكن ماظهر في اثاث قبر توت عنخ آمون وصناعتها تفوق كثيرا ماوجد في المقابر الاخرى حتى اننا لندهش مما يوجد في غرفة التابوت ومن نجاح المحنطين اذ أن فن التحنيط كان فى تقدم من حكم امنحتب الثانى حتى رمسيس الثاني ولكن هنالك نقط هامة فى فن التحنيط مازالت غامضة . .

وقد ظهر حشو الجسم بالمواد في التحنيط لأول مرة في جثة امنحتب الثالث وبطلت هذه الطريقة في زمني الاسرة التاسعة عشرة والعشرين ثم عادت في الاسرة الحادية والعشرين ومن المهم أن نرى هل كانت هذه الطريقة متبعة في عصر توت عنخ آمون .

من هو توت عنخ آمون ؟

بينما كان المرحوم المستر تيودور ديفز جادا فى البحث والتنقيب فى وادي مقابر الملوك فى عامى ١٩٠٦ و ١٩٠٧ عـثر على مجموعة من الأدوات عليها اسم توت عنخ آمون والارجح انها سرقت من مدفنه ابان حكم حرمحب وبعد دفنه ببضع سنين . .

ووجد المستر ادوارد ايرتون الذي كان يعمل فى ابحاث المستر ديفز عام ١٩٠٦ تحت صخرة كبيرة فى سفح تل مرتفع كأساً جميلة زرقاء نقش عليها خاتم توت عنخ آمون . .

وفى العام التالي بينما كان المرحوم المستر هارولد جونز ينقب عثر على حجرة مفرغة فى الصخر تحتوي على أدوات تحمل اسم توت عنخ آمون فظن المستر ديفز انه اكتشف مدفن ذلك الملك . وفى الكتاب الذي طبع عام ١٩١٢ شرح لما أجري من البحث فى عام ١٩٠٦ و ١٩٠٧ و ١٩٠٨ (وفى أثناء السنة الاخيرة منها وجد قبر حرمحب على الجانب الجنوبى من الغرفة المذكورة) وعنوان ذلك الكتاب « مدفنا حرمحبي وتوت انخ امونو (توت عنخ آمون) » (من حفريات تيودور ديفز فى « (بيبان) الملوك »)

وذكر المرحوم السير جاستون ماسبرو كل ما كان يعلم وقتئذ عن تاريخ حياتى حرمحب وتوت عنخ آمون ولكنه لم يلاحظ الحجرة التي فتحها مستر هارولد جونز زاعما انها مدفن توت عنخ آمون اذ انه قال في ختام تقريره الذي كتبه من حياة توت عنخ آمون وأعماله « أظن أن قبره في الوادي الغربى بين او قرب قبر امنوفيس الثالث (مومياء امنحتب الثالث هى آخر مومياء ملكية عرف عنها انها دفنت في طيبة قبل توت عنخ آمون لان اخناتون وسمنقرع دفنا في تل العمارنة ونقلا بعدئذ الى طيبة) واما « آى » (الذي خلف توت عنخ آمون) في الحكم فانه حينما كانت الثورة قائمة في وجـه آتون واتباعه اخذت

مومياه واثاثه الى مخبأ كما حدث للملكين « تي » و « خوناتون » في عهد حرمحب ثم عثر عليها المستر ديفز بعد نقل ونهب كثير » الا ان هذا خبر لانقطع بصحته

ولكن السير جاستون كان غير مصيب في زعمه ان الحجرة التي اكتشفت عام ١٩٠٧ ليست بمدفن توت عنخ آمون وان مدفن ذلك الملك ربما يكون بجوار سابقه امنحتب الثالث ومن خلفه « آي » هذا زعم ظهر بطلانه باكتشاف المستر كارتر . . والحجرة عبارة عن مخزن ربما حفرها العمال الذين كانوا يصنعون مدفنا لحرمحب الذي خبأ فيه لصوص مقبرتي توت عنخ آمون وآي غنائمهم . .

ولم يتضح بعد سبب عجز هؤلاء اللصوص عن استخراج كل الذهب الذي كان بالمدفن

وكانت الحجرة مدفونة على عمق ٢٥ قدما وكانت ملآى بالطين الذي جرفته أمطار القرون المتوالية ووجد في هذه الغرفة صندوق مكسور فيه بضع قطع ذهبية مختومة باسم توت عنخ آمون وزوجه « انخ من آمون » وغيرها مما عليه اسم خلفه الملك « آي » وزوجه « تي » ولكن بلا لقب . ووجد في الطين التمثال البديع المصنوع من المرمر الشفاف وعلاوة على قيمته الفنيه فان هذا التمثال بديع بالنسبة للوشاح الذي يغطي حقويه فانه مربوط على النمط السوري ولكن لسوء الحظ لم يكتب عليه شيء ويظن المسيو دارس أن هذا التمثال ربما يمثل الملك « آي » قبل ارتقائه العرش

ولقد وجد في المدفن المكتشف حديثاً أن بعض صفائح الذهب منزوعة من العرش ومن بعض الأثاث ومما يلاحظ أن الصفائح الذهبية المنقوشة والمكتشفة عام ١٩٠٨ وعليها مناظر انتصارات توت عنخ آمون والاسرى وجدت لتزين أثاث القبر وقطع أخرى من الذهب تمثل مناظر شبيهة بالمناظر التي سرقت من مدفن خليفة توت عنخ آمون (آي)

وبعد أيام قلائل من اكتشاف الحجرة التي تحتوي على المسروقات وجدت حفرة غير بعيدة منها تحتوي على آنية خزفية فيها باقات أزهار وأكياس صغيرة

من مادة مسحوقة ووجد غطاء احدى هذه الآنيــة مكسوراً وملفوفا بقطعة من التيل عليها كتابة بالمداد تشير الى السنة السادسة من حكم توت عنخ آمون

وقد ذكــرت في هذا الــكتاب ان السير جاســتون ماسبرو جمع نتف المعلومات القليلة عام١٩١٢ مما تتعلق بحياة وحكم توت عنخ آمون

ويوجد في المتحف البريطاني نموذجان لاسدين منحوتين من الجرانيت الاحمر وقد صنع أحدهما في عهد امنحتب الثالث ليوضع في معبد في السودان وأما الثاني فربمــا نحت لتوت عنخ آمون الذي يدعى « انه أصلح آثار أبيــه امنحتب » وقد ظل العلماء مدة قرن يتساءلون عن لفظة « أبيه » هنا

هل الحقيقة ان توت عنخ آمون أخ أو نصف أخ لحموه الملك اخناتون ولكن ربما استعمل اللفظ كصيغة التبجيل لسلفه أو لان تبوؤ توت عنخ آمون العرش كان لقرانه بابنــة اخناتون وهي العادة في مصر القديمــة لتأسيس حق وراثة الملك . .

وكان توت عنخ آمون وقت زواجه وارتقائه العرش تابعا لدين آتون الذي أسسه حموه وكان اسمه توت عنخ آتون ولكن بعد أن مات اخناتون نبذ توت عنخ آتون وزوجه (انخسنباتون) تلك العقيدة وعادا الى ديانة آمون وغير اسمهما دليلا على تغييرهما العقيدة فاصبح اسمهما «توت عنخ آمون» و «انخ سن آمون» وهاجرا من العاصمة الجديدة التي بناها اخناتون الى طيبة مركز كهنة آمون الذين كانوا بلا شك المسئولين عن السبب الفجائي في تحول توت عنخ آمون إلى ديانته القديمة . .

وكل ما نعلمه عن حكمه هو من الكتابات المنقوشة على معابد طيبة التي أصلحها بعد رجوعه الى الدين القديم ولو أن معظم هذه التقارير غير صادقة لان حرمحب وضع اسم توت عنخ آمون على كثير منها . .

وثمة مصدران مهمان علمنا منهمــا شيئا عن توت عنخ آمون وهما : قطعة التيل المكتشفة عام ١٩٠٧ والتي كانت الدليل على ان حكمه دام ست سنوات

وثانيهما مجموعة بديعة من صور الجدار في مقابر « هوي » في (المراي) والتي هي الدليل الوحيد عن علاقات توت عنخ آمون بالحبشة وآسيا وهي الصور المألوفة في حياة قدماء المصريين التي ذكرها شامبليون ولبسيوس وبروجس وبيهل وأما الكتابة التي تصف تلك الصور فقد ترجمها الاستاذ برستد الى الانجليزية (راجع كتابه عن سجلات قديمة عن مصر الجزء الثاني من صفحة ٤٢٠ الى ٤٢٧)

الفصل السابع عشر

أهمية اكتشاف مدفن توت عنخ آمون

ان عيون العالمين شاخصة الى مدفن توت عنخ آمون ومايخرجه من عجائب عن أعمال قدماء المصريين السامية في الفن والصناعة وفي الحق ان هذا الاكتشاف الجديد أثر على موقفنا ازاء تاريخ التمدين وزادنا معرفة عن الثروة الوافرة التي كانت مخبأة منذ ثلاثين قرنا في وادي مقابر الملوك فان الاكتشاف الجديد يظهر لنا بمرأى الجمال الباهر أكثر مما يزيد من علمنا وأن تأثيره ليحمل الاديب والعامي على الاهتمام بالمدنيـة التي استطاعت اخراج مثـل تلك الأعمـال الفنية والتهذيب السامي

ولـكن ما يعنينا الآن هو اعتبار أهمية الاكتشاف بمـا تضمن على أثاث ورياش لم يصنع قبلها أفخر منها في الصناعة والزخرفة والتيل بجماله ونعومته وآنية المرمر التي لم ير العالم مثلها من قبل والتماثيل التي تحقق زعم القدماء أنها صور حية فما معنى مظهر المهارة والجمال ؟ ولماذا خزنت كل تلك الثروة في طيات الخفاء في تلك المغارة المنفردة فتدفن في هـذه المقبرة الغريبـة بعيداً عن الانظار أجمـل مارأى العالم من حسنات الفن القـديم والصناعة الغابرة ؟ أن الاجوبة الحقة على هذه المسائل لتكشف لنا عن القوة الباعثـة على رقي المدنيـة المصرية . واليك كلمات تفسر ذلك : —

الفصل الثامن عشر

كلمة في التحنيط والخلود

كل تلك المعدات المتقنة والعمل الشاق الكبير في تفريغ القبر في الصخر الصلب وتجهيزه بمثل تلك الروعة قد صنعت لان قدماء المصريين اعتقدوا أن جثة الملك اذا حفظت فيها فانها لاتبيد وخالوا انه مادام الجسم محنطا فان بقاء الملك وخلوده مضمونان وعلى ذلك زودوه بالطعام واللباس والرياش والاثاث والجواهر والحلي والنفائس الاخرى التي اعتاد التمتع بها قبل أن يؤخذ الى مقره الابدي في وادي المقابر المهجور

ولا يخفى ان في أوائل أيام التاريخ المصري كان هذا الاعتقاد سائداً وظهر ايمانهم هذا في شكل محسوس في صنع الحاجيات المادية لكل ما يحتاج اليه الميت . وكان هذا اليقين مؤسساً على ممارسة تحنيط الميت أو صيانة الجسد حتى يصبح خالداً لا يبلى في كر الغداة ومر العشي وتلك عقيدة راسخة في إمكان حفظ جثة الميت

وكان الامل في تجديد الحياة مبنياً على القوة الفعالة في فن التحنيط وفي تلك المثابرة الغريبة على جهدهم لمدة تربى على ثلاثين قرناً لترقية هذا الفن وابلاغه درجة الكمال

ولقد اخترعت صناعة النجارة في بدء أمرها لصنع النعوش التي يحفظ فيها الجثث وكان فن البناء وقفا على إعداد القبور وتهيئة أماكن للميت وملحقات لها يمكن لذويه وأقاربه أن يأتوه فيها بالطعام الضروري له ومحال لتحفظ فيها تماثيله . .

فكانت عناصر المدنية كالفنون المعمارية والحفر والنجارة والبناء نتائج لازمة لفن التحنيط الذي كان له أثر كبير في العقائد والطقوس

الفصل التاسع عشر

عقائد عريقة فى القدم

ان تاريخ الاعتقاد بامكان استمرار الحياة بعد الموت ربما كان أقدم من المصريين أنفسهم . ولكن يظهر أن العقيدة بالخلود لم تنشأ الا بعد أن استنبطت الوسائل التي تؤدي الى خلود الجثة . وفوق ذلك فان طقوس الديانات الأولى القديمة كانت مؤسسة على أعمال المصريين الأول في إنعاش المومياء أو التمثال الممثل لها بحرق البخور وفتح فم الجثة لتستنشق نسائم الحياة وأداء فصول روائية لانعاشها

وبهذه الطقوس زعم أن الكاهن المنوط بهذه الخدمة قادر على إرجاع الشعور الى الجثة وجعلها تأخذ قسطا من الحياة بل ويمكنها أيضا أن تسمع دعوات الارشاد ولتجيب مثل تلك الطلبات ومصر بين الأمم العتيقة هي الامة الوحيدة التي تفسر هذه المعتقدات الغريبة التي نشأت قبل المدنية ومنذ أكثر من ستين قرنا

الفصل العشرون

فجر المدنية

بدأت المدنية حينما اخترع المصريون أولا طرق الزراعة والري . وكان لمهندس الري شأن كبير في تاريخ العالم اذ ان اعماله تتناول كثيراً من شؤون الحياة ولذا فقد كان له المقام الاول في الامم ولقد اثبت التاريخ سواء في الازمنة القديمة أو الحديثة ان لابد من وجود حكومة مطلقة قوية في وادي النيل يلقي على كاهلها تنظيم طرق الري وتوزيع المياه بالعدل والقسطاس في البلاد وليس من العجيب ان المهندس الذي باشر هذا العمل بنجاح فى الازمنة السالفة كان قيما على حياة الامة وفى الحق مليكا على البلاد حتى عده أهل زمنه إلهاً . هكذا

كان الاله اوزيريس الذي هو إله النهر الذي كان يمنح القوت والحياة . .

ولا بد وانه ظهر من العجيب لشعب لم يمارس مثل هذا النوع من القوة من قبل ومن الخارق للعادة ان رجلا فرداً فى قدرته المطلقة نجاح امـة باسرها وكل فرد فيها . .

والعلاقة بين هـذه الحـكاية وقبر توت عنخ آمون مثلا ربما لا تظهر جلية ولـكن اذ يتحقق ان أصـل النظام الاجتماعي كان متحداً بالاله اوزيريس يمكننا أن ندرك ان طقوس التحنيط والدفن أشارا الى اتحاد الميت باوزيريس وبتمثيل الحوادث التي كانت عليها حياته

وأول ملوك مصر الاغنياء الذين عملوا على إثراء مملكتهم لم يترددوا فى اعداد مقابرهم اعتقادا منهم انهم انمـا يسعون نحو حياة بعد الموت وكانوا بعـد القرون العديدة متأثرين بنفس الفـكرة وصرفوا مبالغ وافرة من المـال فى سبيل اعداد قبورهم فى وادي الملوك . .

وعلى ذلك فنحن فى الـكشف عن تاريخ المصريين فى التطور العقلي انمـا نسبر غور العادات والعقائد فى حياتنا العصرية واليومية وعلينا والحالة هذه ان نعـد التحنيط كشيء أ كثر من عمـل غريب يثير دهشتنا اذ انه لعب دوراً مهما فى تكوين المدنية سواء فى الفنون أم فى الصناعات . .



الفصل الحادي والعشرون

اعادة الحياة للموتى

اذا تأملنا فى كيفية التحنيط واغراض من مارسوه فاننا نجد ان فى العصور الطويلة التي فيها كان المحنط المصري يرمي دائما الى غرضين الاول حفظ أنسجة الجسم الرئيسية بقدر ما يمكنه مع محاولتـه ايضا العمل الأكثر صعوبة فى حفظ الشكل الطبيعي للجسم لاسيما ملامح الوجـه او بعبارة اخرى كان الغرض ان يجعل تمثيل الميت شبيهاً له بقـدر الامكان حتى يظل حياً وضامناً للحصول على البقاء واعتقد المصريون الأولون يبساطة انهم كانوا يمنحون فعـلا الحيوية على الصورة التي يصنعونها طبقاً للأصل

وقد استعملوا فعلا وصف به عمل النحات الذي كان يصنع دمية الميت ويعني هذا الفعل كما قال دكتور جاردنر « يمنح الولاده » بمعنى « يمنح الحياة » وليس ثمة من شك انهم عنوا بهذه الفكرة عن منح الحياة ليسلم بها كحقيقة وليست مجرد رمز

ولا يجب علينا ان ننسى انه حينما كانت هـذه المعتقدات تنشأ باديء بدء منذ أكثر من ٥٠ قرنا لم يكن هناك علم أو فهم لمباديء العلوم وعلم الحياة ليمنع اتخاذ مثل تلك الخيالات الساذجة كحقيقة صادقة واضحة وليس من سبيل للشك ان فلاسفة تلك الايام قد أخلصوا فى الاعتقاد باستحالة تطويل البقاء

لما كان التحنيط فى أول أمره يمارس فى زمن الاسرة الاولى (منذ ٣٤٠٠ ق . م) . وجدان جو مصر ملائم لحفظ أنسجة الجسم ولـكن حفظ ملامح الوجه لم يتوصل اليه وقد عملت كل التجارب فى زمن الاسرة الثانية والثالثة والرابعة بلف الجثة حتى تصل الى شكلها الاصلي وبصبغها بالالوان الطبيعية ولما فشلوا فى في جعل الصور تطابق الاصل المحي استنبطوا فن التماثيل التي تمثل الميت من الحجر أو الخشب واستعملوا عيون صناعية ملونة . وان المهارة التي تغلب بها المصريون فى عصر بناء الاهرام على المصاعب فى فن النحت وصناعة تماثيل بالحجم الطبيعي لهي من أعجب الاعمال فى تاريخ الفنون .

الفصل الثانى والعشرون

التقدم فى الفن بعد ٢٠ قرنا

ولو أن هؤلاء الحفارين الاولين لم ينجحوا في تحقيق غرضهم الا انهم قد بلغوا بفنهم درجة الكمال وتوصلوا الى جعل الموميا نفسها كشبيهة بالميت انكبوا على عملهم بصبر ومثابرة في طول القرون ولكنهم لم يحققوا أملهم الابعد أن حاولوا ذلك أكثر من عشرين قرنا حتى أواخر عهد الاسرة الثامنة عشرة حوالي عهد توت عنخ آمون

وقد نرى ثمرة أعمالهم فى موميات يوا وتوا وسيتي الاول التي تعني ان فى هذا العهد من الاسرة الثامنة عشرة كان للمحنطين مهارة ومقدرة على جعل الموميات كاملة بقدر ما استطاع الذكاء المصري أن يظهره

ولكن لصوص المقابر المصريين لفتوا نظر العالم الى موميات كثيره فى أوائل عهد الاسرة الثامنة عشرة وكذلك التاسعة عشرة والعشرين والتي كشفت عن غلطات ظاهرة فى تلك الصناعة . .

ويظهر ان كل ماحدث من النهب والسطو على الموميات الملكية فى الاسرة العشرين وماحصل عليه الكهنة من العلم كان السبب فى تطور فن التحنيط فى الاسرة الحادية والعشرين حيث أتيحت لهم فرصة لدرس التحنيط و لاغلاط التي وقع فيها أسلافهم . .

اي أنهم كسبوا بهذه التجربة مايظهر فى التغيرات التي احدثوها فى عملهم بعد أن تحققوا أن الطرق المستخدمة في عهد الأسرة العشرين قد فشلت في المقصود فكان جل همهم موجهاً نحو معالجة النقائص الكثيرة الموجودة في موميات الأسرة التاسعة عشرة والعشرين فملأوا الخدود الغائرة حشوا بالقماش أو الطين ووضعوا عيونا صناعية وحفظوا الاذنين والأنف والشفتين بالشمع وصنعوا الخدين باللون وأدخلت على الفن عناصر أخري جعلت المومياء شبيهة بالصورة الحية الأصلية

ووصل فن التحنيط إلى أوج تقدمه أثناء الستة قرون من سنة ١٥٠٠ الى ٩٤٠ ق. م . وهي المدة التي يرجع اليها عمر المومياءات الملكية في متحف القاهرة. وتكشف تلك المومياءات عن ممارسة قدماء المصريين فن التحنيط اثناء عظمته وكماله وتمدنا بالمعلومات التي تبصرنا بتاريخ التحنيط

وقد بينا الغرض الذى يرمي اليه قدماء المصريين من بناء وتجهيز قبور ملوكهم فكانت جثة فرعون تحنط ليضمن استمرار بقائها داخل القبر ودعاهم ذلك الى تجهيز القبر بسخاء وتزويده بكمية كبيرة من الطعام ليعينه ويعطيه كل الراحة والرضاء حينما كان حياً يرزق

وأضافوا الى ذلك النقوش على جدار المدفن وعلى تابوته ونعشه وعلى أوراق البردي الموجودة فى قبره وكتابة خاصة توضح اتحاده باوزيريس . .

ومما وجد في صحبة موميات ملوك الأسرة الثامنة عشرة مايسمى « اوزيريس المنبت »

ولقد وجدت أمثلة عدة من هذا الرمز في مقابر الاسرة الثامنةعشرة وحتى عهد امنحتب الثانى عام ١٤٢٠ ق . م . كما يلاحظ ذلك في قبر خليفة حرمحب عام ١٣١٥ ق . م . وتحتوي على صندوق مجوف طوله نحو خمسة أقدام بمثل الاله أوزيريس لابساً تاجاً وبيده السوط والعصا وبعنقه قلادة

ويملأون هذا الصندوق بالثري تبذرفيه حبات من الشعير حتى اذا مانبتت وارتفعت الى علو بوصتين أو ثلاث ثبت عليها غطاء خشبي وهذا الغطاءمنحوت وملون بالأصفر ومكتوب عليه أخبار الجثة والحلي

الفصل الثالث والعشرون

الملك أوزيريس

وان اتحاد الملك الميت مع أوزيريس (الذي كان نعشه في البدء ملكا ميتاً) والذي رمز الى قواه السحرية بالشعير النابت يعتبر كمجدد للحياة ومانح استمرار البقاء

ولقد فسرنا فيما سبق أن كل عادات المصريين الأولين في الدفن وحفلات المقابر كانت موصى بها في تطويل البقاء وكان الجسم يحنط لئلا يفني ويبيد ويمد بالطعام الوفير وبكل ضروريات الحياة لتطول بقاء الجثة ومدة حياتها

وأخذ الشعير دورا هاماً في العقيدة الأولى وكان الشعير قوام الحياة وهو الذي يصنع منه الجعة الشراب المقدس رمز الحياة .

إلا ان الصورة التي تتخذها حبة الشعير في نبتها ونموها أدى الى الرمز بها عن منح الحياة . وأم الغلال أخذت شهرة في كونها قادرة على تطويل البقاء في طرق أخرى غير امداد الطعام والشراب

ولقد ترجم المسيولاكو كتابات النعوش في الدولة الوسطى ٢٠٠٠ ق.م - مما يشير الى اتحاد الميت باوزيريس والشعير

وفي كتابات الاهرام قبل ذلك بقرون طويلة فقرة ترجمها الاستاذ برستد هذه نصها « انا أوزيريس . أعيش كالآلهة . أعيش كالحبوب ، وأنمو كالحبوب . أنا الشعير »

وكما ان النيل الذى مثل باوزيريس حمل الحياة الجديدة الى حبات الشعير يربيها بمائه كذلك اعتبر الاله قادرا على منح اجازة جديدة للبقاء للميت

الفصل الرابع والعشرون

وادى مقابر الملوك

حوالى عام ١٥٠٠ ق . م . حينما اختار الملك تحتمس الأول تلك المفازة المنفردة المعروفة الآن بوادى مقابر الملوك مكاناً لمدفنه وجاراه خليفته امنحتب الأول فيما صنع فصنع قبره بجوار سابقه وكانت المعابد قد أخذت تشيد بجوار القبور إذ حلت مكان الحجرات التي كانت تصنع مع المقبرة لكي يضع فيها أقارب الموتى تقدماتهـم وقرابينهم من طعام وشراب ليظل الميت خالدا وكانت تقام في هذه الحجرات حفلات خاصـة من حين لآخر بقصد أن يتمتع الميت بمعاشرة ذوى قرباه وبالطعام الذي يأتونه به ولكن هذه الوسائل كانت أيضاً عاملا لمنح الحياة اليه وتثبيت خلوده . أخذت هذه الحفلات بعد ذلك شأنا اعظم وارتقت تلك الحجرات الى معابد وحدث تغيير في مغزاها فبدلا من أن كانت طريقـة لتوصيل الزاد وضروريات الحياة أخذت هذه الحفلات تقام بمثابة عبادة للملك الميت

وعلى ذلك فلم يعد الطريق الضيق الموصل بين المعبد والمدفن ضروريا كما كان في الأيام السالفة حينما كانت الحفلات في المعبد يقصد بها احياء جثة الملك أو اقامة عوضاً عنه تمثاله وفي أواخر القرن السادس عشر ق . م . بدأ الملك تحتمس الأول يجهز قبرا لنفسه بعيدا عن معبده بعدة أميال وهكذا نرى الآن لكثير من الكنائس فى أوروبا مقابر في فنائها منفصلة عنها أما العمل الذى افتتحه تحتمس الأول من تفريغ المدافن الملكية في وادي طيبة المشهورة فظل متبعاً من عام ١٥٠٠ ق . م. حتى أواخر الأسرة الحادية والعشرين حوالي عام ١٠٩٠ ق . م.

وشـذ امنحتب الثالث الذى دفن سنة ١٣٧٥ ق . م . عن سابقيه الأربع الذين دفنوا فى الوادي الشرقي وصنع مدفنه في الوادي الغربي ثم لما خلفه ابنه المشهور امنحتب الرابع (اخناتون) أتى ببدعة جديدة في صنع مدفنه في عاصمته الجديدة مدينـة (أفق آتون) فى الموقع المعروف الآن بتل العمارنة وكان مدفناً

مفرغا في صخور الجبال يبعد نحو سبعة أميال عن شرق عاصمته الجديدة التى شيدها فى منتصف المسافة بين طيبة وممفيس العاصمتين القديمتين لمصر السفلى والعليا ويظهر انه دفن هنالك في التابوت المصنوع من حجر الجرانيت الذي يرى الآن مهشما ولما خلف اخناتون زوج ابنته توت عنخ آمون وعاد الي دين طيبة القديم رأى أن ينقل مومياء حموه من مدينـة الأفق إلى مدافن طيبة وضع لهـا مقرها الأبدي فى وادي المقابر حيث اكتشفه عام ١٩٠٧ المستر ارثر ويجال الذي كان مفتشاً للآثار فى الوجه القبلي وكان يشتغل بالحفريات التي كان المرحوم المستر تيودور ديفز قائماً بها

ولا يعلم ماذا حدث لمومياء خليفة اخناتون سمنقرا ولكن اكتشاف المستر هوارد كارتر أرانا انه اثبت رجوعه للدين القويم بصنعه مدفنه فى الوادي الشرقي بين عباد آمون . .

ولأسباب لم توضح بعد لماذا صنع خليفته « آى » مدفنه فى الوادي الغربي ودفن بجوار امنحتب الثالث ويظهر انه كان وزيرا له في حياته ويظنه بعض المؤرخين والدا أو متبنياً لنفرتيتي زوجة اخناتون . .

ولقـد كان يعتقد البعض حتى اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون فى الوادي الشرقي في نوفمبر سنة ١٩٢٢ (ومنهم السير جاستون ماسبرو وغيره) أن القبر ربمـا وجد في الوادى الغربي وكان مدفن الملك « آي » من أسبق المقابر الي الظهور بعـد مقبرة أمنحتب الثالث ولمـا كانا في الوادي الغربي ظهر أنه من المحتمل أن توت عنخ آمون الذي سبق « آي » يكون مدفونا هناك أيضاً . ولكنه أثناء صنعه مدفناً ثانياً لاخناتون في الوادي الشرقي كان يصـنع لنفسه أيضا مدفنا هنالك حيث سارعلى منواله كل من خلفه الا « آي »ويعرف هـذا الوادي العجيب عند المصريين الحاليين بباب (أو ببان) الملوك وكان معروفا عند السائحين منذ أن صنع مدفن ملكي وكان اليونان والرومان يعجبون بتلك المقابر الشبيهة بالنفق ويذكر سترابو أنه رأي أربعين من تلك القبور ولكنه

لم يوضح لنا هل رأى ضمن هذه مقابر الوادي الغربي وقبور الملكات وغيرها .
وقد أفتتح باب البحث الحديث الرحالة بلزوني الذي فتح قبر سيتي الأول عام ١٨١٩ ووصف ما على جداره من صور قبل أن تتلف وتتهدم وأحضر معه الى لندن ناووس هذا الملك المصنوع من المرمر الفاخر وهو الآن في متحف السير جون سون في مروج لنكولن

وأشتهر عام ١٨٨١ باكتشاف الموميات الملكية وبعد خمس سنين لما أزيلت اللفائف عن جثة سيتى الأول ورمسيس الثانى بدأ الناس ينظرون الى الوجوه الحقيقية لاولئك الحكام المشهورين والذين ظلت شهرتهم أكثر من ثلاثين قرنا خلت

وقد نوه باكتشاف موميات ملكية في مواضع عدة ولكن ما كانت تلك الأنباء لتصادف تصديقا أذ كانت تعد جثثا لقوم مجهولين عاشوا في زمن أقدم من المقابر المنبوشة التي كانوا فيها وحدث مثل ذلك الخطأ في مومياء من الأسرة الثامنة عشرة وهى الآن في متحف القاهرة وقد وجدت في اهرام سقاره وزعم أنها مومياء ان الملك بيبي في الأسرة السادسة وكذلك في الهيكل العظمي (وليس المومياء) الموجود الآن في المتحف البريطاني الذي وجد في اهرام مكرينوس الذي ظن أنه هيكل ذلك الفرعون . . فالاكتشافات التي عملت في المخبأ المشهور بقرب الدير البحري عام ١٨٨١وفي وادي مقابر الملوك بين عامي ١٨٩٨و١٩٠٨ كشفت عن الموميات الحقيقية لاعضاء الاسرة المالكة التى وصلت الينا ولكن هناك هياكل عظيمة أقدم منها قد وجدها المسيو دي مورجان في اهرامات دهشور منذ نحو ثلاثين عاماً . . وقبل اكتشاف الجثث الأصلية لأولئك الحكام المشهورين بزمن طويل كنا قد اعتدنا رؤية بعضهم من تماثيلهم وصورهم
وكان يزور السائحون المقابر المنبوشة لبعض الملوك العظماء فى الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة منذ العصور التي خضعت مصر فيها لليونان

وفوق ذلك فان الجثث نفسها قبل أن تظهر بعشرين سنة كان تجار الا ثار

يبيعون مجموعة من أوراق البردى (التي وصل معظمها الى انجلترا) وقد ذكر فيها عن المقابر الملكية بطيبا

الفصل الخامس والعشرون

اعترافات لصوص المقابر

في مجموعة المرحوم لورد امهرست التي بيعت أخيرا في لندن وجدت وثيقة بردية من حكم رمسيس التاسع (نحو ١١٢٥ ق.م.) تنص على محاكمة ثمانية من خدم رئيس كهنة آمون الذين اتهموا بنهب مدفن الملك « سبكمسان » من ملوك الاسرة الثالثة عشرة . واعترافات المسجونين والذي قدمه الى فرعون وزيره وحاجبه ومحافظ طيبه ترجمها الاستاذ برس نيوبري كما يلي : « لقد فتحنا الأكفان واللفائف التي كانت عليها فوجدنا المومياء الشريفة وكان معها سيفان وحلي كثيرة وعقود من الذهب في رقبته وكان رأسه مغطى بالذهب فانتزعنا ماوجدناه من الذهب على مومياء هـذا الا له (أي الملك الميت الذي اتحـد مع اوزيريس) ووجـدنا الملـكة أيضاً وانتزعنا ماوجدناه فوق مميائها أيضاً وحرقنا اللفائف ثم أخذنا مما وجدناه في مدفنها من أثاث ذهبي وآنية نحاسية وفضية »

وقد اتضح أن أولئك المتهمين الذين اعترفوا بذلك مجرمون وحكم عليهم بالبقاء في سجن معبد آمون لينتظروا العقاب الذي سيقرره مولانا فرعون

وثمة أوراق بردية أخرى مشهورة فيها محاكمة المعتدين على المقابر الملكية وفي ورقة « أبوت » البردية الموجودة في المتحف البريطاني تقرير المفتشين عن المقابر التي قيـل عنها أنها سرقت وفي متحفي مدينـة لفربول بانجلترا ورقتان برديتان تنصان على نهب في وادي مقابر الملوك . واحـداها تهمنا الآن لانها تتعلق بالاعتداء على قبر رمسيس السادس الذي هو فوق قبر توت عنخ آمون مباشرة وا كتشف أمر اللصوص لانهم تنازعوا فيما بينهم على تقسيم الغنيمة . وكان من عادة لصوص القبور في سرعتهـم إلى الوصول إلى الذهب والجواهر

من الموميات أن يشوهوا من الجثة وأربطتها ففي سنة ١٩٠٥ حينما فكت أربطة مومياء رمسيس السادس (الذى نقل قديماً الى قبر امنحتب الثاني حيث اكتشفه المسيو لوريه عام ١٨٩٨) وجدت الجثة مقطعة مهشمة وهذا بلا شك أذى مقصود ولحسن الحظ أن قبر توت عنخ آمون قد نجا من مثل هذا التنكيل

الفصل الخامس والعشرون

اخفاء الموميات

ان اكتشاف الموميات الملكية في عام ١٨٨١ لاسيا بقايا الملكين المشهورين سيتي الأول ورمسيس الثاني أظهر الاحتياطات التي اتخذت لصيانة تلك الجثث من الأذى والعناية التي قام بها المحافظون على المقابر في نقل الموميات من مكان لآخر لتخليصها من يد العبث وقد كشفت لنا الحالة التي شوهدت في مدفن توت عنخ آمون ما كان يفعله اللصوص في السرقة إذ كانوا يبدأون في نهب القبر بعد قفل الغرف مباشرة وأثناء حكم الأسرتين العشرين والحادية والعشرين حينما كانت ادارة البلاد في حالة من الضعف والارتباك سهل الأمر للصوص المقابر فازدادوا جرأة وأن التقرير المكتوب على أكفان سيتي الأول ورمسيس الثاني ليكشف لنا عن مبلغ التقصير الذي وصلت اليه الادارة حينذاك نخوفاً من العبث بالجثث كانت تنقل من مكان الى آخر وقد نقلت جثة رمسيس الاكبر الى مقبرة أبيه سيتي الأول الذى بقيت جثته لمدة من الزمن محفوظة في ناووسها المرمري الموجود الآن في متحف السير جون سون في لنكولن ولكنه في حكم سيامون (٩٧٦— ٩٥٨ ق.م.) خبئت الموميتان في قبر ملكة اسمها «انحابي» ثم نقلتا ثانية بعدها بنحو عشر سنين الى قبر كان قد هيىء لامنحتب الاول بالدير البحرى وهنا ظلا مع أكثر من ثلاثين جثة ملكية أكثر ثمان وعشرين قرناً حتى استكشفت منذ خمسين عاماً ولكن ما زال أحفاد لصوص المقابر في طيبه يتعدون على المقابر لسرقتها . .

ولم يدرس السير جاستون ماسبرو ورقة البردى الراجعة إلى الاسرة العشرين عبثاً لانه حصل منها على اعتراف قيم

وحكاية نهب المقابر والموميات الملكية ونقلها من مخبأ الى آخر لم تدع مجالا للدهشة من رؤية الاكفان منزوعة ولكن بعضا من الموميات بعد أن ربطت ولفت ثانية في زمن الاسرتين العشرين والحادية والعشرين وضعت في توابيت لم تكن لها فمثلا حينما زعم أن الجثة هي مومياء رمسيس الاول (من ملوك الاسرة التاسعة عشرة) وجد بدله امرأة ذات شعر أبيض محنطة بطريقة تشبه الطريقة المتبعة في أوائل حكم الاسرة الثامنة عشرة . وكذلك الحال حينما فحصت مومياء « ستنخت » أول ملك في الاسرة العشرين وجد أنها جثة امرأة محنطة بطريقة أستعملت في زمن ستنخت خليفة الملك سيتى الثاني من ملوك الاسرة التاسعة عشرة ومن المحتمل أن تكون هي الملكة « توسرت » زوجة الملكين سبتاح ثم سيتي الثاني . .

مثل هذه الاكتشافات تدلنا على أن وادى مقابر الملوك لم يبح لنا بكل أسراره الخفية لان هناك موميات ملكية نعرف أنها دفنت هناك ولم تر بعد . .

واذا كان فحص الموميات الملكية يخبرنا عن مبلغ التعدى على المقابر (وليس ثمة قبر قد ترك على حاله كما كان) فأنها تعطينا أيضا فكرة عن مقدار الحلي والجواهر التى أثارت من جشع اللصوص منذ ثلاثين قرنا وأن اللفائف الممزقة لتحدث عن قيمة الحلي التي كانت الموميات مزدانة بها فوق الرأس والعنق والاطراف وكذلك مايكشف منها من حلي الذهب والعقيق وغيرها لترينا جمال ذلك البهرج الذي تحلى به الميت

وفى سنة ١٩٠٩ أثناء فحص مومياء الملكة هونتي التي أعتدي عليها وجد طبق جميلا كبيراً من الذهب الخالص غريب في حجمه ونقشه وصنعه

من كل تلك الاعتبارات السابقة يلزمنا أن نقدر سلامة جثة توت عنخآمون وما يوجد معها من حلي وجواهر ذات جمال وقيمة . وأن مثل تلك الجواهر كالتي

عثر عليها المسيو مورجان فى اهرام دهشور عام ١٨٩٢ لتزيدنا عجبا من دقة تلك الصناعة القديمة والمهارة الفنية المدهشة . .

وبجواهر الاميرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة المعروضة الآن في عـدة متاحف (لاسيما متحف القاهرة والوفر بباريس) لتعرينا أن تلك المهارة الفنية والمقدرة الصناعية لم تنزل عن مستواها . (راجع كتاب الفن المصري لماسبرو)

وأكثر مايهمنا في اكتشاف قبر توت عنخ آمون المومياء نفسها وذلك لان المومياات تساعدنا على معرفة تقاطيع وجوه الملوك والملكات وعلى استجلاء شخصيتهم أكثر مما ترينا عمرهم وعاهاتهم وأنها النور الذي يسطع في التاريخ معلنا عن القدم وعن رقي فن التحنيط . .

في عام ١٩٠٧ حينما وجدت العظام التي ظن خطأ أنها جزءة من مومياء الملكة المشهوره « تى » ظهرت أنها بقايا هيكل عظمي لشاب يبلغ من السن أكثر من ست وعشرين سنة واليوم لم تترك شواهد علم الآثار دلائل للشك في أنها الهيكل العظمى للملك اخناتون ولـكن الشواهد التاريخية تنطق بأن اخناتون مات وله من العمر مالايقل عن ثلاثين سنة (أو كما قال الاستاذ كرت سيت ٣٦ سنة) وهذا الخلاف وسع الدرس فى تاريخ اخناتون من الوجهة الطبية فملامح اخناتون التي ترى في وجهه ورأسـه وغهابة ساقيـه وجسمه مما لايقل عن نقائص خلقه وفشله السياسي كل ذلك اثبته الطب الحـديث أنه ناجم عن اختلال في نظامه الجسدي وبدراسة ذلك جاز اعطاء اخناتون عمراً قدره ٣٦ عاماً

ولم تزل ثمة معلومات تستفاد من دراسة المومياات الملكية في نور العلم الحديث وباستخدام الوسائل العملية التي تساعدنا على استخراج كل المعلومات الممكن معرفتها من بقايا أولئك الفراعنة الأقدمين . .

وأن أهمية دراسة فن التحنيط العملي كواسطة الى كشف تاريخ المدنية الغابر لموضوع لايتسع المقام لذكره في هـذه العجالة ولقد ذكر تهلأن جل ماعلمناه يقيناً عن تاريخ التحنيط مأخوذ من المومياات الملكية نفسها

ولقد نشر الدكتوران املين وبرس الفرنسيان بمجلة فرنسية عام ١٩٢٠ مذكرة غريبة عنوانها « امنحتب الرابع وعقليته » وقد وصفتها بالغرابة مشيراً الى موضوع كتابهما هذا لانهما يذكران نقطة هامة بالنسبة للتشخيص الذي تخيلاه دون أن يحاولا أن يتثبتا ذلك من بقايا الفرعون نفسه وكم من طبيب جهل حالة جمجمة ذلك الملك فبنوا رأيهم على ماراوه من صور اخناتون وتاريخ أعماله رأوا في اجزاء جسده عوارض بنوا عليها الآراء جزافاً مثل ضخامة أعلى الجسم وفي الفخذين وقد وصف باركر عام ١٩٠٧ هذا التأثير الغريب الذى هو نادر في الرجال .

ولسوء الحظ لم يقرأ مثل أولئك الأطباء ما كتبته للقائمة العمومية للمتحف المصري والمطبوع في الكتاب المسمى «الموميات الملكية عام ١٩١٢ » والا كانوا قد تحققوا ان اخناتون كان خاضعاً (للدستوسيا) مما يراجع من الوجهة الطبية فى كتابي الآنف الذكر . .

وقد حير العلماء شكل رأس اخناتون وبناته وبعض أعضاء في أسرته لمدة اكثر من نصف قرن قبل زمنه .

ولا شك ان ذلك الشذوذ في هيئة رأس اخناتون كان ناجما عن أسباب مرضية وان الانحراف الكبير في رؤوس بناته الممثل في تماثيل تل العمارنة والتي توجد الآن في برلين هو نتيجة التشويه الصناعي كما كان وما زال يحدث في اسيا الصغري وشمالي سوريا وقد كان بين أسرة اخناتون والأسرة المالكة فى تلك البقاع صلة وعلاقة

الفصل السادس والعشرون

حول قصة الطوفان

منذ نصف قرن ارسلت جريدة (الديلي تلغراف) الأنجليزية المستر جورج سميث الى بلاد الجزيرة (ميزوبوتاميا) لينقب فى أطلال تلك الجهة عن آثار مكتبة آشور بانيبال فى نينوي وليبحث عن بقايا كتابات تكمل الموضوع الكلداني عن الطوفان وقد أشار اعلان الاكتشاف عام ١٨٧٢ عجباً كبيراً . ومع ان ما كشف من قصة الطوفان في مكتبة آشورية لا يرجع الى أقدم من القرن السابع قبل الميلاد فان المستر جورج سميث تنبأ أن المستقبل سيكشف ترجمة أقدم من ذلك تكون منبعا للوحي المذكور في سفر التكوين من التوراة

وا كتشاف الكتابة السامرية الحديث عن تلك القصة مما كتب قبل تقرير آشوربانيبال بعشرين قرنا أيد تنبؤ جورج سميث . .

ولكن كم يدهش المرء حينما يعلم أن وادي مقابر الملوك فى مصر قد أوحى الفكرة التي قدر لها أن تنتشر في أنحاء المعمور حاكية عن الطوفان العجيب وحوادثه الغريبة . .

ففى مقبرة سيتي الأول يرى منقوشا على جدارها وذلك بعد دفن توت عنخ آمون بما لا يقل عن سبعين سنة قصة هلاك البشر المشهورة ورغما عن انها أحدث كتابة من القصة السامورية فان وجود هذه القصة في وادي الملوك حير علماء هذا العصر إذ أن اصلها يرجع الى العام الاربع آلاف للخليقة .

ولو ان القصة الواردة في قبر سيتي الأول لا تروي حدوث الهلاك بالطوفان إلا انه من الواضح أن القصص المصرية والآشورية لها أصل واحد

واذا سئل لماذا تكتب مثل هذه القصة في قبر فرعون مصري فالجواب أن غرضها أن تدخر للملك تلك الهدايا التي يدور حول الاحتفاظ بها محور القصة وانها تقول كيف أن الشيخوخة بدأت تدب في كيان الملك الذي يتوقف على

القصة الى عصر الملك سيتي الاول كان من العدل قتل الملك الهرم ليفسح مكانا الى ملك شاب قوى فلا عجب والحالة هذه اذا ثار غضب الملك حينما وصل اليه تذمر رعيته عن ضعف قواه . .

ذلك الاثم اثم العصيان كان المبدأ الذى يسميه اللاهوتيون « بالخطية الاصلية » وهى التي تظهر بشكل آخر في سفر التكوين من التوراة

وأختلطت قصة ذبح البشر مع قصة فيضان النيل وشبه احمرار فيضان مياه النيل بدماء القتلى ولو أنه في الاصل كان كلا الامرين محمود النتائج اذ فيها تجديد قوة الملك وتقدم الامة فلما انتشرت عناصر هذه القصة الي البلاد الاجنبية دخلها خلط وامتزجت بها أقاويل فقيل ان هلاك البشر سببه الفيضان والغمر ولكنها وجدت لها سبيلا فى الآداب الدينية لا لانها تمثل غضب الآلهة علي الاشرار ولكن لانها تفسر كيف أن الملك أعاد إلى نفسه الشباب وحصل على خاصة من خصائص الآلهة

وتلك الشواهد التى نقرأها فى مقابر المصريين ترينا مصادر الاعتقادات الدينيه لكل قوم كانت لهم صلة مباشرة أو غير مباشرة بتلك الطريقة الغير مقيدة التى تفسر طرق الحصول على الخلود كما اخترعها كهنة المصريين وأنها توضح احدي السبل التي تري فيها الاداب العبرانية بين هذه التفاسير . .



الفصل الثامن والعشرون

الوصول الى السماء

لسنا نقصد هنا ذكر أدوات ومحتويات قبر مثل مدفن توت عنخ آمون إذ أن قراء الصحف اليومية والاسبوعية المصورة علموا من أمرها كثيراً وقد رأوا الحقيقة التي تتجلى من دقـة الصناعة اليدوية التي يدهش لها حتى الذين عاينوا ما وجـد في قبور تحتمس الرابع ويوا وتوا وأخناتون ويعجبون من المظهر المصري الجديد الذى تجلى في عشرات من المصنوعات التي وجـدت فى مدفن توت عنخ آمون كعرشه البديع وتلك العربات والمقاعد والتماثيل والنعال والحلى والجواهر . وفوق ذلك التابوت الفخم الجميل وأن علماء الآثار الذين اعتادوا مشـهد الفن المصرى الدفين الان فى متاحف العالم قد أفرغوا ما في جعبة بلاغتهم من وصف اعجابهم ودهشتهم حينما رأوا كنوز مدفن توت عنخ آمون ومن فوائد هـذا الاكتشاف ظهور طائفة كبيرة أعمال الفن ومظاهر المـدنية المصرية التي يرجع عمرها الى ثلاثين قرنا . .

ولنتكلم الان عن الادوات الجنائزية · فان الادوات التي وجـدت في القبر قسمان الاول ما كان يستعمله الميت وهو على قيـد الحياة والاخر صنع خاصة للاغراض الجنائزية وهذا الفرق يظهر واضحاً في المقارنة بين العربات في الدهليز والتي في غرفة التابوت . .ولا أريد أن ادخل غمار البحث عن محتويات التابوت العجيب الذى يحتوي الجثة ولا أن أحاول وصف التابوت الذى هو قطعة من أعمال الفن الجميل ودقة الصنع . .

وقد دلت الشواهد في المقابر الاخرى التى اكتشفت أن قلب توت عنخ آمون سوف لا يوجد فيه بل يحتوى القبر الرئتان والكبد والمعدة والامعاء

وا كثر ما في مدفن توت عنخ آمون أهمية هى الثلاث فرش أومضاجع ذات لاشكال الغريبة التي تمثل حيوانات كالبقرة والاسد وفرس البحر . ومع أن مثل

هذه المضاجع مصرية في صنعها ورسمها مألوف في مصر والسودان فانه لم ير مثلها من قبل وهي جديرة بالدرس اذ أنها تفسر الاعتقاد المصرى بطريقة تعيد لنا ميزة ديانة السكان القدماء لوادي النيل . .

ان مسألة الوصول الى السماء بعد الممات قد أعتبره اللاهوتيون المصريون طريقاً طبيعياً لازماً . .

فكيف يصل ساكن الارض الى العالم السماوى وأى مركبة يستخدمها ليصل الى الممالك السماوية ؟

إن الاعتقاد المصري القديم فى السماء كان مسلما به فى عالم العقيدة وجغرافية الحقول السماوية ورسم السبيل المؤدي اليها وكانوا يمدون الميت بحضور مرشد ليجد طريقة فى السبيل المملوءة بالمصاعب والاخطار

ومع أنه كان يوجد عشرات من الطرق المختلفة التى يأمن بها الانتقال الى السماوات فانه كان هناك عربة واحدة قد اشتهرت منذ بدء التاريخ المصري كالواسطة فى حفظ الميت ومنح الحياة والخلود بحمله الى العالم الآخر وتلك هى البقرة السماوية هاتور التي لاتمنح الحياة للموتى بولادة ثانية فقط بل هى أيضاتحملهم فى الحياة باعطائهم اللبن الالهى وتحملهم فى الممات الى السماء . .

وبين الكتابات القديمة المشهورة على جدار مدفن سيتي الاول توجد قصة تستحق الذكر عن عمل البقرة السماوية هاتور أو « توت » كواسطة لرفع الميت الى السماء ليصل الى منازل الآلهة . فبعد أن عاد الملك الى شبابه بقوة الآلهة أصبح تعباً من عبء الحياة فوق الارض بين رعيته الذين أظهروا له تذمرهم وعدم ولائهم في شيخوخته واضمحلال قوته فرأى الملك أن يهجر الارض ويصعد الى السماوات فاعتلى ظهر البقرة ووصل الى السماء حيث يتحد بالشمس ويصبح من الآلهة

الفصل التاسع والعشرون

وظيفة البقرة هانور

إن عمل البقرة فى وظيفتها كمر كبة لنقل المومياء إلى مقرها السماوي قد ذكره المصريون كثيراً فى آثارهم ولكن انفراد البقرة في سيرها كان يبدو بطرق أخرى فكان الحفار المصرى في رسمه يحب تمثيل البقرة المقدسة هاتور تحمى الملك الميت أو تسمح له بامتصاص اللبن من أفاويقها . .

وقد ذكر السير جاستون ماسبرو في كتابه « الفن المصري » (١٩١٣)فضلا كاملا (الفصل الحادى عشر) عن هذا الموضوع مبيناً فى ست لوحات جميلة فيها تماثيل للبقرة مرتبة منذ عهد امنحتب الثانى (١٤٤٠ ق. م) إلى أ كثر من الف سنة بعدها . .

ولكننا نعلم أن وظيفة الحماية في البقرة هاتور كانت تصور بطرق أخرى أقدم في عهدها من بناء الاهرام (ومثل ذلك اللوحة الجميلة التي وجدها الاستاذ رسنر في معبد أهرام منقرع فى ألاسرة الرابعة(منذ عام ٢٨٠٠ ق . م) وتعتبر هذه اللوحة لعدة أسباب من الوثائق التاريخية الهامة إذ نقش عليها أقدم مثال للكتابة التي وصلت الينا فى الاثار ولكنها هامة هنا لعلاقتها بموضوعنا الان اذ أنه يوجد في أعلى تلك اللوحة رسم رأس البقرة هاتور وكذلك الملك يلبس في زناره رسوم رؤوس تلك البقرة . .

وكانت هاتور مانحة الحياة التي تطيل في البقاء بعد الموت متصلة بالسماء تحمل المركبة اللائقه لحمل الميت الى الممالك السماوية حيث يسكن الله الشمس . .

وقد وجد فى مدفن توت عنخ آمون ثلاث مضاجع تمثل احداها البقرةهاتو ر والثانية نفس الآلهة فى صور لبؤة وربما ابنها هورس فى شكل أسد والثالثة « تورت » الهة فرس البحر . .

ومع أن مثل هذه الامثلة من الاثاث الجنائزي لم ير من قبل فان ما رأيناه

على جدار مقابر مصر واتيوبيا وصور كتاب الموتى على الاوراق البردية أصبح عاديا فضلا عن انه في فصول كتاب الموتى ما يشير الى تلك الفرس فى « صعود المضجع الجنائزى »

إن فى مضجع هاتور صوراً غريبة عن البقرة المقدسة أقدم الامهات العظيمات اللائى أعتقد أنهن خصصن لمنح الحياة . .

ربما ظهر من الغريب أن مصورى عصر توت عنخ آمون صنعوا مثل مضجع هاتور إذ لما كانت البواعث الدينية تضطر الرسامين أن يجيدوا صنع قطعة من الاثاث تمثيلا للبقرة التى لاتشبه المضجع كان الفنان يعمل في فن حقيقته مستحيلة الوقوع فكان يضحى بآرائه الفنية فى سبيل العقيدة وليس هناك شك أنه في هذه الحالة كان يهرب من الحرج بقهر شعوره بالجمال ويفرغ نفسه علي العمل فى إبراز نموذج دينى

ولنفهم لماذا أختيرت البقرة دون باقى المخلوقات لهذا الغرض علينا أن نتذكر المنطق المملوء بالاصرار وعدم التهاون الذى أوحي بكل تلك المعدات في القبر وأثاثه أما تحنيط الجثة وتلك الترتيبات المتقنة التى صنعت لصيانته فكانت ناجمة عن العقيدة بأن استمرار بقاء الميت قد حفظ بفضل هذه المعدات ولكي يتأكد من ذلك لم يترك سبيلاً يوصل إلى ذلك الغرض

وقد جعلت الكتابات على جدار المدفن وعلى الاكفان والتابوت وأوراق البردي لتؤيد اتحاد الملك الميت مع أوزيريس حتى يمكنه أن يشارك الاله في قضائه وقد صنعت صورة أوزيريس بارزة من الشعير المقدس الذي كانت تعتبر كل حبة منه نموذجا للام المانحة الحياة وكمصدر لضرورة المحافظة على خلود الميت ومن وقت لآخر كانت تقام حفلات عند المدفن أو في المعبد المجاور له في طيبة لتخفف عن الميت ألم الوحشة وتشجعه على المقاومة والصبر

ورأى قدماء المصريين أنه يمكنهم أن يعملوا على خلاص انفسهم وأن مملكة

السماء يمكن الوصول اليها بطرق طبيعية وسحرية فلم يدخروا وسعاً في العمل بصبر وثبات حتي النهاية العجيبة . .

وكانت الأم هاتور في الاصل رمزاً لمنح الحياة كما أن حبة الشعير كانت تعتبر قادرة على استخراج العوامل الضرورية على منح الحياة ثم لما أستؤنست الماشية واكتشف البشر لاول مرة أن لبن البقرة يصلح لغذاء أطفال الانسان تأثر الناس بهذا الاكتشاف تأثيراً عميقا راؤا علاقة بين البقرة والبشر وأعتبروا البقرة كالمربية وجعلوها تتحد مع الأم العظيمة هاتور التى كانت صورتها حتي منذ ستين قرناً مضت صورة بقرة مقدسة . .

فكانت « الام العظيمة » تمثل ببقرة تارة وبحقة شعير أخري وكانت أيضا متحدة مع القمر الذي زعموا أنه يراقب قوى المرأة التي تعطيها الحياة . .

وكان فى الاعتقاد أن مانحة الحياة والخلود البقرة المتحدة بالقمر والمركبة مخصصة لحمل الملك الميت إلى الممالك السماوية فى الاعالى وهناك شعر يقول «قفزت البقرة إلى القمر » . وترى البقره الممثلة بالمضجع كرمز للسماء منقوشة بالكواكب على سطحها الاسفل من جسمها

ويفسر ارتفاع تلك المضاجع بعلاقتها بالسماء ففي كل أدوار التاريخ المصري كان الكتاب والمصورون مغرمين بهذه القصة من وصف حمل الملك الميت الى السماوات على ظهر البقرة وتفسر هذه العبارة في بعض كتابات مدفن سيتى الأول التي سبق الاشارة اليها ولكنه في الأيام التالية أصبح من الشائع تمثيل البقرة المقدسة وهى تحمل الميت أو مومياه الحقيقية الى السماء وفي صور الجنائز نجد المومياء محمولة على مثل تلك المضاجع التي وجد مثلها في مقبرة توت عنخ آمون

فموضوع المضجع الذى على صورة البقرة قصد به ضمان انتقال الميت الى السماء بواسطة قوة سحرية . وقصة هلاك البشر (الطوفان) تبين تفسير المصريين أنفسهم لهذه الحادثة

وانتشر تأثير هذا الرأى المصرى عن المركبات الحيوانية التي تصل الى

الآلهة وعم كل مكان في طول البلاد وعرضها فى الأزمنة القديمة لانه إذا قدر مثل هذا المخلوق على حمل الملك الميت الى السموات ومنحه وسائل الخلود التي هى من خصائص الآلهة فان مثل هذا الحيوان هو الرمز المصور للاله

وأما تفسير صورة اللبوءة التي تمثل الأم العظيمة المتحدة بالبقره فمذكور أيضاً في كتابات مدفن سيتي الأول

إذ لما دعيت الالهة لتعيد شباب الملك الشيخ كان اكسير الحياة الوحيد المعروف عندها هو الدم البشري وعليه فقد وجدت من الضروري ذبح كائن بشرى وشبه عملها الذبحي بعمل رجل يذبح لبوءة كانت متحدة معها ولكن لما كانت اللبوءة صورة مناسبة وخاصة للرمز بهعن مقدرة الأم على حفظ المومياء من الأخطار الكامنة في الطريق الى العالم الآخر وأصبح من المحبوب في المركبات الجنائزية تفضيل ظهر اللبوءة على ظهر البقرة وعلى كل حال ففي صور المضاجع الجنائزية يرى أن البقرة اكثر شيوعاً من اللبوءة

ولكن وجدت تفسيرات أخرى لرمز اللبؤه ومن ذلك ماوجد على بعض قطع الأثاث الجميلة الموجودة في قبر توت عنخ آمون مايمثل الملك نفسه كأسد ذى رأس بشرى يطأ اعداءه وكثير من الملوك سابقيه مثل تحتمس الرابع مثلا كانوا يمثلون كذلك وحتى انه في القديم مثل الملك «مقرينيس» (٢٨٠٠ق.م) كبشرى برأس أسد في تمثال هائل وجد عند اهرامات الجيزة من العقيدة ففي زمن الاسرات كان اله الشمس متسلطاً في مصر وكان هوريس ابنا للشمس وكان الاخير مسئولا عن العناية بالملك الميت اوزيريس وكان يعتقد أن البقاء المستمر للاله (الملك الميت اوزيريس) كان معتمداً على الخدمات التي يؤديها هوريس

فكان هوريس على ذلك هو الذى يؤدي العمل المقدس في منح الخلود لاوزيريس وأيضا على كل ملك ميت متحد باوزيريس

وباستمرار حمل الميت على مضجع اللبوءة كان مساوياً به رمزياً إلى وضعه في عناية هوريس

وليس هوريس المرسوم على اثاث القبر هو الأسد الحامي للملك الميت الذي يطأ أعداءه بقدميه بل هو ابن اوزيريس القابض على عهد هبة الملك الميت انه ضامن الحياة الخالدة

وتظهر حيرة المرء بين مظهري هورس جلية في صورة اكتشفها حديثاً الاستاذ جورج ريستر (وظهرت في صحيفة « أخبار لندن المصورة » في تاريخ ١٠ فبراير سنة ١٩٢٣ ص ٢٠٤) وهي منقوشة على أثر في السودان قبل عهد توت عنخ آمون بعدة قرون . وتمثل مضجع اللبوءة تحمل مومياء الملك «ارجمينيس» الذي تصور رأسه بشكل صقر هوريس وفوق المومياء ترى السماء منقوشة بالكواكب وبينها قرص الشمس يرسل خمس أشعات كواسطة لمنح الحياة للملك الميت . .

وفي كتاب الموتى في الفصل الثامن والسبعين يقول « الذي به يأخذ المرء هيئة الصقر المقدس » ويمثل الميت قائلا : أنا أمثل نفسي كالصقر المقدس الذي قلده هوريس بنفسه ليأخذ ميراثه من اوزيريس » (راجع كتاب رنوف)

فهل قصد بالمضجع الذي بصورة اللبؤة الرمز به كما رمز بالبقرة أى نقل الملك إلى السماء ليتحد مع الشمس ويمتزج بروح «رع» الاله السماوي ؟ ؟

ويذكر الدكتور الان جاردنر في كتابه « قبر امنحتب » فى الفقرة الثلاثين صورة من الهيروغليفية في شكل نجوم فوق المياه المحمولة فوق مضجع اللبوءة ويترجمها كدليل على ان الميت « يرغب أن يوضع فوق النجوم في الجو » (ص ١٩١٩)

ونفس الرسم يحدث في الصور المفسرة لكتاب الموتى فالمضجع الجنائزي يمثل عادة بشكل أسد أكثر منه بشكل بقرة أو عجل البحر

وفي الصور الجنائزية يرى من الشائع أن المومياء المحمولة على مضجع بشكل أسد موضوعة داخل التابوت (كما في الصور الأولى من كتاب الموتى شكل ٢٠)

وقد ذكر الدكتور الان جاردنر أمثلة جميلة وكذلك مستر دي جاريس ديفز في كتاب « قبر امنمحعت » (١٩١٥) في فقرتي ١٢ و ٢٤ في حكم الملك تحتمس الثالث منذ قرن قبل توت عنخ آمون ولا شك ان هذا يرجع إلى الفكرة في اعتبار هوريس كحارس اوزيريس وأيضاً ان هوريس حارب اعـداء رع وكان خير حماة الميت

وغير رمز الأسد هناك أيضاً فكرتان أساسيتان مشروحتان في القصة القديمة العهـد عن هلاك البشر التي كانت مكتوبة على جدار عدة مقابر من خلفاء توت عنخ آمون ويرى أن الآلهة هاتور « البقرة المقدسة » مذكور عنها أنها جعلت ضحية بشرية لكى تنال الدم الذي به تعيد شباب الملك . وفي القصة يرفع رع الملك عن الارض على ظهر البقرة الى السماوات ليصير الها للشمس وقد نالت اللبوءة شهرة كذابحة للبشر ورمز لها بلبوءة ودعيت « سخمت » القاتلة وعلى ذلك فاللبؤة والبقرة كانتا كلاهما صورتان وهبتها لها الآلهـة العظيمة هاتور ولـكن في تطور قصة هلاك البشرية يأخذ الاله هوريس مكان الأم هاتور ويأخذ الثور والأسـد مكانين كان يشغلها فيما سبق البقرة واللبؤه وفي حالة المضاجع الجنائزية ترى مع هوريس

ولـكن الانسان يجد صدفة في مقابر أكثر جدة أن المومياء تمثل محموله الى السماء على ثور بدلا من البقره المعتادة ويوجد لهذا مثل في متحف جمعية الآثار في ادنبرج

ويرى المضجع الثـالث مرسوماً رسما رديئاً ويرى عجل البحر « تورت » ممثل آخر للأم العظيمة هاتور ولـكن وضعت خصيصاً لتمثل كنصف زوجة عند ميلاد الآلهة والملوك وترى في صور مصحوبة بالبقرة هاتور عند باب المقبرة في الجبل الغربي وعملها لتترأس عند ميلاد الملك الميت الثاني الذي منح حياة أخرى بعد الموت . واذا بدا ذلك غامضاً من اعتبار فرس الماء رمزا للولادة الثانية فلا يجب أن نهمل مايسمى « شرفة الولادة » في معبد الدير البحري فالمضاجع ذات

الصورة الأسدية تمثل في منظر ولادة الملكة حتشبسوت وكما أشرت فان كلا من الثلاث حيوانات البقرة واللبوءه وفرس البحر يمثل أشكالا مختلفة لنفس الاله هاتور . .

وكان المقصود من جعل هذه المضاجع ذات الشكل الحيواني الرمز بهـا الى ذهاب الموتى الى الاقاليم السماويه ومنح الخلود والالوهية اليهم · وقد انتشرت هذه الفكره وأثرت في الشعوب الأخرى منه

وسأذكر ثلاثة أمثلة من هذه التأثيرات المختلفة فالاعتقاد في هذا الرمز أن الملك المحمول في مثل تلك المركبة يتحول الى اله سماوى أدى الى استعمال مثل تلك الرسوم في تمثيل الآلهـة واصبح من الشائع في سوريا وبلاد الجزيرة وفي اليونان والهند وفي انحاء بعيدة من المعمورة حيث لعبت تلك المدنية دوراً هاماً في ربوعها سواء أكان مباشراً أم غير مباشر في ايجاد آلهة ممثلة بصور مركبات حيوانية كالثور أو البقرة والأسد او اللبوءة أو بعض حيوانات غريبة الشكل خرافيـة الهيئة . فالفكرة كلها عن مركبات الحيوانات التي لعبت دوراً كبيرا في الرمز الديني في الهند وشرق آسيا وأواسط امريكا هو خيال مصري بحت قد نشأ في وادي النيل ثم تناقلته الأمم وعم العالم



الكتاب الثاني

في عالم قدماء المصريين

مقدمة

ردنا في هـذه الجولة المختصرة أن نلم بتاريخ قدماء المصريين ونوجز في القول ماشاء ضيق المقام ونحيل القارى المحب لتاريخهم الى مطالعة بعض الكتب التي أوردنا ذكر اسمائها في ختام هـذا الكتاب وهى كتب قيمة مشهورة يعرفها العالم وتتناقلها الامم الى لغاتها ن . ي .

الفصل الاول

قبل الاسرات

قال الاستاذ فلندرس : « قام فى مصر نوعان من المدنية قبل التاريخ الواحد تلو الآخر وقياسا علي مانعرف من الزمن الذى تستغرقه المدنية لقيامها وزوالها لابد من أن تكون هاتان المدنيتان استغرقتا نحواً من الفين وخمسمائة سنة وعليه فالمدنية الأولى بدأت منذ نحو عشرة آلاف سنة . ولنا دليل آخر على صحة هذا التاريخ فى طمى النيل فان متوسط سمك هذا الطمى نحو أربعين قدماً وقد يزيد على ذلك أو ينقص عنه فى بعض الامكنة ومتوسط مايرسب منه كل مئة سنة خمس بوصات وعليه فالطمي بدأ يرسب من النيل على أراضي مصر منذ نحو عشرة آلاف سنة . ولم تكن الاراضي صالحة للزراعة قبل ذلك فلما تغيرت الأحوال وصار النيل يحمل الخصب الى مصر في طميه هرع اليها الناس من البلدان المجاورة القحلاء وأخذوا يفلحون الارض ويزرعونها وقد خلفوا شيئاً من الآثار في مقابرهم وكبر هذه المقابر وكثرة القبور فيها يبعثان علي الظن أن سكنى الناس لمصر سبقت عهد التاريخ باكثر من ٢٥٠٠ سنة أي باكثر مما قدرنا كما تقدم والمدنية لاولى بدأت منذ عشرة آلاف سنة وانتهت منذ نحو تسعة آلاف سنة و بدأت المدنية الثانية منذ نحو من ٩٠٠٠ سنة وانتهت منذ نحو من ٧٨٠٠ سنة »

وقد ذكر غيره من العلماء أن حضارة مصر قبل الاسرات الملكية ترجع الى نفس ذلك التاريخ وقالوا ان مؤسس تلك المدنية قوم لوبيو الأصل غير أنه كانت بمصر مدنية مستقلة بذاتها منذ أجيال سحيقة (١)

ويقول المؤرخون ان المدنية التي ظهرت بظهور الأسرات الملكية بمصر يعزي أصلها الى أجداد الملك « مينا » الفاتحين وهم قوم ساميو الجنس لم يثبت

---

(١) يرى الزائر فى متحف أصوان اليوم آثار لمدنية مصر قبل التاريخ مثل آنية من الفخار وآلات من الظران وتماثيل صغيرة ومدى من الصوان ومصنوعات من النحاس وغير ذلك

يقيناً أن كانوا قد دخلوا الى مصر من آسيا عن طريق برزخ السويس أو من طريق البحر الأحمر من جهة الحبشة ولكن الثابت أن أجداد « مينا » كانوا يقطنون الجهات الجنوبية من مصر وأن ما وصل الينا من لغتهم يشاهد فيه العنصر الافريقي والسامي مما يدل على أنهم ساميو الجنس

وقد دخل هؤلاء الفاتحون الى مصر ومعهم حضارة تفوق الحضارة المصرية آنئذ رقياً فهم الذين أدخلوا فن التحنيط والكتابة الهيروغليفية وقد أدى اختلاطهم بالمصريين الى اندماج العنصريين ونشوء المدنية وانتقلت الصناعة من الدور الحجري الى دور المعادن وصنعت اوان جميلة من الفخار والأحجار . وتماثيل من الحجر والخشب والعاج وفؤسا من النحاس وصيدت السباع والفيلة وافراس الماء من الغابات المنتشرة فى البلاد كما صيدت التماسيح بالنشاب والسهام والحراب والسنار اما التجارة فقد اتخذوا لها سفنا شراعية الا ان الزراعة كانت همهم الأكبر لخصوبة تربة وادى النيل

وكانت مصر تشمل اذ ذاك ممالك عدة انتهى الأمر بانضمامها بعضها الى بعض وتكوين مملكتين كبيرتين احداهما فى الشمال وتشمل الوجه البحري والاخرى فى الجنوب وتشمل الوجه القبلى وكانت لكلتيهما رموز وشارات تميزها عن الاخرى ومن ذلك ان اهل الشمال كانوا يتخذون رمزاً لهم حزمة من نبات البردي وكان ملكهم يتخذ النحلة شارة له بينما كان اهل الجنوب يتخذون الزنبق رمزاً وشارة مليكهم تاج طويل ابيض وكانت عاصمة المملكة الشمالية مدينة « بوتو » وموقعها فى شمالى الدلتا وعاصمة المملكة الجنوبية « نخب » ومقرها الآن قرية الكاب الواقعة بين اسنا وادفو

الفصل الثاني

الاسرة الاولى والاسرة الثانية

ومدة حكمها ٤٢٠ سنة ومقر ملكها « طينة » . وقد سبق ان ذكرنا استقلال مصر السفلى عن مصر العليا وبقي كل منهما مستقلا بذاته حتى قبض على صولجان الحكم رجل قوي هو الملك « مينا » أو « مينيس » فتمكن بمهارته الحربية والسياسية أن يتولى حكم الاقليم الجنوبى ثم غزا مصر السفلى وضمها إلى ملكه فكون من الاقليمين مملكة مصرية عظيمة وكان هو أول الفراعنة الذين حكموها ولما رأى أن مدينة طينة (وموقعها الآن العرابة المدفونة قرب جرجا) لا يصلح موقعها لجعلها مركزاً لادارة مملكته الجديدة بنى مدينة « منف » اومنفيس لتكون عاصمة له وقد نظم ادارة البلاد وسن القوانين ورد اهل النوبة الى الجنوب ومات بعد حكم طويل ودفن بقرب « طينة » مسقط رأسه · ويقال ان مينا حول مجرى النيل من الجبل الغربى الى مجراه الحالي

وخلف مينا ابنه « تيتي » وكان محبا للعلم والتأليف وله عدة مؤلفات فى الطب وغيره وبقي الاقليمان من بعده يحكمهما فرعون واحد غير انه كان من الصعب امام ملوك الاسرتين الأولى والثانية ارضاء اقليم الشمال وضمه الى اقليم الجنوب وكثيراً ماشق عصا الطاعة ونشأت عن ذلك حروب اريقت فيها الدماء

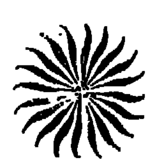
وكان ملوك هاتين الاسرتين اقوياء شديدى البأس وتقدمت مصر في عهدهم واخذت الهندسة المعارية ترقي وحفر الترع يزداد والتجارة تنمو بين مصر وما جاورها من البلاد مثل شبه جزيرة العرب وربما بحر ايجه

الفصل الثالث

الاسرة الثالثة

ومدة حكمها ثمانون سنة (٢٩٨٠ — ٢٩٠٠ ق . م) ومقر حكمها مدينة « منف » (منفيس) التي وصلت في أواخر عهد الأسرة الثانية الى درجة كبيرة من الرقي فاقت فيها مدينة « طينة » التى ينسب اليها فراعنة الاسرتين الاولى والثانية ولما انقضى عصر الدولة الثانية أسس « زوسر » الأسرة الثالثة فبدأت (منف) تصعد سلم الرقي والعظمة وفي عهد هذا الملك استمر استخراج النحاس من شبه جزيرة سينا وساعد زوسر في نجاح وزيره « أمحتب » الحكيم العالم وكان زوسر أول من شيد من الحجر أبنية عظيمة وأول من رقى بناء المقابر وقد بنى بجهة « بني خلاف » بالقرب من « أبيدوس » مصطبة كبيرة من الطوب وهو صاحب هرم سقارة المدرج المعروف بقرب منف

وآخر ملوك الأسرة الثالثة هو الملك « أسنفرو » وكان بعيد النظر بنى السفن ومهد الطرق التجارية وتاجر مع الممالك الشمالية وبعث أسطولا مؤلفاً من أربعين سفينة لاحضار أرز لبنان وغزا بلاد النوبة الشمالية وقد ارتقت مصر في عهده وشيد « أسنفرو » تربتين احداهما بجهة « ميدوم » على شكل هرم مدرج والاخرى بجهة « دهشور » على شكل هرم كامل .



الفصل الرابع

الاسرة الرابعة

انقضى عهد الاسرة الثالثة بوفاة اسنفرو فأسس « خوفو » او « كيبس » الاسرة الرابعة وقد حكمت مصر قرنا ونصفا (٢٩٠٠ الى ٢٧٥٠ ق . م)تقريباً ويرجح ان عاصمة ملكها كانت (منف) وفي عهد هـذه الاسرة المشهورة التي يعتبرها الكثير أقوى وأعظم الاسرات المصرية حيث بلغت مصر في عهدها ذروة المجد والرفعة والحضارة ونستدل على مبلغ قوة الملك وجبروته من تلك الآثار الهائلة التي خلفها وتلك الاهرامات المعروفة التي خلدت اسماء بناتها بل ان اسم خوفو لا ظهر اسم في ملوك الشرق اذ خلف بعده هرما هو أحد عجائب الدنيا وكان القصد من بناء الاهرام ايجاد مخبأ حصين لجثة الملك لا تصل اليها الأيدي في كر القرون ومر العصور وسنأتي كلمة عن الهرم الأكبر . ويمكننا ان نتصور نظام الحكومة وثراء البلاد وعظمة فرعون من التأمل في هذا الهرم العجيب الذي ما زال ثابتاً لا تغلبه الدهور ولا تثني من رفعته الأيام الذى قال فيه المسيو ماسبرو العالم الاثرى المشهور « يخشى الانسان الدهر ويخشى الدهر الاهرام » ولما مات «خوفو »تولى العرش الملك «خفرع» (ومعناه المقتبس من نور رع) مشيد هرم الجيزة الثانى وخلف « خفرع » بعد وفاته «منقرع» مشيد هرم الجيزه الاصغر وفي أيامه بدأت قوة الملك تضعف قليلا بازدياد قوة كهنة « أون » (عين شمس) الذين دخلوا في غمار سياسة البلاد

وقيل ان « أبا الهول » الذي لا يعلم صانعه يقيناً عمل في زمن الأسرة الرابعة وقيل قبلها يبلغ ارتفاعه نحو ٢٠ مترا وطوله نحو ٤٦ متراً (١)

---

(١) وتضاربت الاقوال في لغز أبى الهول فقال البعض انه كان معبوداً يسمى (حورمخوتى) التى تتركب من لفظين (حور أي المعبود حوريس وخوتى أى الافقين) وكان يرمز به للشمس فى النهار وللمريخ فى الليل وغير ذلك من الاراء

الفصل الخامس

الاسرة الخامسة

أخذ كهنة « أون » أو كهنة «رع» بعين شمس يستبدون بأمر ادارة البلاد في أوائل عهد الأسرة الرابعة وبقوا على هـذه الحال نحو ١٢٠ سنة حتى تمكنوا من اسقاط الأسرة الرابعة وتأسيس الاسرة الخامسة التي حكمت ١٥٠ سنة وكان مقر حكمها مدينـة « منف » ولما كان الفضل في تأسيسها يرجع إلى الكهنة كان ملوكها أضعف من الملوك الذين كانوا قبلهم فاتخذ حكام الاقاليم من هذا الضعف ذريعة الى جعل مناصبهم وراثية بيد أنهم حافظوا على الولاء لمليكهم وساعدوه في العمل على رقيها حتى ان مصر حافظت في زمن هـذه الأسرة على حضارتها وثرائها ومن ذلك أن«أوسركاف »أول ملوك هذه الأسرة مد ملكه الى الجنادل الأولى للنيل وأن « سحورع » الذي خلفه بعث حملة بحرية الى الشواطىء الفينيقية وأخرى الى بلاد (بنت) وشواطىء خليج عدن الجنوبية كما ارسـل. حملة برية الى شبه جزيرة سينا وأن الملك « اسيس » أرسل حملة أخرى الى بلاد (بنت) وفتح محاجر وادي الحمامات (الممتد الآن بين قنا وبين القصير على البحر الاحمر) وأن الملك « أوناس » آخر ملوك هـذه الأسرة وطد دعائم سلطانه جنوبا الى الجنادل الأولى

ولهذه الاسرة آثار عديدة منتشرة في انحاء مختلفة في الوجه القبلي ومنف وآخر اهرامها هرم « أوناس » بجهة سقارة



الفصل السادس

الاسرة السادسة

وحكمت ١٥٠ سنة ومقر ملكها « منف » وفي عهدها حافظت مصر على حضارتها ولكن زادت سلطة حكام الأقاليم فصاروا يلقبون بالامراء العظام ومع ذلك كان للملك عليهم نفوذ كبير فتمكن بمساعدتهـم من غزو بلاد أجنبية فان « بيبي الأول » ثالث ملوك هذه الأسرة ارسل حملاته الى النوبة وفلسطين وفينيقية والى قبائل البدو الشماليـة . وتمكن ابنه « مرنرع » بمساعدة امراء « الفنتين » من حفر قناة في حجر الصوان بقرب الجنادل الاولى ليسهل عليـه ارسال حملاته الى بلاد النوبة وذهب اليها بنفسه للاستكشاف وفي عهد « بيبي » الثاني الذي تولى حكم البلاد اكثر من تسعين سنة وهو أطول زمن لحكم ملك في التاريخ ارسلت الحملات الى افريقيا وبلاد بنت وكشفت جهات الجنادل العليا وزادت العلاقات التجارية مع السودان وبلاد بنت ولبنان وجزائر بحرايجه ولما مات « بيبي الثاني » خلفه عـدة ملوك ضعفاء لم يلبث حكام الاقاليم في عهدهم أن استبدوا بأمر الملك ووقعت مصر في فوضى وانقسمت البلاد على نفسها فكان ختام عهد هـذه الأسرة مظلما مملوءاً بالفتن والحروب الداخلية انتهت بسقوط الأسرة السادسة التي تعـد آخر أسرات الدولة القديمة ومن ملوك هذه الأسرة المشهورين الملكة « ينتوكريس » التي اتمت هرم الجيزة الثالث



الفصل السابع

الاسرتان السابعة والثامنة

ولم يصل الينا من أخبار هاتين الأسرتين غير اسماء ملوكهما لأن مصر كانت تعاني اضطرابا داخلياً واضمحلالا في عهد ملوك ضعفاء تولوا الحكم في عهد زادت فيه قوة الأشراف والامراء حتى أدى بهم الأمر الى تغلب أسرة منهم على ملوك الأسرة الثامنة الضعاف فانتهت المدة الطويلة التي كانت فيها مدينة « منف » عاصمة البلاد ومقر الحكومة وصار مقر الحكم في مدينة « هرقلو بوليس » جنوبي الفيوم التي نشأت فيها وابتدأت بها الاسرتان التاسعة والعاشرة

الفصل الثامن

الاسرتان التاسعة والعاشرة

مؤسس هاتين الأسرتين هو « خيتي الأول » (اختويس) وكان ملوكهما ضعفاء ولم يخلفوا آثارا تخلد ذكراهم واستمر الأمراء مستبدين بحكم الاقطاعات وكان منهم من يحنق على الملك ويعاديه ومنهم من يتقرب اليه ويتزلف مثل أمراء اسيوط

الفصل التاسع

الاسرة الحادية عشرة

وقد حكمت ١٦٠ سنة (من عام ٢١٦٠ الى ٢٠٠٠ ق . م) وأسسها أمراء « طيبة » الذين اشتدت سطوتهم وقوى بأسهم فأخذوا يوسعون ملكهم الى الشمال حتى أخضعوا كل البلاد وكان يسمى بعض ملوك هذه الأسرة باسم « أنتف » والبعض باسم « منتوحتب » وقد غزا آخر ملوكها « سنخرع أمنتوحتب » بلاد بنت بطريق البحر الاحمر . ولم يترك ملوكها آثاراً كثيرة ولم يبق شيء منها الآن وكان مقر الحكومة في « طيبة »

الفصل العاشر

الاسرة الثانية عشرة

وحكمت ٢١٣ سنة ومقر حكمها «لشت» ومدينة الفيوم وقد أسس هـذه الأسرة « امنمحعت الاول » (امنهات)بعد عدة حروب وكان عصرها زاهرا زاهيا بل هو أزهى عصور الدولة الوسطى قامت في مدة كانت مصر فيها مقسمة الى ولايات صغيرة يرأس كلا منها أمير ورث ملكه عن أبيه ولكنه كان يشعر مع استقلاله بواجب الطاعة لفرعون وبواجب نصرته ومساعدته وكان الملك يحيط نفسه بجيش قائم لحراسته وكان للامراء كذلك رجال للحرب وبالجملة فكان نظام هذا العهد الاقطاعى مشابها للعهد الاقطاعى الذي ساد في أوروبا في القرون الوسطى فلما تولى أمر الملك « أمنمحعت الأول » قام باصلاح البلاد بعد أن زلزلت أركانها أيدى الفتن والاضطرابات الداخليـة ونقل مركز الحكومة من

« طيبة » الى « اللشت » التي تبعد عن منف ٢٥ ميلا واستخرج المعادن من مناجم الصحراء وقطع الاحجار وغزا بلاد النوبة حيث كان يوجد الذهب وبعد أن حكم البلاد عشرين عاما ارتقت في أثنائها مصر سلم المجد والعظمة أشرك معه في ادارة البلاد ابنه «أسرتش الأول» لتدريبه على شئون الملك وتوفي «امنمحعت الأول » بعد أن حكم ثلاثين عاما نخلفه ابنه « اسرتش الأول » الذى اشتهر منذ صغره بالشجاعة والقوة وقاد في حياة ابيه الجيوش لتأديب اللوبيين وبلاد النوبة وبدأ في حكمه مشروع خزان « موريس » وبنى معبداً بوادي حلفا وله هرم بجهة « اللشت » ومسلته المشهورة بجهة المطرية . وخلفه « امنمحعت الثاني » فحكم مصر في ظل الهدو والسكون ودفن بهرم بجهة دهشور وتبعه «اسرتش الثاني» ومن آثاره هرمه بجهة « اللاهون »بالفيوم وخلفه « اسرتش الثالث» وكان مولعا بالحرب فغزا بعض جهات سوريا وأخضع النوبة حتى وصلت الحدود المصرية الى ماوراء الجنادل الثانية وبنى هناك قلعتين ووصل النيل بالبحر الأحمر بخليج يعرف بخليج سيزوستريس وهرم هذا الملك بدهشور حيث عثر على حلي بديعة الصنع

وخلفه « امنمحعت الثالث » فبلغت مصر في عهده درجة سامية في الحضارة وانقضى عهد شوكة الأشراف ونظمت في أيام حكمه مناجم سينا وأنشىء مقياس للنيل بجهة سمنة بالسودان وشيد خزانا عظيما للمياه في المكان المسمى الآن بحيرة موريس وأوصل الخزان بترعة (تعرف الآن ببحر يوسف) وشيد بجوار الخزان قصر « اللبيرنت » العجيب الذي قال عنه «هيرودوت » انه يحتوي على ثلاثة آلاف محل مابين غرفة وردهة نصفها تحت الأرض والنصف الآخر فوقها عدا ثماني ساحات مسقفة وقيل ان هذا القصر العجيب الذي لم يبق منه للآن غير أحجار قليلة كان مركزا تدار فيه أعمال الحكومة اذ كانت الفيوم مقر الحكم وفي

زمن هـذا الملك الساهر على مصلحة البلاد نظمت التجارة وهدأ حال البلاد وتمتعت بالرخاء (١)

ولما مات دفن بهرم بدهشور فحكم بعده « امنمحعت الرابع » ثم الملكة « سبكنفرورع » ولكن كانت مدة حكمها قصيرة وأخذت البلاد تتأخر وأخذت عظمتها تضمحل فسقطت الدولة الوسطى .

الفصل الحادى عشر

الاسرة الثالثة عشرة

عقب عهد الأسرة الثانية عشرة عصر مظلم وقعت فيه في فوضى واضطراب لما وقع في البلاد من الانقسام والشقاق حتى أدى ذلك في أواخر أيام الأسرة الثالثة عشرة الى دخول قوم فاتحين من اسيا يعرفون بالهكسوس أو ملوك الرعاة ويسميهم العرب بالعمالقة فأسسوا لهم بالوجه البحري بلدة تدعى « هوارة » وازدادت سطوة الهكسوس حتى أخضعوا كل البلاد فدفعت لهم الجزية

(١) ذكرت الصحف (فى ديسمبر سنة ١٩٢٣) انه قد كشف مسيو فيرولو رئيس مصلحة الآثار فى بيروت قبراً قديماً فى جبيل القريبة من بيروت وجد فيه ناووساً ووجد فى هذا الناووس عظماً وأسناناً آدمية وعظام جمل وثور وسمكة وطائفة من الاوانى منها ابريق يشبه أباريق الشاى الحديثة وهو مصنوع من الفضة ومنها أيضاً وعاء مصنع من أعلاه بالذهب وقد وجد منقوشاً على هذا الوعاء امينمحمت الثالث أحد فراعنة الأسرة الثانية عشرة فاستدل من ذلك على تاريخ القبر الذى يقول ان صاحبه دفن فيه حوالى سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد . والمسيو فيرولو يعتقد أن صاحب القبر كان عاملا من عمال فرعون أيام كانت مصر امبراطورية فى الأسرة الثانية عشرة .

الفصل الثاني عشر

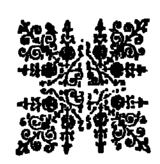
الاسرة الرابعة عشرة

بانقراض الأسرة الثالثة عشرة خلفتها هذه الأسرة وكان ملوكها مصريين وكان مركز حكومتهم مدينة « اكسويس » (سخا) بالوجه البحري

الفصل الثالث عشر

الاسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة

وملوك هاتين الأسرتين من الهكسوس الذين قبضوا على زمام الحكم ولم يصل الينا كثير من آثارهم ونقوشهم لأن المصريين بعد أن طردوهم عبثوا بكل آثارهم واحتقروهم وأزالوا كل نقش يدل على حكمهم وقيل ان قدوم سيدنا يوسف الصديق كان في عهد الأسرة السادسة عشرة



الفصل الرابع عشر

الاسرة السابعة عشرة

وحدث فيها كما حدث في الأسرات الأربع التي سبقتها اضطراب كبير وحروب داخلية وفي زمن هذه الاسرة انقسمت البلاد الى ولايات صغيرة منها « طيبة » وأخذ أمر ملوك الهكسوس في الاضمحلال

واليك مقالا نشر في الاهرام عن مجمل تاريخ تلك الفترة لأديب قال — :

« لم تكن هذه الازمان التي تمر بها مصر الآن وهى تقاسى الآلام الوانا لنيل استقلالها التام بقاصرة على أيامنا هذه فقط بل هى سنة الطبيعة أم العجائب تدور في كل زمان دورتها وتعود عودتها محكمة الصنع كأنها دائرة مع الكواكب والسيارات بنظام محكم التطبيق حتى انه لو قام بيننا الآن «سكنبرا» لاتستغرب عودة التاريخ على نفسه فنحن اليوم في حال كانت عليها مصر أمنا منذ سنة ٣٨٤٢ أى في سنة ١٩٢١ قبل المسيح اذ كان يحتلها الهكسوس عرب الرعاة أو العمالقة وذلك بواسطة التجارة مهنة اولئك الهكسوس فقد كانوا يجلبون الخام والمصنوع وكل ماينقص البلاد المصرية من الشام وفلسطين وأرمينيا والعجم والهند والصين وأوروبا ومن جميع الممالك المعروفة في ذلك الوقت ويرجعون من مصر بعد مبيعها وابلهم محملة بالغلال والكتان والصوف من مصر وصناعتها البديعة التي عملت من المواد المجلوبة كما ذكر لبيعها باوطانها وجلب خلافها وهكذا وكانت تجارة الرعاة بمصر مهنة مالية سياسية أما انها مالية فعلى الذي ذكرنا وأما انها سياسية لان نيل مصر وخصبها وطمأنينة أهلها وسعادتهم قد شغل بال الرعاة وبات شغفهم حسداً فابتدؤا يرسلون الجواسيس للتجارة بمصر وهكذا حتى عرفوا مع الوقت كيف يملكون أرض الفراعنة بعاملى الانقسام والحسام فابتدؤا يبذرون الفتن في الأمة المصرية ولكنهم لاتحادها رجعوا بخفى حنين لأن الامة المصرية كانت كالبناء المتين المرصوص لايحركه الريح وأماهو الدهر قلب فمع الوقت ابتدأت الانقسامات

المادية والأدبية والدينية فنهم من يتبع منهج «أمين امحعت» وآخر « اوسرتش» وفريق يعبد رع وغيره أبيس وخلافه ازوريس وهكذا دب الفشل في أمة خوفو بينما الرعاة بالمرصاد يتحينون الفرص لاحتلال بلاد الفراعنة ولكن لما لهم من اليد الطولى في الحروب وهى ميزة لم تكن للرعاة استعانوا بالمصريين أنفسهم فتطوع عدد ليس بقليل من المصريين قواداً وطلائع جيش ومنظمين ومجهزين وأطباء ومهندسين وصانعي عدد الحرب مما يطول شرحه . عندئذ سنحت الفرصة للعمالقة بالهجوم على وادى النيل بجيشهم الجرار تحت ارشاد وقيادة المصريين كما ذكر بعد مارسموا خطة الهجوم والدفاع وطريقهما والتموين وكلما يلزم لذلك . فسار الجيش كما قيل بالطبول تابعاً الطريق القريبة من البحر الأبيض حتى عبروا برزخ السويس وكانت مصر تحت حكم « واب » الذي ضعفت شوكته فلم تقاوم الدلتا هذا الهجوم بالمرة وابتدأ العمالقة كعادة الفاتحين بتحويل وابدال القوانين والتجارة والسياسة المصرية المعروفة اذ ذاك الى هكسوسية وهكذا رضخت الدلتا لسلطتهم وحكمهم بعاصمتهم « تنيس » ولم يمكنهم اقتحام مصر العليا (الوجه القبلي) لضعفهم فلجأ الى الوجه القبلي أعاظم وفطاحل بقايا الأمة المصرية فانتشروا من اهرام الجيزة شمالا الى بلاد النوبة جنوبا وصارت عاصمتهم طيبة وصار مقر ملوكهم فيها الى أن قيض لهم الله حوالى سنة ١٩٢١ قبل المسيح « بسكنراه » الأول الذي بنى على ضعف الهكسوس وسوء ادارتهم ورغد عيشتهم قوة دولته الساهرة على بلادها المغصوبة فجمع بقصر الليبرنت أركان الدولة وعلماء ووجهاء أمته ليدير شئونها باقتحام باقي مملكته الى أن تقرر ذلك فهاجم الهكسوس شمال اهرام الجيزة ولكن الأمة المصرية لنسيانها الحروب مدة طويله لم تنتصر عليهم ولما مات نسج خلفاؤه على منواله ولكن بلا جدوى حتى برز احمس الأول (أحمس) رأس العائلة الثامنة عشرة وفكر في ذلك ولكن لخوفه من الحبوط كالذين تقدموه استصوب الاستعانة بجيرانه الاقوياء ففكر برأى دقيق صائب أساسه الاقتران ببنت ملك الحبشة واستعان أيضاً بنابغتين وهما (احمس بنحب)

« واهمس ابن ابانا » القائدين والوزيرين المحنكين فانعقد مجلس الامة والاعيان والاحزاب وكل من له رأى وصوت بقصر اللابرنت بالفيوم فقر القرار على ذلك القران النافع ليمدوه بجيش حبشي يقدره المصريون ويكون الصناع وصناع آلات الحروب من المصريين الامناء المعروفين وشرع وتم القران الملكي أولا وبعد مدة أشار على حميه بانقاذ مصر من الهكسوس وطردهم منها مستنجدة لنقصانه بالمال والرجال فما كان من ملك الحبشة حباً في بنته أولا وما ستحصل عليه من جاه وملك ثانياً إلا أنه مده بجيش عرمرم فجهزه اهمس بعدد الحرب بادارة القائدين العظيمين « اهمس بنحب » للبر و « اهمس بن ابانا » للبحر وابتدؤا في الهجوم شمال اهرام الجيزة فانتصر الجيش الحبشي المصري انتصاره الاول فطربت الامة المصرية وتطوع عدد عظيم من المصريين فى جيش الدفاع الوطنى لانقاذ البلاد من العائلة الامر الذي دعا اهمس الاول الى ترحيل عدد عظيم من الجيش الحبشي وابدالهم بمصريين متطوعين كما ذكر وبهذا الجيش المصري الحبشي البري والبحري الجديدين تحت قيادته انتصر انتصاراً عظيما على الهكسوس فى سهول عين شمس (التي خربت من جراء الحروب العديدة) ثم زاد تطوع المصريين لانقاذ البلاد بالمرة فنظم جيش قوي عظيم جداً بعد ذلك فلم يبق فى مصر من الجيش الحبشي إلا النفر القليل جداً الذي لا يعول عليه وأصبح كل الجيش العظيم تقريباً مصرياً ومركبا من صنفين صنف حديث لم يدخل الحرب وصنف حارب في الهجومين المذكورين فأبقى الصنف الذى حارب مخندقا ومدافعاً في سهول عين شمس تحت قيادته براً وتحت قيادة « اهمس ابن ابانا » بحراً ليستريح هذا الصنف بعد العناء من الهجومين المذكورين أما الصنف الذي لم يحارب فكان عدده عظيما جداً أرسله تحت قيادة « اهمس بنحب » براً ليطهر جنوب وغرب وشمال الدلتا من الهكسوس وبعد إتمام ذلك خندق هذا الجيش في جهة المنصورة وأرسل إهمس «إهمس بنحب» إلى إهمس الاول يعلمه بوصوله للمنصورة ليبتدىء إهمس الاول وإهمس ابن أبانا بالهجوم جنوبا براً وبحراً على قلاع أواريس وهي

البقية الدفاعية الباقية للهكسوس فى أرض الفراعنة وليهجم بعد ذلك احمس بنحب غربا وشمالا على قلاع أواريس المذكورة ليحصروا كل الجيش والرعاة الهكسوس في هـذه النقطة وقذفهم فى صحارى سينا من برزخ السويس الذى هو منفذهم الوحيد فنفذت هـذه الخطة حوصرت أواريس شمالا وجنـوبا وغربا براً وبحراً بالجيوش المصرية ولم يبق أمام الهكسوس الا برزخ السويس الذى اجتازوه وتركوا البلاد المصرية في يد أهلها فاقتفى الجيش المصري البري أثرهم حتى طردهم عن آخرهم إلى أعماق صحارى السويس والذي بقي منهم بمصر صار رعيـة مصرية صرفة وبهذا تم انقاذ البلاد المصرية من العمالقة بعد إقامتهم فيها مدة ٥٢١ سـنة تقريباً وأنشأ إهمس الاول نقطا حربية مصرية بالمناوبة على حدود بلاده شرقا وغربا وشمالا وجنوباً ليأمن شر اعدائه وغوائل الحـدثان وطواريء الجيران ورجع لبلاده (بعد ما أتم ملكه للفرات والدجلة والشام وفلسطين شرقا والنوبة جنوبا بموكب هائل ونظم ما أتلفته يد الاجانب من صناعة وزراعة وتجارة وعلوم وآداب وعبادة وبالجمـلة كل التمدن المصرى الذي انقرض وخفقت راية الامة المصرية بعز هذا الملك المنقذ لبلاده مدة أربعين سنة تقريبا بعد ما جعل بلاده دولة عظيمة حدودها منابع النيل جنوباً والبحر الابيض شمالا وما بين النهرين شرقاً والصحراء الليبيه غربا ومات مأسوفا عليه من أمته (١)

---

(١) قال الاستاذ برستد فى كتابه الـكبير تاريخ مصر عن غارة الهكسوس على مصر : « أمست الامة فى ضعفها لقمة سائغة لغزوة أجنبية فانه حوالى عام ١٦٧٥ ق م • قبل نهاية الاسرة الثالثة عشرة أتى من آسيا الى الدلتا غزوة يحتمل كونها سامية مثل ما حدث قبل التاريخ من أنهم مزجوا اللغة بعنصر سامى واضح ومثل ما حدث فى عصرنا من تغلب أثر الاسلام وهؤلاء الغزاة ويدعون اليوم عادة بالهكسوس . ولم يخلفوا وراءهم سوى القليل من الآثار فى مصر وكما أن جنسيتهم ما انفكت موضعا للخلاف كذلك مازلنا نجهل مدة وشكل عظمتهم • • • و • • • • وقد قصت الملكة حتشبسوت ما آتوه من خراب بقولها : « لقد أصلحت ما كان خرابا وشيدت ما كان ناقصا » لان الاسيويين كانوا فى اواريس فى الشمال (الدلتا) وكان البرابرة فى وسطهم (سكان الدلتا) يهدمون ما صنع بينما حكموا جاهلين رع » . وقد تتبع الجيش المصرى الهكسوس وحاصر أفاريس وتعقبهم الى جنوب فلسطين وفى فينيقيا وبعد أن طردوا من

الفصل الخامس عشر

الاسرة الثامنة عشرة : (١)

ومدة حكمها ٢٣٠ سنة ومقرها « طيبة » ومؤسسها كما أسلفنا هو اهمس الذي طرد الهكسوس وخلفه « إمنحتب الاول » الذي غزا الشام والنوبة وخلفه تحتمس الاول » (طوطميس) وكانت البلاد في هدوء وسلام وكانت منابع الثروة متدفقة والحكومة قوية والملك مستقل بأمر الملك وقد أخضع تحتمس بلاد النوبة (الكوش) وغزا الشام حتى وصل إلى نهر الفرات واهتم بالمباني ولما مات دفن بوادي مقابر الملوك فكان هو الاول لعدد كبير من الفراعنة الذين دفنوا بذلك الوادي المشهور الآن في بقاع الارض وخلفه « تحتمس الثاني » ثم بعد مدة وجيزة خلفته بنت « تحتمس الاول » الملك « حتشبسوت » (حاتاسو) مشتركة مع « تحتمس الثالث » نخضعت مصر لبأسها وسلطانها واستبدت هى بأمر الملك إذ كان « تحتمس الثالث » صغير السن وقد بنت هذه الملكة عدة مباني أشهرها معبد « الدير البحري » وأرسلت إلى بلاد « بنت » بعثة بحرية لاحضار أشجار لغرسها بمعبدها

ولما ماتت « حتشبسوت » خلفها « تحتمس الثالث » وقد كان خامل الذكر قبل مماتها ولكن لم يلبث أن ظهرت مقدرته الحربية التي جعلته من كبار الفاتحين في العالم القديم فأنه ما كاد يستبد بأمر الملك حتى قاد جيشاً جراراً لتأديب ولايات

البلاد ومر على عهدهم نحو أربعمائة سنة سارت بين القوم قصة مضمونها : « أنه حدث ان مصر كانت خاضعة للجنسين ولم يكن هناك ملك مترئس ولكن كان الملك « سكنتر » حاكما على المدينة الجنوبية (طيبه) .... والملك ابو فيس كان حاكما فى أفاريس وكانت الارض ملكا له يجعل الملك ابو فيس سوتخ الها له ولم يخدم ربا سواه وبنى المعبد بعمل خالد جميل .... » ومن تلك الشواهد القديمة نرى أن الهكسوس كانوا من آسيا وقبضوا على زمام حكم الدلتا فى افاريس وقد نقل حوزيفاس عن مانيتون فى هذا المقام مايجعله شاهداً يثق به .... »

(١) سبق ذكر نبذة صغيرة عن هذه الاسرة المشهورة وسيأتى ذكرها فى مكان آخر

سورية الذين نبذوا طاعة المصريين يرأسهم ملك قادش الذي عسكر في مدينة « مجدو » فحمل عليه تحتمس بجيش وحاصر « مجدو » حتى سلمت له وغنم من المدينة وخارجها شيئاً كثيراً من النفائس كما غنم سرادق ملك قادش و ٩٢٤ عجلة حربية فيها عجلتا ملك قادش وملك مجدو وألوف من الخيل والدروع وسار تحتمس إلى الشمال ففتح ثلاث مدن من جنوبي لبنان حيث بنى حصنا وعاد الى مصر بمواكب النصر والتهليل . وعاد تحتمس فغزا تلك البلاد ثانية حتى عمت شهرته الآفاق وخشى ملك بابل بأسه فتزلف اليه باهداء الاحجار الكريمة والخيول البابلية وبعد ثلاث سنين من تلك الغزوة غزا سورية ثالثة ثم رابعة وسار حتى فتح مدينة « أرواد » وغيرها من مدن فينيقية وعاد بالغنائم الكثيرة . وغزا غزوة سادسة فتح فيهامدينة قادش المنيعة فسلمت له بعدحصار طويل وفى السنة الثالثة أخذ تحتمس الجزية من جميع بلاد الشام . وفى السنة الثالثة والثلاثين من حكمه سار الى ما بين (النهرين)فعبر نهرالفرات وفتح مدينة « نينوى » وكان الاسطول المصرى فى ذلك الحين مسيطراً على شرق البحر الابيض المتوسط والى ماوراء بحر « إيجه » وغزا تحتمس بلاد النوبة ومع كل تلك الحروب والغزوات التي جعلت مصر سيدة العالم القديم وقتئذ وأمسى ملوكه كولاة لفرعون يخشون بأس جيوشه وأساطيله فيقدمون له الطاعة والهدايا والجزية لم ينس تحتمس تدبير شئون بلاده فأحسن ادارتها

وخلف تحتمس الثالث آثاراً عظيمة منها مسلتان عظيمتان أقامها في عين شمس (١) وبعد وفاته خلفه ابنه « امنحتب الناني » (أمينوفيس الثاني) فغزا سورية ووصل إلى الفرات وعاد إلىطيبة ومعه غنائم لاتحصى وسبعة ملوك اسرى ثم خلفه ابنه « تحتمس الرابع » وله حروب في سورية والنوبة وتولى بعده ابنه « امنحتب الثالث » (أمينوفيس الثالث) مؤسس معبد « لقصر » وصاحب

(١) نقلت كليوبطرا هاتين المسلتين ومنها نقلتا الىالاسكندرية الى المغرب واحداهماالآن فى لندن والاخرى في نيويورك

المباني العديدة فزاد في معبد الكرنك وشيد طريق الكباش والدهليز ذا الاربعة عشرعموداً ومعبداً أقامه فى غرب طيبة لم يبق منه الآن إلا (تمثالي ممنون) المشهورين وشيد قصراً جنوبي المعبد . وغزا « إمنحتب » إتيوبيا وكان نفوذه يمتد من نباتا إلى نهر الفرات وارتقت التجارة وهندسة البناء في عهده رقيا عظيما وخضع ملوك أشور وقبرس وبابل وولاة الشام لاوامره فقضى إمنحتب هذا الزمن في سلام وصفو ولكن في أواخر أيامه هاجم « الحثيون » الشام وأغار عليها من الشرق قوم ساميون ومات إمنحتب (إمينوفيس) قبل أن يرد أولئك المغيرين نخلفه « إمنحتب الرابع » المعروف باخناتون الذي شغل أيامه في فلسفة الدين وإليك نبذة [١] عن عهده الغريب عهد الثورة الدينية :مرت على «مصر في أيام مجدها الباهر وعزها الزاهر أزمة دينية سياسية نشأت عن إنقسام أهلها وانشقاقهم فتفرقت وحدتهم وتمزق شملهم حتى تلاشت مستعمراتهم وضاع إستقلالهم ولاعجب فكل مملكة تنقسم على ذاتها تخرب . (١)

أسباب هذه الثورة : — طرد المصريين ملوك الاسرة الثامنة عشر الرعاة من وادي النيل وتوسعوا في الفتح حتى خفقت أعلامهم على بلاد الشام ولبنان وتوغلوا إلى نهر الفرات شرقاً وإلى فلسطين شمالا وإلى النوبة جنوباوهذه أشهر بلاد العالم في ذلك الزمان .

وكان هؤلاء الملوك يفتحون البلاد باسم (أمون) إله مدينة طيبة وهو معبود الاسرة المالكة ونسبوا اليه فتوحاتهم العظيمة وانتصاراتهم الباهرة . لهذا إرتفع شأن مصر حتى طاولت الكواكب مجداً ورفعة وإندثرت جميع المعبودات المصرية وتفوق أمون على رع معبود مدينة عين شمس وأضعف شوكة كهنتها وإنفرد برئاسة المعبودات وبسيادة الوجهين البحرى والقبلي حتى شيد له ملوك تلك الاسرة المعابد الضخمة والهياكل الفخمة في مدينة طيبه ونقشوا على جدرانها وأعمدتهاومسلاتها « إن هذه المباني أقامها الملوك الامنوفسيون

(١) عن الاهرام لانطون افندى زكري ، وراجع كتاب الاستاذ « برستد »

والتحوتمسيون لا بيهم المعبود آمون » وقد شهدت الا كتشافات الحديثة أن أيدى الحدثان وتقلبات الزمان لم تقو على العبث بهذه الآثار . وبهذه المناسبة كثرت الغنائم وذخرت الذخائر عند المعبود آمون وغمرت الثروة الكهنة بما إجتمع عندهم من أسلاب الحروب وأساليب الجبايات كالضرائب التي كانوا يفرضونها علي أطيان الوجهين البحري والقبلي حتى إنفرد رئيس الكهنة (وهو الوزير الاول للملك) بالثروة والنفوذ في الديار المصرية وصار أغنى من الاسره المالكة نفسها . وكان تحت سلطته جيش عرمرم من الكهنة والكتبة ورجال الحكومة والجنود والفلاحين والعبيد فكان له النفوذ المطلق في جميع الشئون المدنية والدينية وجمع بين الوظائف والالقاب الآتية في وقت واحد حبيب الله وفم السلام في الديار المصرية والمتصرف المطلق بأمر الملك فى الوجهين البحري اوالقبلى وحامل أختام الملك ووالي مدينة طيبة ورئيس البلاط الملكى وزعيم الشعب وأكبر الامناء للملك ورئيس الانبياء للمعبود أمون في جميع المملكة .

فكبر على الملك أن يستأثر هذا الرجل الواحد بكل هذه الالقاب وأن يجمع تحت نفوذه كل سيطرة وخشى أن يتوسع الوزير بهذه السلطة الواسعة فيضعف نفوذ الملك نفسه فاقتضت سياسة الحذر والاحتياط هذا الخطر القريب الوقوع ولم يجد طريقة لذلك إلا إضعاف سلطة المعبود أمون الذي استمد منها هذا الوزير وأتباعه سلطتهم ودعته هذه السياسة إلى عبادة رع هرمخيس خبراتون أكبر معبود لمدينة عين شمس وقدمه على المعبود أمون فأمن بذلك توقع الخطر لكنه إضطر أن يقف وقفة الحائر لانه لم يستطع التوفيق بين كهنة مدينة طيبة وبين كهنة عين شمس فكان يرضي الفريقين جهد الاستطاعة وفكرت الملكة الشهيرة حتشبسوت أن ترضى كهنة عين شمس فأقامت لمعبودهم هرمخيس معبداً بالدير البحري ورفع تحوتمس الرابع الرمال التى كانت بالجيزة حول أبى الهول الذى كان يمثل هرمخيس رع أتوم المذكور . ولما رأي كهنة المعبود آمون بطيبة ما يفعله الملوك من أنواع الحفاوة وضروب الا كرام لرع معبود كهنة عين شمس حقدوا عليهم وتربصوا

الغرص للايقاع بهم وظهرت نياتهم للملك أمنوفيس الثالث فقاتلهم وقامت الحرب بينهم سجالا فعين الملك صهره (وهو أخو زوجته) المدعو (عاش) رئيساً لكهنة عين شمس وفي السنة الحاديه عشر من حكمه أمر بحفر قناة لنزهة زوجته الملكه (تايي) ومرت هذه الملكة في هذه القناة على سفينة سميت أتون (أى قرص الشمس) ومن هذا العهد أطلق أتون على هذا الشكل وصار معبوداً لمدينة عين شمس ومشاطراً في النفوذ لامون معبود مدينة طيبة فكان هذا سبباً للخصام بين الفريقين

وبلغ العناد بالملك أمنوفيس الثالث أن شيد معبداً لاتون فى الكرنك حيث كانت قلعة المعبود آمون ولهذا إكتشف أخيراً فى الزاوية الواقعة في الشمال الغربى للبحيرة المقدسة حجر من الجرانيت الوردي عليه صورة جعل (جعران) طوله متر وعرضه نصف متر فكانو يسمون هذا الجعل (خبر) وهو رمز للحياة المستجدة واسم للشمس المشرقة ووجد على هذا الحجر شاهد جميل مرسوم عليه صورة الملك (أمنوفيس الثالث) جاثياً أمام اتوم أحد معبودات عين شمس ومنقوش تحت هذا الاسم ما يأتى « يابني أمنوفيس الثالث سيد كل شيء يشرق عليه المعبود أتون (قرص الشمس) أنا خبر (الجعل) أمنحك الحياة والقوة والخلود وأجعل أعداء مصر موطئاً لقدميك لأنك أفرحت قلبي بالمعبد الذي أقمته لى غربى مدينة طيبة »

وعلى أثر إنتصار الملك أمنوفيس الثالث للمعبود رع استرد سيادته وألقابه ونفوذه من المعبود آمون في مدينة طيبة وهذا هو الذي دعا كهنة المعبود آمون أن يظهروا العداء للملكين أمنوفيس الثالث والرابع حتى انه عثر على حجر منقوش عليه شكوى أمنوفيس الرابع من هؤلاء الكهنة ترجمتها « أقسم بابى المعبود رع هرمخيس أتون ان تصرفات الكهنة التي رأيتهامنهم في السنة الرابعة من حكمي ورآها قبلى أبى وجدي مؤلمة ومدهشة »

وفى الحقيقة أن مقاومة الكهنة للملوك إبتدأت في عهد الملك تحوتمس الثالث

واستمرت حتى قويت واشتدت في عهد الملك أمنوفيس الثالث الذى كان يخضع للمعبود آمون إلا أنه أبى الخضوع لسلطة كهنته وجبروتهم فقاومهم بعبادة الاله رع هرمخيس أتون والتف حوله الأحزاب المحافظون على العادات القديمة وانقسمت المملكة شطرين لعبت بهما الضغائن التي استحكمت حلقاتها بين الملك وأنصاره وبين الكهنة وأحزابهم فأدى ذلك إلى الثورة الكبرى التي قامت في الديار المصرية في عهد أمنوفيس الرابع الشهير بخوناتون

(٢) انتشار الثورة :

لما مات امنوفيس الثالث سنة ١٣٧٠ ق . م كان ابنه امنوفيس الرابع قاصراً فاستمر تحت وصاية امه ست سنوات ثم بلغ رشده وقبض على زمام الملك ولكنه لم يقم التماثيل للمعبود آمون مثل ما كان متبعا عند أسلافه بل أقامها لمعبوده الجديد اتون (قرص الشمس) وكان شكله على قرص الشمس محفوفاً باشعة ممتدة الى الأسفل ومنتهية بأيد قابضة على صلبان رمزاً لعلامات الحياة التي تفيضها على الملك

ولهذا نشأت هذه الثورة الدينية الكبرى في مدينة طيبة عاصمة المملكة لانه أبطل عبادة آمون وحجز أوقافه واسقط كهنته ومنع ذكره في سائر انحاء المملكة ومحا جميع الآلهة وازال كلمة الآلهة (بصيغة الجمع) المنقوشة على المسلات والهياكل والمعابد حتى غير اسمه امنوفيس أو امنحوتب (أى حبيب آمون) بغضاً في هذا الاله وقطعاً لذكره وسمى نفسه « خون اتون » (أى مرضى اتون) وترك مدينة طيبة عاصمة المملكة وأسس عاصمة غيرها بالاقاليم الوسطى ودعاها خوت آتون (أى أفق قرص الشمس) المعروفة الآن بتل العمارنة بقرب اسيوط وشيد بها المعابد الشاهقة والقصور الباذخة والحدائق الشائقة ولا تزال آثارها باقية للآن

(٣) صبغة هذه الثورة

وضع امنوفيس الرابع اناشيد عجيبة لمعبوده الجديد آتون يترنمون بها في

الهياكل والمعابد ويكتبونها للميت ليتلوها في قبره حسب عقيدتهم ولا تزال منقوشة باللغة المصرية القديمة بتل العمارنة وهى التى نقلها الى الالمانيـة المعلم ارمن والى الفرنسية المعلم ماسبرو ومنهما ترجمتهما الى العربية والى القارىء نصها :

النشيد الاول

وصف ضياء الشمس : أنت العالم بأسرار الحياة تظهر بجمالك في آفاق السماء تشرق في الأرجاء فتملأ الارض بجمالك ، أنت الجميل العظيم البهى الذى تسطع أنوارك على وجه الأرض وتحيط اشعتك كل أقطارك التى خلقتها وملكتها بحبك مهما بعدت عنا فاشعتك مالئة الأرض كلها

النشيد الثانى

وصف الليل : ـ حينما تغرب يظهر المساء وينتشر الظلام في الأرض كلها فينام الناس في بيوتهم ويندرجون تحت غطائهم وتسكن حواسهم عن الحركة فلا يسمعون ولا يبصرون ، أنت الذي تحفظ لهم أرواحهم وأموالهم وأمتعتهم وهم في مضاجعهم غافلون ويرخى الليل سدوله فتخرج الأسود من عرنها والحيات من أوكارها وتسكن الطبيعة كلها فيستريح خالقها في أفقه

النشيد الثالث

النهار والانسان : ـ تظهر عظمتك في الأفق صباحا فتملأ أشعتك أرجاء الأرض كلها ويطلع النهار وينجلي الظلام فتفرح الناس بظهورك ويستيقظون ويتوضون ويرتدون ملابسهم ويرفعون ايديهم الى السماء متوسلين اليـك ثم يذهبون الى أشغالهم

النشيد الرابع

النهار والحيوانات : ـ حين تشرق في الأفق تستقر المواشى في مرعاها وتزدهي الأشجار والنباتات وترفرف الطيور تمجيداً لك وتنهض الحيوانات على قوائمها

النشيد الخامس

المياه : ـ اذ تشرق في الافلاك تسبح في بحارها الافلاك وتمرح في لججها الأسماك وتتلألأ اشعتك على صفحات الماء فما ابدعك وما اسماك

النشيد السادس

أنت الذي خلقت نطفة الأنام وصورت منها الأجنة في الأرحام وحفظتهم ووقيتهم الآلام ورفقت بهم في الرضاع والفطام ووضعت لهم الحنان في قلوب الأمهات والآباء فوفرت عنهم العويل والبكاء ووهبت الحياة لسائر المخلوقات وأطلقت ألسنتهم بالكلام على اختلاف اللغات ومنحتهم مايحتاجون من قوت ومعاش ومن غطاء وفراش

أنت الذي تهب النسمة للفرخ داخل البيضة وتحييه فيصيح ويمشى عند خروجه منها

تفضلا منك خلقت الأرض والسموات وأبدعت جميع المخلوقات وأعمالك لاتحصى واحسانك لايستقصى

أنت الذي خلقت البلاد الأجنبية وسوريا واثيوبيا ووادى النيل وخلقت كلا منها في موقعها وسخرت لها حاجاتها ومنافعها وخصصت لكل انسان خاصياته وحددت له أيام حياته . أنت الذي خلقت الشعوب مختلفة الاجناس واللغات والالوان والصفات

أنت الذي خلقت النيل لحياة ابنائه وأنعشتهم بعـذوبة مائه . أنت الذي تسوق الارزاق للبلدان القاصية وتنزل الأمطار على جبالها هامية فتنحدر المياه الى الحقول والبلاد لخصبها وريها ، ماأجملك يارب الأزل وما أجمل أوامرك العالية . أنت الذي قسمت السنة فصولا لمصالح خلقك ونظام حياتهم ؛ قدارتفعت في علو سمائك لتبرز منها اشعتك وترى منها ملكوتك ، أنت وحدك الذي تشرق تحت كنه الشمس الحبة المضيئة البارزة اشعتها . قد خلقت الأرض لابنائك ومتى أشرقت علينا تشخص الناس في جمالك

***

هـذه هي الأناشيد التي وضعها خون اتون لالهة اتون ومنها يستخلص أن هذه الديانة الجديدة قد امتازت عن الديانات التي قبلها بخصائص منها انهم وحدوا أتون بالعبادة ولم يشركوا غيره معه في اللاهوتية بخلاف المعبود رع وغيره فانهم كانوا يعبدون معه آلهة كثيرة ويدعونه رئيس الآلهة فكان لكل اقليم اله مخصوص يعبده دون غيره كما نقل ذلك علماء الآثار فقد قال ليبسيس « ان اتون هو الاله الواحد الذي لاشريك له ولا وجود لآلهة آخرين معه وانه الخالق الحي القادر على كل شيء » وقال أيضاً بتري انه لم يظهر قط في العالم مثل هذه التعاليم اللاهوتية السامية المنقوشة بتل العمارنة» ولا شك أن هذه المبادىء قربت الناس الى بعضهم على تباين أجناسهم وربطت الأمم على اختلاف لغاتهم لأنها وحدت دياناتهم وجعلتهم كلهم اخوة يعبدون الهاً واحداً بعقيدة واحدة ومن رأى بعض المؤرخين أنه لم يكن اعتقادهم أن اتون هو الشمس نفسها بل هو الجوهر الذي لاشكل له وهو أصـل كل شيء والذي أنزل المحبة على الأرض فدعوه المحبة بالذات . وقد مثلوا أتون على شكل قرص الشمس تتلألأ أشعته وهو شكل خاص به ولا يشركه فيه غيره فكان يتبادر لكل من رآه لأول وهلة ان هذا هو الاله بخلاف الالهة قبـله فانهم كانوا يمثلونها على شكل صقر أو أى حيوان فلا يكون فيها ميزة خاصة بالاله . وقد وصفوا اتون بالرحمة والشفقة وحب الخير والملاطفة

مع خلائقه وأنه أب لهم عطوف جميل يملأ السموات والأرض بالخير والبركة ولطيف بخلائقه يأسرهم بحبه ويلاطف الطفل في الرحم وفي المهد ويعطف على الفرخ في البيضة وأجرى النيل وأنزل الأمطار وعم المنافع لسائر البلاد وجميع العباد بخلاف آمون مثلا فانه كان متصفاً بالقهر والجبروت والانتقام

ومات خون اتون بعد أن حكم ١٨ سنة أقام منها ستاً في مدينة طيبة وباقي مدته في تل العمارنة وماتت ديانته معه لانه لم يكن له ابن ينشر هذه التعاليم الجديدة السامية بل ترك بنات تزوجت احداهن بالملك توت عنخ آمون الذي أعاد عاصمة الملك الى مدينة طيبة وجدد عبادة الاله آمون فتجددت شوكة كهنة مدينة طيبه وقويت سلطتهم التي كان أضعفها خون آتون ولم يزل يشتد نفوذهم شيئاً فشيئاً حتى تغلبوا على الفراعنة أنفسهم بعد ثلاثة قرون من موت خون أتون فقهروا ملوك الاسرة الحادية والعشرين على مشاطرتهم الملك وإنفردوا بحكم الوجه القبلي وإستقل ملوك الحادية والعشرين بالوجه البحري واستمر الحال على ذلك إلى الاسرة الثالثة والعشرين وكان هذا الانقسام سبباً لاستيلاء الاجانب على مصر فملكها الاثيوبيون فالاشوريون فاليونان فالرومان فالعرب فغيرهم . . . . . .

هكذا شغلت تلك الامور الدينية أوقات اخناتون فلم يلتفت لشؤون دولته التي أخذت تتقهقر إلى الوراء واستولى الحثيون على شمال سوريا وغيرهم على جنوبها وتوفى عام ١٣٥٨ ق م مكروها من شعبه

وتولى بعده الملك « توت عنخ آمون » وعرفنا عنه شيئاً . ثم خلفه بضعة ملوك ضعفاء تولوا الحكم مدداً قصيرة وبهم إنقرضت الاسرة الثامنة عشرة فى خلل وإضطراب

الفصل السادس عشر

الاسرة التاسعة عشرة

ومدة حكمها ١٤٥ سنة (من ١٣٥٠ الى ١٢٠٥ ق . م) ومقر حكمها « مدينة رمسيس » ومؤسس هذه الاسرة رجل يدعى « حرمحب » وكان في أول أمره قائداً حربياً فتمكن من تبوؤ العرش حتى اذا تم له ذلك عني باصلاح ما نشأ عن اهمال سلفه وخلفه « رمسيس الأول» ويحسبه بعض المؤرخين المؤسس لهذه الاسرة وأهم أعماله تشييده ذلك البهو العظيم بمعبد الكرنك المعروف ببهو الاعمدة وقد جلس على سرير الملك وهو طاعن في السن وخلفه ابنه « سيتي الاول » الذي استرجع فلسطين واستمر في تشييد البهو العظيم واستخرج الذهب من مناجم النوبة وأصلح ماشوهه الملك اخناتون من المعابد وتمم معبد الكرنك الذي بدأه أبوه وشيد لنفسه معبداً في ابيدوس وينسب اليه أنه حفر خليجاً يوصل البحر الابيض بالبحر الاحمر ويستمد ماءه من النيل

ثم خلف سيتي ابنه رمسيس الثاني أو رمسيس الاكبر الذي ملأ آفاق العالم القديم بشهرته وكما ملأ البلاد بآثاره حتى انه لم يكتف بما شيده بنفسه بل كان يمحو النقوش من الهياكل وينقش إسمه مكانها حباً بالشهرة وتخليد الذكر وصوب رمسيس نظره الى الدولة الواسعة التي كونها جده تحتمس الثالث فوجد أن أخطار المغيرين تهددها من كل جانب وكان ملك الحثيين يجمع جيشاً كبيراً لمحاربة المصريين وتحالف مع ملوك « أرواد » و « قارش » و « حلب » و « بين النهرين » ولكن رمسيس تغلب في عدة حروب من ١٢٨٨ الى ١٢٧١ ق . م وبفضل شجاعته الذاتية وجيشه الجرار فتح معظم « بلاد النهرين » وشمال سوريا وأرواد واسترد معظم أملاك مصر في آسيا التي فتحها تحتمس الثالث وبقيت حدود مصر ممتدة في السودان بالقرب من الجنادل الرابعة وتفرغ رمسيس بعد ذلك لاقامة المعابد والمسلات والتماثيل الهائلة ومن ذلك اتمامه البهو

العظيم بالكرنك وبنائه الرمسيوم المعروف وله تماثيل هائلة بالبدرشين وتمثال بديع المحبب بدار عاديات « تورين » بايطاليا وشيد رمسيس أيضاً بلاداً جديدة بالوجه البحري ومات بعد أن حكم ٦٧ سنة وما زال الكثير يزعمون أنه أعظم ملوك مصر

وخلفه ابنه « منفتاح » فأخمد نار الثورة فى سوريا وفلسطين وصد اللوبيين غربا وشيد مباني كثيرة وكان يمحو أسماء الملوك من الآثار وينقش اسمه مكانها وفعل ذلك بكثير من آثار أبيه نفسه وقيل عنه أنه هو فرعون « موسى »

وحكم بعده « سيتي الثاني » ولم يتم في عهده ما يستحق الذكر وتنازع بعده العرش كثيرون فانفرط عقد الاقاليم اذ تقسمت السلطة بين الاشراف وحكام الجهات وحدثت فوضى ومجاعات فزحف اللوبيون على الوجه البحري حتى قبض على زمام الملك رجل قوى اسمه « ستنخت » فطردهم من مصر

الفصل السابع عشر

الاسرة العشرون

وحكمت ١١٠ سنة ومقرها «مدينة رمسيس » اذ لما مات « ستنخت » بعد عام أو عامين فقط من حكمه خلفه ابنه «رمسيس الثالث» ويعتبره أكثر المؤرخين مؤسس الأسرة العشرين وقد كان قائداً حربياً قديرا حارب أربعة حروب هزم في أولها اللوبيين الذين تحالفوا مع سكان جزائر البحر الأبيض وفي السنة الثامنة من حكمه سار الى الشام وهزم سكان البحر الذين زحفوا عليها براً وبحراً ثم هزم اللوبيين ثانية الذين أغاروا على مصر ثم ذهب ثانية الى الشام فأخضعها ونظم مستعمراته الاسيوية وحصن حدودها . وفي أثناء ذلك كانت قوة الكهنة تزداد وثروتهم تتضاعف .

الفصل الثامن عشر

الاسرة الحادية والعشرون

وحكمت ١٤٥ سنة ومقرها مدينة « تنيس » . ومؤسسها « سمنوس » أحد أمراء تنيس الذي انتهز فرصة ضعف رمسيس الثاني عشر واستولى على جميع الوجه البحري فتراجع رمسيس الثاني عشر الى طيبة حيث مات بلا نفوذ فخلفه «حرحور» رئيس الكهنة ملكا على الوجه القبلي وكان ملوك تنيس يعترفون بزعامة رئيس الكهنة بطيبة الذي تمكن أحدهم من الاستيلاء على كل مصر

الفصل التاسع عشر

الاسرة الثانية والعشرون

فقدت مصر شيئا فشيئا نفوذها على مستعمراتها وأخذت تضمحل وتستخدم الجنود المرتزقة ثم جنود اللوبيين الذين أخذوا يزدادون قوة بينما كان الحكام الوطنيون يزدادون ضعفاً حتى أدى الأمر الى قيام أحد قواد اولئك الجنود اللوبيين « ششنق الأول » أو « شيشاق » فأسس الأسرة الثانية والعشرين عام ٩٤٥ ق . م وكان مقره مدينة « بوبسطه » أو (تل بسطه) بجوار الزقازيق الحالية وحكمت هذه الأسرة ٢٠٠ سنة في خلل وفوضى



الفصل العشرون

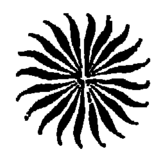
الأسرة الثالثة والعشرون

وحكمت ٢٧ سنة ومقرها « بوبسطه » وفي أثناء حكمها تمكن « بعنخي » ملك السودان من الاستيلاء على الوجه القبلي الى الفيوم وكان ملوك هذه الأسرة اللوبية في ضعف يتزايد وتقهقر مستمر أدى بأحد ملوكها « اسركون الثالث » من فقد كل ملكه سوى منطقة « بسطة » وتمكن « بعنخي » من الاستيلاء على منف بعد عناء كبير فاصبح فرعونا نوبيا وبعد أن عاد بجيوشه الى النوبة ثار « بخوريس » بن « تونخت » أمير صا الحجر

الفصل الحادي والعشرون

الاسرة الرابعة والعشرون

ومؤسسها « بخوريس » أمير صا الحجر بعد انجلاء الاتيوبيين وقد تولى ملكها وحده مدة ست سنوات بمدينة صا الحجر



الفصل الثاني والعشرون

الاسرة الخامسة والعشرون

بعد أن جلا « بعنخى » عن مصر بنحو عشر سنين قام أخوه «سباكون» فاستولى على مصر وثبت حكم النوبيين فاعتبر مؤسسا للأسرة الأثيوبية هذه التي حكمت خمسين سنة وكان مقرها « نباتا » في السودان وفي عام ٦٧٠ ق ٠ م كان أحد ملوك النوبيين المدعو « طهراقة » حاكما لمصر وكان المصريون يساعدون ثوار الشام فدخل ملك الأشوريين « آشور آخى الدين » بجيش كبير واستولى على مصر ففر « طهراقة » الى الجنوب وعاد ومعه جيش عظيم هزم به الأشوريين ولكنهم دخلوا مصر ثانية في أيام ملكهم « أشور بانيبال » واستولى على الوجه البحري والوجه القبلي ودمر « طيبة »



الفصل الثالث والعشرون

الاسرة السادسة والعشرون

وحكمت ١٣٨ سنة ومقرها مدينة « سايس » (صا الحجر) اذ لما مات « نخاو » أمير صا الحجر ومنف خلفه ابنه « ابسماتيك الأول » الذي قوي سلطانه واستعان بملك ليديا باسيا الصغرى على نبذ حكم الاشوريين وتمكن من تأسيس هذه الأسرة وفي عهده نهضت مصر وخلعت عنها ثوب الضعف والاضمحلال ولو أنها فقدت الميل الى الحروب فجمع ابسماتيك جيشاً من الجند المرتزق من بلاد الاغريق وجزائر البحر الأبيض وفي عهده رحب بنزلاء الاغريق فاستوطنوا في عدة بلاد وازدادت شوكتهم وظهر أثرهم في الملوك والشعب

وخلفه ابنه « نخاو » فنسج على منوال أبيه في الدأب وراء استعادة مجد البلاد فأدخل الكثير من الاغريق لترقية الفنون والصنائع وقوي جيشه واسطوله ثم غزا سوريا في حين كانت دولة الآشوريين في اضمحلال وانحلال واسترد المستعمرات الآسيوية التي فتحها أجداده العظام ولكن لم يدم هذا الفتح طويلا اذ تمكن ملوك بابل وميديا من اقتسام دولة اشور وهزم « بختنصر » المصريين في « قرقميش » . ومن أعمال نخاو اصلاحه الخليج الموصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر وارساله بعثة للطواف حول افريقيا فأتمت الرحلة في ثلاث سنين . وخلفه « ابساتيك الثاني » ثم خلفه « ابريس » (حفرع) الذي استولى على بعض مدن فينيقيا وبنى معابد كثيرة . ثم تولى امر الملك « احمس الثاني » الذي اتحد مع البابليين والليديين وغيرهم من الامم الغربيـة لمقاومة دولة فارس التي ابتدأت توسع نطاق ملكها وتزيد من شوكتها وسلطانها . وفي عهده استولى المصريون على « قبرس » وكانت البلاد في رقي وحضارة وخلفه ابنه « ابساتيك الثالث » الذي حكم بضعة أشهر ثم أغار الفرس على مصر بقيادة ملكهم قمبيز واستولى على الديار المصرية وأخذ قمبيز يهدم في المعابد ويخرب في الهيا كل ولكن كان « دارا الأول » بعده عادلا في البلاد



الفصل الرابع والعشرون

الاسرة السابعة والعشرون

وكلها من ولاة الفرس الذين استولى ملكهم قمبيز عام ٥٢٥ ق . م على الديار المصرية وخلفه دارا الاول ثم اجزرسيس ثم دارا الثاني ثم ارتجزرسيس الثاني ثم ارتجزرسيس الثالث ثم دارا الثالث

الفصل الخامس والعشرون

الاسرة الثامنة والعشرون الى الاسرة الحادية والثلاثين

قام أمير مصري « امرتوس » بطرد الفرس من مصر وتولى الحكم ست سنين ثم آل أمر الملك الى ملوك الأسرة التاسعة والعشرين من بعده ثم أسس الاسرة الثلاثين « نختنبو الاول » وفي أيام « نختنبو الثاني » آخر ملوك هذه الاسرة غزا الفرس مصر مرة ثالثة عام ٣٤٠ ق . م . بعد أن غابوا ٦٥ سنة عنها وهنا انقضى زمن الفراعنة وانتهى شباب الامة المصرية مهد المدنية والحضارة ودبت الشيخوخة في هيكلها العجيب الذي استمد من أنواره كل الامم واستضاء بشعاعه كل الشعوب وتوارث ذلك الهيكل بعد الفرس الاغريق فالبطالسة فالرومان فالعرب فالترك فالفرنسيون فالانجليز ولكن :

هي الامور كما شاهدتها دول   من سره زمن ساءته أزمان

الكتاب الثالث

كلمة

عن حضارة قدماء المصريين

الفصل الاول

العظمة المصرية

الى الباحث اللبيب الذي يجد فى علم الآثار القديمة أمراً تافها وبحثا مملا بل ذريعة لنبش الدارس ونشر آل الماضى القديم من رمسه أقول ان كلمتى «مصر القديمة» تشمل وتعني عصوراً متطاولة كما تتضمن ديانة فلسفية تضمر في مخبئها علماً بعيد النور محجبا بالرموز والالغاز كما تعني فناً سامياً جليلا ونظما راقية للحكومات ومع ان كنوز الآثار قد جد فى اكتشافها منذ اكثر من قرن من الزمان وبذل الاخصائيون مافي وسعهم في ازاحة ماعليها من الاستار بيد اننا مازلنا لا نعلم كل شيء عن المصريين القدماء وما زالت هناك مسائل من أهم ماتتوق لمعرفتها في عالم المجهول

يقول الدكتور فلندرس بيترى المكتشف الشهير والمؤرخ عن مصر «أنه اذا أريد فهم ماضى البشرية واستخدام ذاك الماضى للحاضر فذاك هو طريق النجاح في المستقبل» . ولقد أبدى بعض علماء الآثار المصرية المشهورين مثل ارمان دهشة من أن بعض الطرق والأساليب التي تبدو لنا الآن محيرة ناقصة وخرافيـة في بعض الوجوه كانت ملازمة في عصور عديدة لقوم أذكياء مثل المصريين . ويوجه الانتقاد أحيانا الى طرق كتابتهم الهروغليفية وحسابهم وهندستهم ولو حق الانتقاد على مدد الأسرات الحديثة فانه من الصعب إن لم يكن مستحيلا أن ندرك أن الهندسة والفلك الحسابى وبعض مايختص بعلوم النفس مما نجهله تماما كان مألوفا عنـد بناء الهرم الأكبر . وعلينا أن نتذكر أيضاً أن مانعلمه من علوم المعابد المصرية الخفية محدود لناجدا في الحقيقة

وانا اذا وضعنا النقد جانباً فان الحقيقة الرائعة المدهشة لتظهر أمام كل الناس فيرون أنه في الآباد المصرية السحيقة وعصور المجد والاضمحلال كان يجري تيار خفي فنحس بنبضة حياة النفس ونعلم أن لاهوت روح الانسان الازلى كان

معروفا في مصر. ان الأفكار والمخترعات المألوفة عندنا اليوم والتي ورثناها عن مصر لاتحصى ولا تعد فلم نرث عنهم العدد والآلات الميكانيكية لكل فن وصناعة فقط بل المعتقدات الدينية والفلسفية . فنحن مدينون للمصريين أكثر مما نظن ونتصور فحتى التقويم الزمني الذى نستعمله ولو أن الرومان قد شوهوه هو نفس التقويم الذى استعمله المصريون منذ ستة آلاف سنة . ففي زمن مينا (منذ ٤٥٠٠ عام ق . م كما حسب بيترى) (١) وهو أول ملك لمصر المتحدة كان لعلم الطب وفن الجراحة ست وثلاثون مصلحة لكل منها اخصائيون . ويقول الدكتور ج والش في جامعة فورد هام الطبية فى تاريخ له عن الطب أن كيفية لف المحنطات وبراعة طب الاسنان عند المصريين تلك الشواهد الطبية التى نختبرها تؤيد الفكرة القائلة ان الطب عند المصريين قد جرى شوطاً بعيداً . واسم أول طبيب مصرى نعرفه هو « ايام حتب » أو « مجلب السلام » ويسمى أيضاً « سيد الأسرار » . ونعلم أن الملك تيتا ابن الملك مينا ألف كتابا فى الطب وعلم التشريح وقيل أن أمه الملكة اكتشفت علاجا للصلع ولكن لسوء الحظ أن هذه الوصفة لم تحفظ حتى الآن

واذا قلنا أنه لم يكن للمصريين آلات بخارية فان مشروعاتهم الهندسية راقية فقد أوصلوا النيل بالبحر الاحمر بقناة (١) وغيروا بالتدريج مجرى النيل بقرب « ممفيس » بواسطة سد هائل وقد أنجز هذا العمل في أوائل أيام مينا ومع ذلك فهو يصون مديرية الجيزة حتى يومنا هذا

ومع أنه قد مضى على الأسرات الملكية الاولى أجيال سحيقة مترامية فى القدم فان آثارا عديدة قد بقيت حتى اليوم فمن أقدم كتب العالم أوراق « برس » البردية المتضمنة نصائح « بتاح حتب » (١) الذي كان مستشاراً للملك « آسا »

---

(١) وقال مريت باشا ٥٠٠٤ ق . م وقال بركش ٤٤٠٠ ق م وارمن ٣٣٠٠ ق . م وبرستد ٣٤٠٠ ق . م

(٢) هذه القناة هي الخليج المعروف بسيزوستريس الذي تقدم ذكره

(٣) عثر على هذه الاوراق البردية أحد الفلاحين بينما كان يحفر مقبرة باحدى جهات طيبة فباعها للعالم الفرنسى الاثرى بريس prisse دافين الذى نشرها سنة ١٨٤٧ وأهداها المكتبة

أو « ايزوسي » (من الأسرة الخامسة) الذي حكم منذ خمسة آلاف سنة وتتضمن حكمه هذه السلوك في الحياة والواجب نحو الجار وغير ذلك وكانت قراءتها منتشرة ومستعملة لمدة قرون عديدة في المدارس كنموذج للكتابة وكلمات « بتاح حتب » الرقيقة تعطى صورة جلية للحياة الاجتماعية فى عصره وانها لتشبه حياتنا اليوم : فنقرأ فيها عن معاملة الزوجة برفق وعن سخاء المثري وقحة الفظ الذي يشبه شوكة في جنب آله وصحبه . وعن الثرثار . وعن الناصح الثقة الذي يزن الكلام وعن الجاهل العنيد وعن الأديب يتحادث بصراحة مع المتعلم والجاهل وعن الحاكم واحترام الرعية له وعن الخدمة الذين لا يقتنعون بأجورهم. والكاتب الذي يعمل بجهد ويحسب طول نهاره وعن التاجر الذي ربما أقرضك ان كنت صاحبا قديما له وعن النهم الذي يغشى أصحابه وقت الطعام . ولنذكر بعض عبارات من تلك الحكم كما ترجمها جن (w. Gann)

« لا تكن متكبرا ان كنت متعلما بل عامل الجاهل كالحكيم . . . . الكلام الرقيق أندر من الزمرد . . . حب زوجتك التي هى بين ذراعيك وافرح قلبها أثناء حياتها ... لا تكن فظاً فالرقة تسود أكثر من القوة . (لم يكن تعدد الزوجات من عادة ذلك الزمان) ... اذا أردت أن تكون عاقلا حكيما وأن تجالس فى كبار المجالس فاشغل قلبك بالتهذيب والكمال — الصمت أجدى عليك من كلام كثير — . ان كنت قويا فشرف نفسك بالعلم والعظمة ... أن مستغلق الابواب تفتح أمام الصامت الحكيم .... احترس من الاجابة بالكلام الخشن — أضبط نفسك — أنها الأعمال الجيلة هى التي تذكر بعد موت المرء .. »

أما عصر مدنية الانسان في مصر فغير معروف وتدل الاكتشافات في علم طبقات الارض (الجيولوجيا) الآن أن النيل قد جرى في مجراه الحالى منذ العصر الميوسيني على الأقل . وقد عرضت آلات من الظران وحلى من وادي النيل

باريس وهى تشتمل على ١٨ صحيفة مكتوبة بالهراطيقي بالحبر الاسود والاحمر وترجمها الى الفرنسية العالمان شاباس دفيرى والى اللاتينية لوث والالمانية بروكش والى الانجليزية المسترجن وقررها الانجليز فى مدارس الاطفال وسيأتى ذكرها

في نيويورك عام ١٩١٤ ويرجع تاريخها الى عشرات الألوف من السنين وأن علم الطبقات الأرضية آخذ في اكتشاف « طفولة الانسانية » و « فجر المدنية » .
ونعلم من أوراق بريس البردية أن المصريين منـذ خمس أو ست آلاف سنة اعتبروا مدنيتهم انحدرت من ذروة رفعتها . ويوافق الاستاذ « مهافي » وغيره من العلماء أنهم ربما كانوا على حق وأننا من المحتمل ما عرفناهم الا في فجر تاريخهم ويقول « مهافي » : « لم يفرق المصريون في أول أسراتهم عن المسيحية العصرية ليس فقط في المدنية العمليـة بل في كل ما يتعلق أدبياً بحياة راقيـة » - ويقول بيتري « ان سكان مصر في بدء تاريخها كانوا على درجة راقية وأنهم حصلوا على أشياء أحسن مما تعرفه مصر اليوم »

وأنه في أواخر أيام انحطاطها كانت مصر أعجوبة الأمم العظيمة فالذكاء اليوناني الذي كان يحارب الخرافات التي وقع فيها الناس منـذ القدم كان يقدر الحكمة المصرية حق قدرها . ويمكننا أن نقول إن اليونان اقتبست أساس فنها من مصر مباشرة أو بطريق كريت وان افلاطون لم يتردد في اقتباس كلمات كاهن سايس بقوله « صولون صولون . ما أنتم أيها الهلانيون غير أطفال وما من شيخ هيلاني فيكم . أنكم في العقل صغار أجمعين ولا يوجد فكر قديم توارثتموه بالتقليد ولا علم شيبه القدم »

الفصل الثاني

الهرم الاكبر

اذا القينا لمحـة سريعة على عجائب الفن المعماري المصري فاول ما يجـذب النظر الهرم الاكبر ولو أن منظره الخارجي العام مألوف لدينا فهو قائم على سفح الصحراء كأكبر أثر صناعي وآخر مابقي من عجائب الدنيا السبع. وكان يدعى « بشعلة النور » وحينما كان كاملا فى زمن شبابه بغطائه المطلي الساطع فى ضـياء

الشمس المنير كان منظره ساحرا فتانا وأن حجمه الهائل وصنعه الكامل لما لفت نظر العالمين ويقول بيترى (١) : « ان الممر المؤدى الى الداخل مع الغطاء ربما كان الاجمل وان المستوى وتربيع المفاصل لما يضارع أعمال الفن النظري فى أيامنا هذه ولكن فوق مساحة من الافدنة بدلا من أقدام وياردات وأن مستوى ومربع القاعدة حقيقي كامل ومخدع المملكة مناسب تناسبا جميلا ... »

ومن العجيب — أن المصريين استطاعوا أن يشيدوا بكمال ودقة «مايضارع أعمال الفن النظري » في مدة قصيرة — نحو قرن أو أكثر قليلا كما قال بيتري والاعجب أنهم قدروا على هندسة البناء الحجري بآلات نحاسية .

إنا نعلم أن أقواما شرقيين امتزجوا بسكان مصر الاصليين في زمن بعيد فى القدم ونقلوا منهم مدنيتهم فان كان هؤلاء هم بناة الهرم فلا بد أن يكون تاريخه يرجع الى ما قبل الاسرة الرابعة من أسرات ملوك المصريين . والاسرة الرابعة هى التي ينسب اليها بناء الهرم الاكبر لأن المهاجرين وصلوا قبل عهدها بمدة سحيقة وعصور متطاولة . وهنا سر غريب فان وجود اسم الملك خوفو (٣٩٦٩ ق . م) ثاني ملوك الاسرة الرابعة منقوشاً على بعض الجدران الداخلية لا تثبت قطعياً أن خوفو هو باني الهرم (٢) كذلك لا تثبت تصريحات هيرودوت وقد حاول الفلكيون مرارا أن يحسبوا تاريخ الهرم الاكبر بمقارنة زاوية المدخل المنحدر (الزلاقة) بموقع نجوم معلومة فى مكان هام لها ولكنهم لم يأتو ببرهان قاطع . وتشير مدام « بلافاتسكى » في تقديرها عمر الهرم بأكثر من ستة آلاف سنة قائلة أن للهرم علاقة بالانقلابين الفلكيين وأنه بالنسبة الى نظرية الانقلابين والاعتدالين الفلكية وهى ظاهرة تتكرر في مواعيد كل ست وعشرين الف سنة وان الشاهد في معبد دندره وعلاقته بالبروج ليؤدى بنا الى نتيجة أن الهرم قد شهد أكثر من دور انقلابي

---

(١) هذا جزء من كثير مما كتبه العالم بيترى عن الاهرام

(٢) أثبت جميع المؤرخين تقريبا ان خوفو أو (كيبس) هو باني الهرم الاكبر فى عهد الاسرة الرابعة والله أعلم

الفصل الثالث

رأى فى علاقة الهرم بكتاب الموتى

ليس في مصر ولا في غيرها من البلدان ما يدانى الهرم الأكبر (١) وأما داخله فموضع الدهشة وكذا شكله الخارجي ثم المساحة المستوية في قمته وهى تختلف عن الاهرامات الاخرى وأن في شذوذ صنعه لمغزى رمزي كما نقرأ في أبحاث « مارشام آدم » (٢) وأن مغزي الممرات الغريبة والحجرات في داخل الهرم له مفتاح سره في الاوراق البردية التى دعاها « لبسياس » (Lepsius) بكتاب الموتى (٣) وكان الاجدر أن نسميه كتاب سيد دار الاسرار ويصف هذا الكتاب المقدس الذي كان يدفن مع الميساء كتذكار للعوالم الاخرى نجاح النفس في طريقها بين أبواب ومناطق التجارب الهائلة لتصل الى عرش المخلص « أوزيريس » الذي هو عين الانسان الكامل ولما كان المصريون يعتقدون بالبعث فلا بد أنهم عرفوا أن هذه الطريقة في تبديل وترقية النفس في خلودها تشمل عدة

---

(١) يشتمل بناء الهرم الاكبر على نحو مليونين و ٣٠٠ الف حجر متوسط وزن الحجر منها طنان ونصف وارتفاع الهرم كان وقت تشييده ١٤٥ مترا ولما تهدمت قمته أصبح اليوم ١٣٧ مترا ومسطح قاعدته يبلغ ١٢ فدانا وهى مربعة الشكل يبلغ طول كل ضلع من أضلاعها الآن ٢٣٣ مترا وقال هيرودوت انه كان يشتغل فى بناء هذا الهرم مائة الف رجل يستبدلون بغيرهم كل ثلاثة شهور وان بناءه استغرق عشرين عاما . وجميع الهرم مشيد من الحجر الجيرى الصلب ما عدا المخدع الاكبر فانه من الجرانيت

(٢) له عدة مؤلفات ذكرنا بعضها فى قائمة الكتب فى الخاتمة

(٣) كتاب الموتى مترجم الى جميع اللغات الحية ما عدا العربية التى قدر لها أن تحرم من كل ما يتعلق بقدماء المصريين تقريبا وربما نرى هذا الكتاب مترجماً الى العربية بعد حين وأقرب ترجمة له هى ترجمة بدج الانجليزية طبع لندن عام ١٨٩٨ فليرجع اليها القارىء المصرى وعنوان الكتاب (The book and he dead) ترجمة (budge) فى ثلاثة مجلدات ولا ترجع أهمية الكتاب الى انه من أقدم كتب العالم اذ كتبه قدماء المصريين أنفسهم منذ آلاف من السنين وربما قبيل الاسرات الملكية فقط بل ترجع أهميته أيضاً الى شرح محاكمة النفس بعد الموت والى ما يتعلمه القارىء من كثير من معتقداتهم الدينية وآرائهم عن الاخرة والبعث وخلود النفس . وسنذكر كلمة عنه آتية :

أدوار للحياة والرجل التقى العادي يأخذ جزءاً صغيراً من القصة في الدور بين كل حياة وأخرى . .

ويندر أن يكون المتقدم مستعداً ومطهراً بازمنة حياته الماضية ليكون كفؤا ليدخل في الاتحاد مع الالوهية والخلود وأن « كتاب الموتى » لكثير من القوم كسجل لنظرية مستقبلة ولو أنها قد ساعدتهم بلا شك في الحياة وبعد الممات

ويظهر أن «مرشام آدم» قد استنتج أن الهرم الاكبر في حجراته وطرقه ووضعه الارضى يشير الى الشروط الواردة في كتاب الموتى وسواء أكانت حجرة الملك قد استعملت كقبر بالمعنى العادي أم لا فقد أتى مارشام آدم بشاهد ظاهر لا ينكر معززا رأي « مدام بلافاتسكي » أن الهرم كان الهيكل الذي تجري فيه التجربة العظمى للمتقدمين اليها في سبيل الحكمة الازلية ويصرح أنها واسطة غير مهلكة للصيانة بلا خداع تلك التي تتوقف عليها التعاليم التي عليها مدار الحياة القومية المصرية .

ومارشام آدم هو أول من اكتشف المشابهة بين الهرم والاوصاف المذكورة في كتاب الموتى وسرعان ما أيد الفكرة الاستاذ ماسبرو العالم الفرنسي الشهير بالآثار المصرية بقوله « أنهم مثلوا الفكرة بطريق الكلمات والحجارة » (١)

ومنظر المحاكمة في كتاب الموتى معروف ولا داعي لشرحها وتتلخص في وزن القلب بحجرة « أوزوريس » الذي يمثل الذات العليا فيقرأ « ثوث » (تحوت)

(١) أوردمارشام آدم في كتابه دار الاماكن الخفية (house and hidden Places) رسما مفسراً لما يحتويه الهرم الاكبر من الداخل وفسر كل مكان بما يطابقه من تفاسير كتاب الموتى فمثلا قال عن الزلاقة المنحدرة من المدخل والمفرغة في بناء الهرم والصخر الى الحجرة التي تحت الارض انها منحدر الغرض والحجرة مكان الامتحان والمحنة وحجرة النار الوسطى والزلاقة الصاعدة مخدع الظل والحق في الظلمة ثم فتحة « ثوث » تؤدى الى غرفة الولادة الجديدة ومكان القمر ثم الى عرش رع واوزوريس وقبره المفتوح في غرفة النجم الشرقي وفوقه غرف الاسرار والاله الخفي ومنفذ هاتور والاعالي الخفية وهكذا فسر الزلاقات والاسراب والابوان والممر الموصل من الدكة الى مخدع الملك والسرب الموصل الى الغرفة المعروفة بغرفة الملكة والخمس الغرف المفرغة في البناء والبئر وهلم جراً

الذي يمثل لقانون كارما النتيجة فاذا لم يكن القلب نقيا حضر التنين ليلتهمه •
وكل ذلك مفهوم جلي ولكن يجب أن تقال كلمة عن الاثنين وأربعين مثمنا ومعظمهم له رأس حيوان . اذ يصعب علينا فهم معنى الآلهة ذوات الرؤوس الحيوانية الا متى عرفنا أنها كانت تخترع في مخيلة المفكرين الذين وجدوا في بعض الحيوانات تلك الصفات المختلفة التي تطابق الرموز المشيرة الى القوى التي يريدون اظهارها

وترجع مسئولية النقد العصري الموجه الى مصر لعبادتها الحيوانات الى هيرودوت الذي زار مصر فى عصر اضمحلالها حين كانت الخرافات التي يعتقد بها الشعب الذي ورثها عن الكهنة الذين أذاعوها لاجل ما رب شخصية ولم نسمع بمثلها أبان العصور الراقية وقد تنبأ الفيلسوف المصري القديم « هرمس » الملقب (بالمثلث العظمة) بقوله : « وآسفاه ! وآسفاه ! يا بني فانه سيأتي يوم تكون فيه الهيرغليفية أصناماً فيخطىء العالم فى فهم رموز العلم بالآلهة ويأخذون على مصر العظمى عبادتها لوحوش الجحيم »

وقد كان « أوزيريس » رمزاً للذات العليا . وان كل الحوادث في « علم الخرافات والقصص » التي حدثت فى مولده وحياته الالهية ومساعيه لعمل الخير وقهره بالشر أحيانا وذاك الموت القاسي والبعث الى المجد • كلها نموذج لفوز النفس وتدرجها الى الكمال

وحينما تصل النفس المجاهدة الى الاندماج بالذات السرمدية تكون غير قادرة على ابادة الاعداء الذين يواجهونها فيقول المتقدم : « أنا أوزيريس ، أنا سوثيس (النجم اللامع سيرياس) نجم الفجر الأبدي » فتهرب عندئذ الوحوش الهائجة والرغبات السفلى

يقول « شاباس » إنه لاتوجد فضيلة من فضائل المسيحية منسية في القانون المصري (المذكور فى كتاب الموتى وغيره) فلقد حث على التقوى والاحسان والرقة وضبط النفس فى القول والفعل والعفة وحماية الضعيف والجود للمحتاج والتواضع للرؤساء وغيرها •

الفصل الرابع

أبو الهول ومعبده

وبالقرب من الهرم لأكبر يجلس أبو الهول الذي ما زلنا نرى في أصله سراً وهو الذي يقف كأسمى تمثال موجود لمنى النشوء الحقيقي وتسلط الحيوان بذكاء الانسان السماوي . . وقد أعلن «شمبليون» وجود طريق أسفل بين أبي الهول والهرم الأكبر . ويظهر أنه فقد عن الأنظار وان اكتشاف مثل هذا الطريق ليكون هاما مشوقا وقد وصف «ماريت» لوحا وجد بالقرب من أبي الهول ومكتوب عليه اصلاح خوفو لابي الهول وخوفو هو باني الهرم الأكبر كما نزعم

ومعبد أبي الهول كما يدعى بذلك بناء يستحق الذكر ولكن الغرض من بنائه مجهول وهو مربع البناء من كتل من الحجر المحبب (الجرانيت) وصنعه جميل وليس فيه أثر للكتابة أو الزينة وهو في الواقع قديم مثل الهرم الثاني وربما كان أقدم منه بكثير وأن عدم وجود آثار النحت والزينة فيه لتكشف وجها للقدم فنرى فيه أن المصريين الأول الأقدمين لم يصنعوا أصناما للآلهة وقد وقف هذا المعبد بعد اكتشافه كبناء شاذ حتى اكتشف في ابيدوس مدفن اوزيريس ومقر أسراره منذ فجر التاريخ وقد اكتشفه عام ١٩١٣ الاستاذ «نافيل» الاسري الفرنسي وزملاؤه الامريكيون وقد اكتشف بالقرب من معبد ابيدوس لسيتي الأول ذلك المعبد الفخم المشهور (١٣٥٥ ق . م) تحت الأرض بثلاثين قدما بناء عجيب يشبه في طريقة بنائه معبد أبي الهول ولكن لا يشابهه في مصر سواه ويجد القارىء وصفا مسهبا لهذا البناء العجيب في مجلة (الطريق الصوفي) (١) بكاليفورنيا امريكا شهر اكتوبر ١٩١٤ وابريل سنة ١٩١٥

---

(١) The theosophical Path لصاحبتها كاترين تنجلي وقد نشرت هذه المجلة الكبيرة كثيرا عن قدماء المصريين وهذا الفصل كما قدمناه معرب عنها

الفصل الخامس

تعليم قدماء المصريين للامم

ويلاحظ من نخامة تلك الأبنية التي استعمل لأجلها مقدار هائل من الاحجار ويرجع عمرها إلى عصور قديمة جداً أنه من المرجح أن هذه الأمثلة وضعت نماذج لآثار قبل التاريخ الهائلة الكبيرة فشيد مثلها في شمال غربي أفريقيا وبعض بقاع مختلفة في أوروبا وتقول مدام بلا فاتسكي في كتابها الكبير (التعليم السري) (The Secret Doctrine) شيئاً قيما عن رحلة قديمة جداً خرجت من مصر الى غرب أوروبا وبريطانيا وآنئذ أظهر كثير من المعلمين الأول للناس كيف يبنون ويستعملون تعاليم الدين والفلك ومازلنا نرى مثل تلك الآثار في (ستونهنج) بانجلترا و(الكرنك) في بريطانيا بفرنسا و(كلارنس) في سكتلند و(نيوجرانج) في ايرلنده

وقد أبدى « السير فورمان لوكيار » الفلكي البريطاني أخيرا شاهداً قويا ليظهر أن المعابد الهائلة البريطانية التي شيدت قبل التاريخ كانت خاصة لبعض النجوم مثل بعضها في مصر وان كثيرا من تلك الابنية مثل الدوائر الحجرية المرتفعة كانت تستعمل في القديم كمراصد للمعابد وليست هي لأغراض الدفن فقط كما يعتقد عادة وما زال يوجد على بعضها منقوشات مصرية رمزية مثل علامة الصليب المقدس ذى الرأس الحلقية (تو) ومثل سفينة امون رع التى تحمل الشمس في سماواتها كما يوجد آثار أخرى كثيرة مما يدل على انتشار الاثر المصرى في كل الأزمنة الغابرة ومن ذلك مانلاحظ من المشابهة والعلاقة بين اللسان الويلزي واللغة المصرية وقد لاحظ ذلك الاستاذ موريس جونس

ويذكرنا هذا الموضوع بالتشابه بين الرموز المصرية والرسوم الأساسية وبين مثلها بامريكا القديمة وثمة ذوق مصري ظاهر في مباني «مايا» في « شيكين ابزا » وان الاهرامات العظيمة المشيدة للشمس والقمر بقرب عاصمة المكسيك لتشبه

اهرامات وادي النيل تماما ونجد بين العلاقات الرمزية بين مصر وامريكا القديمة الصليب المذكور والكرة ذات الجناحين في كلا القطرين وكذلك أن هيئة الأشكال الرمزية الهامة في امريكا الوسطى هي عين ارموز في الهند . ويدل تمثيل « كريشنا » في الهند وبوذا الهندي أو اليوجا على اتحاد خاص بين آراء الفلاسفة في مصر والهند فهل كان ذلك قبل أو بعد زوال قارة الاطلنطيق ؟ . ونرى أيضا التشابه في السفينة المصرية التى تحمل الشمس وتجوب بها السماء في آثار وجدت متشابهة في عدة اماكن مختلفة مثل «تيومالاس» التى تسمى « نيوجرانج» قرب «دروغيدا» بايرلنده وكذلك في «لوكاريكر » في بريطانيا . وعدة اشكال منها فى « بوهزلان » بالسويد وذكرها « بلزر» في كتابه المسمى « آثار بوهزلان الحجرية » وقد وجد الصليب المصري (تو) في معبد قديم في فرنسا وتكلم عنه «رولستون» في كتاب له اسمه «خرافات الجنس الصقلي» ووجدت كرة بجناحين في معبد الدير البحري بمصر وأخرى مشابهة لها في «شيباس» جنوبي المكسيك .

ونشير الى معبد ادفو لأنه من النوع الذي نألفه في مصر وأنه يعطى فرقا غريبا بينه وبين المباني ذات السطوح المقوسة التي نعرفها وقد أنجز بناؤه عام ٥٧ ق.م . وقت أن سار قيصر لفتح بريطانيا ومع أن المصريين عرفوا واستعملوا مبدأ المنحنيات بقلة وندرة فانهم فضلوا البساطة في السقوف المسطحة والعتب المستوية

أما معبد دندره في حاله الحاضرة فقديم أيضا ويرجع الى عام ١٢٠ ق . م ولكنه يحل مكان المعبد الأول الذي شيده أتباع « هورس » في العهد البعيد ويحتمل أن هؤلاء الأتباع كانوا أقدم المهاجرين من شرق اتيوبيا من اسيا الذين أحضروا معهم علم الحديد والعمارة وقد اكتشف الملك بيبي من الأسرة السادسة خطة ثانية لمعبد ذي منحنيات واستخدمها في معبده وقالوا أن هذه الخطة مؤسسة على خارطة للسماء وثمة بعض التقاليد الرومانية عن الطريق السرى الذي بها صينت ليسهل اخراجها في الوقت المناسب . وقد عفت آثار معبد بيبي اللهم الا بقايا الأسس وبعد مضي خمسة وعشرين قرنا على حكمه بنى البطالسة المعبد الحالي وفيه

صور لكليوبطرا السادسة المشهورة وكتابات ذات علاقة بامبراطرة الرومان الذين حكموا مصر مثل طيباريوس وانطونيوس ونيرون وكانت هاتور التي شيد المعبد لأجلها هي الأم العظيمة للضوء والفرح والحب العائلي ووجهها الذي له أذنا بقرة رمزيتان مصور على رؤوس الأعمدة وقد شوهته أيدي التعصب .

وقد كتب كثيرا عن خارطة النجوم ومنطقة البروج في دندرة والأول مسلية بصفة خاصة لما بها من الاشارات الفلكية ومناطق البروج التي عرفها المصريون وعن ثلاثة أدوار انقلابية للشمس في منطقة البروج وكل دور يمثل زمنا هائلا قدره ٢٦ الف سنة ويقال أن مثل هذه الخارطة موجود في معبد في شمال الهند التي يمكننا أن نعلم فيها تقارير عن مدد فلكية سحيقة في القدم ما زالت محفوظة وقد كتبت مدام بلافاتسكي بعض غرائب عن خرائط دندرة الفلكية في كتابها «التعليم السري» الآنف الذكر وقد فند هذا الموضوع الاستاذ فردريك ديك في كتابه «الفلك القديم في مصر وأهميته»

الفصل السادس

طيبة وآثارها

وعلى بعد في أعالي النيل تجلس «طيبة» ذات الأبواب المائة كما يدعوها هوميروس وأنها اكبر المدن التي عرفها التاريخ ويقول عنها شمبليون : « إن الانسان لتأخذه الحيرة والدهشة من جمال الآثار وسموها وبهاء صنعها وعظمته التي ترى في كل مكان ولا يوجد قوم في الأيام الغابرة أو الحاضرة قد وصلوا بعلم البناء وهندسته الى مثل هذا الابداع والعظمة والحجم كما أبدع قدماء المصريين الا أن الخيال ليجثو عند أقدام أعمدة الكرنك »

وتقول بلافاتسكي التي قضت في مصر زمنا طويلا عن طيبة : «إنا اذا ذهلنا من التأمل فيها اليوم فكم كان رونق مرآها في أيام مجدها ! أن من لا يشعر بالعظمة

العقلية لاولئك الذين شيدوها وصوروها فانه يكون ولا مراء مجردا من الشعور الروحاني للعبقرية »

ومعظم الجاميع العجيبة للمعابد الباقية في طيبة بنيت أبان عصور الأسرتين الثامنة عشرة القوية والتاسعة عشرة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد حينما كانت مصر تتبوأ ذروة عظمتها . وقد بنى معبد الكرنك العظيم لأمون رع العلي المخفي عن العيون والغير مخلوق « الذي منه انبثقت السموات والأرض والآلهة وكل الكائنات » وكان يحتفل بأسراره فوق البحيرة المقدسة فيكون قارب رع الحامل الشمس — ذلك القارب الذي وصلت شهرته قديما الى شمال أوروبا — سابحا أثناء ذلك فوق مياه البحيرة . ويقول المستر ويجال الذي كان الى عهد قريب مفتشاعاما للآثار المصرية أنه الى يومنا هذا مازالت خرافة وطنية وأن فوق هذه البحيرة في الكرنك يرى أحيانا قارب ذهبي وهو لاشك قارب آمون رع »

أما القاعة العظمى فكانت ولا بد توص الخوف في النفس من عظمتها فهي تغطى مساحة من الأرض قدرها ٥٠ الف قدم مربع وتبلغ أعمدتها الضخمة من العلو ثمانين قدما ومحيطها ٣٣ قدما ولكن ليس علوها وحجمها هما سبب جمالها فقط . وقد نشر شخص غريب منذ عهد قريب نظرية مضمونها أن حجم الآثار المصرية الهائل يرجع الى ضعف النظر الذي قاساه البناؤون فلم يروا الأشياء الصغيرة واضحة . ولكننا نحيل هذا الرأي الى المصنوعات الدقيقة لجواهرهم النفيسة وفي بعضها نقوش ذهبية فيها صور صغيرة تبلغ ثمانين صورة في بوصة واحدة وأما عن جمال النقوش والطلاء في قاعدة الأعمدة فانه لما أريد صنع نموذج مثل تلك النقوش في القصر البلوري بلندن عجز أمهر المصورين عن تقليدها تماما وكان لهم عمل شاق تعب فيه الفنانون الماهرون .

وكان لمصر عدد من الملكات المشهورات وأن معبد الملكة حتشبسوت العجيب بالدير البحري بقرب طيبة ليكشف لنا عن مبلغ نفوذ الخيال الانثوي وكانت هذه الملكة احدى حكام مصر العظام . ونرى في داخل معبدها هذا عدداً

من الصور الواضحة تبين البعثات البحرية التي أرسلتها الى بلاد نائية في جنوب البحر الاحمر (بلاد بنت) وأخرى تمثل ولادة الملكة الخارقة للعادة وهي رمز مجازي عما نسب لأشخاص مؤلهين في ممالك أخرى وقد وصف « جير الدماسى» فى كتابه « التكوين الطبيعى » في الجزء الثانى صفحة ٣٩٨ منظراً مشابهاً لهذا فى معبد الاقصر قال : « في هذه المناظر الأربعة المتوالية ترى الملكة « موت اموا » أم « امنحتب الثالث » أحد فراعنة الأسرة الثامنة عشرة ممثلة الأم العذراء التي حملت بلا رجل هى أم الواحد الصمد

أما المنظر الاول عن اليسار فيرى الاله «تحت» أو «ثوث » أي المريخ أو الكلمة الالهية في حال تبشيره الملكة العذراء معلنا لها أنها ستلد ابنا . وفي المنظر الثاني يرى الاله « كنف » مع « هاتور » يبث فيها الحياة وهذا هو الروح القدس . والمنظر الثالث ترى الأم جالسة والطفل محمولا على ذراعي احدى المربيات . والمنظر الرابع يرى منظر العبادة . وهنا يجلس الطفل على العرش وينال من الآلهة الاكرام وعطايا الناس . ويرى وراء الاله « كنف » من اليمين ثلاثة رجال يقدمون عطايا باليد اليمنى وحياة باليسرى . وهكذا بشر بالطفل ثم تجسد ثم ولد ثم عبد وهو التمثيل الفرعوني « لأتون » أي الشمس وبالسورية « آدون » وبالعبرية « آدوناي » وهو الطفل المسيح لأتون كطريق للاعتقاد الديني . وهي فكرة عجيبة للأم العذراء الممثلة « بموت أموا »

ولقد تحمس المستر ويجال في وصفه لرسم احدى الشبه زوجات بالدير البحري بقوله : « إن شكلها مرسوم رسما بديعاً وليس فيه تلك القيود التي تشوه الفن المصري وربما كان من صنع يوناني »

ولكنه كان مرسوماً قبل أن يرى مثل هذ الفن فى بلاد اليونان بألف سنة ومن المعلوم أن المصريين حينما كانوا يمثلون أشخاصاً من طبقة وضيعة لم يبالوا بالتقاليد الفنية فكانوا يرسمونها على حقيقتها ولا يجب أن تقع في خطأ التصور أنهم لازموا الاصطلاح في الرسم

وبالقرب من معبد الدير البحري وجد التمثال المشهور لبقرة هاتور المقدسة التي أدهشت العالم منذ سنين قلائل . وأنها لتنافس أي تمثال منحوت لحيوان في أي عصر أو أي قطر

وبين المسلات المقامة لفخر الملوك العظماء في الكرنك يوجد اثنتان (وقد سقطت احداها) وهما للملكة حتشبسوت شيدتهما لامون رع وتكشف لنا الكتابة التي عليها الستر عن خلق تلك الملكة القوية التي لم تكن محبة للقتال بل عاملة على نشر السلام

« سأجعل هذا معلوما للأجيال الآتية والذين سيتحرون عن هذا الأثر الذي صنعته والذين سيتكلمون عنه ويشخصون اليه في المستقبل . كنت جالسة في القصر وكنت أفكر في خالقي فحدثني قلبي أن أصنع لأجله هاتين المسلتين اللتين تطاولان السماء »

ثم تصف الملكة بعد ذلك كيف قطعت صخور المسلتين ونحتت وطليت وأقيمت في مدة سبعة شهور فقط وبعد أن اقسمت يمينا مغلظة أن هذا حق قالت « إذاً فليس من أحد يسمع هذا ويقول أن هذا الذي قلته كذب وإلا فليقل كيف كانت ! »

واما علو المسلة منها يبلغ ٩٧ قدماً ونصف قدم وقد قطعت كل منهما من صخرة واحدة وكانت رأسها الهجدية مطلاة بالذهب : وأما معبد الاقصر فقد بناه امنحتب الثالث في القرن الخامس عشر ق . م وهو من أجمل آثار طيبة وما زال حافظاً لرونقه وقد حكم هذا الملك ٣٦ عاما تمتعت مصر خلالها بسلام وتقدم وصارت طيبة احدى عجائب الدنيا وما زال الكثير من الكتابة القديمة باقياً يحدث عن فخامة معبد لقصر وكان له أبواب من مزيج الذهب بالفضة وأرض من فضة وأبواب من البرنز المرصع بالذهب وحدائق تجمع أجمل الأزهار وكان هذا النعيم والثراء مقرونا بالذوق السليم . . ومازالت ذكرى امنحتب الثالث حية بالتمثالين المعروفين اللذين هما اكبر تمثالين صنعا وهما في سهول طيبة وكل منهما

مصنوع من حجر واحـد يزن نحو ٩٠٠ طن وطول كل قدم فيهما عشرة اقدام ونصف قدم ويبلغ ارتفاع كل من هذين التمثالين الجالسين سبعين قدما ويسمى بتمثال ممنون ذي الصوت الموسيقي اذ كان يخرج منه أصواتا موسيقية عند شروق الشمس وظل ذلك حتى سنة ٢٧ ق . م حين حدث زلزال خطير خربه ثم تجدد بعد مائتى سنة من ذلك التاريخ ويقول «هاريت مارتينو» عن التمثالين : —

« لاأقدر أن أصدق أن هناك اعظم من هذين التمثالين في كل ما فكرت في اخراجه مخيلة الفن . لاشيء في الحقيقة حتى في الطبيعة قد أثر في نفسي مثلها... فان أثر الهدوء العجيب الذي يشع منهما على مسافة بعيدة يزيد جلاء حين القرب منهما . . . »

ونعجب كيف صنعا وكيف حملا فوق النيل وأقيما في مكانهما ، لانفهم ذلك وكل مانعلم أنهما كانا مشيدين أمام معبد امنحتب الثالث الذي لم يبق منه أثر : وهناك يقع الوادي العظيم ــ وادي مقابر الملوك ــ وهو مكان قفر وحيد تحفه صخور قائمة عمودية فعلت فيها آثار المياه حينما كان المناخ مختلفاً وقد اكتشف منذ خمسة وثلاثين عاما مجموعة غريبـة لموميات ملكية في هذا الوادي وكانت مصونة في مقابر محفورة في الصخور في قلب الجبل ومخبأة حتى لا تصل اليها أيدي اللصوص

واذا كانت جثث الفراعنـة العظام من الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة وبينهما جثث محرر مصر احمس الأول ورمسيس الاكبر وأبيـه سيتي الأول وتحتمس الأول وغيرهم من الأبطال الوطنيين العظاء محمولة فوق النيل من طيبة الى متحف القاهرة حـدث حادث مؤثر يرويه البعض قائلا أن أهالى القرى في طول الطريق برزوا وحيوا المشهد الملكي في سيره وانحنوا صارخين بحزن والنساء بشعور مفكوكة والرجال يطلقون ناراً كما يفعلون في الجنائز فكأن أرواح قدماء المصريين تقمصت في أشخاص الفلاحين البسطاء لتحيي الموتى العظاء باكرام في رحلتهم الأخيرة فوق النهر المقدس وأن من يسمع هذه الحادثة كما يرويها البعض يكاد يؤمن بالبعث بعد الموت

الفصل السابع

فيلةوآثارها

بين حدي مصر ونوبيا بقرب الشلال الأول تقع الجزيرة العجيبة فيلة أو بيلاك حيث يشاهد منظر مؤثر لعلم الآثار المصرية . ولقد بذل كل مجهود لانقاذالمعابد من مياه النيل لئلا تغمرهابعد بناءخزان اسوان ولكن ذهب هذا المجهود أدراج الرياح وكل ماقي الجزيرة من المباني الباقية غير قديم ولكنها رائعة جميلة بل هنا يرى فن البناء المصري بوجه عجيب جذاب وتوجد في غرف معبد ازيس صور لها دريان واغسطس واقلاديوس وكلهم ممثلون برسم اصطلاحى كفراعنة مصريين ومن الغرابة أن نرى امبراطرة من الرومان يعبدون ازيس واوزيريس ولكن ذلك لم يكن شائعاً جداًولا شك أنهم عرفوا آلهتهم الخاصة تحت أسماء مختلفةوعلى كل فالرومان كانوا معتدلين في المعتقدات الدينيـة الا متى رأوا في ذلك مايهدد الحكومة وقد كانت فيلة آخر مقر للديانةالقديمةلأنه في حكم الامبراطورجستنيان عام ٥٢٧ للميلاد حرم الاحتفال بطقوس ازيس وأصبحت المسيحية هى العقيدة الرسمية فى مصر وعقبها في القرن التالي الديانة الأسلامية التي سمحت للأقباط المسيحيين بالعبادة في كنائسهم بحرية

الفصل الثامن

أبوسمبل وآثارها

وقدامتدسلطان قدماء المصريين الى السودان منذ أزمنة مبكرة وان المعبدين الصخريين في أبي سمبل لمن أعجب مافى وادي النيل من مباني وان معبد رع الهائل الذي بناه رمسيس الاكبر لمن أعجب ماعمله الانسان على سطح الأرض وتبلغ التماثيل الأربع لهذا الملك التي تبين تقاطيع الوجه في ارتفاعها سبعين قدما

ولا شيء يضارع عظمتها الهادئة وجمالها ولا شك أن صناع هـذه التماثيل الهائلة لرمسيس قد تحققوا من امكان ألوهية الانسان .

وعند مايدخل الانسان في المدخل السري للمعبد بقاعاته الصامته المظلله وهو محفور الى مسافة ١٥٠ قدما في الصخر الحى ومغطى بالنقوش والكتابات فان شعوره يكون أغرب .وأنسب وقت للاقتراب من المذبح هو في اللحظة التي ينفذ فيها شعاع الشمس أو ضوء البدر فقد قال المستر ويجال : « أن من يزوره وقت الفجر ويسير في الدهليز والهيكل تأخذه الدهشة لروعة تلك اللحظة حينما تمر الشمس فوق التلال واذا بالقاعة المعتمة قد أنيرت فجأة وزهت بالضياء . . . ويمكننا أن نصف ساعة الشروق هنا كعظمة عميقة مؤثرة وأنه لايوجد في مصر زمان ولا مكان يفعل في النفس مايفعل هذا الأثر فيقدر الانسان روح قدماء المصريين في عبادتهم »

ووصفت « مدام كاترين تنجلى » التي قضت زمناً في أبى سمبل تماثيل رمسيس الهائلة في هذا المعبد العظيم بقولها . — «أن الموقف الجليل وروعة الهدوء تلاحظ فى تلك الوجوه الحجرية فالعينان حادتان كأن الحياة وراءهما وهما تطلان على الكون كأنهما تنظران الى الآتي وكأنهما قد عرفتا أن مجد مصر القديمة سيعود ثانية . هناك تمكثان كحراس للماضي القوي وكرسل للآتي المجيد وربما جلس الانسان طول اليوم ناظراً الى هذه الأحجار القويه ويشعر بالحياة الروحانية حول المكان . . وحيث أقف يمكني رؤية المدخل حيث ينتظر الانسان أن يرى بعض الأسرار القديمة العهد آتية لتقابل النهار .



الكتاب الرابع

لمحة الى مصر القديمة

الفصل الاول

أرض الشهرة الغابرة

اذا سئلنا عن أكثر البلدان عجبا فى تاريخه فأخال البعض يقول فلسطين وذلك لأن فى تلك الأمة ماهو غريب فى بابه بل لأنه حدث أيضا فيها من عظيم الحادثات وعجيب الوقائع مايجعلنا نحكم بذلك كما أنها موطن السيد المسيح، ولكن من ذكر فلسطين لايتردد فى ذكر مصر بعدها وأنها لترتبط بفلسطين بوثاق تاريخي فى كل تلك الحوادث الجميله التي نقرأ عنها فى التوراة التي تحدثنا عن يوسف الصديق الذي صار وزيراً لمصر وعن موسى الكليم الطفل اليهودي الذي أضحى أميراً فى بيت فرعون وعن خروج بني اسرائيل من أرض مصر ولكنه بالرغم من ذلك فان لمصر حكاية عجيبة غريبة مستقلة بها وليس ثمة أمة أخرى لها مثل ذلك التاريخ الطويل المفعم بالملوك العظماء وبالحكماء والجنود الشجعان كما أنه ليس فى بلاد أخرى من بلاد الأرض أبنية يمكن مقارنته بتلك الابنية العظيمة الجميلة والعجيبة فى بابها ·

وليس فى انكلترا أبنية قديمة وكثيراً مايطوي الانجليز شاسع المسافات لغشيان الكنائس القديمة والقلاع التي يرجع بها العهد الى خمسة قرون أو ستة . وأكبر هذه المباني تعد فى مصر حديثة جدا ولا تقاس بالمعابد الهائلة ومقابر مصر العجيبة التي شيدت قبل أن تبدأ قصة التوراة بمئات السنين . .

فالاهرام مثلا ــ تلك المباني المشمخرة الهائلة والتي مافتئت أعجوبة الدنيا هي أقدم من أى بناء آخر يحمله ظهر أوروبا ولقد نصبت قبل أن يباع يوسف الصديق وقبل أن يسمع البشر بالاغريق والرومان بعشرات القرون . .

وكان فى مصر آنئذ ملوك عظماء يحكمون فيها ويأمرون ويبعثون بجيوشهم لغزو سوريا والسودان ويرسلون سفنهم لتكتشف البحار الجنوبية المجهولة وكان

حكماء مصر يكتبون الكتب التي وصل الينا بعضها وقت أن كانت بريطانيا جزيرة مجهولة همجية يسكنها المتوحشون بينما كانت مصر أمة متمدينة راقية حافلة بالمدن العظيمة والقصور الشامخة والمعابد السامقة وكانت مهبط العلم والنور .

وهكذا أردت فى هذا الكتيب الصغير أن أحدثكم وأقص عليكم شيئاً من عجائب تلك الأمة القديمة وعن الناس الذين عاشوا فيها فى تلك الأيام السحيقة الغابرة قبل أن يستيقظ العالمون فى الأمم الأخرى أو يكون لهم تاريخ .

وأنه لمن العجيب أن نرى أمما كثيرة من تلك الأمم التي لعبت على مسرح التاريخ دوراً هاما صغيرة الحجم غير مترامية النطاق فانجلترا جزيرة صغيرة من الأرض ولكن لها تاريخ هام وفلسطين كانت تدعى بأقل البلاد وبلاد اليونان التي يأتي ذكرها بعد فلسطين ان هي الا قطعة من الأرض الجبلية فى جنوب أوروبا وكذلك الحال فى مصر فهى أيضا بلد صغير الحجم ولكنك لو صوبت نظرك الى الخارطة لرأيت مصر واسعة النطاق ولكن جل تلك الأرض التي تدعى مصر صحار ومهامه لايسكنها الأحياء وأن مصر الحقيقية هي ذلك الوادى الضيق الذي يحف بشاطىء النيل العظيم بل أن عرض الوادى فى بعض الجهات لايتجاوز ميلا أو اثنين ولا يزيد عرضه عن الثلاثين فى غير السهل الواقع عند منصب النيل المسمى بالدلتا وقد شبه بعضهم مصر بزنبقة متعرجة الساق وأنها لتشبيه دقيق فالوادي المسمى بالوجه القبلى هو الساق بينما تقع الدلتا موقع الزهرة من ساقها والى جانب تلك الزهرة ورقة صغيرة هي الواحة الخصبة المسماة بالفيوم .

ولم تكن لتلك الزهرة قبل أن يبدأ التاريخ نضرة ولا ورق وكان النيل أعظم حجما منه اليوم وكان يصب ماؤه فى البحر عند القاهرة ولكنه بعد قرون طويلة قطع النيل طريقا له فى الأرض وترك شواطىء من الطمى على كلا جانبيه فتراكم الغرين الذي أتى به عند المصب أمام البحر الملح حتى تكونت الدلتا بعد عصور كما نراها اليوم وقد حدث ذلك قبل أن تبدأ فى مصر أى حكاية يعيها التاريخ ولكنه حتى بعد أن ذر مشارق التاريخ ظلت الدلتا أرضا ملآى بالمستنقعات وكان

سكان مصر الأصليون يحتقرون سكانها لأنهم يعيشون بين المستنقعات

وقد صدق المؤرخ الأغريقي القديم الذي قال أن مصر هبة النيل فلقد رأينا كيف خلق النيل مصر مخترقا واديه الضيق بين التلال والكثبان مكوناً سهل الدلتا المصطح ولكنه لم يخلقه فقط بل أبقاه حياً ونعرف أن مصر كانت ولم تزل من أخصب بقاع الدنيا فكل شيء تقريباً ينمو فى أرضها وانها لتخرج محصولا مدهشاً من الغلال والخضر واليوم من القطن وقد كانت كذلك في القديم اذ حينما كانت روما حاضرة الدنيا كانت تأتي بجل غلتها من مصر لتطعم ألوف الجياع فيها بطريق الاسكندرية ومراكبها المحملة بالغلال . ونقرأ فى قصة يوسف الصديق كيف أتى اخوته من فلسطين الى مصر ليبتاعوا قمحاً لأنه بينما كانت فلسطين تقاسى المجاعة كانت مصر غنية بغلتها ..

وما انفكت مصر بلدا يكاد المطر ينعدم فيه وكيف ينتج قطر محصولا وهو عديم المطر . أن السر في ذلك هو النيل ففي كل عام حينما يسقط المطر في الهضبة الاستوائية وفوق جبال الحبشة حيث تنبع روافد النيل تفيض مياه النيل وتغمر كثيرا من الأرض وتترك وراءها طميا كما تملأ الترع الكبيرة والصغيرة التي تمد الأرض بالماء كما تمد الشرايين الجسم بالدم فتظل الأرض مخصبة

أما طبيعة الأرض فخصبها من نهرها العجيب فهي واد طويل سندسي يشق يبابا أصفر ورملا أعفر ولكن ما يسبي في مصر العقول ويكسب البلاد أهمية لاتبلى جدتها هو ماضيها العجيب وآثاره التي ما زالت قائمة ناطقة فليس ثمة قطر آخر تقدر أن ترى فيه حقيقة أهله الأقدمين وما يتعلق بأيام غابرة بعيدة مثل ماترى في مصر

تصور كم كان الانجليز يقدرون بناء له صلة بالملك آرثر اذا وجد فى انجلترا وكم يعجبون ويهيمون بالتحدث بأسلحة ودروع وخوذات وسيوف وغيرها يعثر عليها . فكم بالحرى فى مصر حيث يمكنك أن تعاين مباني اذا قارنت عهدها بعهد الملك آرثر لكان هذا الملك ابنا للأمس بل أنك لا تنظر فى مصر الى أسلحة فحسب بل الى وجوه حقيقية ومرآى أولئك الملوك العظماء والجنود الذين عاشوا

واستبسلوا فى الذود عن أوطانهم قبل أن يحارب داود النبي ويوناثان فى مواقع بني اسرائيل المشهورة بمئات السنين ويمكنك أن ترى فى الرسوم والصور كيف عاش القوم فى تلك الأيام السحيقة وكيف كانوا يشيدون بيوتهم وكيف كانوا يتجرون ويعملون ويلهون وكيف كانت أخلاقهم وعبادتهم لله . وتلمس بأيديك تلك اللعب والأدوات كما تقرأ القصص التي اعتادت أمهاتهم ومربياتهم أن يقصصنها عليهم

وهكذا تبدوا لنا مصر القديمة رائعة مدهشة وسأقص عليكم شيئا عنهم حتى تتصوروا حقيقة حياة تلك القرون الغابرة

الفصل الثاني

يوم فى طيبه أيام مجدها

اذا رام أجنبي أن يعلم شيئاً عن انجلترا وكيف يعيش أهلها فأخال أن أول مكان يذهب اليه هو لندن لأنها عاصمة كل البلاد الانجليزية وأكبر مدنها . وكذلك اذا أردنا أن نتعلم شيئاً عن مصر وكيف عاش أهلها فى تلك الأيام الغابرة فعلينا أن نرحل الى عاصمتها ونرى ما فيها

ولنفرض أننا لم نعش فى القرن العشرين بل رجعنا الى أقدم التاريخ قبل أيام المسيح بثلاثة عشر قرناً وقد أقلتنا سفينة فينيقية محملة بأقمشة ملونة بالقرمز الثمين وبآنية جميلة من البرنز والنحاس وقد مرت بنا فى سيرها حذو الشاطىء بمدينتي كارمل ويافا ميممة شطر مدينة « طيبة » عاصمة القطر المصري وأكبر مدنه ودخلنا احدى مصبات النيل وصحبنا دليلا مصريا عند مصب النهر وكان يقف عند مؤخر السفينة وينادي بتعليماته لرجل من الوطنيين . واذا بالريح الشمالية تهب بشدة وتيار الماء يحملنا سريعا بالرغم من تيار النيل فترك له رجال المجاذيف عملهم الساق ومرنا بفضل الشراع الكبير جنوبا نشق عباب النيل

نقلع أولا بين سهل مستو فسيح يزرع بعضه وتغطى بعضه الآخر نباتات المستنقعات ويأخذ السهل يضيق بالتدريج وإذ بنا عند نهاية الدلتا وندخل فى وادي مصر

الحقيقي فنمر فى سيرنا بمدينة كبيرة قائمة تحت زرقة السماء الصافية جلية واضحة وتقوم معابدها بأبوابها العظيمة المرتفعة تخفق فوقها الأعلام وتعلو المسلات العالية الى السماء فيقول دليلنا أن تلك هى مدينة « ممفيس » وهى من أقدم مدن القطر وكانت عاصمته مدة طويلة وعلى مسافة من ممفيس ترى ثلاثة اهرامات كبيرة تقوم فى الفضاء كأنها كتل هائلة من الحجر بقرب النيل فيقول الدليل وهذه مقابر لبعض الملوك العظام فى قديم الأزمان وتقوم حولها أهرام عديدة صغيرة ومقابر كثيرة للملوك والعظماء ..

ولكننا نسير الى مدينة أكبر حتى من ممفيس ولذا لا نقف فى رحلتنا بل نسرع الى الجنوب وبعد عدة أيام تحملنا السفين مارين فى طريقنا بمدن كثيرة تزدحم على شاطىء النيل وبينها مدينة خربة قام فى مكانها أطلال من الحجر واللبن واذا بدليلنا يخبرنا أن هذه المدينة كانت حيناً عاصمة الملك شرير أراد أن يمحو جميع آلهة مصر ويقيم إلها جديدا بدلها. وأخيراً نرى مباني قائمة على شاطىء النيل..

وكلما نتوغل فى النهر كلما نرى أن هناك مدينتين حقيقتين ، فعلى الشاطىء الشرقي تقع مدينة الاحياء بمنازلها الكثيرة وأبراجها المنيعة ومعابدها الهائلة وعدد لا يحصى من الدور المختلفة الحجم والشكل فمن القصور المنيفة الزاهية ودور الأمراء الى أخصاص من الطين يسكنها الفقراء وتقع على الشاطىء الغربي مدينة الموتى وليس فيها طرق ولا قصور ولا هرج ولا مرج لكنها أعجب من مدينة الأحياء المجاورة لها فى الشاطىء الآخر . فهنا ترى فى التلال والصخور ثقوباً فيها فتحات طويلة داخلة فيها حيث ينام موتى طيبة فى ما مر عن الدهور وهناك بين التلال فوق السهل يقوم معبد فى أثر معبد وبعضها صغير والبعض أناخ عليه الدهر بكلكله والبعض فخم عظيم تراه وقد سطعت الشمس فوقه فتوهج ذهبه وأرجوانه وألوانه التي ترد الطرف وهو حسير

وتسير بنا سفينتنا الى المرفأ فى الشاطىء الشرقي من النهر وبعد برهة ينزل الشراع بصوت عظيم وتسير السفينة الى مستقرها فى المرفأ وترسو فتنتهي المرحلة..

عندئذ يتقــدم موظفوا دار العوائد الى السفين ويختبرون متاعنا وبضائعنا ويجمعون مايدفع المستحق عنها ونحن نراقبهم بسرور لأنهم يختلفون فى مظهرهم ومنظرهم عن بحارة الانجليز ذوى اللحى الطويلة والانوف المنحنية ومعاطفهم الملونة فانهؤلاء المصريين يقصون الشارب واللحى وبعضهم يتزين بشعر مستعار وبعضهم يقصه من الامام ويتركه مسترسلا من الوراء بضفائر . وجلهم لا يرتدي أ كثر من رداء من التيل الابيض ولـكن رئيسهم يلبس رداء أ بيض جميلا فوق كتفيه وثوبا من تيل مزركش الأطراف وطوقا ذهبيا ، وفى يمينه عصا طويلة لايتوانى فىضرب مرؤوسيه بها ان هم خالفوا لهأمراً

وبعدجدال تدفعالضريبةالمفروضة ولناالحرية في الدخولالى المدينةالعظيمة. ولا نسيرطويلا حتى نرى أن الحياة فى « طيبة » عجيبةمسلية . واذا بنا نسمع ضجة عظيمة من الطرق المجاورة للنهر ونرى جمعا من الرجال مهرولين صارخين هاتفين يتقدمهم رجل يلهث تعبا لضخامة جسمه وفى منطقته أدوات الـكتابة مما يدل علىأنه كاتب وانهليجري خشيةعلى حياته لانمطارديه رعاع نصف عراةمن العمال صائحين وراءه غيظا ومنهم من يرجمه بالحجر . حتى يصل الى بوابة فخمة لبيت جميل تقابل أسوار حديقته الطرق وبسر للبواب بكلماتفيغلق الباب فى وجوه العمال الذين يحيطون بالباب صارخين مهددين . وبعدلحظة تفتح البوابةعلى مهلويبرز رجلحسنالبزة والمنظرعليه ثيابثمينة ويتبعهست منالعبيد مسلحين لحراسته فيتقــدم ويسأل العمال عن سبب وجودهم وضجتهم ولم يطاردون وكيله ويرجمونه . وليس هذاالنبيل غيرالامير « بازر » الذي يعهد اليه ادارة حكومة « طيبة » وأولئك العمال هم بناؤن مستخدمون فى عمل من أعمال مقبرة في طيبة ويجيبون كلهم عنسؤال الأمير ثميختارون نائبا عنهم فيقول أنههوورفقاؤه كانوا يعملون عدة أسابيع ولم ينالوا على عملهم أجرا ولم يأخذوا غلة وزيتا مما يجب منحه لعمال الحكومة فاضربوا عن العمل وأتوا الى مولاهم ليتوسلوا اليـه أن يعطيهم حقهم أو يلتمس منفرعون مدداً اذا لزم الأمر ثم يقول : لقد ساقنا الى هنا الجوع

ودفعنا الظمأ وليس لدينا الباس ولا زيت ولا زاد فاكتب الى مولانا فرعون فيمد الينا يد المعونة ولما بث المتكلم شكواه وافق الجمع على قوله وأرغوا وأزبدوا .أما الأمير « بازر » فرجل مدرب منذ القديم على مثل هذه الشكايات فيبتسم لهم ويعدهم بارسال خمسين كيساً من الغلال الى المقبرة مباشرة أما الزيت فيخابر بشأنه ولكن على العمال أولا أن يعودوا الى عملهم ولا يطاردوا الوكيل «أمين ناشتو» فيتذمر العمال لانهم طالما سمعوا مثل تلك الوعود ولم تنفعهم ولكن ليس فيهم قائد شجاع يقوم بثورة معهم وليس لديهم سلاح بينما يرون فى الحراب التى مع حراس الأمير النوبيين خطرا . وبعدئذ يعودون ويختفون متذمرين فى الطرق التي أتوا منها ويهز الأمير « بازر » كتفيه ويدخل الى داره ولكن هل يرسل الخمسين كيساً من القمح

ان الاضراب عن العمل كما ترى كان معروفا حتى فى تلك الازمنة البعيدة ..

ولما ننتهى من رؤية اضراب البنائين نجول بعدئذ فى قلب المدينة ونرى الطرق ضيقة ملتوية وترى الدور هنا وهناك متقابلة فى أعلاها فنمر بينها كاننا فى سرداب شحيح النور . ونصادف بيوتا كبيرة مرتفعة ولكنها لاتزيد كثيرا فى رونق الطريق وبعضها مزين الداخل وله فناء محوط بالأشجار وفى وسطه بركة ماء وله غرف مزينة بالملقات ولكن جدارها الخارجية بيضاء غير مزينة يعترض وجهها باب ثقيل

ونمر ببعض الأحياء والانحاء حيث لانرى غير الخصاص الطينية مزدحمة بجوار بعضها وتلك هي أحياء العمال وأنك لتجد الحرارة فيها شديدة والرائحة منتشرة حتى يعجب الانسان كيف يستطيع هؤلاء المعيشة فيها . . ونسير فنأتى الى مكان فسيح هو احدى اسواق المدينة حيث تشتد الحركة وكل الحوانيت صغيرة مفتوحة والبضائع منتشرة حول صاحب الحانوت الجالس متربعا وسط بضائعه مستعداً لخدمة زبائنه جاذبا التفاتهم نحوه بمناداته بصوت عال موضحا ماعنده وما هي عليه من رخص في الثمن

ونرى كل أنواع الناس غادين رائحين ففي طيبة يرى جميع أجناس الشعوب وهنا نرى سكان المدينة من رجال ونساء خارجين ليشتروا لوازم بيوتهم أو ليعلموا أخبار اليوم ويحضر الفلاحون الخضروات والماشية من القرى المجاورة ليستبدلوها بحاجياتهم من بضائع المدن . وثمة سيدات جميلات وفتيان يرتدون هندا ما هو آخر طراز ولهم شعر مستعار وملابس طويلة من التيل الشفاف الجميل وأحذية ملونة بألوان ذاهية ويمر بك فى سيرك فتى من مدينة قادس بزى غريب وقبعة طويلة عالية وله صبغة شاحبة وحذاء ثقيل وتراه ينظر حوله بدهشة كأنه يرى فى طيبة مدينة لائقة للنهب .

ثم يمر بك كاهن عالي المقام حليق الرأس واضعاً على كتفيه جلد نمر مدلى منهما فوق ردائه الأبيض وفى يده ملف من ورق البردى ؛ ثم سردينى من رجال الحرس يسير وراء ذلك الكاهن مرتديا خوذة تلمع فى ضوء الشمس متقلداً سيفاً كبيراً يهتز فى غمده الى جانبه أثناء سيره ثم قواس لوبي له غطاء على رأسه من الجلد وفوقه ريشتان لامعتان

ونرى أن كل ماحولنا قوم يبيعون ويشترون ولم تكن النقود التي نعرفها اليوم قد اخترعت بعد . وكل التجارة تقريبا تستبدل وحينما يريد أحدهم الاستبدال يسأل عن كم سمكة تعطى فى مقابل فراش أو هل وزنة من البصل تدفع بدلا من مقعد وتجد هنالك جدالا ومناقشة والمصريون مولعون بالمساومة لما فيها من تسلية فى ذاك اللغط والجدال المصم للآذان

وهنا وهنالك تجد بائعاً أو اثنين يتقدم أحدهما ويقدم بدلا من البضائع حلقات من النحاس والفضة أو مصوغات من الذهب فالفلاح الذي أتى بحمل ليبيعه تعرض عليه تسعون قطعة نحاسية تسمى الواحدة «اتن» ولكن بعد احتجاج وجدال طويل يضطر التاجر الى دفع ١١١ «اتن» فتنتهي المساومة وتوزن القطع النحاسية لئلا يكون هناك غش وهنا ترى ميزانين كبيرين أحضرا لذلك فتوضع «الأتن» في كفة وتوضع فى الأخرى موازين بشكل رؤوس التيران . ولكن بعد انتهاء

المشكلة لاينتهي عندها ذكاء التاجر الذي يغري الشاري على بضائعه حتى يبتاع منها مايعيد «الأ تن» الى جيبه كما كانت

ونبتعد عن هـذا المكان قليلا فنرى التجار الذين حضرنا فى مركبتهم لهم حانوت مظللة بعظلات من العشب المجفف وترى تحتها كل صنف من معروضاتهم الزاهية بألوانهـا التي لايعرف سرها غـيرهم منذ أن قضى « كنوسوس » على تجارة كريت

ونرى على مقربة منهم صائغا حوله عقود وأساور من ذهب وفضـة مرصعة بالأحجار الكريمة وهو منهمك فى عمل سوار لسيدة الى جانبه . وهناك فى احدى أركان السوق منزل لاينقطع عنه تيار الزائرين وترى العمال يدخلونه وعليهم علائم الخجل من أنفسهم ثم يظهرون ثانية مترنحين فى مشيتهم ويبدو شاب ذو محيا شاحب ثم يسرع الى الداخل فيقول أحدهم لصاحبه « ها بنتوري ذاهب ليمتع نفسه يوما آخر وأن نهايته لسيئة » واذا بالباب يفتح ويخرج « بنتورى » بعد برهة مترنحا متمايلا يلتفت حوله ويحاول المسير ولكن تخونه قدماه فيسقط فى الطريق فى حالة يرثي لها فيضحك المارة منه ويستهزؤون به ثم ترى رجلا عالي المقام يشير الى ابنه الصغير قائلا : « انظر الى هـذا الشخص يابنى ولا تتعلم شرب الخمر لئـلا تسقط فتهشم عظامك وتتمرغ فى حمأة الوحل كتمساح ولا يمد لك أحد يد المساعدة . يذهب رفاقك للشرب ويقولون ابتعدوا عن ذاك السكير وأن من يحث عنـك وجدك منطرحا على الأرض كالطفل الصغير »

ولكن بالرغم من النصح الكثير فان المصرى مغرم باللهو فى يوم جميـل كما يدعونه فى حانة الجعة . وحتى النساء الحسان يشربن أحيانا بكثرة فى مجتمعاتهم العظيمة الى أن يحملن فاقدات الشعور .

وشر من ذلك ماعرف عن قضـاة المحاكم العليا الذين كانوا يستريحون من عملهم يوما في أحدى القضايا الطويلة ويشربون الخمر مع المجرمين الذين يحاكمونهم

ولكنهم لم يمهلوا طويلا حتى جدع أنف اثنين منهم عقابا لهم على ارتكاب مثل هذه الموبقات

ولا نسير بعيدا حتى نبلغ الحى المقدس من المدينة ونرى الأبواب العالية ومسلات المعابد العظيمة بادية من فوق دور البلدة واذا بنا أمام جمع غفير مقبل نحونا ومعه أصوات الأبواق والمزمار تتصاعد من وسطه فنسأل عن مغزى هذا الهرج فيقال لنا أنه احتفال باحدى تماثيل الاله آمون رب طيبة العظيم جيء به لأقامة حفلة دينية سيحضرها الملك فنقف ونشاهد الموكب فى مسيره ونرى جماعة الموسيقيين والمنشدين وعددا من النساء يرقصن فى سيرهن ثم يأتي ستة رجال يسيرون فى وسط الموكب والعيون تراقبهم وهم طوال القامة حليقو الرأس يرتدون أثوابا بيضاء نقية من التيل المصرى الجيل ويحملون على أكتافهم نموذجاً صغيراً لقارب مدلى بحبل فى وسطه معبد صغير فيه إله مختبىء عن الانظار . ثم يوضع تمثال آمون فوق حجر عال أمامنا ويقبل نحوه شخصان بالمباخر يحركونها فيتصاعد البخور ويأتي أحد الكهنة فيرتل بصوت مرتفع ترنيمة للرب آمون الذي يخلق ويعدم كل شيء ويتقدم البعض وينثر الأزهار ويعم الصمت ويسكت القوم ويرفع الحجاب عن التمثال الخشبي فيبدو مرتفعا نحو ثمانية عشرة بوصة مرتديا ومزيناً باللونين الأخضر والأسود فيهتف الجمع باحترام وعجب ثم يسدل الحجاب ويمر الموكب

ونسرع لتناول الطعام لننتظر مرور فرعون

الفصل الثالث

فرعون فى وطنه

جاء موعدذهاب الملك الى المعبد العظيم فى الكرنك ليقدمذبيحة.وقبل أن نسير الى قصره ونشاهد مجده يجدر بنا أن نذكر شيئاً عنه فليس اسمه الحقيقى «فرعونا» ولا لقبه الحكومي بل هي لفظة تدل على شخص عالي المقام رفيعه حتى أن القوم لا يجرأون على ذكر اسمه وأن لفظة « الباب العالي » التي يلقب بها الترك سلطانهم لأشبه شيء بذلك. فالمصريون يعنون بفرعون « بيرو » « البيت العظيم » حينما يعنون الملك

لأن مليك مصر رجل عظيم يعده شعبه فوق البشر . وأن فى مصر آلهة عديدة ولكن الاله الذي يعرفه الناس أكثر ويظهرون له التبجيل هو الملك ومنذ ذاك الحين جلس على عرش الملك فراعنة كثيرون وكان الملك فى نظر رعيته الها متجسداً على الأرض وكان يسمي نفسه ابن الشمس وأنك لتجد صوراً على جدار المعابد تمثل الملك فى طفولته جالساً على حجر الآلهة تدلله كاله صغير. ويقدم للملك الأكرام والذبائح وحينما يموت ويذهب لمشاركة اخوته الآلهة فى السماء يشيد له معبد عظيم لذكره وتصلي له فيه طوائف كبيرة من الكهنة وثمة ميزة واحدة بينه وبين الآلهة ذلك أن آمون اسمه إله طيبة وفتاح إله ممفيس وباقي الآلهة بالآلهة العظام أما فرعون فيلقب بالاله الصالح

والآن نحن فى عصر الاله الصالح الملك رمسيس الثانى وهذا جزء صغير من اسمه اذ أن له مثل باقي الفراعنة من الألقاب ما يملأ صفحة من الكتاب ولم تر رمسيس رعيته منذ زمن لأنه كان متغيباً فى سوريا كما أنه بنى له عاصمة أخرى جديدة فى « تانيس » التي يدعوها اليهود « زوان » وهى واقعة فى الدلتا ويقضي الملك فيها معظم وقته وان القوم ليحدثوننا عن جمال تلك العاصمة الجديدة ومعبدها العظيم وتمثال الملك العظيم القائم في الفضاء وعلوه تسعون قدما ومكانه أمام باب

المعبد ولكن لم تزل طيبة مركزاً للحياة القومية . ولما تأكد الملك أنه ستنشب حرب أخرى مع أولئك الحثيين فى شمال سوريا أتى الملك الى طيبة ليأخذ رأي آمون وليعد العدة لجمع الجيش ويرى الناظر الى القصر هرجا ومرجا وقوادا ومستشارين يروحون ويغدون ومعهم الأمر والتقارير

وقد بنى المصريون معابدهم لتبقى مدى الاباد سرمدية خالدة ولكن قصور الملوك لم تبق لتعيش طويلا لأن لكل ملك ذوقا خاصاً به فيشيد له قصراً آخر ويحيط بالقصر سوراً مرتفعاً وأبراجاً وحصوناً وأبواباً هائلة لأن فرعون وإن كان إلها الا أنه قد لا يأمن جانب رعيته فى بعض الأحايين. ويتقى شر المؤامرات الشائعة فى ذلك الحين وقد حدث مرة أن ملكا اضطر أن يقفز من عربته ويحارب بمفرده جمعاً من الغادرين الذين اقتحموا القصر على حين غرة فرأى فرعون أنه لابد له من أسوار مشيدة يحتمى بها وحرساً أمناء من السردينين يتقى بهم شر الغوائل . .

ووراء تلك الأسوار ترى العين حدائق غناء وبساتين فيحاء تزهو فيها صنوف الازهار والرياحين وبركاصناعية تبدو مصقولة كالمرآة تعكس صور الاشجار والأفنان وأما القصر فأبيض اللون من الخارج يتوسطه باب كبير يؤدي الى قاعة عظيمة تزهو بزخرفتها وألوانها وتحمل سقفها عمد مزينة وعلى كلا جانبي هذه القاعة قاعة صغيرة ووراء ذلك حجرتان عظيمتان للطعام ثم خلفها غرف النوم ولرمسيس عدة زوجات وعدد كبير من الأبناء والبنات وغرفة نوم الملك نفسه منفردة عن باقى الغرف تحيط بها شجيرات الزهور

ولابن الشمس أعمال يومية كثيرة فلديه كثير من الرسائل ليقرأها ويفكر فى محتوياتها وقد أرسل اليه الأمراء السوريون لوحات منقوشة بكتاباتهم الغريبة يخبرونه بتقدم جيوش الحثيين وطلب نجدة الجيوش المصرية فعلى الملك وقتئذ أن يفكر فى الأمر مع قواده وأعوانه .

ففى احدى أطراف غرفة الاستقبال شرفة غير مرتفعة تقوم فوق أعمدة

مزركشة من الخشب بشكل نبات الخندقوق ووجهة تلك الشرفة مرصعة بالذهب ومزينة باللازورد والعقيق وهنا يمر الملك أمام رعيته مصحوبا بزوجه المحبوبة الملكة « نفرتارى » وبعض أبناء الأمراء وبناته الأميرات. ثم تفتح الأبواب فيظهر النبلاء وحكام الأقاليم ورؤساء الجيش والحكومة ويتقدمون ليظهروا طاعتهم لمليكهم

وفى لحظة ينتظم عقد الجمع ويبدو لهم ملك الأرضين مع أسرته وزوجه. وقد كان من عادة الرعية حينما يظهر الملك أن تخر على وجوهها أمامه وتقبل الأرض ولكن بتقدم العهد أصبح النبلاء والامراء ينحنون أمام فرعون بخشوع ويرفعون أيديهن كأنهم فى صلاة للاله الصالح ويظلون صامتين حتى يتكلم مليكهم بما يشاء

ويلقى رمسيس نظرة على الجمع المحتشد ثم يشير الى قائد فرق طيبة ويسأله عما أعد من ذخيرة للجيش فيتقدم الجندي وينحني ولكنه لا يجيب عن سؤال مليكه فورا إذ ليس ذلك من خلق البلاط بل يبدأ فى القاء مزمور مدح عن عظمة الملك وقوته ومهارته فى الحرب وعن أعدائه الذين يهربون ويهلكون أمام وجهه ثم يجيب عن السؤال. ويتلوه مستشار بعد آخر يلهجون بالمديح والثناء على مليكهم ثم يجيبون على أسئلته وينفرط عقد الجمع فيصدر الملك أوامره لحجابه وتعد له مركبته للسير بالموكب الى المعبد وحينما يغادر الغرفة ينحني النبلاء أمامه ويرفعون أيديهم تبجيلا . .

وما هي غير لحظة قصيرة حتى تفتح أبواب أسوار القصر وتظهر ثلة من رجال الرماح وعلى رؤوسهم خوذات من الجلد وتقف على مقربة من الباب ويأتى بعدهم حرس الملك السردينيين مدججين بالسلاح ولهم خوذات لامعة ودروع مستديرة كبيرة وسيوف حادة الشفار ثم يصطفون على جانبي الطريق فى صمت وسكوت حتى يخرج فرعون ويسمع صوت عجلات المركبات ثم تخرج المركبة الملكية وتسرع الى المعبد فينحنى الشعب المكتظ حينما يمر مليكهم ولكن فرعون لا يلتفت يمنة ولا يسرة بل يقف فى مركبته ثابتا وفى يده سوط ويلبس على رأسه خوذة

الحرب الملكية مصورة بشكل حية كأنها تهدد أعداء مصر وتراه وقد وضع لحية مستعارة وارتدى جلباباً جميلا من النيل الأبيض وتمنطق بسير من الذهب مغشى بالميناء الخضراء ويتدلى الى ركبتيه وفى نهايته رأس حيتين . وعلى جانبي الملك حملة المراوح ومعهم ريش النعام المعطر يحركونه حول رأس مليكهم بمهارة حتى أثناء عدوهم . .

ويتبع مركبة الملك مركبات عـديدة أقل فخامة من مركبة رمسيس وترى الملكة نفرتارى فى أولها تشم زهرة بفتوز وثم مركبة تحـمل بعض الأمراء الملكيين وبينهم الأمير الساحر « خيمواس » أكبر سحرة مصر الذي يقال أن له المقدرة من اخراج الموتى من قبورهم أحياء وترى في الجمع من يخشى نظرة عينه الحـادة لأنه يعلم أن معـه ملفا من البردى أخذ من قبر أحد الأمراء الأقدمين الذين اشتغلوا بالسحر

وبعد قليل من الدقائق ينتهى الموكب الذي يخطف البصر بلألأ ذهبـه وبديع رونق ألوانه وارجوانه ويتبع ذلك الحجاب الكثيرون مسرعين وراء فرعون أعظم رجل فى الارض . فرعون ذو الأوتاد

الفصل الرابع

حياة الجندى المصرى القديم

اذا قلبت فى صحائف التوراة وقرأت فيه عن المصريين ظهر لك انهم كانوا لا ينقطعون عن الحرب والقتال . والحقيقـة أنهم حاربوا حروبا طويلة كثيرة كما حاربت كل أمة أخرى من أمم ذلك العهد البعيد ولـكن لم تكن مصر بالأمة الحربية اذا قيست بدولة لأشوريين والبابليين . ولا يخفى أن المصري لا يحب الجنديه ومع أنه يصلح أن يكون جنديا كفؤا صبورا عاملا اذا قاده ا كفاء لـكنه ليس كالسودانيين الذين يحبون القتال ويولعون بالحرب . بل يفضل كثيرا أن يعيش هادئا فى قريته ووطنه ويزرع أرضه كما زرعها أجداده . وأن مصرى اليوم لا يفرق

عن المصري القديم الذي حارب تحت لواء فرعون حينما دعاه للقتال فى السودان وسوريا واستبسل ولكن قلبه لم يكن ليبرح موطنه ولشد ما طرب لعودته اليه عاملا فى مزرعته ومسراتها الساذجة

أن المصريين كانوا أمة آمنة مطمئنة ليس فيها من القسوة والوحشية ما كان بين الأشوريين

فالحق أن المصري القديم كان ينظر الى الجندية كمهنة محتقرة أو ألعوبة خطرة إن لم يكن المرء قائدا فيها فقد شقي وناء تحت أعباء تعسها ولم ينله شرفا وإنا على يقين أنه لم يخطىء فى زعمه . .

وكان يرى من السعادة أن ينال وظيفة كاتب فى الحكومة أو عند أحد العظماء وكان من الفخر أن يكون الشاب كاتبا موظفاً وكان ينظر الى أبيه واخوته العاملين فى الحقل نظرة الاحتقار

ولقد وصل الينا من ذلك العهد كتاب عتيق غريب فى بابه ذكر فيه كاتبه رأيه فى الجندية وقد كان جنديا وضابطا كبيراً فى الحكومة أو ما نسميه الان موظفاً اداريا يصف فيه لصديقه الشاب ان الجندية مهنة فدهش الشاب وعجب حينما فكر أن يكون فارسا أو راكب عربة لأن الجنود المصريين لم يركبوا الخيل كما نفعل الآن بل كانوا يشدونها الى مركبات تحمل رجلين أحدهما يسوق الخيل والاخر يحارب بقوسه أو سيفه وسلاحه . ولكن هذا الصديق الحكيم يخبره أنه وإن امتطى مركبة فى القتال فلا يلقي مسرة ربما تراءت له فى بادىء أمره

ويزهو الجندى الجديد بريشه وثيابه حتى يدخل فى غمار خدمة العسكرية فيقع تحت طائلة العقاب الشديد اذا لم يحسن عمله

ولكن اذا كان عمل الفارس شاقا فعمل المشاة أشق وأصعب فانه يضرب بالسوط اذا هفا أو أذنب حتى اذا ماشبت نار الحرب لابد له من المسير مع الجيش الى سوريا وينقضى يوم بعد يوم وهو يسير على قدميه بين التلال والمفاوز التي تختلف كثيرا عن أرض بلاده المستوية الممهدة وعليه أن يحمل معداته الثقيلة وذخيرته

فكأنه حمار الحمل وكثيرا ما يضطر الى شرب الماء القذر الذي يسبب له المرض وفى الحرب يصاب بالخطر والجروح بينما ينسال قواده ورؤساؤه ثمرة عنائه واذا ماانتهى القتال عاد الى وطنه راكبا حماراً وهو مهشم العظام مسلوب الثياب ويراه العاقل فيقتنع بأن وظيفة الكاتب مع الراحة خير من ذاك الشقاء ولكن مع كل ذلك كان لفرعون خير الجنود فى ميادين الحرب

ولم يكن الجيش المصري عرمرما أو مثل تلك الجيوش الجرارة التي نسمع عنها اليوم أو نقرأ عنهافي التاريخ فكان عدد احدى الجيوش التي كان الفراعنة يقودونهـا الى سوريا نحو ٢٠ ألف جندي وقلما تزيد عن ٢٥ الف جندي وفي هذا العدد من الأجناس المختلفة مايشبه جيوشنا الهندية الآن ففيه نجد الوطني المصري برمحه وقوسه ودرعه أو فأسـه وحربته وسيفه ولرماة المصريين مهارة في قذف السهام ثم يأتي بعد رجال الرماح رجال العربات وهم من المصريين الأعلى مقاما . والعربات خفيفة حتى أنه كان من الصعب على رماة السهام أن يصيبوا منها مرمى وكانت الخيول تزين وكثيراً ماتحلي رؤوسها بالريش . ويربط رجال العربات أحيانا السرع حول وسطهم ولا يتركون أصحابهم في الحرب وشأنهم اذا حمى وطيس القتال

وكان يحوط فرعون الواقف في عربته الجميلة حرسـه الذين دعاهم المصريون « شردن » أو السردينيين الذين أتوا من البحار واستخدموا في خـدمة الملك وجيشه وتراهم يلبسون خوذات نحاسية لها قرنان فى جانبيها ويتقلدون سيوفا ثقيلة ودروعا مستديرة . وقد سار وراء السردينيين والجنود الوطنيين فصـائل من السودانيين على اكتافهم جـلود حيوانات برية ثم فصائل من اللوبيين السمر الألوان وسار بجوار عربة الملك أسد عظيم أليف تدرب على حراسة الملك ومحاربة أعدائه وأخيراً حملة الذخائر والمتاع وحمير كثيرة محملة بالأعباء . وكان المصريون لايكلون من المسير حتى في شمس سوريا وفي الطرق الوعرة المجهولة وكانوا يمشون خمسة عشر ميلا في اليوم في اسبوع من الزمان دون أن تخور عزيمتهم . . وكان

رجل اسمه (منا) من أمهر راكبي العربات في الجيش المصري حتى أنه أختير منذ حداثته ليسوق عربة الملك رمسيس الثاني حينما خرج من زاروا احدى المدن الحامية في مصر ليحارب الحثيين في شمالى سوريا ولما سار الجيش مخترقاالصحراء في أرض فلسطين وفوق الجبال الشمالية لم تر طلائع الجيش أثراً للعدو وكان (منا) يسير العربة آمنا وعرج الجيش على وادي الاورنت الضيق سائراً نحو مدينة قادس وانتظر الجيش ظهور الحثيين حتى بدت لأعينهم مباني قادس وابراجهافي الأفق وكانت أشعة الشمس تنعكس على مياه النهر المحيط بالأسوار وعادت طلائع الجيش المصري تنبأ بأن الحثيين قدتقهقروا الى الجنوب فظن الملك رمسيس أن قادس لابدوأن تسقطفي يديه بلاحرب ولاقتال فقسم جيشه أربعة أقسام ورأس بنفسه فرقة منها وأسرع بها تاركاً باقي جيشه خلفه ليحارب وراءه وسرعان ماوصلت تلك الفرقة الأولى الى معسكرها الذي نصبته في شمال غرب قادس حيث القت الجنود عصا الترحال رغبة في الراحة واذا بطلائع الجيش قد أقبلت على رمسيس ومعها اثنان من البدو ظنوا أنهما من جيوش الأعداء فأمر رمسيس بجلدهما ليقرا بالحقيقة فاعترف البدويان أن ملك الحثيين كامن مع جيش عظيم في الجانب الثانى من قادس يرقب فرصة لمهاجمة الجيش المصري فأسرع رمسيس بفرقته ولكنه لم يكد يمتطى عربته حتى حدثت في معسكره ضجة عظيمة اذ أقبل عليه بقاياالهاربين من الفرقة الثانية من جيشه تتبعها فرقة عجلات الحثيين وتبلغ نحو ٢٥٠٠ عجلة في كل منها ثلاثة رجال وهي مندفعة وراء الهاربين اذ أن ملك الحثيين لبث منتظراً حتى رأى الفرقة الأولى من جيش رمسيس تنصب معسكرها ففاجأالفرقة الثانية التي انهمك قواها التعب وبدد شملها ونظر رمسيس حوله فرأى فوضى جيشه وقدوم الجيش الحثى ولكنه بفضل شجاعته الذاتية قفز في عجلته ونادى جنوده القليلى العدد ليتبعوه وساط (منا) خيل العجلة ولكنه مارأى قلة عدد المصريين وكثرة الحثيين كادت قواه تخونه فخاطب مولاه قائلا : « أيها القوي القادر فى يوم المعمعة ها نحن وحدنا فى وسط الأعداء فخلصنا يا رمسيس مليكنا

الصالح » فأجابه رمسيس بقوله « اثبت مكانك فأنى منقض عليهم كالصقر » . وما هى الا لحظة حتى كانت العجلات المصرية القليلة تتغلغل بين جيش الحثيين الذي ارتاع حينما رأي بريق عجلات الأعداء المنقضة عليهم بلا خوف ولا وجل وتقهقر الحثيون وعمل (منا) الماهر على قيادة خيل عجلة الملك الذى كان منهمكا في رمى السهام وفى كل مرة يجندل بطلا حثيا من عجلته وحملت فرقة الحرس مع ملكها المقدام وتركت الأرض ملآى بالحثيين مابين قتيل وجريح وخيل مرتعبة

وفي أثناء تلك المعركة التي لولا شجاعـة رمسيس الذاتيـة لقضى بين فرق عجلات الحثيين كانت رسله قد أسرعت لاحضار الفرقتين الباقيتين من جيشه وكان على الشاطىء الثاني من النهر جمع من ثمانية آلاف رجل من جيوش الحثيين يرأسهم ملكهم ولو تمكنوا من عبور النهر بسرعة لأصبح مركز المصريين حرجا

وساط (منا) الخيل ثانيـة وحمل رمسيس على أعدائه ثانية حتى لحق به فلول الفرقة الاولى والثانية ونزلوا الى ميدان القتال وما هي الا برهة حتى فرغت جعبة سهام المصريين فأعملوا السيف والحراب وتقهقرت الجيوش الحثية الى النهر ومليكهم واقف في الجانب الآخر غير قادر أن يأتى عملا وهو ينظر الى عجلاته المتقهقرة

واذا بصيحة قد علت وبشرت بوصول الفرقة الثالثة من الجيش المصري فانهزم الحثيون من وادي الأورنت الى النهر وتبدد شملهم فأخذ بعض الجنـود المصريين يجولون على الشاطىء ليروا من قتل من قواد الحثيين فوجـدوا فيهم شقيقي الملك ورئيس حرسه وحامل درعه ورئيس كتبته واندفع جنود الحثيين في النهر وراء قائدهم الذي كاد يغرق وانقذوه وجمـع ملك الحثيين فلول جيشه وسار بهم على كره مهزوما في القتال بعد ان كان محققا النصر والظفر ولم يعـبر المصريون النهر ليتبعوا أعداءهم بل عادوا الى معسكرهم لقلة عددهم ونصبهم

ثم دعا فرعون رؤساء جيشه ووقفت بقايا جيشه حوله وأحضر (منا) قائد عجلته فانحنى الفتى أمامه وخلع فرعون من رقبته زيقا ذهبيا والبسه للفتى الأمين ثم أنب

فرعون عساكره وقواد جيشه الخجلين عن تركهم اياه يحارب وحده في أول المعركة ثم قال « أماعن حصانى عجلتي فسيأكلون كل يوم أمامى فيقصري الملكي » وقد كانت خسائر الجيشين كبيرة ففقدا هدنة وانسحب الحثيين الى الشمال وعادت الجيوش المصرية الى موطنها غير مهزومة ولا منصورة بل شاكرة خلاصها من هلاك كان محققا

ولما وصلت جيوش فرعون الى زورو كانت الطرق مكتظة بجموع النبلاء والكهنة والكتبة ينثرون الأزهار ويطأطئون رؤوسهم أمام مليكهم

الفصل الخامس

النشأة المصرية القديمة

نسائل أنفسنا كيف عاش الصغار في تلك الأزمنة البعيدة القديمة منذ آلاف السنين وكيف كانوا يلبسون وبم كانوا يلعبون وماذا كانوا يتعلمون والى أي المدارس كانوا يذهبون . .

وانك لو كنت عائشا في مصر في تلك الايام الغابرة . لرأيت فروقا عدة بين حياة اليوم والأمس ولكنك تجد في الوقت نفسه أنه مازالت هناك مشابهة غريبة بين صغار القرن العشرين بعد الميلاد وبين القرن العشرين قبله فأطفال قدماء المصريين كانوا مثل أطفال اليوم يلعبون لعبهم ويذهبون مذهبهم

وقد كان الطفل المصري يلقى عناية أكثر من طفل اليوم وكانت أمه تعني بأمره لمدة ثلاث سنين وهى تحمله معها أنى ذهبت على كتفها أو على ذراعها فاذا ما مرض دعى الطبيب الذي لا يعلم كثيرا عن الطب والأمراض فيصف أدوية وعقاقير لمرضاه جهلا منه بالمرض فيصف مثلا مركبا كدواء من دم السلحفاة وأذني خنزير وشحم ولحم رديئين وغيرها من المركبات الكريهة وكثيرا ما كان الطبيب يعبس ويقول أن الطفل غير مريض ولكنه مسحور ثم يجلس ويكتب

مانعاً للسحر مثل « دواء لطرد السحر. خذ خنفساء كبيرة واقطع رأسها وجناحيها واغلها مع زيت ثم خذ رأسها وجناحيها وضعها فى شحم الأفعى واغلها ثم اسق المريض من الخليط وأظن أن القارىء ليفضل أن يبقى مسحورا يقاسي الشعوذة عن أن يشرب جرعة من ذاك الدواء

وقد لا يعطى الطبيب دواء لمريضه بالمرة ولكنه يكتب كلمات سحرية فوق ورقة عتيقة ويربطها الى مكان الألم فى الجسم وكثيرا ما تعتقد الأم أن طفلها سليم من الأمراض ولكنه يتألم من أثر السحر فاذا صرخ وبكى ظنت الأم أن الجن في غرفة الطفل وقريبة منه فتنهض مذعورة وتردد هذه العبارات :- « هل أتيت لتقبيل هذا الطفل ؟ أني لا أطيق أن تقبله . هل أتيت لتسكنه وتهدئه ؟ أني لا أريد أن تهدئه . هل أتيت لتلحق به ضررا ؟ أني لا أطيق أن تضره . هل أتيت لتأخذه ؟ لا أطيق أن تأخذه . »

لما شفي الطفل (تاحوتي) وهرب من حوله الجن وبدأ في اللعب والجري وفي الصباح لا يعني هو وأخته بشأن الملبس كثيرا مثل ما يعني بالاستحمام لأن جو مصر حار لا يحتاج الى ملابس كثيرة وقد لا ترى على جسمه الأسمر غير رداء خفيف واحد وعند تاحوتي لعب تمثل رجلا يدور حول عقلة أو تمساحاً صغيراً يفتح فكيه ويقفلهما وعند أخته لعب جميلة وسيدة مصرية وفتاة نوبية وكثيرا ما يلعب تاحوتي الكرة مع أخته وكل هذا يحدث الى حين يبلغ الرابعة من عمره حين يسميه المصريون « بالعاقل الصغير » وحينما يبلغ الرابعة من عمره يأتي الزمن الذي ينبغي فيه أن يصير « كاتبا في دار الكتب » يسمونه بالتلميذ ووقتئذ يذهب تاحوتي الى المدرسة وعليه أقل الثياب وشعره مقصوص الى أذنه اليمنى وأول ما يجب أن يتعلمه هو كيف يقرأ ويكتب وليس هذا من السهل لأن كتابة المصريين وإن كانت جميلة المنظر ألا أنها عسرة التعلم ومن الغريب المدهش أنه وصلت الينا مما وصل من الآثار المصرية بين الكتب دفاتر قديمة عليها تصحيح المعلم فى هوامش صحائفها وتسويدات مبعثرة ومن تلك الدفاتر المدرسية التي أصبحت

ثمينة لدينا عرفنا ماذا كان التلميذ المصري القديم يتعلم وماذا كان يكتب ويقرأ .
وأكثر تلك الكلمات حكم الأقدمين المأثورة وأحيانا قصص الأيام القديمة . .

وأن تلك الدفاتر لتحدثنا اذا نطقت عن ساعات طويلة في المدرسة وعن آلام التلميذ ودموعه لأن المعلم المصري القديم كان يعتقد بالعصا ويستعملها دائما ويقول: « أن أذني الغلام في ظهره فاذا ضرب بالعصا سمع ووعى » و في احدى الرسائل التي بعث بها تلميذ لأستاذه بعد أن كبر قوله : « لقد كنت معك في طفولتي وكنت تضربني على ظهري وقد دخل تعليمك في أذني » واذا أذنب الغلام لقي عقاباً أصرم من الضرب ومن رسالة ولد الى أستاذه القديم قوله « كنت تلميذك وقضيت وقتي في الحبس وسجنت في المعبد ثلاثة شهور »

وكان وقت الدرس في المدرسة يستغرق نصف اليوم فاذا انتهى خرج الأولاد صائحين صياح الفرح والسرور وقد بقيت هذه العادة حتى اليوم ولم تكن لديهم واجبات منزلية فلم يكن زمن الدراسة مكروها مع شديد العقاب الذي يلاقونه فيها

ولما يشب تاحوتي ويكبر وقد ألم بأصول الكتابة يأمره المعلم بكتابة نماذج مختلفة من أحسن الكتب المصرية المعروفة ليلم باللغة المصرية ويكتب لغة صحيحة وقد يعمد الى نقل باب من كتاب في الدين أو من ديوان شعر أو قصة خرافية وسنأتي على شيء من أقدم تلك القصص .ولكن كانت العادة فى اختيار قطعة يكتبها التلميذ مفيدة لتقويم خلقه واصلاح نفسه مع تمرينه على الانشاء والكتابة وكثيرا ما كان يملي المعلم على تاحوتي فقرة من النصيحة التي خلفها ملك عظيم في سالف الأزمان الى ابنه ولي العهد أو من كتاب من هذا القبيل . وقد يكون التمرين على شكل رسائل يتبادلها المعلم والتلميذ

وأما فى علم الحساب فكان الطفل تاحوتي موفقاً الى حفظ القواعد الحسابية وقد علمه أستاذه الجمع والطرح وطريقة عقيمة فى الضرب وقليلا من القسمة كما علمه كثيراً من حساب المقاييس لتساعده مثلا على ايجاد مساحة حقل ومقدار القمح اللازم لجرن معلوم فاذا تعلم كل ذلك نجح فى تعليمه الاولي

وبالطبع كان المجهود يصرف لتعليم الطفل ينفعه فى مهنته المستقبلة فاذا كان معتزما اتخاذ الكتابة مهنة له فان تعليمه لا يتعدى ما ذكرنا لأن مهنته لا تخرج عن حد الكتابة والقراءة والحساب ولكنه اذا اختار مهنة الجندية ليكون ضابطا فى الجيش دخل مدرسة حربية أما اذا رامأن يكون قسيساً فعليه أن يلتحق بأحدى الجامعات التابعة لمعابد الآلهة المختلفة وهناك يتعلم كماتعلم موسى النبي حكمة المصريين ويتلقن الآراء الغريبة عن الآلهة وعن الحياة بعد الموت والعوالم العجيبة في السماء وفي الأرض حيث تعيش أرواح البشر بعد الحياة الدنيوية . .

وأهم ما يوجه اليه نظر الطفل في المدرسة هو احترام من هم أكبر منه سناً وأنه لا يجلس في حين أن الأكبر منه سنا يكون واقفا وعليه أن يكون مستقيما في خلقه وأن أول من يحترم في من هم أكبر منه سنا والده لاسيما أمه لأن المصريين احترموا أمهاتهم أكثر من أي شخص آخر في الأرض واليك فقرة من نصيحة تركها مصري قديم حكيم لابنه قال : « عليك ألا تنسى ما فعلته أمك لأجلك فلقد حملتك وغذتك وربتك ثلاث سنين ولما دخلت المدرسة وكنت تتعلم الكتابة كانت تأتي بنفسها كل يوم الى معلمك وتقدم له خبزا وجعة . أنك اذا نسيتها لامتك ورفعت يديها نحو الله فيسمع شكواها » ولكن قلما يتذكر أطفال اليوم مثل تلك الكلمات الحكيمة من أقدم كتب العالم . .

ولم تكن حياة الطفل تعليما وتهذيباً فقط فان تاحوتي كان يخرج في أيام المسامحة مع والديه وأخته ليصيدوا السمك والطيور فيأخذون معهم رماحاً رفيعة ذات شوكتين في طرفها ويصيدون بها الأسماك في بحيرات المستنقعات الضحلة الساجية ولصيد الطيور يأخذون عصياً منحنية تساعدهم على اسقاطها وبدلا من أن يصحبوا كلاب الصيد كما تفعل اليوم كانوا يأخذون قطة مدربة على احضار الحيوان الجريح لسيدها وكانوا يسيرون باحتراس بين المستنقعات ووسط الغاب حيث يعيش البط البري وطيور الماء ويجمعون في سيرهم زهر الخندقوق

وحينما يرى تاحوتي أو أبوه طيرا يرفرف في الفضاء عاجلوه بقذفه بالعصي المنحنية

الخصيصة لذلك فيقع بين الغاب ويقفز القط الجالس في طرف القارب ولا يمهل الحيوان على الهروب

ولا أخال الا أن قوم الأمس كانوا يسعدون بأيام جميلة وكان أطفالهم أسعد من أطفال اليوم

الفصل السادس

آثار أبحاث قدماء المصريين فى السودان

ليس ثمة أجمل من القصة التي تخبرنا عن كيف اكتشفت مجاهل افريقيا جزءاً فجزءاً وكشف خفايا أسرارها ولكن هل فكرت في طول تلك القصة وفي مبدأ وقوعها

هنالك في مصر نجد أول صحف تلك القصة ولم تزل واضحة تقرأ في تلك الكتابة المصرية الغريبة المملوءة بالصور على أحجار المقابر في جنوب مصر بجزيرة الفنتين

ومنذ أول الأيام كانت حدود مصر تنتهى عند الشلال الأول حيث يجري النيل بين جنادل وجزر صخرية وقد اختفى في تلك البقعة جنادلها لأن مهندسى الانجليز شيدوا هنالك خزانا عظيما على النيل

وقد اعتقد المصريون حينا أن النيل الذي يدينون له كثيراً بدأ عند الشلال الأول مع أنهم كانوا يعرفون بلاد النوبة منذ خمسة آلاف عام وكانوا يرسلون البعثات الاكتشافية في صحاري تلك الأرجاء التي نسميها الآن بالسودان

وبقرب الجنادل الأولى تقع جزيرة الفنتين التي سكنها الأمراء أن يصدوا غارات قبائل النوبة إلى جنوب الجنادل وليروا أنهم يسمحون لقوافل التجارة بالمرور آمنة وأن يقودوا تلك القوافل الى الصحراء بأنفسهم ولم تكن القافلة كما نعدها اليوم خطاً طويلا من الجمال لأنه وإن كان في مصر صوراً قديمة العهد جدا منها

نرى أن الجمل كان معروفا في مصر قبل أن يبدأ التاريخ المصري ويظهر أن هذا الحيوان النافع قد تلاشى من مصر عـدة قرون وكان الفراعنة يبعثون برسائلهم ويأتون بالعاج والتبر والأبنوس التي تأتي من السودان على ظهور مئات الحمـير

وحمل أمراء الفنتين المسمى «حماة باب الجنوب» كما لقبوا «بقوادالقوافل» ولم يكن من السهل في تلك الأيام قيادة القوافل في السودان والعودة بهـا آمنة مطمئنة محملة بالنفائس بين القفار والقبائل المتوحشة الساكنة في أرض النوبة

وقد ذهب هناك أكثر من أمـير مع قافلة ولم يرجع بل ترك عظامه وعظام رفاقه بين رمال الصحراء وقد قص علينا أحدهم أنه لما سمع أن أباه قد قتل في أحدى تلك المخاطرات سار الى الجنوب معه مائة من الحمير وعاقب القبائل التي ارتكبت تلك الجريمة وعاد بجثة والده ودفنها بالاكرام

ويروي لنا بعض تلك التقارير عن تلك الرحلات الأولى أن أحدها حاول اكتشاف أعماق أفريقيا وما زلنا حتى اليوم نقرأ ذلك على جـدار مقابر أولئك المكتشفين الشجعان

وحدثنا أمير اسمه حرخوف عما لايقل عن أربعة غزوات متفرقة قام بهـا في السودان . .

ففي رحلته الأولى حينما كان صغيراً ذهب مع أبيـه وغاب سبعة شهور وفى الثانية ذهب وحده وعاد بقافلته سالمة بعـد غياب ثمانية شهور وفى الثالثة ذهب أبعد من السابقة وجمع كمية كبيرة من العاج والتبر حتي أن ثلثمائة حمار كانت محملة بتلك النفائس التي عاد بها الى وطنه . وأغرى حرخوف أحد رؤساء السودانيين ليمده بكثير من تلك النفائس وكانت القافلة محروسة قوية حتى أن القبائل الأخرى لم تجرأ على مهاجمتها بل كانت مرتاحة لمساعدة قائدها ومده بالهدايا من الماشية ولما عاد حرخوف بنفائسه الى مصر سر الملك بنجاحه وأرسل اليـه قاربا ليستقبله فى النيل بالهدايا

ولكن أكثر رحلات حرخوف نجاحا هي رحلته الرابعة فان الملك الذي أرسله

فى الرحلات السابقة مات وخلفه على العرش ولد صغير اسمه بيبي فى السادسة من عمره وهو الذي حكم أكثر من تسعين عاماً وهذا أطول حكم عرفه التاريخ. وفى السنة الثانية من حكم بيبي يمم حرخوف ثانية بوجهه شطر السودان وعاد فى هذه المرة ومعه شيء عجيب راق فى نظر الملك الصغير أكثر من الذهب والعاج

ونحن نعلم أن الرحالة استانلي حينما ذهب ليبحث عن أمين باشا اكتشف في أواسط غابات أفريقيا قبيلة غريبة من الأقزام يعيشون وحدهم ويخجلون من الأجانب فلا بد وأن يكون أسلاف أولئك الأقزام قد عاشوا في القارة المظلمة منذ آلاف السنين وقد تمكن أحد خدام الملك مرة أن يأسر أحد الأقزام وأحضره الى مليكه الذي سر به مع حاشيته وتمكن حرخوف ايضاً من أسر أحد أفراد تلك القبيلة وأحضره مع قافلته ليهديه للملك

فلما سمع الملك الصغير بالتقدمة التي سيحضرها اليه حرخوف طار فرحاً وبعث برسالة الى المكتشف يقول له فيها : « تريد جلالتي أن ترى هذا القزم أكثر من أي كنز سواه فاذا أتيت الى القصر ومعك القزم سالما آمنا فاني أهبك أكثر من وهب الملك آسا الى بوردد (وهذا اسم الرجل الذي أثر القزم الأول في الايام القديمة) وأصدر الفرعون الصغير بيبي تعليمات دقيقة مع حراسه ليروا هل سلم القزم من السقوط في النيل وليراقبوه أثناء نومه وينظروا في فراشه عشر مرات في الليلة حتى يروا أنه لم يلحق به ضرر ولعل القزم المسكين مع كل ذلك كان يقاسي نوماً مزعجا . وقد أهدى حرخوف القزم للملك بيبي الصغير سالما وداخل حرخوف زهوا من رسالة مليكه حتى أنه نقشها بحروفها على جدار القبر الذي صنعه لنفسه في جزيرة الفنتين وهناك حتى يومنا هذا يمكننا رؤية تلك الكلمات التي تخبرنا عن اكتشاف المصريين لافريقيا وأن طباع الأولاد لا تتغير ولو عاشوا في أقدم العصور ولو جلسوا على عروش أمم عظيمة

الفصل السابع

بعثة اكتشافية

جلست على عرش مصر منذ ٣٥٠٠ سنة ملكة عظيمة . وليس من المألوف
رش المصري أن تتبوأه امرأة ولو أنهم كانوا يبجلونها وكانت لمنزلة أم الملك
بيـه من عظيم الاحترام والأهمية . ولكن كانت تلك الملكة التي حكمت
مدة عظيمة جدير بشهرتها أن تذكر لاسيما وقد أخذت مكانة بين النساء
ت مثل ما أخذت الملكتان اليصابات وفكتوريا . .
ثنـاء حكم الملكة حتشبسوت كان يشاركها الحكم زوجها ثم ابن أخيها الذي
في الحكم ولكنها ظلت عشرين عاما الحاكمة المطلقة في مصر
ومما يجدر ذكره في حياة تلك الملكة ماحدث من بعثة اكتشافية أرسلت
سطولها . .
ولما كانت الدنيا في طفولتها قبل عهد حتشبسوت بألوف السنين كان المصريون
ن بالسفن الى جنوب البحر الأحمر الى بلاد يسمونهـا بلاد بنت وأحيانا
نها بالأرض السماوية ومن المحتمل أنها كانت جزء من الأرض التي ندعوها
ببلاد الصومال ولكن هذه البعثات انقطعت الى عهد بعيد ولم يعد يسمع
حد الا الاشاعات والقصص المتوارثة من سالف الأزمان . .
وتقص علينا الملكة حتشبسوت في كتاباتها أنهـا كانت ذات يوم تصلي في
الاله آمون في طيبة فشعرت بوحى الاله يأمرها بارسال تلك البعثة الى تلك
النائيـة التي كادت تنسى . « سمع أمر في الهيكل هو وحى من الاله نفسه
لرق الى « بنت » يجب أن تكشف وأن السبل المؤدية الى سلم المباخر يجب
لأ » فاطاعة لأمر الوحى أعدت الملكة في الحال أسطولا صغيرا من السفن
ية وأرسلتها لتبحر جنوبا في البحر الأحمر بحثا عن تلك الأرض العجيبة

وكانت تلك السفن محملة ببضائع شتى لتستبدل بموارد «بنت» كما أقلت فرقةمن الجنود المصريين لحمايتها

ولا نعرف الوقت الذي استغرقه الاسطول الصغير في الوصول الى قبلتهلأن البعثات البحرية في ذلك الزمان كانت بطيئة خطرة . ولكن وصلت السفن المصرية أخيراً الى مصب نهر النيل في بلاد الصومال وأبحرت في النهر مع المد حتى أقبلت على قرية من تلك البلاد ورأى المصريون أن أهل «بنت» يعيشون في بيوت غريبة الشكل تشبه خلايا النحل و بعضها مشيد فوق آكام يصعدون اليها بالسلم ولم يكن لونهم أسود ولو انه قد عاش معهم بعض العبيد بل كان لونهم أشبه بلون المصريين . وكان الرجال يتحلون بحلي محددة الطرف كما كانوا يرتدون بما يستر عوراتهم فقط بينما كان النساء يلبسن رداء أصفر لا كم له

وكان رئيس البعثة المصرية اسمه «نهسي» وصل مع ضابط وثمانية جنود ولكي يرى أهل البلاد أنه أتى للسلم قدم بعض الهدايا لرئيس بلاد «بنت» وهي خمسة أسورة وعقدان ذهبيان وخنجر بغمد وفأس حربي واحدى عشر عقداًمن الخرز الزجاجي وتشبه تلك الهدايا مايقدمه المكتشف الأوروبى الحديث لزعيم أفريقي

فأقبل السكان بدهشة ليروا الأجانب الذين أحضروا معهم تلك النفائس وسألوهم كيف استطاعوا الوصول الى بلاد يجهل مقرها الناس ثم أقبل زعيم بنت المسمى «باريهو» وزوجه المسماة «آتى» وابنته وكانت «آتى» راكبة حمارا ثم ترجلت لترى أولئك الغرباء والحق أن الحمار قد استراح من حمله لأن زوجة الزعيم كانت بدينة كبيرة الجثة وابنتها ولو كانت صغيرة لكنها بدينة كأمها

وبعد أن تبادل الزعيم ورئيس البعثة التحيات نصب المصريون لهم خيمة أحاطوها بالجنود لحراستها وعرضوا ما أحضروه من بضاعة فأتى الأهلون بنفائسهم وبضائعهم المصنوعة من أنياب الفيل والذهب والابنوس والقردة وكلاب الصيد وجلود الفهود حتى امتلأ الأسطول المصري بالأحمال وجلست القردة فوق

البضاعة تنظر الى موطنها نظرة الوداع

ولكن أهم ماحملته تلك السفن الى مصر البخور وشجره ومقادير عظيمة من الصمغ الذي يحرق فى البخور واحدى وثلاثين شجرة بجذورها وقد عاد مع البعثة بعض زعماء « بنت » الى طيبة ليروا عجائبها ولا شك أن عودة السفن كانت شاقة لما كانت تحمله من أعياء . .

ولما وصلت البعثة الى مصر سارت في القناة الموصلة للنيل والبحر الأحمر وكان يوم وصولها يوم عيد ومهرجان فخرجت الجموع لتستقبل المكتشفين الشجعان ومتع الناس أنظارهم بالغرائب التي حملت من بلاد بنت لاسيا بزرافة أتوابها فرآها أهل طيبة من العجائب ونقل البخور والصمغ الى المعبد .

فنجحت هذه البعثة الاكتشافية ولكن الملكة حتشبسوت لم تقنع بذلك ولم تقف عند ذلك الحد من البعثات

وعلى مقربة من طيبة كان والد الملكة يبني معبداً عجيباً بجوار بعض الأطلال القائمة منذ مئات السنين وكانت حتشبسوت تتم ذلك العمل حتى كان يرى المعبد يتم شيئاً فشيئاً وكان عجيباً فى بابه يختلف فى منظره عن المعابد المصرية المعتادة وله اعمدة جميلة من الحجر أما الحجرة المقدسة فيه المسماة بقدس الاقداس فأنها محفورة فى الصخر وأرادت الملكة بتشييد هذا المعبد أن تجعله فردوسا للآله آمون الذي أوحى اليها بارسال البعثة فغرست في المعبد أشجار البخور المقدسة التي أحضرت من « بنت » ووجهت العناية الى تلك الأشجار ثم أمرت بنقش كل قصتها على جدار ذلك المعبد وزخرفة النقوش ولم نعلم أسماء الحفارين والفنانين بل نعرف اسم المهندس الذي بنى المعبد وهو « سنحوت » ولا شك أنهم كانوا ماهرين في الفن المعماري وفي النحت والنقش يدل على ذلك قصة البعثة المصورة على جدار ذلك المعبد العجيب فيرى فيها الناظر كل شيء من تاريخها واضحا جلياً كما حدث منذ ثلاثة آلاف عام. فترى السفن مبحرة بالقلاع والمجاديف وترى استقبال أهل بلاد بنت لرجال البعثة وترى التجارة وتعبئة السفن كما ترى صفوف

الجنود خارجة من طيبة لاستقبال المكتشفين وليس ثمة شيء تركوه دون أن يصوروه ويصفوه على جدار المعبد وأنا لنشكر الملكة وحفاريها الذين دونوا لنا ذلك التاريخ فأمكننا اليوم أن نذهب لنرى كيف كان البحارة يعملون وكيف عاش الناس في تلك الاصقاع النائيـة من افريقيا ونعلم أن مكتشفي ذاك الزمان كانوا يسوسون أهل البلاد كما يفعل مكتشفو عصرنا هذا

وفي عهدنا يعود المكتشفون فيدونون وصف رحلاتهم في كتب كبيرة ولكن ليس ثمة مكتشف أتى بمثل ما فعلته الملكة حتشبسوت التى نقشت أخبار الرحلة الى بنت على جدار معبـد الدير البحري وليس هناك من صور ورسوم تدوم كما دامت صور تلك البعثة التي ظهرت للعالم كما هي بعـد أن دفنت عصورا طويلة في رمال الصحراء

وقد تركت حتشبسوت غير ما ذكر تذكارات أخرى لعظمتها فلقد كتبت لنا أيضاً أنها بينما كانت جالسة ذات يوم في قصرها تفكر في خالقها اذ قـد خطر ببالها أن تشيد مسلتين عظيمتين أمام معبد آمون فى الكرنك فأمرت مهندسها البارع « سنحوت » بصنعها فسافر الى محاجر اصوان وقطع قطعتين هائلتين من الصخر المحبب (الجرانيت) وأحضرهما في النيل معه . ولدينا اليوم على شاطىء نهر التيمس مسلة لكيلوبترا طولها ٦٨ قدما ونصف وتبدو لنا حجر هائلا يتعذر على الناس نقله ولقد تعب المهندسون الحاليون كثيرا في نقل تلك المسلة الى البلاد واقامتها فيها . ولـكن مسلتي حتشبسوت تعلوان ٩٨ قدما ونصف وتزن كل منهما ٣٥٠ طناً ولـكن «سنحوت» الماهر قطعهما وأبحر بهما وأقامهما وكل ذلك لم يستغرق أكثر من سبعة شهور وما زالت احداهما منصوبة للآن في الكرنك وسقطت ثانيتهما وكسرت بجوار رفيقتها وهاتان المسلتان تحدثان عن حكمة تلك الملكة ومهارتها في تلك الأزمان الغابرة وأنها كانت تفكر في خالقها وأنه ليس بعيداً في الحقيقة عن قلوب عبيده . .

الفصل الثامن

المعابد والمقابر

أن كل من يجوب البلاد الأوروبية ويشاهد المبانى العظيمة القديمة يجد أن جل تلك المبانى قلاع وكنائس وأن منها العظيم الفخيم وفيها القصور ذات القلاع حيث عاش الملوك والنبلاء في الأيام السالفة . .

فاذا سرت الى مصر ورأيت مبانيها القديمة وجدت أن هناك بونا عظيما اذ بها عدد هائل من المعابد العجيبة والقبور ومامصر في الواقع الا أرض المعابد والمقابر . .

والسبب في تشييد المصريين لتلك المبانى الكثيرة أنهم كانوا شعباً متديناً أحب تقديم الاكرام والتبجيل لآلهته . ولا توجد في العالم الغابر أمة فاقت مصر في اعتقادها الراسخ بالحياة بعد الموت وأن تلك الحياة الثانية أهم من الحياة العالمية

ولقد بنى المصريون بيوتهم وقصورهم من الخشب وطين الصلصال لأنهم علموا أنهم سيعيشون فيها فترة من الزمن لاتلبث أن تنقشع بينا دعوا مقابرهم بالمساكن السرمدية وبذلوا كل ما في وسعهم في اجادة صنعها حتى أنها خلدت دون مبانى البلاد التي عفت آثارها وزالت رسومها

والآن نتصور كيف كان المعبد المصري في أيام مجده وأن القوم يفدون اليوم من كل صوب وفج ليشاهدوا أطلالها وبقاياها فيجدونها أعجب ما شيد فوق الأرض ولكنها اليوم كالهيا كل العظيمة بالنسبة لما كانت عليه في القديم وأنها لتريك لمحة عن مجدها الدارس وجمالها الغابر أكثر ما يدلك هيكل العظم عن جمال الجسد الزائل ورونقه

ولنتصور الآن أيضاً أننا في تلك الأيام أمام أحد تلك المعابد في زمن بهائها ومجدها حينما كان يؤمها المئات والألوف من الناس وحينما نمر في طرق المدينة الضيقة اذا بنا أمام طريق فسيح يمتد مئات من الأذرع وعلى كلا جانبيه صف

من تماثيل أبي الهول لبعضها رؤوس بشرية ولكن معظمها هنا برؤوس كباش أو بنات آوى

واذ نمر في ذلك السبيل نشهد ببرجين عاليين يرتفعان وبينهما باب مرتفع وأمام برجى الباب مسلتان عاليتان من (الجرانيت) المنقوش بالهيرغليفية والمصقول كالمرآة ولكل مسلة قمة مذهبة تتلألأ في أشعة الشمس كما يوجد بجانب المسلات تماثيل ضخمة للملك الذي أمر بتشييد المعبد له وتمثل تلك التهاويل الملك جالساً على عرشه لابساً تاج مصر المزدوج . الأبيض والأحمر . وهذه التماثيل مقطوعة من كتل الأحجار فاذا تطلع اليها الانسان عرته الدهشة والعجب إذ لايدري كيف استطاع الانسان أن ينقل تلك الكتل الهائلة من محاجر الأحجار ونحتها واقامتها. وما زال الناظر يرى أمام أحد معابد طيبة قطعة مكسورة من تمثال رمسيس الثانى الذي حين كان سليما كان يعلو ٥٧ قدما ويزن نحو الف طن وأنها لأكبر قطعة مفردة من الحجر قطعتها أيدى البشر ويذكرنا ذلك أيضا بتمثالي ممنون الهائلين

وترى جدران الابراج مغطاة بالصور التي تمثل حروب الملك فتراه فى عجلته يطارد أعداؤه أو قابضا على شعر أسراه ورافعاً سيفه ليقتلهم وكل تلك النقوش ملونة بأزهى الألوان وكل وجهة البناء مزينة بالنقوش وهى نوع من التاريخ المصور الممثل للملك . .

وتقف أمام الباب المصنوع من خشب الأرز المجلوب من لبنان ولكنك لاترى الخشب لأنه مصفح بالفضة ومصور بأجمل الرسوم ونمر من الباب فنجد أنفسنا فى فناء فسيح بين بناء أشبه بالدير تحمل سقفه عمد من الحجر منقوش عليها أعمال فرعون العظيمة وعطاياه المقدمة الى اله المعبد وفي الوسط عمود مرصع بالعقيق واللازورد والأحجار الكريمة

وعلى جانب بعيد من ذلك البناء نرى برجين وباباً آخر مؤدياً الى القاعة الثانية ونمر من ضوء الشمس الى دهليز معتم شاحب الضوء لأن له سقفاً يحجب

النور ويلتفت الانسان حوله فيرى أكبر حجرة بناها الانسان وفى وسطها صف من الأعمدة الهائلة ثم صفين من الأعمدة الصغيرة على الجانبين

وننظر الى الاثني عشر عمودا فنراها تعلوا سبعين قدما في الفضاء وقواعدها منبسطة على شكل الأزهار وكل قاعدة من قواعد العمد تستطيع أن تحمل مائة رجل وتزن كل حجرة من أحجار السقف مائة طن والأعجب من ذلك كيفية رفعها الى ذلك العلو الشاهق ووضعها في أماكنها وكل عمود منقوش بالرسوم والألوان وكذلك الجدار المحيط بالاعمدة ولكن لو نظرنا الى تلك الصور فى داخل المعبد لا نرى فيها أخبار حروب الملك لأن المعبد أقدس من ذلك بل نرى صور الآلهة وصور الملك يقدم لها القرابين والهدايا التي لا تحصى

ثم نسير الى قدس الأقداس فلا نرى أثرا لضوء النهار ونرى الغرفة أصغر من باقي الحجرات ويضيء ظلمتها مصباح ضئيل يحمله تابع الكاهن الذي يقف الى جانب هيكل والغرفة مغلقة الأبواب مصفحة بالذهب وفيها تمثال الآله ولما كانت الأبواب مختومة ولا يسمح لنا بالدخول قد نغري الكاهن ليسمح لنا أن ننظر الى داخلها فاذا بنا نرى تمثالا صغيراً خشبيا أشبه بالتمثال الذي رأيناه محمولا فيموكب الطيبة ومزين ومقدم له المأكول والمشروب والرياحين . ويقوم جيش من الكهنة كل يوم بخدمته ويلبسونه ويزينونه ويقدمون له القرابين وينشدون ترانيم في مديحه

ووراء الهيكل مخزن مملوء بالطعام والشراب من قمح ونبيذ وفواكه تتزود بها مدينة بأسرها فى زمن الحصار

وأن هذا الاله غني كبير فله من الأرض أكثر مما لأى أحد من النبلاء وله دخل أكبر من دخل فرعون نفسه وله جيش خاص به لا يطيع الا أمره ونهيه وله على شاطىء البحر الأحمر أسطول يجلب له من البلاد الجنوبية الأطياب والبخور وعند مصب النيل اسطول آخر ليحضر له من لبنان خشب الأرز والعطور ولكهنته من النفوذ والسلطان أكثر من أى أمير في البلاد وأن فرعون نفسه ليفكر قبل أن يقدم على عقاب نفر ممن لهم القوة على هز عرشه . وتلك كانت حال المعبد

المصري منذ ثلاثة آلاف عام وقت أن كانت مصر أقوى أمة فى الأرض . .

ولكن ان كانت تلك المعابد عجيبة فلا زالت المقابر أعجب فمنذ أوائل التاريخ والمصريون يظهرون شعورهم بأهمية الحياة بعد الموت باقامة المبانى العظيمة المحتوية على جثث العظماء وحتى الملوك الذين عاشوا قبل التاريخ كانت لهم غرف تحت الأرض مندودة بكل مايلزم للحياة الأخرى ولكن منذ أن أتى خوفوا رأينا عجائب القبر المصري

وغير بعيد من مدينة القاهرة عاصمة مصر الحالية تقوم فى الصحراء مبان غريبة تناطح السماء — تلك هي الاهرام مقابر ملوك مصر العظام وإن شئنا أن نعرف شيئاً عن البنائين منذ أربعة آلاف عام فلننظر الى الاهرام وهاك أكبرها وهو هرم كيوبس وهو اسم آخر لخوفو وليس على وجه الارض بناء أعظم منه فارتفاعه اليوم ٤٥٠ قدما وقبل أن تتهدم قمته كان ارتفاعه نحو ٤٨٠ قدما وطول كل ضلع من أضلاعه ٧٥٠ قدما ويشغل مساحته نحو اثنى عشر فدانا ولكنك تعجب أكثر اذا علمت أن ما فيه من أحجار كافية لبناء مدينة تكفى لسكن أهل الاسكندرية أو أنك اذا كسرت أحجاره الى أحجار حجمها قدم مكعب وصفت بجانب بعضها فان صفها يحيط بكرة الارض . وأن كل حجر من أحجار الهرم تزن من ٤٠ الى ٥٠ طناً وكلها موضوعة فوق بعضها بأحكام عجيب ومن العجيب تلك الممرات والغرف في داخل الهرم العظيم وفي وسط الهرم غرفتان صغيرتان تسمى أحدهما بمخدع الملك وفيها كانت جثة أكبر بناء في العالم وكانت الممرات مقفلة بحجرين ثقيلين حتى يتعذر على انسان دخول الهرم ويقلق الملك خوفو من نومه ولكن رغماً عن كل التحفظات فان اللصوص تمكنوا من الدخول الى الهرم ونبش التابوت وانتهاك جثة الملك وبعثرتها حتى صدق قول الشاعر بيرون « لم تبق من بقايا كيوبس حفنة من التراب »

وأما الاهرامات الاخرى فأصغر من الهرم الاكبر . وبجوار الهرم الثاني يجلس أبو الهول وهو تمثال هائل رأسه رأس بشري وجسمه جسم أسد وقد قطع

من صخرة واحدة ولا نعلم من صنعه ولا من يمثل وجهه الذي يعلو سبعين قدما ولكن هناك يربض ابو الهول مراقبا العصور في كرها بجوار قبور الفراعنة وهو أعجب تماثيل الارض التي صنعتها أيدي الانسان

وبعدعدة قرون أخذ الناس يحفرون في الصخر مقابر لدفن موتاهم بدلا من بناء الاهرام وهناك حول طيبة تزدحم القبور المفرغة فى الصخر وتجد جدارها مزينة بالصور الجميلة الملونة تمثل حياة الميت التي كان يحياها فوق الارض فتراه جالسا أو واقفا وبجواره زوجه وخدمه يعملون فى أعمالهم مثل الحرث والزرع والحصاد وجني الكروم وعصرها أو يقدمون الفواكه لسيدهم وفي صور أخرى ترى الرجل العظيم ذاهبا للصيد والقنص واللهو أو ترى التجار يتعاملون وصفوة القول ترى كل حياة مصر القديمة تمر أمامك وأنت تنتقل من غرفة الى أخرى وان من تلك القبور علمنا معظم تاريخ المصريين ووصف حياتهم

وفي واد يدعى وادي الملوك كان يدفن كثير من الفراعنة واليوم أضحت قبورهم عجائب للنظر فى طيبة واذا نظرنا الى أجمل تلك المقابر مثل قبر سيتى الاول والد رمسيس الثاني الذي روينا عنه شيئا فحينما ندخل اليه ننحدر من ممر الى آخر ومن قاعة الى أخرى حتى نصل الى الغرفة الرابعة عشرة المسماة ببيت أوزيريس الذهبي وتبعد ٤٧٠ قدما من الباب الخارجي وفيها تابوت الملك وأن كل الجدار والاعمدة في كل غرفة منقوشة ومنحوتة بالكتابة ويرى على الاعمدة صور الملك يقدم القرابين للآلهة وهي ترحب به ولكن الصور التي على الجدار غريبة تمثل مرحلة الشمس في العالم السفلي والاخطار والمصاعب التي تصادفها الروح المصاحب لقارب الشمس في رحلة ويطارد الشرير أفاع وخفافيش وتماسيح تنفث النار أو معها سهام فمن وقع في قبضتها عذبته بكل أنواع التعذيب والتنكيل فتمزق قلبه وتقطع رأسه وبعدها تغلى أطرافه في آنية أو تعلق فوق بحيرات النهر ثم يمر الروح بين تلك الاخطار الى الرؤيا المنيرة في الحقول المقدسة حيث يعيش المختارون في السعادة يزرعون ويحصدون . ثم نرى الملك يصل مطهرا بعد مرحلته الطويلة

وترحب به الآلهة وتسكنه معها كآله في حياتها الخالدة

وتابوت الملك سيتى الجميل الذي كان فيه مومياء الملك سيتى موجود الآن في متحف « الساؤون » بلندن وقد اكتشف منذ قرن تقريبا وكان فارغا لان بعض نابشي القبور وجدوا جثة الملك مع موميات الملوك الاخرين مختبئة في حفرة عميقة بين التلال وهناك فى متحف القاهرة يمكنك أن ترى وجه ذلك الملك العظيم كما كان منذ ٣٢٠٠ عام تقريبا ويمكنك أيضا أن تنظر الى وجه تحتمس الثالث أكبر جندي مصري والى رمسيس الثاني مضطهد الاسرائيلين والى مرنبتاح (منفتاح) الذي قسا قلبه حينما طلب منه موسى النبي أن يدع بني اسرائيل يخرجون من مصر والذي غرقت جيوشه فى البحر الأحمر وهي تطارد بني اسرائيل

وأنه ليظهر لنا أن من العجيب رؤية أبطال الفراعنة ولكن لما اعتقد المصريون أنه حينما يموت انسان يحب روحه الرجوع الى موطنه الارض بعد مروره الى الحياة الاخرى ويبحث عن الجسم الذي كان يسكنه فى الحياة وقد ذهب اعتقادهم الى أن بقاء النفس فى العالم الآخر يتوقف على صيانة الجسد فعمدوا الى التحنيط وكأنهم قد عملوا على حفظها وصيانتها لتعرض بعد ألوف السنين فى المتاحف لينظر اليها القوم الذين عاشوا فى أيامهم في حال من الهمجية والتوحش

الفصل التاسع

السماء والعالم الآخر عند قدماء المصريين

سأحدثكم هنا عما تخيله المصريون عن السماء وعما كانت وأين كانت وكيف كان يصلها الناس بعد الموت وما نوع الحياة التي عاشوا فيها حينما كانوا هناك فلقد كانت لهم آراء غريبة شاذة فى بابها عن السموات فاعتقدوا مثلا أن تلك القبة السماوية الزرقاء مجبولة من شيء وهي كصفحة الحديد العظيمة فوق العالم ومقامة فى الجهات الاربع — الشمال والجنوب والشرق والغرب — فوق دعائم من الجبال

العالية وأما النجوم فمصابيح صغيرة مدلاة من تلك الصفحة . ويجري حول الدنيا نهر سماوي عظيم تسير فيه الشمس يوما بعد يوم فى قاربها مضيئة العالم وتراها الانظار وهي تعبر من الشرق لان النهر يجري بعد ذلك وراء جبال عالية ثم تدلج فى عالم الظلمة فلا تراها العيون .

وبعد أن تغيب الشمس يقبل القمر سابحا فى قاربه تحرسه عينان لا تغفلان عنه وهو فى حاجة الى الحراسة لأنه يهاجم بعدو هائل كل شهر ويسير مدة أسبوعين آمنا فينمو ويستدير ولكنه لا يكاد يتم نموه فى منتصف الشهر حتى يهاجمه عدوه ويشطر منه جزءا ويلقيه فى النهر السماوي وفى مدة أسبوعين يعود بالتدريج الى ما كان عليه حتى أول الشهر التالى. تلك كانت طريقة المصريين الغريبة فى تفسير أوجه القمر وكثير من آرائهم الاخرى غريبة شاذة مثل هذه الطريقة

ولا أريد هنا ذكر معتقداتهم عن الله لانه كان لهم آلهة كثيرة اعتقدوا فيها غرائب يضيق المقام عن سردها ولكن أهم ما فى ديانة المصريين اعتقادهم فى السماء وفي الحياة التي يحياها المرء بعد موته وليس ثمة أمة قديمة رسخت فيها عقيدة خلود النفس أكثر من المصريين وعن ابتداء حياة قشيبة بعد الحياة الدنيا تعيسة كانت أم شقية بالنسبة الى ما كانت عليه في الحياة الارضية ولديهم معتقدات عديدة عن الحياة بعد الموت بعضها صعب فهمه ولكني سأذكر أهمها وأبسطها :

رأى المصريون أنه منذ أزمان متوغلة في القدم وقت ان كانت الارض في طفولتها عاش ملك عظيم صالح اسمه اوزيريس حكم مصر فكان عادلا فى حكمه طيبا مع شعبه مرشدا اياهم الى ما فيه النافع ولكن كان لاوزيريس أخ شرير يسمى « ست » كان يكرهه ويحسده فدعا « ست » ذات يوم أخاه اوزيريس لوليمة العشاء حيث جمع عددا من أصحابه المتآمرين معه . أحضر صندوقا جميلا وعد باعطائه لمن يناسب حجمه فدخل فى الصندوق الواحد بعد الآخر ولكنه لم يوافق أحداً منهم حتى جاء دور اوزيريس فدخل حتى اذا ما احتواه الصندوق أحكم أخوه الشرير وأصحابه القفل عليه وألقاه فى النيل الذي حمله الى الشاطىء

وفيه جثة الملك الصالح إلا أن ايزيس زوج اوزيريس بحثت عن زوجها فى كل مكان حتى عثرت على الصندوق وفى داخله الجثة وبينما هي تبكيه اذ أقبل عليها « ست » وقطع جثة أخيه اربا وبعثر القطع فى كل واد ولكن ايزيس الوفية اقتفت آثار تلك القطع ودفنت كل قطعة من الجثة

وكان لايزيس ولدا اسمه هورس فلما شب وترعرع طلب من « ست » النزال ولما حاربه هزمه فاجتمع كل الآلهة وحكمت لاوزيريس ضد ست ثم أقامت أوزيريس من بين الأموات وجعلته الهاً وعينته قاضيا للناس بعد الممات ثم اعتقد المصريون تدريجيا أن اوزيريس قام من الموت وعاش خالدا وأصبح كل من يعتقد به يحيا ثانية بعد الموت ويسكن معه الى الأبد وأنك لترى جليا ما بين قصة أوزيريس وحياة المسيح من مشابهة غريبة

واعتقد المصريون أنه اذا مات انسان على هذه الارض وحنطت جثته وتوارت فى القبر ذهبت روحه الى أبواب قصر اوزيريس فى العالم الآخر حيث توجد «قاعة الحق» التى تحاكم فيها الأرواح . ولا بد للروح من معرفة الأسماء السحرية للأبواب قبل ولوجها بحيث اذا لفظت تلك الأسماء فتحت الابواب ودخل الروح

ويوجد فى قاعة الحق ميزان كبير يقف بجانبه اله يكتب نتيجة المحاكمة بينما يجلس حول القاعة اثنان وأربعون مخلوقا مريعاً لهم السلطة فى معاقبة الآثمين ويعترف الروح لهؤلاء القضاة المنتقمين أنه كان خاطئاً واذا ما أكمل اعترافه يؤخذ قلبه ويوزن فى كفة تقابلها ريشة يرمز المصريون الى الحق فاذا لم ترجح كان الرجل كاذبا ويلقى قلبه الى وحش هائل نصفه بشكل التمساح ونصفه الآخر ذو شكل عجل البحر وهو جالس وراء الميزان فيلتهم قلوب الفاسدين ولكن ان كان القلب صالحاً يأخذ هورس ابن اوزيريس الرجل من يده ويقوده الى حضرة القاضي اوزيريس فيحكم له بالحق ويخول له الدخول الى السماء

ولكن ما هي تلك السماء أو تلك الجنة ؟ لقد رأى المصريون فيها عدة آراء مختلفة منها أن النفوس النقية تؤخذ الى السماء وتصير نجوما تنير فوق العالمين ومنها أن

يسمح لها بالدخول فى القارب الذي تسير فيه الشمس حول العالم يوما بعد يوم .
وتؤنس الشمس فى مرحلتها السرمدية ولكن الرأي الذي اعتقد به الكثيرون
وأحبوه أنه في مكان بعيد من الجهة الغربية تقع أرض جميلة عجيبة تسمى حقل
المزروعات حيث ينمو القمح الى ارتفاع ثلاث ياردات ونصف وتعلو السنابل ثلاثة
أقدام ويشق سطح تلك الحقول قنوات جميلات ملآى بالسمك ويكتنفها الغاب
ونبات المياه

فاذا ما اجتازت الروح قاعة المحاكمة تمر بمسالك وعرة وبين أخطار عظيمة
حتى تصل الى تلك الأرض النضرة الجميلة وهناك يحيا الميت ويعيش سرمديا فى
السلام الأبدى والسعادة الدائمة يزرع ويحصد ويجدف فى قاربه فى قنوات الماء
أو يستريح ويلعب فى المساء تحت أشجار الجميز

ونخال أن كل هذا الوصف يصور جنة فيحاء ملاى بالسعادة لمعظم الناس
الذين اعتادوا فى كل حياتهم العمل الشاق والأجر النذر وبالتدريج فكر النبلاء
أن سماء مثل هذه لاتروق فى عيونهم لأنهم لم يعملوا على الارض عملا فكيف يعملون
ويتعبون فى السماء ؟ ففكروا فى طريقة ليصحبوا عبيدهم معهم فى العالم الاخر فحاول
بعضهم ذلك بأن كانوا يقتلون عبيدهم عند قبور أسيادهم ففى جنازة الرجل العظيم
كان بعض خدمه يقتلون بجوار مقبرته حتى يمكنهم أن يصحبوه الى السماء ليخدموه
هناك كما خدموه على الارض ولكن كان المصريون من الشفقة والعدل بحيث
كانوا يبغضون تلك الفكرة القاسية وقد فكروا فى طريقة أخرى لذلك فأتوا
بتماثيل من الطين تمثل شكل الخدمة ولأحدهم مفرقة على كتفه وآخر مسلة فى يده
وهكذا فحين يدفن الرجل يدفنون معه مثل تلك التماثيل حتى اذا وصل الى السماء
وطلب منه أن يعمل فى الحقل قام عبيده وأخذوا على عاتقهم عمل سيدهم

وأنا نرى مع جثث المصريين المحنطة عددا من هذه التماثيل الصغيرة ونرى
أحياناً شيئاً من الشعر مكتوبا عليها مثل « أنت أيها المجيب . اذا دعيت وسئلت

أن أعمل أى عمل مما يعمل فى السماء وطلب منك أن ازرع الحقل أو أحمل الرمال من الشرق الى الغرب قل هأنذا »

وأنها لتبدو فكرة غريبة عن الجنة ومن العجيب أيضاً أن يصحب الميت معه الى الآخرة حزمة من اللعب الخزفية ولكنا اذا رأينا فى ذلك مدعاة للسخرية فلا حاجة بنا أن ننسى أنه كان للمصريين عقيدة ثابتة ان خلق المرء فى هذه الحياة هي التي تصيره سعيداً أو شقيا فى الآخرة ومن عمل صالحا أو طالحاً يلق جزاء ما قدمت يداه

الفصل العاشر

بعض القصص الخرافية عند قدماء المصريين

كان أطفال المصريين مولعين بسماع القصص المدهشة وأريد فى هذا الفصل أن آتى ببعض تلك القصص المصرية التي اعتاد الأطفال سماعها فى المساء بعد أن ينتهي وقت المدرسة واللعب وهذه القصص هي أقدم القصص فى العالم التي عرفناها

يحكي أن الملك خوفو الكبير صاحب الهرم الأكبر فرغ ذات يوم من عمله فدعا اليه أبناءه وحكماءه وقال لهم « من منكم يقص عليّ قصص السحرة الأقدمين » فوقف ابنه الأمير « بوفرا » وقال « أني أقص على جلالتكم اعجوبة حدثت فى أبيك الملك «سنفرو» وقد وقعت فى يوم كان فيه الملك تعبانا ولا متبرما فبحث فى قصره عن شيء يسره فلم يجد فقال لحاشيته احضروا لى الساحر « زازامنخ » فلما حضر الساحر قال له الملك « لقد بحثت يازازامنخ فى كل قصري عن شيء يسر نفسي فلم أجد شيئا يفرح قلبي » فأجابه زازامنخ : فلتأخذ جلالتك قاربك فيحملك فوق بحيرة القصر ولتحضر عشرين فتاة جميلة ليجدفن فى القارب بمجاديف من أبنوس مرصعة بالذهب والفضة وسأذهب معك بنفسي فيسر قلبك من منظر طيور الماء والشاطئ الجميل والعشب الأخضر

فذهب الملك مع الساحر الى البحيرة وجدف العشرون حسناء فى قارب الملك وجلس تسع منهن يجدفن من جانب وتسع من الجانب الآخر وجلس اثنتان من أجملهن فى مقدمة القارب وأنشد الحسان غناء شجيا فأخذ الارتياح يتسرب الى قلب الملك ويتملكه السرور وأخذ القارب يقبل ويدبر والمجاديف تلمع فى شعاع الشمس

وبينا كان القارب سائراً أصاب طرف الجداف رأس احدى الفتيات فسقط التاج من على رأسها فى الماء فانقطعت عن الغناء ووقفت كل المجاديف عندئذ قال الملك : « لماذا أوقفت التجديف أيتها الصغيرة ؟ » فأجابت الفتاة « لأن حليتي سقطت فى الماء » فقال الملك : « لا بأس فسأعطيك غيرها » ولكن الفتاة أجابت « أريد حليتي القديمة دون سواها » فدعا الملك سنفرو اليه الساحر زازامنخ وقال : « والآن يازازامنخ لقد عملت بمشورتك وسرى السرور فى نفسى ولكن انظر ها حلية هذه الفتاة قد سقطت فى الماء وسكتت عن الغناء وأبطلت التجديف ولا تريد للحلية القديمة بديلا »

عنـد ذلك وقف الساحر زازامنخ فى قارب الملك وفاه بكلمات عجيبة واذا بنصف ماء البحيرة يرتفع ويتراكم فوق ماء النصف الآخر فارتفـع قارب الملك فوق المياه المرتفعة ورؤي قاع النصف الآخر تلمع فيه الأصداف وفوقها الحليـة التي سقطت من رأس الفتاة . فقفز « زازامنخ » الى القاع وعاد بها الى الملك ثم تمتم بكلمات عجيبة فعاد الماء كما كان أولا فسر الملك وقضى يوما سعيدا وقدم للساحر زازامنخ مكافآت عظيمة .

فلما سمع الملك خوفو تلك القصـة أثنى على الرجال الأقدمين ثم وقف ابن آخر له اسمه الأمير « حوردادف » وقال : « ان القصة المذكورة أيهـا الملك قصة قديمة لا يعلم عنها ان كانت صادقة أم كاذبة ولكني أريك ساحراً يعيش فى أيامنا هذه فسأل الملك خوفوا قائلا : « ومن هو ؟» فأجاب حوردادف «إن اسمه ديدى وعمره مائة وعشرة أعوام ويأكل كل يوم خمسمائة رغيف من الخبز ويشرب

مائة أناء من الجعة وله المقدرة أن يعيد الرأس المقطوعة الى جسمها ويعرف كيف يجذب اليه الاسد من الصحراء فيتبعه كما يعلم رسم بيت الله الذي تريد أن تعرفه منذ زمان »

فأرسل الملك خوفو الامير حوردادف ليحضر اليه الساحر ديدى فذهب وأحضره فى القارب الملكي وخرج الملك وجلس في شرفة القصر ثم قال للساحر: « لماذا لم أرك من قبل ياديدى ؟ » فأجابه « فلتكن لجلالتكم الحياة والصحة والقوة ان الانسان لايمكنه أن يأتى الا اذا دعى » فقال الملك . أحقيق أنه يمكنك أن تلصق رأسا مقطوعة فى مكانها ؟ » فأجاب « نعم يا مولاي » فقال الملك « لنحضر أسيرا من السجن ولنقطع رأسه » ولكن ديدى أجابه « أطال الله فى عمر الملك لا تجرب ذلك فى انسان ولنجربه فى حيوان أو طائر » . فأحضرت أوزة وقطعت رأسها ووضعت الرأس فى شرق قاعة القصر ووضع الجسم فى غربها. ثم قام ديدى وتكلم بكلمات عجيبة فاذا بجسد الاوزة يتحرك ويسير ليقابل الرأس وسارت الرأس لتقابل الجسم والتصقا أمام عرش الملك وعادت الاوزة الى الحياة كما كانت عند ذلك سأل الملك خوفو الساحر قائلا « وهل حقيقة أنك تعلم رسم بيت الله » فقال الساحر نعم ياصاحب الجلالة ولكن لست أنا الذي أعطيك إياه . فسأل الملك ومن هو فأجاب « أنه أكبر أبناء ثلاثة سيولدون للسيدة (رد ديدت) امرأة كاهن رع اله الشمس ولقد وعد رع ان سيحكم أولئك الثلاثة هذه المملكة التي يحكمها مولاي الملك » فلما سمع الملك خوفو ذلك انتفض ولكن ديدي قال : لايخاف الملك لأن ابنك سيحكم أولا ثم يليه ابنه ثم يلي ذلك أحد هؤلاء فطلب الملك أن يعيش ديدى فى بيت الأمير حوردادف وأن يقدم له كل يوم ألف رغيف ومائة اناء من الجعة وثور ومائة حزمة من البصل

ولما ولد أبناء (رديدت) الثلاثة أرسل رع أربعة آلهة لتكون لهم أمهات فى زى راقصات متجولات وصحبهن اله فى زي حمال ولما ربين الثلاثة أطفال قال زوج رديدت لهن « ماذا ترون من الأجر أيتها السيدات ؟ » ثم أعطاهن شيئاً

من الشعير وذهبن الى حال سبيلهن حتى اذا ما ابتعدن قالت احداهن — ايزيس لرفيقاتها « لماذا لم نفعل اعجوبة لهؤلاء الاطفال ؟ » فوقفن وصنعن تيجان مثل تاج مصر الأحمر والأبيض وخبأنها فى الشعير وربطن الزكيبة ووضعنها فى مخزن (رديدت) وسرن فى طريقهن

وبعد أسبوعين أرادت رديدت أن تصنع جعة لدارها ولكنها لم تجد شعيرا وقالت لها خادمتها انه كان فى المخزن زكيبة من الشعير ولكنها أعطيت للراقصات فأبقينها فى المخزن مختومة بختمهن فقالت السيدة لخادمتها . « اذهبي واحضريها فاذا أردناها أعطيناهن أكبر منها » فنزلت الخادمة ولما دخلت المخزن سمعت صوت موسيقى ورقص مما يسمع فى قصر الملك فعادت أدراجها خائفة وأخبرت سيدتها بالامر فنزلت رديدت وسمعت ما أخبرتها عنه الخادمه فلما عاد زوجها فى الليل أخبرته بالامر وسرت قلوب الجميع لأنهم علموا أن أبناءهم سيصيرون ملوكا

وحدث بعد ذلك أن رديدت تشاجرت مع خادمتها وضربتها فقالت الخادمة لباقى الخدم الذين معها « أنها ولدت ثلاثة ملوك وسأذهب لأخبر ذلك للملك خوفو » وذهبت أولا الى عمها وأخبرته بما دبرته فغضب منها لأنه رأى فى ذلك وشاية بالأطفال . وضربها بسوط من الكتان. ولما سارت بجوار النهر خرج منه تمساح كبير وحملها الى قاع البحر . . »

ولكن للأسف أن هذه القصة قد وقفت عند هذا الحد اذ فقد باقى الكتاب ولا ندري هل حاول الملك خوفو قتل الصغار الثلاثة أم لا وكل ما نعلم أن أول الثلاثة ملوك الذين خلفوا أسرة خوفو يحملون أسماء مثل أسماء أبناء رديدت وكانوا يدعون مثل باقى الملوك الذين بعدهم بأبناء الشمس

وهذه أقدم قصص فى العالم واذا لم تظهر عجيبة لديك فلتذكر أن لكل شىء بداية وأن واضعي تلك القصص القديمة لم يزاولوا كثيراً فن القصص

ولنذكر قصة ثانية من خرافات قدماء المصريين التي رويت بعد ما ذكرناه من القصص السالفة ببضع مئات من السنين ولقد كان له شأن كبير عند أطفال

المصريين مالقصة السندباد البحري عندنا واسم هذه القصة « حكاية البحار الغريق »
وقد قصها البحار بنفسه على شريف مصري قال

كنت ذاهبا الى مناجم فرعون فأبحرت فى سفينة طولها (٢٢٥ قدما) وعرضها (٦٠ قدما) وكان معى مائة وخمسون من خيرة بحارة المصريين وكان كلهم يتنبأ بسفرة سعيدة ولكننا ما كدنا نقترب من الشاطىء حتى هبت زوبعة عظيمة ارتفع لها ماء البحر وأرغى وأزبد وتهشمت سفينتنا ولكننى تعلقت بقطعة خشب وحملنى البحر ثلاثة أيام حتى قذفنى الى جزيرة ولم يبق أحد من رفاقي حيا بل كلهم كانوا من المغرقين

فنمت تحت ظل بعض الشجيرات حتى اذا عاد لي صوابى قليلا نظرى حولى باحثاً عن طعام فوجدت حولى كثيراً من التين والعنب والكريز والقمح وكل صنوف الطيور ولما شبعت أوقدت ناراً وقدمت قربانا للآلهة التى أنقذتني وسمعت بغتة صوتا مثل قصف الرعد واهتزت الأشجار وزلزلت الأرض فنظرت حولى فاذا بحية عظيمة تسعى الي وطولها خمسون قدماً ولها لحية طولها ثلاثة أقدام وكان جسمها يلمع فى الشمس كالذهب ولما فردت جسمها تملكنى رعب ووقعت على وجهى

ولكن الحية بدأت تتكلم وقالت : « ما الذى أحضرك هنا أيها الصغير اذا لم تخبرنى حالا لجعلتك تفنى كلهيب » قالت هذا وحملتنى فى فمها برفق الى بيتها ووضعتنى فيـه

ثم خاطبنى هذا الثعبان الهائل قائلا : « ما الذي أحضرك هنا أيها الصغير الى هذه الجزيرة فى البحر ؟ » فحدثته عن قصتي وعن غرق المركب وكيف نجوت وحدي من بين براثن الأمواج . فقال لي : لا تخف أيها الصغير ولا تكن حزينا فاذا كنت قد أتيت الي فأنما أرسلك الله الى هذه الجزيره المملوءة بكل خير والآن ستسكن هذة الجزيرة أربعة شهور ثم تأتى سفينة فتحملك الى وطنك حيث تموت فيه أما أنا فأسكن هنا مع اخوتى وأطفالى ونحن هنا خمسة وسبعون غير فتاة صغيرة

أتت الى هنا بالصدفة وحرقت بنار من السماء ولكن ان كنت شجاعا وصبوراً فعانق أطفالى وعد الى وطنك »

فانحنيت أمامه ووعدت بأن أتحدث عنه أمام فرعون وأن أحضر له سفناً محملة بنفائس مصر ولكنه ابتسم لكلامى وقال : ليس عندك شيء مما أريد لأني أمير بلاد بنت وكل مافيها من أطياب وعطور ملك لي وفوق ذلك فانك اذا رحلت عن هذه الجزيرة لن تراها ثانية لأنها ستتحول الى أمواج

ولما حان الوقت اقتربت السفينة وقال لي الثعبان الطيب «وداعا ! وداعا اذهب الى وطنك أيها الصغير والى أولادك واجعل اسمك طيبا فى بلدك وهـذا ما أرغبه منك »

فانحنيت أمامه وحملنى بهدايا ثمينة من العطور والأخشاب الطيبة والعاج والخيزران وكل أنواع النفائس وأقلتنى السفينة

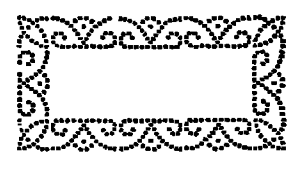
وبعد أن مر شهران من المرحلة كنت سائراً الى قصر فرعون ودخلت عليه لأقدم الهدايا التي أحضرتها معي من تلك الجزيرة وأن فرعون سيشكرنى أمام العظماء »

وآخر قصة نأتى بها هنا يأتي تاريخها بعد سابقاتها فانه منذ ١٥٠٠ سنـة قبل المسيح وجدت فى مصر طائفة من الملوك العسكريين أسسوا دولة عظيمة امتدت من السودان جنوبا الى سوريا شمالا والى الشرق حتى الجزيرة ونهر الفرات وكانت الجزيرة أو « نهارينا » كما دعوها مجهولة لديهم قبل أن يغزوها ولـكنها أصبحت لديهم كما أصبحت أمريكا الشمالية لعصر اليصابات أو أواسط أفريقيا للأجداد أرض العجائب والخيال والقصـة التي سأذكرها تختص « بنهارينا » وقد رواها قدماء المصريين كما يلي :

حكم مصر مرة ملك لا ولد له فكان قلبه حزيناً لأنه لم يرزق مولوداً وصلى الى الآلهة لتجيب أمنيته حتى ولد له على مر الايام غـلام فأتت العرافات لتتنبأ عما سيحدث له ولما رأينه قالوا : « أن آخرته موت بتمساح أو بثعبان أو بكلب» فلما

سمع الملك ذلك حزن على ولده وعزم على وضع الغلام فى مكان بعيداً عن كل أذى فبنى له قصراً جميلا فى الصحراء وذوده بكل حسن جميل وأرسل ابنه اليه يحرسه خدم أمناء ليدفعوا عنه كل أذى وهكذا شب الغلام آمنا فى قصره الصحراوي

ولكن حدث ذات يوم أن الأمير الصغير نظر مرة من سطح قصره فرأى رجلا سائراً فى الصحراء يتبعه كلب فقال لمن معه . « خبرني ما هذا الذي يسير وراء الرجل السائر هناك فى الطريق » .



تتمة

الاستكشافات حول مدفن توت عنخ آمون

نقلا عن أهم المصادر التاريخية الموثوق بها

الآثار العجيبة في مدفن توت عنخ آمون (١)

لخص مكاتب « الديلى كرونيكل » في الاقصر ما وقع في اليومين الماضيين فقال :

« أبلغني ثقة ان الآثار التي وجدت في الغرفة الداخلية وكان لا كتشافها رنة عظيمة في العالم تعد ثانوية بالنسبة إلى الآثار التي وجدت حول مومياء الملك نفسه. وقد تركت القلائد والثياب الموشاة بالذهب ومحتويات الصناديق الملكية والجواهر والمنقبين في حالة تعب وعياء كلما أخرجوها ملء أيديهم ساعة بعد أخرى. والمرجو ان لا يأتي مساء الاربعاء حتى ينجلى السر الخاص برفع اللفائف عن المومياء

نشرت جريدة المورننج بست تلغرافا من مكاتبها في القاهرة جاء فيه ما يأتي:

« اذيعت اليوم أسرار في غاية من الاهمية عن عمر توت عنخ آمون فقد كان المؤرخون غير واثقين من عمره عند ما توفي ولكن كان معروفاً انه مات حديث السن . أما الآن فقد دل فحص قدميه على انه توفى في نحو الخامسة عشر من العمر . وقد وجدت في قدميه نعال موشاة بالذهب تشبه في شكلها النعال التي يلبسها البدو في هذه الايام . ووجدت أعضاء أخرى من جسمه مغطاة بالذهب

(١) عن الاهرام في يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٩٢٥

ولا سيما ركبتاه . ووجدت يداه مطويتين على صدره . ومن فوق صدره جعرانان كبيران من الذهب وعلى جانبيه سيفان بقبضتين من الذهب وريحان ووجد على رأسه تاج رائع من الذهب لم تنزع عنه اللفافة بعد »

توت عنخ آمون

الجثة والنفائس التي معها (١)

لا يزال العمل يجرى في التابوت الثالث الذي يحوي جثمان الملك العظيم توت عنخ آمون والذي نقل الى فناء قبر سيتي الاول

ولما كانت الجثة لاصقة بالتابوت وكان من المتعذر على القائمين بالعمل اخراجها منه أو انتزاعها وكان من المحتم عليهم ان يعمدوا في استخراجها الى الدقة الكبرى فقد اتبعوا طريقة تستغرق وقتاً طويلا إلا أنها تضمن عدم إلحاق أي ضرر بالمومياء وهي ان يقطعوا اللفائف التي حولها بعناية كبرى

ولما كانت هذه اللفائف تحوي في كل لفة منها جواهر ثمينة ونفائس على أعظم درجة من الاهمية وجمال الصنع — فان القائمين بالعمل لايقطعون قطعة من اللفائف إلا ويخرج منها شئ من تلك الكنوز الغالية التي تحير العقول بما ينجلي فيها من رقي عصر ذلك الملك وغناه وهم يتوقعون ان يصلوا اليوم الى أشياء هامة. أما الكشف على الجثة فيقتضى بضع أيام أخرى

توت عنخ آمون (٢)

نشرت وزارة الاشغال عصر الاحد ما يأتي :

في يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ بحضور حضرة صاحب السعادة صالح عنان باشا وكيل وزارة الاشغال العمومية وحضرة صاحب العزة سيد فؤاد الخولي بك

(١) عن السياسة في يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩٢٥
(٢) عن المقطم في يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٥

مدير قنا وجناب المسيو بيير لاكو مدير عام مصلحة الآثار التاريخية وحضرة صاحب العزة الدكتور صالح حمدي بك مدير الصحة بالقومسيون البلدي بالاسكندرية وجناب الدكتور دوجلاس دبوي استاذ علم التشريح بكلية الطب بالجامعة المصرية وجناب المستر الفرد لوكاس الكيميائي بمصلحة الآثار التاريخية وجناب المستر هري برتن من متحف المتروبوليتان بنيويورك وحضرة توفيق بولس افندى كبير مفتشي آثار أقسام الوجه القبلي وحضرة حامد سليمان أفندى السكرتير الفني لسعادة الوكيل وحضرة محمد شعبان افندى الامين المساعد بالمتحف المصرى قام جناب الدكتور هيوارد كارتر بفحص جثة (مومياء) الملك توت عنخ آمون

وقد تم فحص الجثة وهي فى التابوت حيث لم يمكن اخراجها منه بدون الحاق أذى بها ولما كان الجزء الخارجي للفائف فى حالة سريعة العطب جداً قد صار تقوية هذه اللفائف بأن وضعت عليها طبقة خفيفة من الشمع (البرافين) وبعد ذلك قام جناب الاستاذ دبوي بعمل شق طولي يمتد من القناع الى القدمين

وبعد رفع الغلاف الخارجي ظهرت طبقة أخرى من اللفائف كانت أيضاً مفحمة (مكربنة) وفي حالة اضمحلال . وفي هذه الحالة كان فك الاربطة بطريقة منتظمة مستحيلا بكل تأكيد

وفي أثناء العمل ظهر على التوالي عدد كبير من الاشياء المهمة الجميلة وكلما تقدم العمل شيئاً فشيئاً كانت تؤخذ مذكرات كتابية وصور شمسية ومن ضمن الاشياء التي ظهرت ويمكن اعتبارها من أهم ما وجد الاشياء الآتي بيانها — عقود من تمائم — خنجر جميل من الذهب بيده من البلاور — معاصم (أساور) ذات صنع دقيق — عدد عظيم من الخواتم من معادن مختلفة مركب بعضها على بعض منها جعارين مكتوب عليها أسماء الملك — خنجر ثان أجمل من الاول — جملة صدريات مرصعة ـ حليات من الخرز المشبك ـ أطواق من الذهب ـ الى آخره

ولغاية الآن (ظهر يوم ١٣ نوفمبر) لم يتقدم عمل نزع اللفائف الا لدرجة أظهرت الجزء الاسفل من الجسم والسيقان

وقد ظهر للان من الوجهة التشريحية أن هـذه الجثة هي جثة ذكر مراهق (لان هيكله العظمى يدل على ان نموه الطبيعي لم يكمل بعد)

وكان الجسم في حالة هزال عظيم ومفحما (مكربناً) وفي القـدمين حذاء (صندل) من الذهب وفي كل ابهام من القدمين وكذا في كل أصبع غطاء من الذهب . ولم تظهر الآن آثار استندات كتابية وكلا الساعدين محمل بجواهر نفيسة والمصوغات التى اكتشفت على جثة الملك الراقـد في تابوته الذي هو من الذهب الصب تفوق بكثير كل ما كان يمكن تصوره

والعـمل الذى لا يزال جارياً على جانب عظيم من الدقة لدرجة انه لا يمكن السير فيه إلا بكل بطء

وتنظيف وترميم هذه الاشياء البديعة سيبدأ في الحال بعد اتمام فحص الجثة ولهذا السبب ولكي يمكن نقل هذه الاشـياء الى المتحف المصرى لعرضها فيه في القريب العاجـل ستمنع بتاتاً كل زيارة سواء كانت للمقبرة أو لمعـمل التنظيف والترميم حتى يتم العمل

كنوز توت عنخ آمون[1]

نشرت جريدة « الديلي كرونيكل » تلغرافا من مكاتبها فى الاقصر قال فيه مايلي :

« يتضمن البلاغ الرسمي خلاصة عن فحص مومياء الملك توت عنخ آمون حتى ظهر يوم الجمعة . وقد اكتشف تاج الملك وهذا التاج من أعجب الآثار التى وجدت بل ربما عد أعظم أثر يدل على المهارة الفنية بين العاديات القديمة كلها ولم يذكر البلاغ الرسمي الذى صدر في شهر اكتوبر ان التابوت من الذهب الخالص . فقد ظل وادى الملوك ألوفاً من السـنين قفراً موحشاً وأغارت عليه عصابات الصحراء ، يقول البلاغ الاخير انه لم توجد أوراق الى الآن وهذا القول يناقض ماعلم

(١) عن الاهرام في يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٥

عنه ان المستر كارتر وجـد كتاباً عن الموتى ولـكن ربما وجده في أحد التوابيت الخارجية لا في التابوت الداخلي

في وادي الملوك[1]

مقبرة توت عنخ آمون

أذاعت وزارة الاشغال أمس الظهر بلاغها الثانى عن مقبرة الملك توت عنخ آمون وهذه صورته :

لقد استمر فحص الجثة يومى ١٤ و ١٥ نوفمبر الجارى وظهرت جمـلة تمائم ومصوغات ووجدت مايقرب من ست عشره طبقة منها على بعض أعضاء الجسم

ومن الاشياء المهمة التي اكتشفت مجموعتان من خواتم الاصابع ويبلغ عددها ثلاث عشرة قطعة ونحو العشرين معصما وكان الصـدر كله مغطى بصدريات من ذهب مرصعة ترصيعاً بديعاً اثنتان منها احـداهما على شكل نمر الوجـه القبلى (نخبيت) والآخر على شكل ثعبان الوجه البحرى (بوتو) وتحت هذه وجدت صدريات أخرى أصغر من الاولى ولكن أجمـل منها ذات شغل معقد بعض منها ذات شكل جعارين مجنحة وعيون مقدسة وآخر يمثل نسراً طائراً ذا شكل عجيب وهو نموذج فني لأدق صياغة الذهب وهـذا النسر مرصع بأحجار من اللازورد ومن العقيق الاحمر ويمثل بصناعته الدقيقة فن الصياغة في عهد الممالك الوسطى

وتبين بطريقـة واضحة كفاية لـكل من جناب الدكتور ربوي وحضرة صاحب العزة الدكتور صالح حمـدي بك ان جسم الملك الذي هو في حالة حفظ رديئة جداً هو جسم رجل لا يتجاوز من العمر ثمانى عشرة سنة

ولم يتم أحد فحص رأس الملك التي لاتزال للآن مغطاة بقناعها الذهبى ولكن هذا الفحص يمكن القيام به في القريب العاجل ويرجى بناء على ملاحظة عملت ان الرأس الذي يصونه القناع يكون في حالة حفظ أحسن من باقي الجسم

(١) عن الاهرام في يوم ١٨ نوفمبر ١٩٢٥

ومن المتفق عليه بالاجماع انه ليست فقط النتائج التي صار الحصول عليها للآن هى على غاية من العجب بل ان الاشياء التي وجدت على الجسم تشهد بالدقة العظمى في صناعة صياغة الذهب في الاسرة الثامنة عشرة وتعطي معلومات جديدة عن الديانة

كنوز مدهشة (١)

في مقبرة توت عنخ آمن

أبلغتنا وزارة الاشغال ما يأتي :

لقد استغرقت عملية فك أربطة الجثة الملكية سبعة أيام وقد انتهت الآن ان أشعة اكس التى كان ينتظر ان تسهل الفحص لم يمكن استعمالها لسوء الحظ لانه لم يتيسر انتزاع الجثة من التابوت الذهبي الذى التصقت الجثة به بشدة بواسطة مادة تشبه القار البالغ سمكها في بعض الاجزاء عدة سنتيمترات وهذه المادة والذهب المصنوع منه التابوت بلغا من السمك ما يكفى لمنع تأثير أشعة اكس

وأربطة الجثة (المومياء) كانت مفحمة (مكربنة) ومفتتة ولما كانت هذه الاربطة سميكة جداً فقد يستغرق فكها وقتاً طويلا ورغما عن هذه الصعوبات فان الاشياء التي اكتشفت وضعت عليها الارقام بالتسلسل وصار تسجيلها وأخذت صور شمسية منها وجميع هذه الاشياء تكون اذن مجموعة فريدة في بابها من المستندات المتعلقة بالطقوس الجنائزية لاحد الفراعنة

والاشياء المذكورة يمكن ترتيبها الى ثلاثة أقسام ـ التمائم ـ والزخارف الملكية ـ والحلي الشخصية وبذا يمكن اعادة ترتيب الحلية الملكية بأكملها لاحد ملوك مصر

والذوق السليم الذي تشهد به دقة صناعة هذه الاشياء يجعلها في مصاف أجمل القطع المعروفة للآن من صياغة الذهب المصرية وأهمها هى الآتي بيانها

على الرأس ـ التاج الملكي وعليه شعار الملك وهو النسر والثعبان المقدس

(١) عن المقطم في يوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٥

حول العنق ـ تمائم تمثل الآلهة

على الصدر ـ عدد كبير من الصدريات ما بين كبيرة وصغيرة الحجم يتخللها تمائم مختلفة جميع ذلك مكون من ست عشرة طبقة وبعض هذه الصدريات تحتوي على مئات كثيرة من قطاعات الذهب المصطنعة بالفصوص والتي يتعين فكها جميعها وتنظيفها ثم اعادة تركيبها

على الذراعين ـ احد عشر سواراً نفيساً بالقرب من اليدين ـ ثلاثة عشر خاتماً صباً من جملة معادن مختلفة

حول الوسط ـ حزامان معلق على كل منهما خنجر ذو صنع جميل

ما بين الساقين ـ المئزر الملكي المصنوع من الذهب المرصع

في القدمين ـ حذاء صندل جنائزى من الذهب وكل ابهام من القدمين وكذا كل أصبع من أصابع اليدين طمس بغمد من الذهب وخلاف الاشياء السالفة الذكر قد صار اكتشاف عدد كبير من التمائم التي كانت مخصصة للمحافظة على الملك في رحلته الى العالم الآخر

ولم يكتشف أي مستند كتابي

والقناع الذهبي الذي يغطى الرأس وكتفى الجثة ذو قيمة عظيمة من الوجهة الفنية ويمثل تماماً صورة الملك الشاب

ولقد شرع حالا في ترميم هذه الاشياء وسيواصل العمل بأسرع ما يمكن حتى يتسنى في القريب العاجل نقلها لعرضها بالمتحف المصرى في القاهرة

وستستدعى طبعاً اعادة بعض هذه الاشياء لحالتها الاولى وقتاً طويلا فان منها ما يستغرق ترميمه عدة أسابيع

***

عند ما شوهدت جثة الملك لاول مرة وجد انها ملتصقة بشدة بقاع التابوت الذهبي بمادة جافة تشبه القار وهي التي استعملت لتطهير الجثة

وكان القناع الذى يصل الى الجزء العلوى يبلغ الصدر ملتصقاً أيضاً بالتابوت

وبالجثة (المومياء) ولهذا السبب كان يستحيل انتزاع الجثة

ولقد نظر فى استعمال أشعة (اكس) الا انه للاسباب التي ابديناها سابقاً ووجود طبقات عديدة من أشياء من ذهب وصيني وخلافه التي كانت تغطي الجثة تماماً لغاية الركبتين رؤي من العبث استعمال هذه الاشعة

وقد لوحظ ان شبه احتراق فجائي أتلف الاربطة وكان سبباً فى ان جلد الجسم والانسجة التى تليه أصبحت رقيقة جداً وسريعة العطب ونتج عن ذلك ان بعض المفاصل كانت ظاهرة للعيان فتيسر تقدير عمر الملك عند وفاته بأرجحية كبرى بحوالى ثمانى عشرة سنة وظهر بكل تأكيد ان هيكله العظمى كان ضعيفاً

وعند ما ظهرت تقاطيع الوجه ثبتت صحة الرأي السائد القائل ان التماثيل والرسوم التي تمثل الملك كانت في الواقع صوراً حقيقية له

الامضاء (الدكتور صالح حمدي)

الامضاء (الدكتور دوجالاس دري)

توت عنخ آمون (١)

صيده وكلاب صيده — بقلم المستر هوارد كارتر

كلما أزاح اكتشاف أثري الستار عن آثار عهد غابر ، وعن الاحياء البشرية التي طواها ذلك العهد اتجه نظرنا بطبيعته الى ما نؤثره بعطفنا من الاشياء التي يزيح هذا الاكتشاف عنها الستار . وهذه الأشياء بشرية فيما يعنينا منها . فلرب زهرة لوتس ذابلة ، ولرب رمز حنان رقيق ، ولرب مظهر بسيط من مظاهر الحياة المنزلية تعيد الينا الماضي من ناحيته الانسانية أشد ضياء مما نستشف من صحف التقى ومن النقوش الرسمية المفخمة التي تفخر بأن « ملك ملوك » غامض السيرة قد سحق أعداءه وأذل عزتهم

---

(١) عن السياسة في ٢٩ ـ ١١ ـ ٢٥ ترجمة محمد عبد الله عنان المحامي

وذلك حق الى حد ما بالنسبة لاكتشاف قبر توت عنخ آمن . فلسنا نعرف سوى النزر اليسير عن هـذا الملك الغلام ، لكنا نستطيع الآن أن نكون عن أذواقه وميوله بعضا من الفروض الحصيفة . ونكاد لانحقق لهذا الملك الفنى صورة واضحة من حياته كواسطة اتصال كهنوتية تحمل نفوذ الآلهة الى عالم طيبة ، ولا كممثل على الارض لرغ آله الشمس العظيم . اما كمشغوف بالصيد ، وكمولع بالرياضة ففي مقدورنا أن نحقق منه صورة يسير علينا ادراكها ومحبتها . وهنا يبدو لنا « سر الطبيعة الذي يجعل من العالم أسرة واحدة »

ونحسب ان حكمه وحياته القصيرين كانا من الوجهة السياسية فترة ولا ريب فياضة بالاضطراب . ولعـله كان آلة في قبضة قوات سياسية خفية تعمل وراء العرش . وهذا فرض معقول نرجحه على الاقل الى ماالدينا من المعلومات اليسيرة

وقد كان نسبه عظيما بالمصاهرة ان لم يكن بالمولد ، فقد كان زوجا لابنة امنحتب الرابع المشهور لدينا باسم «آخ آن آتن» والذي الغى عبادة آمن وهجر طيبة ثم أسس مدينة آخت آتن التي يعرفها الغربيون « بالعمارنة» حيث اختار سهلا شاسعا على ضفة النيل الشرقية يقع على مسافة مائة وتسعين ميلا جنوب القاهرة أسس فيـه عبادة آتن — أشعة الشمس الوضاءة التي تهب الحياة ، وهو دين وفن واخلاق جديدة

ولكن الصهر توت عنخ آمون — أو بالحري توت عنخ آتن كما كان يسمى قبل أن يعتنق عبادة آمن (وربما اعتنقها على كره منه) — لم يكن من دم ملكى على الأغلب ولعله كان ولدا لاحد النبلاء بل احد العامة ، ولعله كان غريبا عن طيبة — غريبا عن المدينة وعن تقاليدها . وربما كان قد ولد في العمارنة ثم انتقل حين اعتنق دين آمن الى طيبة ، اما ان كان لنا أن نتخذ من تسميته في اسم آمن «هيك اون شيما» أى « أمير (اون) بمصر العليا » دليلا على منبته كان اذن من اشراف «هرمونتس » أو ارمنت ، وهى القاعدة الجنوبية لاله الشمس القريب من طيبة .

ونحن نعرف انه قد تزوج من الابنة الثالثة لآخن آتن وهى « آنخ ايس ان باتن » واضحى بهـذا الزواج طبقا لقانون الوراثة المصري القديم مرشحا لوراثة العرش . ولئن كنا نجهل سبب هـذا الزواج فانا نستشف باعثه السياسي . وقد زوج « آخن آتن » كبرى بناته من « سمنخ كارا » الذي ظفرنا بالدليل القاطع على اشتراكه في الملك ، ولعل توت عنخ آمن قد خلف بمقتضى زواجه « سمنخ كارا » كشريك في الملك واقام في طيبة قبل ارتقائه العرش لكى يغنم « لاخن آتن» نصيرا لدين «اتن»في عاصمة «آمن»، ولعله اضطر لاسباب سياسية ولكى ينقذ عرشه بعد وفاة «آخن آمن» أن يقر سيادة آمن،وان يغير معنى اسمه واسم زوجه الديني — من اتن الى آمن — وان يستقر في طيبة

وليس شك فى أن مسألة الاشتراك فى الملك ماتزال غير واضحة ؛ ولـكن المرء اذا وقف في قبر توت عنخ آمن ، وتأمل المنظر المسطور فوق جدرانه حيث مثل الملك « آى » أمام توت عنخ آمن المتوفي وحيث قرنت فوق أثاث الجنازة اسماء « سمنخ كارا » والقابه (وهو سلف توت عنخ آمن) باسماء آخن أتن والقابه ، تسرب الى اعتقاده ان فرع اسرة طيبة الملكية في العمارنة قد مثل بسلسلة من شركاء في الملك متوالين ، ونهض الدليل شيئا فشيئا على أنه توت عنخ آمن وزوجته الصبية الملكة « آنخ ايس ان آمن » لم يكونا سوى طفلين وآلتين فى يد القوى التي تعمل وراء العرش . وان الدسائس السياسية التي تتعاقب على التاريخ هى واحدة في جميع العصور ، ومن المرجح ان الذين كان بيدهم تصريف الامور اتخذوا من الفتى توت عنخ آمن ممثل الاله الأعظم على الارض وسيلة لتحقيق أغراضهم :

دفن توت عنخ آمن عملا بالدين الذى اعتنقه او حمل على اعتناقه في مدينة طيبة وحفر قبره طبقا لتقاليد طيبة فى مرتفعات وادى قبور الملوك . فخلفه الملك « اى » كبير امنائه الذى كان يلقب نفسه «بالاب الالهى» والذى كان بلا ريب قرينه فى الملك ولو لمدة قصيرة كما نستنتج ذلك من النقوش المسطورة فى غرفة قبر توت

عنخ آمن ، ثم تغلب قائد توت عنخ آمن حور محب على «آى» واستولى على العرش واسس الاسرة التاسعة عشرة الشهيرة المعروفة بالاسرة الرمسيسية

ومهما يكن توث عنخ آمن آلة فى قبضة الحركة السياسية الدينية ، ومهما يكن للملك الصبى من النفوذ السياسي الصحيح ، ومهما تكن مشاعره الدينية الخالصة — وهذا أمر يجب أن يبقي مشكوكا فيه — فانا نتبين الشيء الكثير عن أذواقه وميوله من المناظر العديدة التي نقشت فوق أثاث قبره ، وفيها نجد اسطع الرموز المعربة عن حب الملك للملكة الفتاة ، والدليل على ولعه بالرياضة ، وشغفه بتسلية الملوك انفسهم بالصيد شغفا يستثير منا أشد العطف عليه بعد مرور زهاء ثلاثة آلاف وثلاثمائة عام

وهل شيء يسحر النفس ماتسحرها تلك الصورة على عرش الملك نقشت نقشا آخذا بالالباب. ان لحظة تشهدها فيها لحظة تسمو بنا فوق هاوية العصور وتمحو الشعور بمر الزمن . فهذه آنخ ايس ان آمن الملكة الصبية الساحرة تمس بالعطر طوقه وتتم له زينته قبل ان يشهد احدى حفلات القصر الكبرى . وكيف ننسى باقة الزهر الصغيرة مازالت تحتفظ بلمحة من لونها » لون اللوتس الازرق والاصفر ، وضعت على جبين تمثال الملك الشاب لما رقد في أووس من الحجر البلوري تحية للوداع الاخير

وثمت من المناظر الاخرى ماينم عن شيء من الفكاهة . فبين القصص التي صورت عن الحياة اليومية للملك والملكة صورة نقشت على ناووس ذهبي صغير تمثل توت عنخ آمن والى جانبه شبله يصيد البط بقوس ونشاب وقد جلست الملكة الفتاة القرفصاء الى جانبه وهى تناوله باحدى يديها نشابا ، وتشير له بالاخرى الى بطة سمينة . ذلك منظر ساحر فياض برقة نزعم أنها خاصة بعصرنا الحاضر

وقد وجدت مروحة ذهبية من مثل مايرى مصورا في العصور الرومانية ، ومما يستعمل مثله اليوم في قصر الفاتيكان ، على أحد وجهيها صورة بديعة لتوت عنخ آمن وهو يصيد نعامة ، وعلى وجهها الآخر صورته وهو عائد الى قصره وحشمه

من ورائه يحملون فرائس الصيد

وانت ترى مناظر الرياضة في كل موطن فترى صورة الملك على طقم جواد عربة وهو يمارس اطلاق السهام . ويظهر انه كان كبعض ملوكنا الاقدمين في الشغف بالرماية . ودليـل براعته في هذا الفن ان قد وجد في قبره بين أدوات الصيد قوس بديع مغطى بقشرة ذهبية مزين بوشي دقيق من الذهب ، مرصع باحجار شبه كريمة وزجاج ملون قدم اليـه اعترافا بهذا التفوق ، كما وجدت في صندوق طويل في مدخل المقصورة عدة اقواس مختلفة صنعت بادق اسلوب ، اقواس مجزعة وسهام بديعة الطراز

وكان توت عنخ آمن ولوعا بالحيوانات ايضا ، فقد زينت حتى اقمصته وهى من النسيج المزركش ، وغيرها من ملابس جنازة بصور الطيور ووحوش البيداء ، ورسمت كلابه السلوقية المحبوبة في المناظر التي شدما تنم عن شغفه بالرياضة الخلوية وحياة الهواء الطلق

ولنحد قليـلا عن جادة موضوعنا فنقول ان المباحث الاثرية في مصر التي زادت في معارفنا من نواح شتى ، تلقي ضياء هاما على تطور كلب الصيد سـواء من مناظر الصيد الدقيقة التي نقشت على أثاث الجنازة ، وفي غرفة القبر والهيكل ، أو من بقايا الموميات التي وصلت الينا . فما زالت ذرية هذا النوع من كلاب الصيد الكلب السلوقي — توجد في بلاد العرب وسوريا والعراق وفارس ، وكذلك في الحبشة وفي مصر حيث جاء على الأرجح مع الجواد اثناء غزوة الرعاة (الهكسوس) ما بين سـنة ١٧٠٠ و ١٥٨٠ ق . م . ومع ذلك فانا نجد في عصر الاقطاع ، أى قبل العصر الذي نتحدث عنه بنحو الفى سنة نقوشا فوق قبور بني حسن الصخرية تمثل انواعا من كلاب الصيد التي قد تنسب الى النوع السلوقي النوبي لولا آذانها المرهفة . ولعلها أسلاف كلاب الصيد الحاضرة . والكلاب السلوقية كلاب صيد ظريفة الشكل آية في نبالة المظهر ، ذات آذان مرخيـة ناعمة الشـعر ، وأذناب وأفخاذ ناعمة الشعر ، وخواصر مرنة ، وصدور عريضة ، وسيقان طويلة دقيقة شد

ماتصلح لمهنة الصيد ، ويسميها العرب «الكلاب السلوقية» أو السلوجية (والمؤنث سلاقية أو سلاجيـة) نسبة الى سلوق من أعمال اليمن ، وهي مازالت تستعمل في بلاد العرب ومصر في صيد الغزال لاسيما مع الصقر الذي يدهم الفريسة بأجنحته بينما تحوطها السلوقية وتصرعها . وكان البدو والمصريون القدماء يعلقون أهمية كبيرة على نسب كلاب الصيد حينما كان نقاء الذرية والمنبت أمرا يعني بشأنه اشد عناية . ويجدر بنا هنا أن نرجع الى صحائف «دتى» الحافلة في كتابه «صحراء العرب» فقد قال في حديثه عن العرب المحدثين مايأتي « رغم ماتبديه الكلاب من الغيرة فانها لاتجزي بكلمة خير » فهي المخلوق الوحيد الذي لايعطف عليه العربي الوديع في بيته بل يدفع بهاته المخلوقات النجسة بالوخز والضرب الى خارج البيت ولا يلمس الا الرضيع منها واذا مااعتاد الكلب السرقة واختلاس الطعام فانه يطارد أشد مطاردة ويضرب الضرب المبرح ، ويحلف الرجل اليمين المغلظة « بان هذا الكلب سوف يموت وانه يستحق الموت » وهذا مما يجعل هذا المخلوق الطفيلي في تلك البلاد أشد ذلة أمام سيده ولايسمح لغير الكلب السلوقي البدوي ان ينام في الخباء لاعتبار انه من أصل نبيل »

ولكن قدماء المصريين خلافا للعرب كانوا خلال تاريخهم الطويل يحبون جميع الحيوانات حبا جما وكانوا يلهون بها ، بل كانوا يعنون بدفنها عنايتهم بدفن أنفسهم، ومن ذلك ان انتيف الأول انشأ في قبره في طيبة قبل الميلاد بنحو الف وستمائة سنة عريشة لكلابه المحبوبة التي كان أحدها يسمى بيخا ، كذلك نجد في مدفن الوزير الاكبر رخمارا وزير الفرعون العظيم توتميس الثالث مايدل على ان الكلاب السلوقية مما اشترط اداؤه في الجزية التي فرضت لمصر على الاجانب ، ووجدت اطواق جلدية بديعة لهاته الكلاب في قبر ميرهابري حامل مراوح الملك امنهوتب

وفي وادي الملوك القفر ذي الجلال الرهيب ، ذلك الوادي الذي تثير ذكرياته العميقة مالا تثيره في النفس أية بقعة من بقاع الأرض ، والذي لايقطع سكينته الا ماقد يكون من عواء ابن آوى أو نبـاح الثعلب ، أو انين بومة الصحراء

الكثيب وجد قبر خرب مملوء بموميات القرود المقدسة ـ وهى قرود كانت تصلى للشمس الآله ـ « الآله العظيم ، خالق العالم الوحيد ومدبر شئونه ،والذي يسيطر على جميع الأشياء حين يخترق السماء فيقاربه » ووجدت مع هذه القرود في عزلة محزنة مومياء كلب سلوقي قد جردها لصوص القبور من جهازها ولا ريب انها جثة كلب ملكى دفن بالقرب من سيده

وكانت مناظر الصيد نقوشا محبوبة ترسم في المدافن بل في المعابد ولدينا منها مثل حسن في صورة نقشت في مدفن في طيبة الغربية مثل فيها صياد عائد من الصيد وفي مقوده كلبان سلوقيان وعلى كتفه وعل صاداه

ويجب ان ندحض القول بان المصريين القدماء وحكامهم كانوا شعبا رخوا مشغوفا بالترف على ماجاء في بعض أقوال محتقرة لكتاب يونانيين ورومانيين . كان المصريون في الواقع ولعين بالرياضة الشاقة ولا سيما الصيد ، بل كان الصيد مرموقا بالاجلال حتى ان حكامهم كثيرا مامثلوا في صورة صيادين ذوى براعة ، وكان مما يطمح فيه في مصر على مايظهر ان يبدو المرء « نمروذا » كذلك يجب ان نذكر انه كانت لدى المصريين حظائر شاسعة تحفظ فيها حيوانات الصيد ، وما زالت آثار جدران حجرية لحظيرة من هذه الحظائر باقية في طيبة الغربية في الوادي الشمالي . وكانت الاختام الملكية والرسمية والشخصية توسم بمناظر الصيد وفي حكم امنهتب الثالث سكت أختام تاريخية على شكل الجعارين ليسجل عليها « عدد الاسود التي حملها جلالته من صيده الخاص مبتدئة من السنة الاولى ومنتهية في السنة العاشرة : اسود متوحشة عددها ١٠٨ »

وسك فوق ختم آخر فى نفس هذا العهد ماياتي : « حدث لجلالته أمر عجيب فقد وفد رسول يقول ان دواب متوحشة توجد فى الصحراء في منطقة شتيب ، فاجتاز جلالته النهر فى قاربه « المنير فى الحقيقة » فى هذا الوقت من المساء ، وبعد أن قطع مرحلة طويلة وصل سالما الى منطقة شتيب عند ملاح الصباح ؛ وكان جلالته يقتعد غارب جواد ومن ورائه كامل جيشه وقد نظم النبلاء

والضباط الى صفوف متعاقبة ، وأمر غلمان المكان بمراقبة هذه الدواب المتوحشة ثم أمر جلالته أن تحاط هذه الدواب المتوحشة بشباك وسدود ، وأمر بعد ذلك أن تحصى هذه الدواب المتوحشة فبلغ عددها مائة وتسعين دابة متوحشة ، وبلغ عدد الدواب المتوحشة التي حملها جلالته من صيده في هذا اليوم ستا وخمسين . ثم ارتاح جلالته أربعة أيام لينعش جياده ، ثم امتطى جلالته جوادا وبلغ عدد الدواب المتوحشة التي حملت الى جلالته من الصيد اربعين دابة متوحشة فبلغ مجموع الدواب المتوحشة بذلك ستا وتسعين

وقد قال بعض المصنفين ان توت عنخ آمن كان أميرا صغيرا من بيت أمينهتب الثالث . ولكن ليس ثمة من دليل على ذلك ، بل ليس هذا من المحتمل غير أنه يلوح أن توت عنخ آمن كاسلافه قد ورث الشغف بالرياضة . وانك لتجد كلابه السلوقية المحبوبة واضحة جدا في الموضوعات المتكررة المتعلقة بمناظر الصيد التي وجدت فى قبره . وكان سواد مستنقعات مصر في هذا العهد يحتوي كميات كبيرة من الصيد . وكان الصيد يكثر أيضا فى اطرافها الصحراوية وكذلك فى ادغال الوديان المقفرة وكان الملك يصيد في المستنقعات كل أنواع الطيور البرية وكانت حظائر شاسعة فى الصحراء تمد الملك الصياد بميادين مختلفة ليبدي فيها براعته فكان يصيد في عربته الصغيرة ومن ورائه حاشيته في العربات ثم اتباعه وحشمه راجلين . وكانت العادة أن تودع في هذه الحظائر كل أنواع الصيد الممكن جلبها . وكان الملك يستعمل أثناء الصيد القوس والسهم ثم تطلق كلابه السلوقية على الفريسة متى لاحت

ولدينا على هذا الشغف بالرياضة . الذي يتجلى في مناظر الصيد هذه . دليل ساطع في صورة قوية بديعة وجدت حين افساح مدخل القبر رسمها بلا ريب أحد الفنانين الذين استخدموا في صنع قبر الملك الفتى . وقد نقشت فوق طبقة رقيقة من اللازورد وهى تمثل الملك الشاب يذبح بحربته أسداً بمعاونة كلابه السلوقية . واذا استطاع فنان عادى أن يخرج مثل هذا النقش القوى الغريب فان لنا بالطبع

أن يتوقع اخراج بدائع الفن من مهرة الفنانين الذين كان يستخدمهم حكام مصر . وقد كانوا على ما يظهر وعلى العموم رجالا أولى براعة فنية . وهاهى النفائس التي وجدت فى قبر توت عنخ آمن توضح الى أي أحد عظيم كانت هذه البراعة . ومن أنفس ماوجد من الذخائر الفنية صندوق خشبي منقوش . واجهته الخارجية مغطاة بطبقة من الحجر المسمى (Gesso) وفوق هذه القشرة المهيأة نقشت عدة رسوم بديعة الصنع والتلوين وقد حفرت على غطائه مناظر صيد ، ونقشت على جوانبه مناظر حرب ترى فيها توت عنخ آمون وحاشيته يعملون بمنتهى الحماسة وتجد فى أطرافه صوراً للملك فى شكل الاسد يطأ بقدميه أعداءه من الاجانب . كل ذلك ببراعة وخيال وقوة تمثيل خارقة لا نظير لها . وفى مناظر الحرب تجد الملك الشاب الظافر يسحق بقدمه أعداءه الافريقيين والامويين بفرح شديد . بيد انك تجد روح الغرور ظاهرة فى هذه المناظر رغم ابداعها . تجد الملك القوى ولم يعد لهذه الغاية شابا نحيفا يصرع أعداءه من عربته مئات . وقد ساد الرعب امامه . وتكدس القتلى عند قدميه . ولا ريب ان تصوير ملوك مصر على هذا النحو أمر تقليدى . ولعله فى حالة ملكنا الشاب لم يكن إلا اعرابا عاديا عن الاجلال من جانب مصور البلاط أما انه كان يقود الجيش بنفسه خصوصا في هذا السن فأمر غير محتمل . ولكن الملوك والفاتحين في العالم الشرقى القديم كانوا شديدى الاعضاء عن مثل هذه التخيلات الظريفة

بيد انه اذا كان ثمة شك في صحة ما يعبر عنه هذا الصنع البديع من الوجهة التاريخية . فانه ليس ثمة من خلاف بالنسبة لبراعته . والوصف لا يعطى سوى لمحة من الدقة الساحرة التي تتجلى في النقوش الصغيرة التى رسمت على الصندوق . بل انها لتذكرنا ببراعة بنوتسو جوتسولى أحد أقطاب المدرسة الفلورنتية في القرن الخامس عشر أكثر مما تذكرنا بذلك الاستاذ المصرى القديم الذى يرجع الفضل اليه في انها تفوق في الاتقان أي نقش آخر من نوعها وجد في مصر

وهذه المناظر مختلفة متنوعة فيما تمثل ولكن توت عنخ آمن يبدو فيها جميعا

والى جانبه كلابه السلوقية . بل انك لتراها في صور الحرب تثب وتمزق العدو المغلوب . هذا وتتجلى في النقوش التى رسمت على غطاء الصندوق المقبى روح غريبة . ففيها ترى مناظر صيد تفيض بمعانى السرعة والنشاط

ترى الملك في عربته التي تجرها جياد متحفزة . رائعة فى وثباتها وهو يطارد وحوش الصحراء . وأمامه تفر الوعول والنعام والحمر الوحشية والضباع وكل ضواري الصحراء بما فيها الآساد ذكوراً واناثا . وترى بين أشباح الحيوانات الطائرة وبين أقدام حشمه صوراً بديعة للشجيرات والاعشاب التى تنبت في الوادي . ثم ترى توت عنخ آمن ومن حوله كلابه السلوقية ومن ورائه حشمه على بعد مناسب . وهو يثب مرعداً الى بطن الوادى . والفرائس المذعورة تفر أمامه من كل صوب . وهذه الصور ملأى بالحياة . بل هي فى الواقع مثل أعلى لمناظر الصيد اقتنصت فيها روح الصيد ومثلت على أكمل نحو . ولا بد أن الصانع بما تجلى من ضبطه للابعاد والخطوط . وتقديره للتفاصيل التي نراها ماثلة فى الازهار والآساد واتقان خبب الخيل — لا بد أنه كان فنانا ذا مواهب ومعارف نادرة . فقد صورت الحيوانات المحتضرة أدق تصوير . بل ان هناك مواقف ـ فى جماعة الآساد المصيدة مثلا ـ يصل فيها الفنان الى قوة تكاد تكون محزنة . فقد أخرجت الحيوانات المحتضرة التي اخترقتها السهام بقوة رائعة . وقد طعن أحدها ـ وهو ملكها الاسد ـ فى قلبه فوثب فى الهواء وثبة المحتضر . ثم هوى الى الارض صعقا . ومد أسد آخر مخلبه لينتزع سهما دخل فى فيه المفتوح . وعلق مكسوراً بأنيابه . وأما الشبل الناشئ فتراه ينسل هارباً وذيله بين ساقيه . بينما ترى رفاقه الجرحى تئن وقد تمددت فى أوضاع مؤسية . بيد أن الكلب السلوقى كان حتى فى ذلك الحين أضعف من أن يقتل فريسته وحيداً . وقد مثلت خواصه وشجاعته فى هذه

المناظر باتقان ساحر . فبينما ترى فى أحد المناظر أن الكلاب السلوقية لم تتردد فى أن تهاجم أسداً جريحاً . أو نلاحظ أنها حين تطارد وعلا أو حماراً وحشياً تجعل مهمتها أن تطاول الفريسة حتى يصل السيد ويصرعها بسهم صائب

وهكذا تكشف لنا فأس المنقب خطوة فخطوة . فى فروع مختلفة من المباحث الاثرية عوالم الماضي . وكلما تقدمت معارفنا كلما اشتد بنا العجب ــ وربما الاسف ــ من أن الطبيعة البشرية لم تتغير إلا بهذه النسبة الضئيلة خلال بضعة آلاف السنين التي استطعنا أن نلم بشيء من تاريخها . وانا لنتجه بأنظارنا خاصة الى مصر الغابرة التي قدمت الينا مثل هذه اللمحات الباهرة عن ماضيها الرائع فنرى فوق صندوق منقوش أو كرسي مزخرف أو ذخيرة مقدسة أو قبر أو مدفن أو جدار معبد حياتها الغابرة تمر امامنا فى صور عجيبة مؤثرة . ان ميول عالمنا وميول مصر الغابرة تتلاقى فى مواضع عدة . بيد أن فنونها هى أشد ما يقربها من عواطفنا وأدعى ما يحملنا على ان نرى فى الرياضى . ومحب الكلاب . والزوج الفتى والزوجة النحيلة مخلوقات تكاد تماثلنا فى الذوق البشري وفى التأثر والعطف

وكذلك نرى انه يجب ألا نبالغ فى تقدير الحاضر . وأن عالمنا الحديث يغدو أقل مرحا وأكثر تجهماً . بل انا لنحمل على الاعتقاد بان المباحث الاثرية لم تتقدم إلا قليلا فى الكشف عن بعض الخواص التي غدت فطرية فى الانسان فى هاتيك العصور الحالكة . فهنالك رجعات ساطعة الى أصل الجنس لانكاد نشعر بجدونها . ولعل هذه الرجعات هي التي تثير عطفنا على توت عنخ آمن الفتى وعلى ملكته وعلى كل ضروب الحياة الماثلة فى أثاث جنازه . كذلك لعل هذه الغرائز هي التي تجعلنا نشغف بان نكشف خفايا هذه الدسائس السياسية السوداء التى ربما كانت تعصف بمخيلته حتى أثناء ان كان يتبع كلابه السلوقية خلال المستنقع والصحراء أو يصيد البط بين الغاب مع زوجه الطروب . ان مكنونات

حياته مازالت تفر أمامنا . وان الاشباح تغـدو وتروح ولكن القناع الحالك لم يرفع الا قليلا . هذا وانا لا يسعنا اذاما فكرنا فيه إلا أن نكرر الدعوة التي نقشت على قدحه والتي ربما نقشتها ملكته

« فليعش روحك . وليطل بقاؤك آلاف آلاف السنين . أنت عاشق طيبة الجالس ووجهه الى ريح الشمال . وعيناه تنعمان بالسعادة »

(ترجمها محمد عبد الله عنان)



الكتاب الخامس

كتب

وشؤون قدماء المصريين

الفصل الاول

كتب قدماء المصريين

ان لم يكن المصريون هم أول من دونوا أفكارهم بالكتابة وبتصنيف الكتب فهم على الأقل بين أولئك الذين لهم شرف الأولية فى هذا المضمار ومن بين أقدم مؤلفاتهم كتاب مملوء بنصائح وحكم والد الى ولده وربما كان هذا الكتاب أقدم مؤلفات الأرض . .

ونحن مدينون لهم بكلمتين هما أكثر كلماتنا استعمالا وانتشارا وهما كلمتا التوراة والورق فالاولى تعنى « الكتاب » وهى ما نقلها اليونانيون واستعملوها عن اسم النبات الذى صنع منه المصريون الورق أذ أن المصريين هم أول من صنع الورق واستعملوه منذ عدة قرون سحيقة وقبل أن يدرك غيرهم ما هو

واذا رأيت كتابا مصريا خلت لأول وهلة أنه شىء يستدعى الغرابة وأنه يفرق كثيرا عن تلك الكتب التى تتداولها أيدينا الآن بل وأن البون بين الاثنين شاسع كبير فانه لما كان المصرى يريد أن يصنع كتابا كان يجمع سيقان نوع من الغاب يدعى البردى كان ينمو غزيرا فى المستنقعات المصرية ويعلو هذا النبات عن الأرض من ١٢ الى ١٥ قدما وسمكه نحو ست بوصات وكان يقسم الى ألياف رفيعة وتلصق تلك الألياف بعضها ببعض ثم تلصق فوقها بالصمغ طبقة اخرى من الألياف ثم تضغط وتجفف فتكون منها أوراق تختلف فى عرضها حسب الارادة وأعرض ما نعرف منها ما يقاس بسبعة عشر بوصة ولكن معظمها أقل من ذلك كثيرا . . وبعد أن يصنع هذا الورق لايكون منه مجلد مثل مجلداتنا بل كانت تلصق بجانب بعضها ويكتب عليها ثم يلف الجزء المكتوب وهكذا حتى ينتهى الكتاب ويوجد فى المتحف البريطانى كتاب عظيم طوله ١٣٥ قدماً واذا بدا لنا مثل هذا الكتاب غريباً فى بابه فالأغرب ما يحتوى عليه من كتابة

لأن كتابة المصريين كانت أعجب وأبدع ماعرف من أنواع الكتابة والخط وتدعى هذه الكتابة بالهيرغليفية « أى النقش المقدس » وهو صور من أولها الى آخرها فكان المصريون يصورون ماتعنيه الكلمة التي يريدون كتابتها وبالتدريج كونوا حروفا للهجاء تركب منها الكلمات وعلامات تبين مقاطع الكلمة فمثلا أشاروا الى حرف الألف بشكل نسر والميم بأسد وهلم جرا فاذا نظرت فى كتاب هيروغليفى رأيت أعمدة مصفوفة وراء بعضها بنظام مركبة من صور طيور وحيوانات ورجال ونساء وزحافات ومراكب وغيرها واذا رغب المصريون فى تخليد كتابتهم لم يلجؤا الى لفائف البردي بل عمدوا الى نقشها فوق الاحجار فكم من كتبهم ما زالت باقية ومنقوشة فوق حجر الجرانيت الصلب فقرأنا فيها أخبار الفراعنة ووقائعهم وأعمالهم وكثيرا منها ما فتىء واضحاً فوق المسلات وجدران المعابد وقد اعتاد ملوكهم حينما كانوا يعودون من الحروب والغزوات أن يدونوا انتصاراتهم فوق جدران المعابد العظيمة أو فوق أعمدة منصوبة بجوارها وكانت سطور الكلمات تلون بأزهى الألوان وأجملها حتى كانت تظهر فتانة في رونقها وكانت الجدران تظهر كأنها محلاة بالزخارف البديعة اللون . . وقد تلاشت معظم تلك الألوان على كر الدهور وبعضها مازال حافظا رونقه البديع فى بعض المعابد والمقابر كأنها قد كتبت بالأمس ومنها نرى جمال كتب قدماء المصريين الحجرية التي بذلوا فيها جهدهم في سبيل رونقها وبهائها وتلوينها

واذ كان الكاتب يشرع فى تسطير كلمات فوق البردى كان يضع تحت يده قطعة من الخشب كما يفعل المصور لكن هذه القطعة طويلة ومجوفة يوضع فيها عدة أقلام مصنوعة من غاب رفيع ذى طرف حاد وفيها بعض تجاويف يوضع فى أحدها حبر أسود للكتابة به وحبر أحمر لكتابة بعض الكلمات الخاصة ثم لون أو اثنان من حبر آخر اذا أراد الكاتب أن يبدع فى كتابة شىء يروق له وحينما يكتب يجلس مربعاً رجليه ويبدأ فى تقرير رسومه متجهة كلها الى ناحية واحدة حتى يعرف القراء أين يبدؤن فى قراءة الكتاب وحينما يصل فى كتابته الى نقطة هامة يرسم

صورة صغيرة بألوان زاهية تصف المغزى الذى يريده واذا كانت تلك الكتابة ليست من السهولة بمكان عمد المصريون الى تسهيل الهيرغليفية بكتابة مختصرة عنها تدعى الهيراطيقية أو كتابة القسوس وهى التي تكثر الكتابة بها ولو أن بعض الكتب الجميلة ما زالت ترى مكتوبة بالطريقة الاولى . وقد كتب المصريون على البردي كل شيء يكتب فمنها كتب النصائح والحكم وكتب الاقاصيص والخرافات وأنباء الآلهة وكتب التاريخ ودواوين الشعر

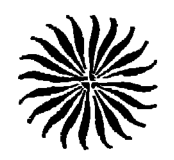
الفصل الثاني

كتاب الموتى

وأشهر كتاب لهم عندنا هو « كتاب الموتى »وبعض الناس يسميه كتاب المصريين المقدس أو انجيلهم ولكن ليس من هذه الاسماء ما هو حقيقى أو هام لأن المصريين أنفسهم لم يدعوه بكتاب الموتى كما اشتهر بهذا الاسم بل كانوا يدعونه « فصول التقديم فى اليوم الاخر » وسبب تسميتهم له بهذا الاسم أنهم كانوا يعتقدون أنه اذا علم أصدقاؤهم الموتى بكل ما فيه من حكمة قدروا أن ينجوا من الأخطار التي تصادفهم فى العالم الثانى وقدروا أن يروحوا فى السماء ويغدوا كما كانوا على الأرض ويكونوا سعداء الى الأبد وهذا الكتاب مملوء بكل أنواع السحر لاتقاء شر الافاعي والدبابات الهائلة وكل أنواع المساوىء الاخرى التي تسعى فى اهلاك الميت فى العالم الثاني وكان يكتب من هذا الكتاب عشرات من النسخ وتحفظ فى غلاف عليه مكان أبيض لاسم الميت الذي سيستعمله فاذا مات شخص ذهب اصدقاؤه للكاتب وابتاعوا ملفا من كتاب الموتى فيملؤه الكاتب باسم الميت فى الأمكنة المعدة له ثم يدفنون الكتاب مع جثته المحنطة حتى اذا ماقابل الشياطين والأفاعي في سبيله الى السماء يعرف كيف يبعدها عنه حتى يصل الى الأبواب المغلقة والأنهار التي يجب عليه اجتيازها فيكون عالما بالكلمات السحرية التي يجب أن يفوه بها

وبعض مخطوطات كتاب الموتى مكتوبة بكتابة جميلة للغاية ومفسرة بصور صغيرة آية في الابداع تشير الى مناظر الحياة المختلفة فى العالم الثاني وأنه من هذه علمنا كثيراً مما اعتقده المصريون عن الدينونة بعد الموت وعن السماء ومنها ما كتب باهمال لأن الكتبة كانوا يعلمون أن الكتاب سيدفن دون أن يراه أحد فلم يعنوا بما آتوه من خطأ فى كتابة كلماته أو اهمال بعض أجزاء من الكتاب ولم يدر فى خلدهم أن بعد آلاف من السنين سينقب العلماء عن تلك الكتب التي خطتها أيديهم وسيقرؤنها ويرون مافيها من خطأ واهمال . . .

ولا شك أن جزءاً عظيما من هذا الكتاب يبدو لنا سخيفا كتلك الخرافات التي تحتويها بعض كتبنا وهاك ترجمة بعض من سطوره فى فصل الأفاعي فقد فرض المصريون أنه اذا هاجم ثعبان أحداً في سبيله الى السماء فما عليه الا أن يرتجل هذه الفقر فتخور قوى الثعبان ولا يأتي بأذى : « ويحك أيها الثعبان (ريريك) لا تقترب بعد وقف الآن ساكنا فستأكل الفأر التي يكرهها رع وستهشم عظام قط آمين » . وربما عجبت كيف أن قوما عقلاء كالمصريين كانوا يعتقدون بهذه السخافة ولكن لو دريت أن بجانب ماتراه سخافة تجد آراء عجيبة وأفكاراً غريبة نبيلة اوصى بها أولئك الرجال الأقدمون نعلموا كيف أن كل انسان لابد أن يحاكم أخيراً عما قدمت يداه وان الأولى عملوا الصالحات كانت لهم جنات تجري من تحتها الأنهار



الفصل الثالث

حكم بتاح حتب (١)

اذا كنت رئيسا فعامل من هم أقل منك مرتبة برفق واعلم أن مرؤسك هو عضدك وساعدك وأن التشدد فى معاملته يعقل لسانه ويختم على قلبه فيخفى عنك ماقد يفيدك العلم به أما اذا استعبدته بالحسنى فلعله يبوح لك بما يضمر ويفتح لك خزائن قلبه وعوده الحرية فى القول يصدقك فيما ينفعك ولا يخدعك فيما يضرك واذا أتاك فى أمر له فلا تجبهه بل كن شفيقا صبورا واذا استطعت اجابة سؤاله فلا تبطىء بخير البر عاجله . واياك والشدة فى معاملة من يطيعون أمرك فقد تكون داعية الى سوء الظن بك . واعلم ان الاصغاء للضعيف والمكروب فضيلة يمتاز بها الأخيار على الأشرار

اذا شئت أن تستبقى حب أخيك واخلاص صديقك فاحذر مشورة النساء لانها مجلبة الشر فى كل زمان ومكان واعلم أن حب المرأة مجلبة الهلاك وماطاب عيش امرىء يقضى على سعادته ويستهين بحياته فى سبيل لذة لاتدوم اكثر من طرفة عين وتورث آلاما تبقى مدى الحياة

اجتنب جلساء السوء فان فى بعدهم غنما وفى قربهم غرما . اذا شئت أن تكون صادقا فى قولك أمينا فى عملك فطهر نفسك من أدران العناد والطمع واحذر الشراهة والجشع وان كنت خلوا من تلك النقائص فحذار أن تقع فى هوتها فانها أدواء لاتستقيم حال المرء مادامت جراثيمها عالقة به واعلم أن تلك المعائب تفرق بين الوالد والولد وتشتت شمل الجماعات وتبدد أوصال الصداقات وتقطع مابين الرجل والمرأة من صلات الود والمحبة وتغرس بذور النفور والبغض

---

(١) هذه الحكم تعريب الاستاذ محمد لطفى جمعه فى مجلة البيان عام ١٩٠٢ وهى كما أسلفنا من أقدم كتب الأرض ومترجمة الى لغات العالم الحيه

كن عادلا فان العدل يضمن لك الفوز في مضمار الحياة لأن له صولة تدوم وتبقى في الأرض . لاتحاول أن تنال بالبطش والظلم ماليس لك ولا تحسد جارك على نعمة أصابها انما الحسد سم لاترياق له وقد رأيت الحسود والشره يقضيان عمرهما فى فاقة ولو كانا غنيين أما القنوع الذي يرضى بالقليل اذا لم يستطع الكثير ويغبط غيره اذا ناله الخير فانه لامحالة غني ولو بات على الطوى وتقلب في الثرى

اذا كنت ذا أهل فاعدد لهم عدتهم وأوفهم حاجتهم ولا تحرمهم خيرك وبرك واخلص لزوجتك التي تعرس لك وتنميك وأطعمها اذا جاعت واكسها اذا عريت وداوها اذا مرضت وأسعدها اذا شقيت فهي أغلى ماتملك وأعز نعم الله عليك وحذار أن تقسو في عشرتها وكن بها رحيما فان الرحمة تحببك اليها وتقربك من قلبها والقسوة تنفرها منك وتقصي ودها عنك والمرأة أسيرة من يكرمها وهي كثيرة الولع بزهو الدنيا وزخرفها فان لم تنلها ماتحب من المتاع هجرتك .

أحسن الى خدمك وحشمك وأعطهم مما أعطاك الله فما منحك المال الكثير والخير الوفير الا لتمنح ذوى القليل . علمت أن ارضاء الأجير محال فهو كثير الطمع قليل الاخلاص ولكنك اذا غمرته باحسانك وأسرته بكرمك أنطقت لسانه بشكرك . واعلم أن الله ينقم على بلد أجراؤه أرقاء وعماله أذلاء فارعهم بعين الاحسان يرعك الله بعين الرحمة .

إياك أن تفوه بفحش القول وان سمعت القول فمر كريما وصن أذنيك عنه واعرض عن قائله واياك أن تعتب على قائله أو تؤنبه فان فى سكوتك وعفوك عنه درساً نافعا وعظة بالغة فان الخير يصلح الشرير بخيره ويرده عن غيه وشره .

اذا أمرك من هو أقدر منك بمعصية فاعصه لأن العصيان في النقيصة طاعة للفضيلة . لاتستعن على قضاء حاجتك بالكتمان فلعل فيه أذى ومضرة وربما منع الكتمان عن الانتفاع بعملك .

اذا تطلبت الحكمة وشئت أن ترتفع الى مجالس الكبراء وأن تعاشر الحكام والعظماء فهذب نفسك واقض زمنك فى تكوين عقلك بالعلم وتكميل قلبك بالفضائل

لان العلم والفضيلة يوليانك البطش والقوة واعلم أن الاقتصاد فى القول خير من الاسراف فيه فلا تنبس بكلمة حتى تزنها واذا كنت فى مجلس الدولة تجادل وتناضل فلا تنطق الا بمقدار فلست تدري مكان من يناضلك من البيان وقوة الحجة . اياك والادعاء فانه فتنة وان حذقت فى فن فلا تزه بحذقك على أقرانك فقد يكبو اللبيب ويخبوا الاريب ويصيب الغبي ويخطىء الذكى .

اذا كنت فى مجلس فلا تلزم الصمت البتة وحذار أن تقطع حديث محدثك أو تجيب على مالم يسألك عنه . إياك والحدة فى القول فقد يعقبها الندم . اعتد كبح جماع نفسك والزم صون لسانك عما يجول فى صدرك . لاتجعل كنز المال معقد آمالك ولا غاية أعمالك ولا تكن كالذين يقضون أعمارهم ويبذلون نفوسهم ويريقون أمواه وجوههم فى جمع الثروة فان هؤلاء كالخنازير لايرفعون خياشيمهم من الوحل .

اذا لهوت فلا تمادى في لهوك فان التمادي فى اللهو والافراط فى السرور يذهبان بالخير من الحياة

اذا أردت أن تصيب غرضاً فكن كأحذق الرماة تصويبا . انعم النظر فى هدفك قبل توتير قوسك فاذا وطدت نفسك ووترت قوسك اطلق سهمك واعلم أن ربان السفينة لايبلغ المرفأ الامين الا اذا ساير الريح

اذا اصطفاك الملك واصطحبك واستعان بك فلا تغتر بمالك عليه من الدالة فتلهيه عما يهمه بان تسمعه مالا يحب أو تنبئه بما يكره فانه ان وسعك حلمه مرة لايسعك أخرى وهيهات أن يؤمن شر من اذا قال فعل . اعلم أن رفعتك لاتكون بعلو نفسك ولا تعلو الا النفس التي اختارها الله والله لايختار الا نفسا تحب اعداءها كما تحب أصدقاءها وتبغض الشر لذاته وتعمل الخير حباً فيه لاجلبا لنفع تريده .

اذا وكل اليك تهذيب صبي من ابناء الاشراف والأمراء فلا تخش بأس أهله فى تقويم خلقه واصلاح حاله فانك . ان قمت بعملك كما توحى اليك نفسك وذموك فى الحال اثنوا عليك فى المآل وكان نصحك كالدواء يسوء استعماله ويحسن

مآله . أوصيك بتهذيب الصغير بحيث يستطيع مجالسة الكبراء فان فى هذا من الفضائل مالا يحصى واذا وفقت الى القيام بعملك وقدر أهل الصبي حسن فعلك أغدقوا عليك نعمهم ورفعوك الى مراتبهم وقد تعلوهم وتفوقهم بعد أن تصير مربيهم واستاذهم : اذا كنت من رجال الدين ووكل اليك أمر الفصل في مشكلة عويصة بين الملك والرعية فاحكم بالقسطاس وكن عادلا ولا تظلم الشعب لتصانع الملك لئلا توصم بوصمة الأشراف وهى أنهم ينصرون القريب والصديق ولو كان على ضلال مبين ويخذلون العدو الغريب ولو كان على حق وهدى بل كن يا ولدي مع الحق والعدل اينما كانا يكن الله والخير معك . ان أساءك من أحسنت اليه فاعف عنه واجتنب عشرته فان كان حراً فالعفو قتل له وان كان وغداً ففي هجرك اياه منجاة لك من شره .

اذا عظم قدرك بعد حقارة شأنك واستغنيت بعد فقرك فلا تقصر خيرك على نفسك أنما انت خليفة الله فى أرضه وحارس نعمته وولى خلقه رزقك لتعطيهم وهداك لتهديهم وأحسن اليك لتحسن اليهم فلا تخن الله في امانته ولا تكفر بنعمته فما كفر بها الا كل معتد أثيم . أطع ولي أمرك واخضع له بالحق فان عيشك رهن الطاعة وان عصيته ولم يكن قد اعتدى عليك فقد أسأت الى نفسك

اذا وليت أمر قوم فلا تتحكم في أعناقهم بظلم ولا تسع فى سلب نعمتهم فان الخير يذهب عنك بقدر ما تذهبه عنهم . ولا تغدر أخاك فيما له من مال لأن الغدر منبت الأحقاد .

اذا شئت أن تسبر غور رجل تريده صاحباً فاياك وسؤال الناس عنه فاذ كروا لواحد حسنة الا وأردفوها بمساوى لاتعد بل أكتف بعشرته أمداً محسناً اليه ما استطعت فينبسط الرجل ويفضى لك بما فى نفسه فان راقك بعد التجارب فاقبل عليه وفاتحه فيما تود والا فاتركه بالمعروف والحسنى وان صحبته فلا تحتجر عليه فى الحديث وان استصغرت شأنه فلا تشهره بما تراه فيه فينفر عنك وده ولا تحرم أخاً لك نفعاً تملكه .

اعلم أن كل سعادة يتبعها شقاء وكل غنى يتلوه فقر وكل صفاء له كدر . وان للأيام دورات فكم من رفيع خفضت ووضيع رفعت وكم صعلوك أسكنت قصراً وكم كريم أذاقت بؤسا وفقراً .

اذا اتجرت فأوصيك باكتساب ثقة الناس فانهم لك خير نصير اذا كبا بك الزمان وعاكستك صروف الحدثان . اعلم أن الذكر الرفيع أعظم قدراً فى نظر العاقل من المال الكثير لأن المال يجيء ليذهب ولكن الشرف اذا حل ألقى رحله ولم يتحول . اذا سألت فاسأل بالحسنى واذا سئلت فتلطف فى الجواب.

اذا أسأت الى امرأة فى عرضها ودعوتها الى بذل ماء حيائها وجلبت عليها عارا يخلق أديم وجهها فكن بها رحيما واقض من نعمائك عليها بقدر ما أسأت اليها فان فى ذلك احسانا وعدلا وتكفيرا عن الذنوب

اعلم ياولدى أنك اذا أطعتني وعملت بما نصحت اليك به فقد نهجت سبل الخير ومن ينهجها لا يضام

اذا أردت أن تقوم من اعوجاج أهلك ومن حولك فلا تضن على الاحداث والجهلاء منهما بعلم وأضرب لهم الأمثال وعلمهم الحكمة ليرجعوا فى أمور معاشهم اليها ولعلك مؤد تلك الامانة الى أهلها وتارك وراءك أثراً يبقى فى بلاد النيل الى ما شاء الله فيكون نبراساً يستنير به الشعب والملك لان فى كلمى ما يستفيد به المسترشد فينال من الخير ما ينفعه . وقد نصحت بالرفق والكرم والقناعة لعلمى بأن الحكمة أفرغت فى هذه الفضائل الثلاث .

ان من يقرأ قولي سيرضى به وتروقه حكمتي فتستنير بصيرته وتحل عقدة لسانه . ويصفو ذهنه ويقوى جنانه فيهذب أولاده ويورثهم الحكمة من بعده وهم يورثونها أبناءهم .

اعلم أن لا شيء احسن لدى الوالد من طاعة الولد البار الذي يعني بقوله و نصحه واذا تكلم أحسن الكلام وان ألقى اليه القول أحسن الاصغاء فان الصغير اذا شب على الطاعة استطاع أن يأمر وينهى فى شيبه كما كان يأتمر وينتهي. ان الطاعة زارع يغرس

المودة واكسير يجلى صدأ القلوب ودواء ناجع يشفي داء البغض وآلة تنال بها حكمة الشيوخ وحنكتهم وهيهات أن يخلص لك النصح حكيم لا تطيعه . ان الله يحب الطاعة ويأمر بها في الخير ويبغضها وينهى عنها في الشر ولا ريب في ان القلب هو الذي يأمر صاحبه بالطاعة أو ينهاه عنها لأن حياة الرجل بحياة قلبه فاذا كان طاهرا تقياً كانت حياته طيبة شريفة واذا كان القلب خبيثاً دنيئاً كانت حياة صاحبه كذلك.

اذا كنت فى فتوتك مطيعاً ووليت الرئاسة في رجولتك كنت رئيساً عادلا وان للعدل قوة تؤثر فى النفوس الجامحة وتستل منها سخائم العناد .

رأيت الأمراء يحبون المطيع لانهم يعلمون ان الطاعة فضيلة مكملة للاخلاق فعليك بتعليم الطاعة ولدك ليكون مقرباً من الامراء والكبراء

رأيت الجهال يعصون فيهلكون لأنهم لا يفرقون بين الخير والشر ولا بين الربح والخسران فيقترفون الذنوب فيذوقون أنواع الهوان . ان الجاهل قد يغلب العاقل بالثرثرة والهذر ولكنه يقصر عن مدى الاطفال في مجال العلم والحكمة فيجتنبه الناس ويبقى طول حياته مهجوراً محسوزاً

اذا رزقت ولداً فلا تضن عليه بالحكمة التي جدت بها عليك فيناله من الخير بنصحك ما نالك بنصحي وأوصه أن يبلغ رسالتك الى ابنه من بعده فتبقى الحكمة في بيتنا وهذه نعمة كبرى . توخ الصدق فيما تقول للاطفال لأن نفس الحدث كالعجينة اللينة يسهل تشكيلها على أية صورة تريد واعلم أن الصدق اذا كان أول ما يقابل النفس اعتادته وبذا يمكن استئصال الرذائل منها وغرس الفضائل مكانها

اعلم انك اذا فعلت ما أوصيتك به كنت قدوة عشيرتك وأهلك فتتولى أنت وأولادك قيادة الشعب وزعامته وتلك الدرجة اسمى ما تتطلع اليه النفوس الكريمة.

عليك بالعدل في قولك وفعلك واحرص على ما تفوه به حرص البخيل على درهمه والجبان على دمه ، كن خاضعاً في حضرة الملك وعيوفاً في نظر أقرانك واذا نطقت فليكن حديثك مدعاة للاعجاب بك والتحدث بفضلك . قدر قولى قدره واعلم أن نصيحة الوالد أثمن ما يقتنيه الولد

اذا بلغت منصبي فاجتهد ياولدي في ارضاء الملك باتقان ماتمارس من الاعمال احفظ شبابك تحفظ مشيبك . اذا مرضت فبادر الى علاج جسمك فيطول بذلك عمرك وتنتفع بحياتك أنت وغيرك وتعيش كما عشت مائة وعشر سنين خدمت أثناءها بلادي بالحق والعدل فغمرني الملوك بالاحسان وأغدقوا على النعم فكنت أسعد حالا من آبائي وأجدادي . » انتهى

الفصل الرابع

كتب البردى

ذكرنا كيف كان قدماء المصريين يصنعون من جذوع نبات البردى الغليظة أوراقاً لكتبهم فيقطعونها الى قطع طولها من ستة الى ثمانية عشر بوصه ثم يزيلون الغطاء الخارجى ويضغطون الأوراق ومع قدم العهد ومر آلاف من السنين على ذلك البردى كان يبلى كما يبلى الزمان ولم يصل الينا الا نقطةمن بحر ما كتبوا كما أن جل ما نقشوا وحفروا فوق جدار المعابد والهيا كل والمسلات قد تخرب ولم يبق لنا الا قليلا . وقد أسلفنا الذكر أن أنفس وأكثر الآثار المصرية مبعثرة في جميع متاحف العالم ونقول هنا ان أوراق البردي مشتتة أيضاً فى متاحف العالم ومكاتبه وأنفس أوراق البردى أو كتب قدماء المصريين موجودة فى المتحف البريطاني ومتاحف المانيا والنمسا وفرنسا ومكاتبها لاسيما مكتبة باريس وقد تقدم الذكر أن في المتحف البريطاني كتابا منها طوله ١٣٥ قدما وهو من أكبر الكتب وأن الأوراق التي اشتراها العالم بريس موجودة في مكتبة باريس منذ عام ١٨٤٧ وتتضمن كتاب بتاح حتب الحكيم المصرى القديم ونصائح « قاقمنا » الحكيم ويجد القارىء ترجمتها العربية في كتاب الحضارة القديمة تأليف العالم الأثرى احمد باشا كمال ومن أقدم كتب العالم أيضاً كتاب نصائح « آنى » الحكيم المصرى لتلميذه « خونسوحتب » وقد عثر على أوراقه البردية عام ١٨٧٠ مارييت باشا العالم الفرنسى المشهور ومؤسس مصلحة الآثار المصرية كما سيأتى فى

احدى مقابر الدير البحري بطيبة وهي محفوظة للآن بفضل ماريت بالمتحف المصرى بالقاهرة فى غرفة أوراق البردي حرف S بالدور الأعلى وتحتوي هذه الأوراق على تسعة صحائف بالخط الهيراطيقي وقيل انها كتبت فى عهد الأسرة الثامنة عشرة وترجمها من الهيراطيقى الى الفرنسية العالمان شاباس ودي روجيه والى الألمانية أرمن والى الانجليزية ماسبرو . ومن الأوراق البردية الهامة ورقة « نسيامسو » باللغة الهيراطيقية وقد ترجمها العالم « بدج » الى الانجليزية عام ١٨٩١ وقد اكتشف أخيرا على جدران معبد ادفو أنه كان بجوار هذا المعبد دار كتب المعبود « حورس » وبين تلك الكتب كتاب خاص « بجغرافية » مصر القديمة ولكن لم يبق لنا من هذه الدار أثر

ونعلم أيضاً أنه كان بالسرابيوم دار للكتب وقد وصل الينا جزء من قاموس هيرغليفى جمعه « كرمون » أمين دار الكتب هذه فى القرن الأول للميلاد كما وصل الينا كتاب فى اللغة الهيرغليفية وضعه « حورس » المصرى وفسر فيه ١٨٩ كلمة هيرغليفية وقد ترجم الى اليونانية

ونعلم أيضا أنه كان بمصر دار للكتب فى عهد فراعنة الاهرام أو فى عصر الاسرة الرابعة .

ويقول المؤرخ المصري « مانيتون » فى القرن الثالث قبل الميلاد أنه ينسب لهرمس ٣٥٥٢٥ كتابا وقد عاش لنا قليل من تاريخ هذا الكاهن مانيتون الذى كتبه بالاغريقية . وكان بمصر دور كتب ملكية بجوار المعابد وكان تحفظ فيها الكتب المقدسة وكتب السحر والطب والحكمة والكيمياء وغيرها

وسنذكر كلمة من مقال عن الآثار المصرية فى متحف برلين ومنها أوراق البردي فى ذلك المتحف فقط وهو غير مافى متاحف ميونخ وهلدسهيم وفينا وروما والبندقية وتيرن ولندن وباريس خصوصاً ومافى باقى متاحف الأمم عموماً

ويجد القارىء فى كتاب للاستاذ برستد بالانجليزية اسمه « تقارير قديمة عن مصر وشواهد تاريخية منذ فجر التاريخ الى الفتح الفارسى لمصر » مترجمات

كثيرة للاستاذ من أوراق بردية ونقوش وكذلك فى كتاب الاستاذ ويجال عن دليل الآثار مترجمات عديدة لنقوش المعابد والهياكل

وكل يوم تأتينا الاخبار باكتشاف العلماء لأوراق بردية بمصر وآخر ماسمعنا أن أعضاء معهد الآثار الفرنسى الذي يديره الاستاذ « فوكار » قد عثرت على جرة كبيرة من الآجر بقرب احدى قرى الصعيد ملاءى بأوراق البردى

وقد علم القارىء عن ذلك الصندوق الكبير المملوء بأوراق البردى الذى كتشف حديثاً فى مدفن الملك « توت عنخ آمون » بوادي مقابر الملوك وهذا الصندوق أشبه بمكتبة صغيرة ستزيل الستار عن مخبآت العصور وأسرار الدهور

الفصل الخامس

شيء من حكم « قاقنه »

سر فى سبيل الاستقامة لئلا تغضب الله ــ لا تكن عنيداً فى الخاصمات ــ قليل الأدب مذموماً ــ الابن الناكر الجميل يحزن والديه ــ من خبر الدنيا سهل عليه أن يقود أبناءه ــ اذا قدم لك طعاماً تشتهيه فى وليمة فلا تسرع اليه لئلا يعدك الناس نهما

الفصل السادس

مجمل كلمات الدينونة

بعد أن يزن الآله هوريس والآله أنوبيس قلب الانسان أمام أوزوريس فى الآخرة يتلو الانسان ليبرىء نفسه ما يأتى :

« لم أسرق الناس قط . لم أعذب الارملة . لم أكذب فى المحكمة . لم أكن ذا قصد سيء . لم أرتكب محرماً . لم أجبر العملة على أن يعملوا أكثر مما كان يجب عليهم أن يعملوا . لم أكن مهملا ولا بطالا ولا ضعيفاً خائراً لم أصنع ما يسخط

الآلهة . لم أعلم العبد أن يفر من سيده . لم أجوع أحداً . لم أبك أحداً . لم أقتل ولم آمر أحداً بالقتل . لم أختلس قربان الهياكل ولا حلويات التقدمة التي تقرب للآلهة . لم أنزع عن الموتى لفائفهم ولا غصبتهم مؤنتهم . لم أربح ربحاً حراماً . لم أغش كيل الحبوب . لم أخدع أحداً ببيعه حلياً مغشوشة . لم أسرق شيئاً من الحقول . لم أتلاعب بالميزان . لم أنزع اللبن من أفواه الاطفال . لم أقتنص البقر المقدس فى المروج . لم أنصب الحبائل للعصافير المقدسة . لم أصد الاسماك المقدسة من بركها . لم أرفض الماء حين نزوله فى حينه . لم أقطع مسيل ماء فى جريانه . لم أطفئ النار المقدسة فى أوقاتها . لم أهن أحداً من الآلهة فى أبان احتفالاته . أنا نقي . أنا نقي . أنا نقي »

الفصل السابع

آلهة قدماء المصريين وتمثيلهم وتفرعهم

الاله الاعظم

خنوم الشلال	انحور طينه	رع عين شمس	اوزوريس تميلامديد

آلهة الموتى	آلهة العناصر	الآلهة الشمسيه
(١) سكرى	(١) سب او الارض	(١) رع او الشمس
(٢) اوزوريس	(٢) توت او السماء	(٢) شو
(٣) ازيس	(٣) نو او الماء	(٣) انحور
(٤) انوبيس	(٤) حبى او النيل	(٤) امون او اليوم
(٥) نفتيس	(٥) سوفكو	
	(٦) ست تيفون	
	(٧) هراورى	
	(٨) بتاح	

كتب الاستاذ الانجليزي « بدج » (Budge) مترجم كتاب الموتى السالف الذكر كتابا من أهم ما ألف عن قدماء المصريين وأسماء « كتاب آلهة المصريين » في جزئين ظهرا بلندن عام ١٩٠٢ ونكتفى هنا بذكر أسماء تلك الآلهة باختصار .

(آمون) وهو ملك لآلهة ورب الارباب ومقر عبادته طيبة مثل آمون رع وكانوا يمثلونه بكبش ذي تاج طويل وقرنين عموديين

(رع) إله الشمس وكان أهم معبد له بمدينة (أون) (عين شمس) وقد اعتبر الملك متجسدا من رع . وابنا للشمس

(بتاح) (فتاح) وهو إله « منف » الاعظم كما كان (آمون) إله طيبة الاعظم وقد ساعد الاله « خنوم » فى خلق العالم

(خنوم) الذي خلق الدنيا بمساعدة (بتاح) وهو إله جزيرة اسوان

(أوزوريس) إله الآخرة وحامي الموتى ووالد (هورس) قتله أخوه « سخت » وقام من الاموات ودعاه الناس بالاله الصالح لانه عمل على خلاصهم من الجهل وعلمهم كثيراً

(ازيس) أخت أوزوريس وزوجه (ويرمز اليها أحياناً برأس صقر)

(حورس) ابن أوزوريس وايزيس والذي يكمل الثالوث المقدس لابيدوس

(خونسو) إله القمر (ويرمز اليه بصقر)

(أنوبيس) ابن « سخت » و « نفتيس » ويصور برأس ابن آوى وهو الذي يقود الموتى الى العالم الاسفل

(موت) وهى أم الآلهة وزوجة آمون ويتركب منهما ومن خولس الابن ثالوث طيبة

(هاتور) وهي إلهة الحب ويرمز اليها برأس بقرة أو مع أذنى بقرة أو مع قرنيها

(أبيس) وهو عجل منف المقدس المشهور يمثل تجسد (أوزوريس) أو يمثل الاله

(بتاح) وهو أهم معبوداتهم الحيوانية التي تحـل فيها روح الآلهة وكانوا يبحثون عنه بين مولودات البقر بحيث تجتمع فيه عدة صفات منها سوادجلده ووجود شامة بيضاء مثلثة الشكل في جبهته وعلى ظهره شكل نسر حتى اذا عـثروا عليه احتفلت البلاد بذلك ويكون يوم سرور فاذا مات حزنت عليه حتى تجـد سواه ولهذه العجول مقبرة كبيرة تسمى بالسرابيوم بسقارة

(بس) إله حجرة النوم والاحلام ويصورونه بقزم له تاج من ريش

(جب) أو (سب) أو (كب) إله الارض القديم وزوج (نوت) ووالد أوزيريس الذي خلفه على عرش مصر

(نوت) آلهة السماء والضوء وترسم على غطاء التوابيت بريشه في كلا يديها

(هابي) إله النهر وله زهرة قائمة فوق رأسه من زهر الخندقوق

(حار مخيس) إله الشمس ويرمزون اليه برأس صقر فوقها قرص الشمس أو أحياناً بأبي الهول

(مات) (معت) آلهة الحق : ولها ريشة نعامة فوق رأسها

(مين) إله المحصول والانتاج

(نيث) آلهة قديمة للوجه البحرى للصيد

(نفتيس) أخت أزيس التي حزنت معها على فقد أوزيريس حزناً شـديداً ورثتاه بالمراثي والبكاء فرق لهما الالهة وأقاموه من بين الاموات ونصبوه إلهاعليهم.
ويروى أن الكهنة المصريين كانوا يلمون بقصة أوزوريس ومقتله وقيامته ولكنهم كتموها وروى المؤرخ بلوتارخ عنها قصة مشهورة في تاريخه وقال انها ترمز الى النيل والارض والبحر وقال غيره بل هى مشتقة من علم الفلك وقال آخرون غير ذلك من الآراء والشروح

(ست) وهو الذي قتـل أخاه أوزيريس ويعتبره عباد (حورس) إله الشر ويرمزون اليه بذى رأس غريبة مثل رأس الحمار . وكان هذا الا له فى أول أمره يعيش مع أخيه أوزيريس الصالح ولـكن حباً بالاستئثار بالملك دبر مكيدة

لاخيه وقتله ورماه في النيل ولكن حورس ابن أوزيريس انتقم لابيه من عمه

(تحوت) أو (ثوث) وهو خالق العالم بكلمته وهو إله الحكمة والذي يقرر وزن نفس الميت بحضرة أوزيريس ويعتبر أيضاً إلها القمر

(بسطت) (بستيت) آلهة السرور وحرارة الشمس المفرحة . وترمز بقطة وعبدت في بوبسطة

(سيرابيس)إله مصري عبد في حكم البطالسة والرومان بدلا من أوزيريس ليتجسد في العجل أبيس (أوزيريس أبيس أو أزيرابيس)

(سبك) إله الماء ويرمز بالتمساح

(سخمت) آلهة برأس لبؤة للقوات الشريرة والحرارة الزائدة للشمس والوباء

(طوريس) آلهة ولادة الطفل وتمثل بفرس الماء له صدر انثى

(أيموس)وهو الذي يكمل ثالوث منف المؤلف من (فتاح وسخت وأيموس)

(أيمى) آلهة الشريعة والعدل

(أتون) إله قرص الشمس الذي بشر به أمنحتب الرابع

الفصل الثامن

ديانة المصريين

قبل أن نكتب نبذة من ديانة المصريين نشير على القارئ أن يقرأ بعض ما كتب كبار العلماء عن هذه الديانة أمثال ارمان الالمانى الذي ترجم كتابه جريفث الى الانجليزية (لندن ١٩٠٧) وستندورف الذى ترجم الى العربية حديثاً وويدمان وبدج و بعض مؤلفات العالم الفرنسى ماسبرو والعالم الانجليزى بيترى وغيرها مما لا يتسع المقام لذكر أسمائها فقط لانه من المحال أن تروى نبذة أو مقال عطش محب البحث لاسيما في موضوع ديانة المصريين الذى لا تلم به أضخم

المؤلفات وهذا ما جعلنا نذكر قائمة صغيرة لاهم الكتب المشهورة في ختام هذا الكتيب الصغير

كان قدماء المصريين في أول عهدهم يعبدون الله تعالى ويعترفون بوحدانيته ومع الزمن عمل الكهنة على الاستبداد بهذه العقيدة الصحيحة وأخذوا يرمزون لصفات الله برموز وأخذت تلك الرموز تختلف في اقليم عنه في آخر ثم رمزوا الى القوى الطبيعية برموز أيضاً حتى نسى الناس التوحيد وأصبح قاصراً على الكهنة المتكتمين ثم اعتقد المصريون بتجسد الآلهة وحلولهم في الحيوانات مثل العجل أبيس والتمساح والقط والجمل والكلب

وأقدم ما وصل الينا عن ديانة المصريين ما اكتشف من نقوش الاهرام وما في داخلها وعلى جدارها من كتابات لاسيما ما كتب على جدار غرف بعض اهرام سقارة في الاسرتين الخامسة والسادسة ومنها نعلم أن الملك كان مقدساً على الارض حتى اذا مات صعد الى السماء في مملكة رع فيصل اليها بالسير في الجهة الشرقية وقت الفجر ليقابل الاله فى شروقه بعد أن يجتاز فى قاربه ظلمات المستنقعات فاذا رفض الاله قبوله تسلق الملك سلم أشعته الشمسية وقابل الاله فى قلب السماء أو اتخذ له جناحي صقر وطار الى البقعة التى نهرها نهر المجرة وسكانها ربوات النجوم فيساعده فى الصعود الى السماء بعض الآلهة الرحماء أما حياة الملك فى مملكة رع فتحاكى حياته الأرضية ويصبح الملك الممجد إلها ومستشاراً للآلهة وقد نرى فى بعض كتابات الاهرام ثناء ومديحا للملك فيلقب بملك الآلهة الذى يفوقهم فى القوة والمجد وأن الآلهة خدم له يجففون جسده حينما يستحم ونرى فى أقدم الكتابات التى ترجع الى ماقبل التاريخ أو بعده قليلا أن الملك يصيد الالهة ويذبحهم اذا شاء وليس هذا من الغريب اذا علمنا أن (رع) كان ملكا على مصر فى العصر الذهبي وأسرات الآلهة وقبل أن يصعد الى السماء فراراً من شرور الناس فتركهم يعمهون فى الظلمات والجهل لولا أن أوزيريس إله الموتى بعد قيامته من بين الاموات عمل علي تعليمهم الزراعة وغيرها وساعدهم على الخروج من ظلمات الجهل وقت أن

كان رع إله الاحياء وأصل الملوك وحدهم ولو أنه في مدد متأخرة تمتع الاشراف بنعمة الصعود الى إله الشمس مثل الملوك واعتقد أن الملك الساكن في مملكة رع كان ينزل الي الارض ليحتفل بالقرابين والذبائح التي لاتحصى عنـد الاهرام. وكان من وظيفة الآله تحوت أن يحضر الملوك أمام إله الشمس أو أنهم يحملوا اليه في قارب الشمس

وكان الغرب مملكة اوزيريس وكان من المحذور على عباد رع أن يسيروا في طريقهم نحو الشمس لأن النفس في هذا الطريق لاتعود منه ثانية

وأن كتابات الاهرام لمزيج محير من بقايا اعتقادات دينية عديدة في مختلف العصور وبعضها يرجع عهده الى قبل التاريخ وفجر المدنيـة المصرية وفي مر الزمن انحصرت هذه الكتابات فيما ذكره ذلك الكتاب المشهور الذي دعى خطأ « كتاب الموتى » الذي مع قيمته التاريخية لا يعطينا فكرة عن مجمل العبادة المصرية أو يعلمنا كثيراً من ديانة المصريين كما يتضح من قراءته ومثله مثل انجيل المسيحيين أو قرآن المسلمين الذي لا يعلمنا كلاهمـا طقوس العبادة وشرائع الدين. وقد ترجم المسيو ماسبرو كثيراً من متون الاهرام وكتاباته في كتابه الفرنسى والمترجم الى الى الانجليزية(Pyramids Texts) ومنه نتعلم شيئا هاما عن ديانة المصريين

ولما كانت قصة أوزيريس التي كتبها الكهنة وذكرها بلوتارخ وأشرنا اليها كيف تآمر الاله ست على أخيه وقتله فتبحث عن جثته ازيس حتى تجدها فيعلم ست اله الظلام بذلك فيقطع جسم أوزيريس ويدفن القطع في عـدة بقاع بمصر فتقوم اريس بمساعدة تحوت وانوبيس ونفتيس وحورس وتجمع أشـلاء أخيها المبعثرة وتلصقها ببعضها ثم يرثي الآلهة لبكائها مع أختها نفتيس فيقوم اوزيريس من بين الأموات ويحكم في الآخرة. واذا كانت هذه القصة المشهورة هامة رأينا أن نلخص بعض التفاسير الخاصة بها :

كان اوزيريس اله الآخرة وقاضي العالم الأسفل هو اله المحصول والنهر المعطى الحياة والخصب والغلال فترى في قصـة موته وبعثه رمزاً الى المحصول وحصاده

وزرعه وجنيه وأما ست فهو اله الظلام الحالك الذي كان يقوم بينه وبين حوريس اله الشمس المنير نضال في كل شروق وغروب فكان حوريس يهزم الغروب بأنواره وضيائه ولكن سرعان ما كان ست يهزم النور بظلامه فكانت الحرب سجالا . ويفسر ست بالصحراء القاحلة ورمالها وحرها والتي هي عدوة الخصب والنبات والزرع والحياة

وجاء في قصة أخرى أن حوريس لما قام ينتقم لابيه أوزيريس من ست فقد في النضال عينه فقدمها الى أبيه الميت الذي صار نساحية فأعاد تحوت العين الى صاحبها وتفسر هذه العين بالشمس وأن المحصول يتوقف على تأثير عين الشمس

ويفسر تقطيع جثة اوزيريس وبعثرتها في طول البلاد وعرضها ودفن اجزائها في بقاع مختلفة الى بعثرة الحبوب وزرعها في الأرض . وما زالت هناك عادة أو كانت هذه العادة باقية الى زمن قريب في بعض جهات افريقيا واليونان ورومية أن تقطع جثة الملك الميت وتدفن القطع في جهات مختلفة من البلاد فينتج من دفنها في تلك الجهة محصول كبير ويظهر أن بعض متون الاهرام تنص على أن هذه العادة كانت موجودة في أزمنة مبكرة وأن جثة الملك كانت تصان في الاهرام ليعجز الشعب عن أخذها وتقطيعها حباً في غني المحصول الزراعى . وهذه فكرة من الآراء التي تفسر القصد من بناء الاهرام ولو كانت أضعف من غيرها . وما زال أيضا عند قبيلة الزولو عادة مثل هذه وهي أن يقطعوا جثة شاب مات في عنفوان شبابه

وهناك تفسير لزواج اوزيريس من أخته ازيس وهما أولاد الآلهة « كب ونوت » وهو أن اوزيريس يمثل النيل وازيس التربة فينتج من الاثنين الزرع والنبات وأما الأخوان ست ونفتيس فيمثلان الصحراء والوحوش المفترسة التى فيها

وقد عبد اوزيريس قبل أن تظهر ازيس كزوجة له وقبل ابنهما حوريس اله الشمس لمدينة ادفو وقد بدأت العلاقة بين الآلهة تظهر حينما اتحدت الاقاليم التي تعبد كل منها الها مختلفا ولعل هذه القرابة بين الالهة قد ساعدت في اتحاد الاقاليم

لأن قدماء المصريين كانوا شديدى التمسك بدينهم وكان لكل من معبوداتهم مقام أرفع في اقليم أو بلدعنه في غيره وكثيراً مانجم عن هذا الاختلاف في تفضيل معبود عن آخر مشاحنات وفتن بين سكان الجهات المصرية ومن المحتمل أن قصة الحرب بين حورس وست كانت تمثل الحرب بين عباد كليهما وتنص الكتابات القديمة على أن حورس وست كانا الهة شمال مصر وجنوبها في القديم

ولما نهضت طيبة وصارت عاصمة البلاد أصبح الهها آمون ملك الآلهة ورب الأرباب ورأس ثالوث طيبة المكون من (آمون ومرت وخونس) ولما ذاع صيت هليوبوليس اعتبر الاله آمون والاله رع الها واحدا فلم تختلف طيبة عن هليوبوليس في العقيدة وصار يدعى الاله « آمون رع » الخالق العظيم

ومنذ بدء الأسرة الخامسة اعتبر الملوك ابناء الاله رع من ام بشرية وبعدها أخذ الملوك يلقبون أنفسهم بابناء الشمس ثم انتشرت قصة فحواها أن ازيس خلقت ثعبانا لدغ رع وأبت أن تشفيه حتى يخبرها عن اسمه فصار لها سلطان عليه

وكان المصريون يحتفلون بوفاة اوزيريس وقيامته وطواف ازيس واخلاص حوريس احتفالات كبيرة في ابيدوس المشهورة بمكان قبر اوزيريس وتدل كتابة الآثار أن آمون رع كان يعبد ويصلى اليه وله الأناشيد الكثيرة التي تشير أنه خالق العالم وما فيه من يابس وماء وهو مظهر النور والظلام ومخفف الأحزان ومعزي الاشجان وهو الاله الكامل الممجد المحبوب المسمى بخو بري في الصباح ورع في الظهر وآتوم في المساء وبلغت عقيدة هليوبوليس أوج علاها حتى قام اخيناتون كما قدمنا وأراد أن يمحو هذه العقيدة ويعلي شأن آتون وقد مر على القارىء كيف قاوم كهنة آمون ونقل العاصمة وبذل كل مافي وسعه ليغير العبادة ولكن سرعان ما أعاد كهنة آمون نفوذهم بعد موته حتى أخذت هذه العبادة الروحية في الانحطاط وأخذ السحر يثبت اقدامه في الديانة والعبادة حتى خيل أن بعض التعاويذ السحرية هي كل مايحتاجه المرء بعد موته لينال بها السعادة في الآخرة ثم أقيمت في طيبة حفلات ظن أنه بدونها لاتشرق الشمس يوميا

وانتعشت العبادة الروحية بعد سبي طيبة عام ٥٠٠ ق . م ورأينا آمون رع يعبد باسم (آمون رع ونوفر) وتعني لفظة (ونوفر) التي هي اسم لاوزيريس (الكائن في الجمال)

وكانت «منف» أو منفيس تعبد الاله فتاح منذ القديم وتعتبره الخالق الحي القابض على صولجان القوة والحياة والأزلية ثم اتخذت لعبادته رمزاً هو تجسده في العجل ابيس وكانوا أيضا يعتقدون بتجسد اوزيريس في العجل ابيس وسمي (اوزيريس ابيس) أو (اوزيرابيس) حتى عبد باسم (سيرابيس) وهو الذي اتخذه الرومان والأغريق الها بصورة انسان ووصلت طقوس اوزيريس وازيس في العالم القديم والى الشمال وفي انجلترا حيث استمرت حتى زوال حكم الرومان فيها قريبا

وقد عبدت مدينة هرموبوليس الاله تحوت واعتبرته الخالق الخالد ثم صار تحوت الها صغير الشأن وكاتبا في السما لاسيما أمام اوزيريس واعتبر أنه هو الذي علم الناس الكتابة والعلوم

واعتقد المصريون بالتثليث وهو تمثيل الاله بثلاثة أقانيم وقد سبق ذكرها في الهة المصريين وكان ثالوث طيبة (امون وموت وخونس) هو غير ثالوث منف (فتاح وسخت وايموس) وغير ثالوث ابيدوس (اوزيريس وازيس وحورس) وغير ثواليث اخرى غيرها وغير التشيع أو تسعة أقانيم في اقنوم واحد واعتقدوا أيضا بالبعث والنشور والثواب والعقاب وشرحوا يوم الحساب لاسيما في «كتاب الموتى» وكيف توزن النفس بميزان القسطاس وكيف تعاقب أو تنال خير الجزاء وكيف يدافع الميت أمام اوزيريس عن نفسه ويبرر أعماله في الحياة الدنيا كما اعتقدوا بخلود النفس وبعقيدة التقمص التي أخذها افلاطون عنهم وشرحها شرحا لامحل لذكره ثم نقلها هوميروس في شعره . ومن ديانة قدماء المصريين أخذ العالم جميع طقوس الديانات الموجودة في الأرض وأدخل عليها قليلا من التحسين والايجاز

لاشك أن قدماء المصريين كانوا يعتقدون بوجود آله واحد يرى ولا يرى ومعبود صمدي قديم أزلي لا أول له ولا آخر وانهم كانوا يقدسونه باجلال نعمه الجليلة ويتقربون اليه بعمل الصدقات واجتناب السيئات وبمعرفته واداء شعائر عبادته وانهم ارتقوا في مادة معنى الألوهية الى درجة قصوى وقد ورد في آثارهم كثير من الجمل والعبارات المثبتة لوحدانية الله وقدرته وأفعاله وصفاته منها قولهم « كل شيء خلقه الله العظيم بنفسه » و « خالق الكائنات والأشياء » و« الخالق لكل مخلوق الذي لم يخلق وهو فاطر السماء والارض » و « الموجود لكل ما يكون اما لم يكن فهو في مكنون علمه » و « الله معبود باسمه الأزلي خالق الأرواح في الاشباح » و « يمضي الدهور وهو باق دائماً » و« ذو الأزلية الذي يمضي دهوراً لاتحصى وهو على حالة وجوده » و « ذو الأزلية الذي لاحد له » و « لايمسك بالذراع ولا يقبض باليد » و » لاتدركه الأبصار »و« سميع لمن يتضرع اليه » و « الذي يكون والذي لا يكون يختص به » و « الواحد الذي لاشريك له » الخ الى كثير مما وجد في المخطوطات القديمة. وقد وافق على اعتقاد المصريين بوحدانية الاله كثير من علماء اللغة المصرية منهم « بيره » الذي قال : ان الديانة المصرية التي خفي علينا حقيقة أمرها لكثرة وجود المعبودات هي نفس الاعتقاد بوحدانية الله ويتضح لنا جلياً من النصوص الأثرية اما تعدد المعبودات التي قالت بها الآثار ليست الا مظهرا يقصد من تمثيل الذات العلية وان كثرة الاشارات التي نراها على الكتابة الهيروغليفية ليست الا تصورات دينية كثيرة الرموز صعبة الفك . وأن السبب في تخفي المصريين في ديانتهم وعدم اظهار حقيقة مظاهرها هو حب في عدم اطلاع الأمم المتجاورة على اسرارها

قال جريبو في هذا الموضوع: يجب أن نستنتج من جميع ما يظهر لنا من تعدد أسماء المعبودات القديمة أن كلا منها تقدر بصفة بالغة من العزة الالهية وأن مجموع هذه الصفات الالهية تمثل المعبود الواحد الازلي الذى لا تدركه الابصار ولا يرى ولا يمس بالحواس

فكانوا يعتقدون أن إله القدرة والنمو والازدياد والذي يرشدهم إلى النور هو المعبود « أمون » وهو « المحجوب » والاله الذى علق الشمس فى السماء والقمر أيضاً وحرك الارض هو المعبود « بتاح » . وغير ذلك من المعبودات التى يعبدها الشعب المصري القديم بينما ترى الكهنة وهم الواقفون على سر الديانة القديمة يقولون بانها رموز لافعال الله عز وجل . . . فلو تأملنا فى هيئة أبى الهول لوجدنا وجهه ورأسه على صورة إنسان وجسمه جسم أسد فنحكم بأن هذه الصورة التى لا وجود لها بين المخلوقات هى رمز القوة المستمدة من الاله الاعظم الذي لانهاية له

الفصل التاسع

قبور قدماء المصريين

قلنا أن المصريين اعتقدوا بالحياة بعد الموت وأن من عاش فى دنياه عيشة راضية طاهرة تمتع فى الآخرة بما قدمت يداه ولنزد أنهم كانوا يعتقدون بأن الجسم يتركب من جسم و « كا » وفى حياة الجسم تلازمه وهذه « الكا » كما نعتقد نحن الآن بملازمة الروح للجسم وهى مكونة من مادة أقل من مادة الجسم كثافة وتشبهه في تركيبه تماما فاذا مات الجسم بقيت هذه « الكا » بعده وقد قام فى عصرنا هذا العلماء الروحانيون ومذهب استحضار الأرواح ومناجاتها وكلها تقول بحقيقة وجود « الكا » وحياتها بعد الموت وانا لانبالغ اذا قلنا ان قدماء المصريين الذين نبغوا فى الفلسفة والعلوم الروحانية والسحر والكيمياء و الالهيات قد عرفوا عن الأرواح مالا نعرف الآن وأن العلماء الروحانيين الآن ماهم الا أطفال فى المدرسة الروحانية العجيبة التى سيهتز لها العالم يوماً ما ولكن الكهنة المصريون قد أضاعوا كثيراً من الفلسفة وعجائب العلوم بكتمها في صدورهم خوفا من افشائها للعامة الذين يجب أن يكونوا جهلة لتسهل قيادتهم وكبح جماحهم بل أعجب من ذلك أنهم كانوا يعلمون الشعب غير مايضمرون ومن ذلك أنهم اعتقدوا

منذ البدء بوحدانية الله ووجوده ولكنهم علموا العامة غير ذلك

وظن المصريون أنه لكي يبقى الروح متمتعاً بعد موته كما كان متمتعاً في دنياه وجب حفظ الجسم سليما فعمدوا الى تحنيطه وشيدوا المقابر ووضعوا فيها من الطعام والشراب مايحتاج اليه الميت كما نقشوا على جدرانها ما اعتاد الميت رؤيته في حياته مثل منزله وحدائقه وعمله وغير ذلك لتذهب عن الروح وحشته في القبر

وأقدم قبور المصريين حفر في الرمل يوضع فيها الميت على حصير ويدفن معه بعض ممتلكات تافهة وكانت تغطى بأحجار ويبني فوقها كوم من الحجارة ويوضع خارج هذه أواني من طعام التقدمة وقد وجد من هذه التقدمات في المقابر القديمة شيء لا يحصى وهكذا كان يدفن الفقراء بهذه الطريقة أو يدفنون في مقابر منعزلة أو فى كهوف أو خنادق وكل ما كان يدفن معهم قليل من التعاويذ وعصا ونعلان لتساعدهم في رحلتهم الروحية بعد الموت وفي السير فيها على الاقدام ويرى الزائر لمتحف القاهرة في الدور الاسفل والحجرة رقم ٥ كثيراً من تلك الاشياء التي كانت تصحب الميت منها عصى ونعال وآنية فيها قمح وآنية من البرنز والنحاس من الاسرة الرابعة وقوارب صغيرة فيها تماثيل رجال لتساعد الروح في زيارته المكان المقدس وعودته بالقارب في النهر أو لتذهب به الى العالم الثاني كما يرى في تلك الغرفة ما اكتشف في مقبرة بينباخ الاسود من صور مناظر زراعية ومواشي ترعى ومنظر صناعة الجعة وبعض موسيقيين وفتيات منشدات ومغنيين يصفقون بأيديهم وغير ذلك .

ثم تقدمت المقابر فصار الميت يوضع في تابوت خشبي مربع مثل غرفة صغيرة ويدفن معه وكانت التقدمات توضع في آنية من الطين ثم ارتقت الى آنية حجرية وكان يرى في المناظر الريفية وغيرها صورة الحمار الذى كان حيوان الحمل فى مصر وأما الخيل فدخلت أخيراً مع الهكسوس ولكن صورة الجمل لا ترى بين هذه النقوش لانه على الارجح لم يستعمل في مصر إلا بعد أزمنة متأخرة وقد وجدت نماذج طينية له في عصر الاسرة التاسعة والعشرين

فكانت القبور فى الأسرتين الأولى والثانية قليلة التأنق وكانت توضع الجثة بعضها فى حجرة عميقة تحت الارض فوقها حجرتان فوق الأرض إحداهما للعطايا المقدمة للروح والاخرى لتوضع فيها تماثيل الميت . وكانوا يبنون القبور فى أول أمرها من اللبن المجفف و يشيدونها على شكل هرم ناقص هو ما يسمى بالمصطبة وارتقت فكان يبنى فوق المصطبة مصطبة اخرى أصغر منها وهكذا حتى نشأ من ذلك ما يسمى بالهرم المدرج كما نرى فى هرم زوسر مؤسس الأسرة الثالثة والذى يعتبر هرمه أقدم بناء كبير من الحجر فى التاريخ وأنه من السهل دخول هذا الهرم ودرس بنائه كقبر هائل وقيل ان القصد من بناء الاهرام الباذخة الهائلة هو ايجاد مكان حصين لاخفاء جثة الملك وحفظها سليمة فى مخدعها داخله ولذا عملوا على اخفاء مدخل الهرم وصعوبة الدخول اليه .

وفى زمن الأسرة الثانية عشرة فى الدولة الوسطى صنعت نماذج من الخشب لتوضع مع الميت زيادة عن النقوش المرسومة على الجدران والمنقولة من كتاب الموتى وغيره وكانت مثل هذه النقوش مستعملة منذ الدولة القديمة ثم تحول الاعتقاد الى مجرى آخر فاعتقدوا أن الروح تخرج من القبر وترحل الى مملكة حيوية أخرى أما الاعتقادات الخاصة بالعالم الآخر فقد اختلفت باختلاف الزمان والمكان فاعتقد البعض أن الروح يسير فى التلال الواقعة غربي ابيدوس الى (امنتي) او يسير فوق المستنقعات الغربيـة للدلتا وان النفس المنتصرة تتحد مع رع فى مركبه السماوى وتساعده في محاربة واهلاك اعدائه وعند الغروب ترى عند الشمس حمرة في الافق هي حمرة النار التي تأكل أولئك الاعداء وفي تلك المرحلة التي يرحلها يجد من الضرورى ان يتزود بمؤن التعاويذ وطلاسم السحر ليدفع عن نفسه اذى الوحوش والشياطين التي تعترض طريقه في مرحلته

وكانت « الكا » تنقش كثيراً على الجدران وكذا تاريخ حياة الميت والملوك الذين حكموه

وكانت القبور فى زمن الاسرة الثانيــة عشرة اصغر واضيق بالنسبة لغيرها وكانت لها سقوف ذات قباب

اما اهرام الملوك فكان يبنى بجوارها معابد للتقـدمات وللاحتفال بها وقبل عصر بناة الاهرام كانت الملوك تدفن فى حجر من الحجر ويوجـد من هذه القبور كثير في ابيدوس اما اقدم الاهرام فكما قدمنا هرم زوسر المدرج بسقارة اما ملوك الاسرة الثامنة عشرة واشرافها فقد هجروا فكرة بناء الاهرام والمصاطب وعمدوا الى صنع مقابر محفورة فى الصخور والجبال وكان مكان هذه القبور يكتم سره خوفا من اللصوص والعابثين وكانت الاحتفالات بالتقـدمات تقام فى معابد خاصة مشيدة فوق السهل المفصول عن وادى مقابر الملوك بهضبة عالية

وكانت مقابر الملوك تحتوى على عدة غرف وكانت جدرانها تغطى بالنقوش والمناظر والصلوات والتعاويذ السحرية وصحف من كتاب الموتى وبعضها منقوشة نقشاً بديعاً جميــلا وأما الفقراء فكانوا يدفنون موتاهم راغبين فى القـرب من نبلائهم ما أمكن فيقدر الأموات على التمتع بتقـدمات الأغنياء أما بالسرقة أو بالاحسان

واما عن التوابيت وزخرفتها فيأخذ وصفها موضوعا آخر واقدم ما فى المتحف المصرى من التوابيت يرجع عهده الى الاسرة الثانية عشرة ومنذ الأسرة السابعة عشرة كانت المقابر تنقش نقشاً بديعاً وظلت كذلك حتى قبيل المسيحية حين انحطت صناعة التحنيط وتجهيز الاكفان والتوابيت

وكانت الأرواح الحافظة تصور داخل التابوت وفوق غطائه تظل الميت بجناحيها كما تحفظه التعاويذ والطلاسم المكتوبة معه من عقبات الشياطين والأرواح الشريرة وأنه لمن الصعب أن نتصور كم كان يعتقد المصريون بأن من عمل فى دنياه صالحا لقى خيراً كثيراً فى الآخرة ولقد سبق ذكر بعض المعتقدات الدينيه التى تساعد القارىء فى فهم مبادىء هذا الموضوع فالقبور بالديانة علاقة متينة

وأما تحنيط الجثث القديمة فكان معروفاً من البدء للمصريين ولكنه من

الصعب أن نميز فى الجثث القديمة في الدولة القديمة بين المياء المحنطة و بين الجثث المحفوظة فى الرمل الجاف

وأما مومياات الاسرتين السابعة عشرة والثامنة عشرة فكثير حيث بلغ التحنيط درجة راقية

الفصل العاشر

علوم المصريين

لاشك أن ماوصل الينا من أنباء علوم المصريين هو النذر اليسير وأن الناظر لاهرامهم ومعابدهم ومسلاتهم الهائلة ليعجب كيف قدر على تشييد ذلك من لم يعرفوا قوة البخار وآلاته الرافعة أو الحديد والفولاذ

وقد اشتغل المصريون بعلوم الفلك منذ أزمان قديمة وقد وجد في بعض المقابر آلات للرصد ومصورات للسماء وأبراجها ونجومها وهم أول من حسب طول السنة وأول من وضع التقويم

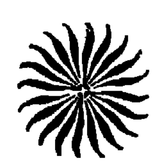
وأما نبوغهم فى فن الهندسة والعمارة منذ عهدمينا فلا يحتاج الى شرح وأما علم الكيمياء فقد ضربوا فيه بسهم وكفى بفن التحنيط شاهداً وكان بمصر معامل كيميائية واستعملوا الذهب في التذهيب بلصق أوراقه على مايراد تذهيبه كما استعملوه في التطعيم ونقش الانسجة وعرفوا تركيب الأصباغ الثابتة التي مازالت حتى يومنا باقية وكذلك الألوان المختلفة وصنعوا من خليط الذهب والفضة نقوداً واستعملوا البرنز في صنع المرايات والدروع وغيرها كما استخدموه في صنع آلات صلبة لقطع الأحجار ونحتها وصنعوا من الحديد سيوفا وأسلحة وأزاميل وصنعوا من الرصاص أنابيب المياه واكتشفوا صناعة الزجاج وتلوينه لتقليد الأحجار القيمة واستعملوا في ذلك اكسيد الحديد للتلوين باللون الأحمر واكسيد النحاس للتلوين بالاخضر واكسيد الكوبلت للازرق وكانت لهم اليد الطولى في صناعة الخزف والحلي وسبك المعادن

وقد تقدم الكلام على نبوغهم في الطب والجراحة

وكان للمصريون القدح المعلى في العلوم السحرية وقال في ذلك ماسبرو « ان السحر عند قدماء المصريين علم يرجع تاريخه الى أقدم الأزمان » وكما كان للفلسفة مدارس مثل جامعات عين شمس كان للسحر أيضاً مدارس وكانت كتب السحر معدودة في الكتب المقدسة ونبغ في السحر كثير من أبناء الفراعنة أنفسهم

وأما علوم الحكمة والفلسفة والقوانين الادارية فكان المصريون مصدرها وعنهم نقلتها الامم وعنهم درس كبار الفلاسفة مثل افلاطون وفيثاغورس وصولون واقليدس وغيرهم

وأما التحنيط فما زال سرا من أسرارهم ولكن يشرحه البعض بقولهم أن طريقته اختلفت باختلاف العصور ويغلب على الظن أن الجسم كان ينقع في محلول الصودا الطبيعية أو النترون وكان الجسم يفرغ من محتوياته الداخلية خصوصا بطريقة الضغط والعصر فكان المخ يخرج من الأنف وأما الأمعاء والأعضاء الداخلية ماعدا القلب فكانوا يخرجونها من شق في الجانب ثم يملأون فراغ الجسم بالطين والصموغ والعطور وأما العناية بلف الجسم والشعر فكانت كبيرة وكانوا يصبغون الوجه ويصنعون عيونا صناعية ليعيدوا للوجه رونقه ولسوء الحظ أن جل علوم المصريين لم يحفظ حتى يصل الينا لأنهم لم يدونوا معظمها بل كانت مثل أسرار يتوارثها الابن عن أبيه كما أن بعض العلوم كانت قاصرة على الكهنة وتلاميذهم أو أبناء الملوك وأمثالهم



الفصل الحادي عشر

زراعة المصريين

اشتهر وادي النيل منذ فجر التاريخ بالزراعة فكانت مصر وما زالت بلداً زراعية تعتمد في معيشتها على الزراعة وأهم مازرعه قدماء المصريين القمح والكتان والذرة وحبوب أخرى وكذلك الفواكه والتمر والعنب

كتبت مجلة رعمسيس عن حدائق المصريين ما يأتي « تفنن قدماء المصريين في تنسيق الحدائق وغرسها حول منازلهم ودورهم وقصورهم حتى كانت الروائح العطرية تفوح من الازهار والورود في طول المدينة وعرضها ناهيك بأشجار الكرم التي كانت تظلل رحباتهم الواسعة وطرقاتهم وعماشيهم حتى شبه كثير من المؤرخين بعض المدن المصرية بجنات مظللة بالخضرة النضرة والغياض الفيحاء

قال الاستاذ ولنكس من علماء الآثار في محاضرة القاها بجامعة شيكاغو بامريكا: ان المصريين وجهوا عنايتهم الاولى بعد تمليح أرضهم الخصبة الى نقل الأشجار المثمرة والأزهار العطرية من الأقطار الأجنبية الى بلادهم. وكانوا يرسلون البعوث العلمية والفنية الى البلاد الاسيوية لاختيار أنواع المغروسات العديمة النظير في وطنهم وأول بعثة يذكرها التاريخ المصري بعثة الملك «حتشبسو» المشهورة من العائلة الثامنة عشرة الى بلاد العرب والصومال وقد نقلت من تلك الأصقاع الى بساتين طيبة نوعا من شجر التين كانت له رائحة عطرية. وغرست في الضواحي أشجار العنب في مسيرة أميال طويلة حتى غطت بعروشها الجبل وصيرته مهوى للمتنزهين بعد أن كان سعيرا يتقد من حرارة الشمس. ثم جاء تحوتمس الثالث الذي يعد من كبار الفاتحين ونقل الى مصر من بلاد أشور التي غزاها اعشابا كثيرة وأشجارا متعددة. وأعقبه سيتي الأول من العائلة التاسعة عشرة فأوفد وزيره « تخمينو » الى أرض الحيثيين لحفر الآبار في طريق مناجم الذهب والفيروز فاحضر معه بعد عودته شجرة ذات ثمر لذيذ يمتلىء عند نضجه

بمادة لبنية وغرسها بحديقة قصره فأثمرت ثمراً يانعاً وشبهها شعراء مصر وقتئذ بالاله توت اله العلوم والفنون والسحر . ولم يكتفوا بذلك كله بل غرسوا الكروم فوق عروش متوازية الخطوط واركزوها على عمد من الخشب ذات تيجان محفورة في شكل رؤوس شجر البشنين وزينوها بألوان زاهية تزيد المنظر بهاء وجلالا وقد عثر الاثاريون في مقبرة بمدينة طيبة لرجل من العائلة التاسعة عشرة يسمى «انا» على رسوم وصور تمثل شكل بستان كان يمتلكه هذا الرجل وفيه ترى أشجار الجميز والرمان والكرم والبلح ونبات المستحية وأنواعا مختلفة من الزهور الفياحة وكل تلك النباتات الجميلة كانت منسقة تنسيقا فنيا وهندسيا ومسيجة من جهاتها بالأشجار المتنوعة وتتوسطها البرك تلعب في جوانبها الأسماك . وتنتشر وراءها هنا وهناك الفوارات وأعشاش الطيور وأماكن الراحة المظللة بعروش من النباتات المختلفة الألوان

وأغرب من كل هـذا وذلك أنهم كانوا يستخدمون القرود ويمرنونها لجمع الأثمار الناضجة وفي آثار بني حسن بمديرية المنيا لوحة تمثل هذه الحيوانات وهي تساعد العبيد في أعمالهم . وتوجـد لوحة أخرى تمثل القردة وهي تقطف العنب وتضعه في سلال بل وتحمله الى المعاصر لعصره خمراً وكانوا يستخرجون من البلح أو التمر خمراً أيضا يسمونه « سكودون » ومن الشعير خمراً يسمونه « مريسا » أو « هك » ومن العسل والتين والنبق والمخيط والتفاح والرمان وبعض الأعشاب خموراً أخرى كانوا يتناولونها ويستعملونها في علاج بعض الأمراض . ويؤخـذ من بعض الأوراق البردية الباقية الى اليوم أنهم كانوا يطبخون خمر البلح مع التين والمخيط ثم يصفونه ويستعملونه مسهلا . وكانوا يطبخون دهن الاوز وكبريتات الرصاص مع نبيذ العنب ويستعملونه لتسهيل البول وتحسين المزاج . ويعالجون المعدة والقلب بمحلول مركب من النبيذ والحبة السوداء الخ الخ . . . .

الفصل الثانى عشر

الخمر

وقد انتشرت تلك الخمور التي استنبطوها فانتشرت بذلك الحانات في مصر بحيث لم تبق قرية ولا مدينة خالية من حانة أو حانات كان يختلف اليها الرجال للسكر وترى في آثار بني حسن صورة تمثل رجالا سكارى محمولين على رؤوس بعض الجنود الى منازلهم . أما النساء فكن يتناولن الخمر أيضا ولكن في منازلهن وفي آثار طيبة صورة تمثل طائفة من السيدات يتقيأن ماشربنه في آنية يحملها بعض الخدم ثم يستنشق دواء لم تعرف مواده بعد لاعادة صوابهن

وقد كنا نظن الى عهد قريب أن مسئلة المسكرات في مصر القديمة كان مسموحا بها للجميع ولكن المباحث الأخيرة التي أجراها علماء الآثار دلت على أن القانون المصري كان يمنع الشبان المصريين من تناول أى شيء من المشروبات قبل بلوغهم سن الثلاثين . ثم لما انتشرت المسكرات الفت الجمعيات لحمل الناس على الامتناع عن الخمر واليك ماقاله أحد أعضاء تلك الجمعيات ووجد مكتوبا في ورقة من البردي : « لاتدخل حانة المسكر لئلا ينقل عن لسانك ماتقوله وأنت لاتدري به واذا سقطت أرضا تهشمت أعضاؤك ولا تجد من يمد لك يداً بل يقول ندماؤك وصاحب الحانة اتركوه انه سكير ابله » . وجاء في ورقة أخرى : « السكير كهيكل بلا آلة وبيت بلا خبز ولا سكان » .



الفصل الثالث عشر

تربية الحيوان

كان المصريون يعتنون بتربية الحيوان عناية كبرى وكانوا يقتنون قطعان الغنم والبقر والماعز والاوز والدجاج وكان الحمار حيوانا شائعا يستخدم في الحمل والنقل وأما الخيل فادخلها الهكسوس ولهم طريقة مازالت للآن أفضل الطرق فى التفريخ الصناعي ولا يجد العلماء الآن طريقة تفوقها وهم أول من امتاز منذ العصور الغابرة بتربية النحل وثمة مايؤيد ذلك مما نقش على القبور القديمة والآثار العتيقة وكانوا يرون في تربية النحل صناعة من أهم الصناعات لأنها تدر عليهم العسل والشهد وكانوا يصنعون خلايا النحل فوق مراكب شراعية وينتقلون بها في النيل الى حيث يطيب الطقس ويجد النحل له مرعى جيداً وكانت مراعي النحل كثيرة في حدائقهم ورياضهم ومزارعهم الواسعة النضرة .

الفصل الرابع عشر

فرعون واشتقاقه

اختلفت الآراء وتشعبت فى معنى ومصدر لفظة فرعون وقد رأينا خير سبيل لشرحها ذكر مقال نشره المرحوم احمد باشا كمال في الجرائد قال :

« ان فرعون لفظ مصرى مركب من اشارتين : الاولى رسم بيت مستطيل الشكل له فتحة في أسفله دالة على بابه . والثانية رسم مثقب يثقب به الأخشاب — فاما البيت فيلفظ به ب . ير وأما المثقب فلفظة ع . غ وكل واحدة من هاتين الاشارتين تستعمل اما على افرادها مخصصة بصورة الشيء الذي وضعت له واما يضاف اليها جزء آخر مكمل لها للدلالة على كلمات أخرى متنوعة المعاني واليك بيان هذا الاستعمال .

البيت — ب . بر . يقلبان بعض الأحيان ف . فر . فل . بل — أى الباء فاء والراء لاماً مع ادخال المتحركات عليهما فيقال : بأة . بيئة : منزل من اباء بالمكان حله وأقام به وهي كلمة توجد فى كثير من اسماء الاعلام الدالة على المدن نحو . يسير بوصير ومنها البوصيري وهي قرية قديمة فى مديرية بني سويف . . يبسمت بيته البسة أى القطة الشهير الآن بتل بسطة الواقع فى الجهة الشرقية من مدينة الزقازيق لان فى هذه المدينة كانوا يعبدون القطة لذلك يعثر فى اطلالها على كثير من صور هذا الحيوان . بيتوم — بكيثة المعبود توم وتعرف فى التوراة باسم فيتوم وكانت مدينة قديمة لاتزال أطلالها موجودة بجهة القنطرة على طريق السويس والحاصل أن لفظة (ب) توجد كثيراً فى أوائل اسماء البلاد محرفة عن أصلها فيقولون ابو قرقاص وأبو صير الخ

بر — القمح ويرسم بعض هذا اللفظ ثلاث دوائر صغيرة دالة على الحبوب ويقال فى اللغة المصرية والعربية . الحنطة والسويداء والفوم الخ .

بل — ندي ويرسم بعده شفتان يسيل منهما اللعاب اشارة الى معنى الفعل .

برع — بزيادة العين عليها . فاق غيره فى العلم ومنها البارع جاء بهذا اللفظ فى المصرية والعربية على أنه مشتق فى اللغتين من مادة برع

برح — وتقلب أيضا الحاء هاء . أى برح المكان وبرح منه برحا وراحا بالتحريك فيها . زال عنه

المتقب . ع . غ يدخلان جزأ فى بعض الكلمات الواردة بلفظها فى المصرية والعربية من ذلك

عجلة . عجل واعجال وعجال . آلة يجرها الثور أو غيرها من الحيوانات محمولا عليها الاثقال

عقاص . من عقص شعره لواه وفتله جمع عقص . خيط يشد به أطراف الذوائب . عشق . وبالعربية عسق أى ألح فى الطلب عليه لأن الشين تقلب سيناً مثل شلم بالمصرية وبالعبرية ويسلم بالعربية

على ـ وبالقبطية . «أيه» وبالعربية أغيا الرجل بلغ الغاية فيالشرف والأمر وأغيا الفرس في سباقه كذلك والمغيي الموضوع له الغاية أي الراية لعظم شأنه

وقد جمع المصريون هاتين الاشارتين فرسموا البيت فوق المثقب وقرؤه «برعو» فأخذه عنهم العبرانيون واليونان وقالوا «فاراعو» وكتب في النصوص المصرية الاتيوبية بحروف هجائية بسيطة «برر» «بروي» فنقل في القبطية بهذا اللفظ «بور» أي تلك لكن ذكر «هورابولون» في صحيفة ٦١ من الجزء الأول الذي حرره باللغة اليونانية ان معنا «برعو» الباب الكبير ولما رأى شاه بي أن المصريين القدماء لم يبينوا معنى الكلمة ولا اشتقاقها ذهب الى أن «فرعو» مأخوذ من «ب . رع» أي الشمس مستنداً على أن الفراعنة كانوا يعزون أنفسهم للشمس اذ ورد في النصوص المصرية أن كل ملك حكم مصر يلقب بابن الشمس . ورأى غيره من الأثريين خلاف ذلك فقالوا ان الكلمة تنصرف الى معنى البيت الكبير أو الباب الكبير اقتداء «بهورابوللون» وكل ذلك من باب الاجتهاد ليس الا والحقيقة أنه اسم جامد وضع للدلالة على كل من تولى الملك في الديار المصرية وقد نوع الكاتب المصري رسم الكلمة بخط المثقب أولا ثم خط أسفله بيتين كالبيت السابق وصفه اشارة الى أن معنى الكلمة الكبير «المغيي» للبيتين أي القطرين القبلي والبحري من وادي النيل وبالجملة فان للملك اسماء كثيرة ذكرت في النصوص المصرية ونقلت عنها الى العربية من ذلك

صيدأني ـ حق . فيتق . آني كفني وزناً أي نافذ يتأتى للأمور

هذا ماأمكننا الحصول عليه لاظهار حقيقة الكلمة التي ذكرت في الكتب المقدسة وربما يتسنى لغيرنا من دقة البحث استيفاء هذا الباب حقه اذ فوق كل ذي علم عليم »

الفصل الخامس عشر

النيل

وكما تضاربت الآراء فى لفظة « فرعون » تضاربت أيضاً فى لفظة « النيل » وقد جاء فى التوراة أنه كان يسمى بشيحور . فنى سفر اشعيا (٢٣ : ٣) « وغلتها زرع شيحور حصاد النيل » وفى سفر أرميا (٢ : ١٨) « وأنا مالك وطريق مصر يشرب مياه شيحور » كما ورد النيل باسمه فى التوراة أيضاً ولنذكر مقالا نشره أيضاً أحمد باشا كمال فى صحيفة الاهرام عن أسماء النيل قال :

« الى الآن لم يهتد أحد من الاثريين الى اسم النيل بالتحقيق بل وجدوه في العربية واليونانيـة فقالوا انه مأخوذ من اللغة الفنيقيـة أو الاشورية الى نحو ذلك ووقف بحثهم الى هـذا الحد نخرجه (جروف) بطريقة لا تنطبق على الحقيقة لما فيها من التكلف . لكن هناك لفظ مصرى دال على النيل لانه ذكر فى الجدول الشامل لاسماء هذا النهر المبارك المنقوش على الآثار ونقله بروكس في قاموسه الجغرافي فراجعه في الصحيفة ١٤٠٨ وهذا اللفظ هو ننو ونينو ورد أيضاً فى قاموس اللغة للاثرى المذكور (جزء ٣ الصحيف ٧٧٩ وجزء ٤ للصحيفة ٦٧٨) وذكر كثيراً فى النصوص المصرية . ونونه الاخيرة تقلب فى العربية لاماً اذا أريد مقارنته بالنيل كماسترى فى الاسئلة الآتية من انقلاب النون المصرية الى اللام في العربية .

ن . حرف فى المصرية ويقابلها فى العربية والعبرية لا

نن . معناه الليل بقلب النونين لامين (وخلفه اشارة السماء مزينة بالنجوم)

نن . ننو . الاء . اللائى . اسم اشارة فى اللغتين .

نز . لوز شجر معروف

نت . التي الذى (لان التاء تقلب ذالا) اسم موصول فى اللغتين

نبن . ننبن . لبنى وهى شجرة الميعة أى المصطكي

نخب . لقب والقاب الخ

اذا علمنا ذلك جاز لنا أن نقول ان (ننو) أو (نينو) هو النيل لان هذا التخريج لا يخرج الكلمة من المعنى الذي وردت بها فى اللغة المصرية أن قد ذكر فى ورقةهريس(harris 1, 43, 9)نص معناه.قربان الاعياد الكبيرة لمبدء(ننو) أى القرابين التي كانت تقدم للنيل فى مبدأ الفيضان.وفى نقوش دندرمعبارة معناها (dend. his.. ins. 29) دمهم مثل(ننو) أى مثل النيل وجاء أيضاً فى صحيفة ٢٥٦ من قاموس بروكس الجغرافي هذا النص . جبلا (ننو) أى الجبلين المحيطين بالنيل عند الشلال الاول ــ و (ننو) تطلق أيضاً فى اللغة على جدول القسم العاشر فى الوجه البحري (راجع كتاب الجغرافية بروكس بصحيفة ١٥ و ٢٥٢ والجزء الثالث منه الصحيفة ٢٩)

أما اسم النيل المقدس فهو (حعب) و (حعبي) والباء فى المصرية تأتى لتضعيف الحرف الاخير

واعلم أن (الحا) و (النون) و (الراء) تسقط فى بعض الكلمات المصرية وهذا أمر معلوم عند الاثريين فمثلا كلمة (أمن حتب) اسم من أسماء ملوك مصر ذكر فى اليونانية باسم (أمنوفيس) فاء فاء الكلمة تحذف منه متى أول الى العربية فهو يقابل طاب يطيب طيبة . والصفة منه طيب وطيبة الخ

فكلمة (حعب) تقابل اذن فى العربية (عب) (البحر عباباً . ارتفع وكثر موجه) وعبت مياه متفرقة (وعباب) .معظم السيل وارتفاعه وكثرته وقيل موجه والبعبوب (قال أهل اللغة ان الياء فيه زائدة) النهر الشديد الجرية والجدول الكثير الماء (مخصب) أى (اليعبوب) اسم متداول كثيراً فى اللغة وذكر فى مدحة النيل التي كتبها ماسبرو وترجمها فى كتاب قصص العوام المصرية واليك مطلع هذه المدحة عن ترجمتى لا ترجمة ماسبرو .

«تعظمت أيها اليعبوب تنزهت أيها اليعبوب» (حرف النداء محذوف كما يأتى ذلك فى العربية) البارز فى هذه الارض السائر لعيشة مصر مسيرك كين ليلا ونهاراً مسيرك ممدوح لانه يروى الحقول التي أوجدتها الشمس ليعيش جميع

الحيوانات ويروى الصحراء البعيدة عن الماء . نداه هوى السماء (أى مياهه من المطر لان هوى السماء هو مايهوى منها فى الماء أى المطر) فالارض تروم (٥) وتتقرب بالحب (أى تجود بالحصول) . الخ

أما أسماء النيل الواردة فى الجدول المنقوش على الآثار فهي اثنان وخمسون اسما استعملت أما بوجه الحقيقة أو بوجه المجاز لعلاقات معلومة عند أهل اللغة قديماً وسأذكرها هنا حسب ترتيبها فى الآثار مع مايمكنني مقابلته ومقارنته بالعربية وان كانت هذه المقارنة تحتاج الى تحقيق ونظر . —

١ — « اتور » تور ادت (بالقلب) نار الأتورا . جرى . طرى . طريا . جرى . روط (نهر) والكلمة الاخيرة الثالثة ذكرها بروكس فى جغرافيته بعدد ١٠١

٢ — « أكب » أجب (لان الكاف والجيم ينوب بعضهما عن بعض) . كب صب وأجب سال وجاب . حوض . منافع الماء .

٣ — « عمم » . أم . نهر كبير (والحرف المشدد بحرفين)

٤ — « ارت » (راجع عدد ١) نهر . عرض . وسط البحر (أو هومقلوب ترع . ترعة)

٥ — « عق » عق . صغر وعقيق . كل سائل شقه الماء قديماً عقيقة . نهر

٦ — « ارى » وبالقبطية ايول . عيل الماء الجارى فوق الارض . بعلول . غدير أبيض مطرد

٧ — « ارم » عيلم (١ . ع . ر . ل) . بحر

٨ — « ارش » ارشت العين الدمع أسالته ورش أسقا

٩ — « احمنتح » معناه (معبد الحياة) ؟

١٠ — « اشر » شريرج أشرة . بحر

١١ — « استن » سطون : بئر عميق ؟

١٢ — « اج » أى لجة

١٣ ـ « وجورى » جارور . بحر

١٤ ـ « بعح » مقلوب فياح أفيح (الباء فاء والعين حرف متحرك) ؟ بحر

١٥ ـ « يب » أباب الماء عبابه . أباب سال وموج

١٦ ـ « بد » (ب . ف ود . ص) فيض افياض وفيوض بحر

١٧ ـ « مو » ماء

١٨ ـ « مميت » محيط

١٩ ـ « مورنب » مأرابى (لان رنب يقابلها ربى بسقوط النون)

٢٠ ـ « موأو » (الماء الواسع) ؟

٢١ ـ « موزم » وبالادغام . ماذ اعظم الغلمان وهو الذي يسقي الارض كلها

٢٢ ـ « معتى » و (العين حرف متحرك والتاء تقلب ذالا) مدى .حوض ليس له نصائب

٢٣ ـ « متر » ؟

٢٤ ـ « نو » نؤماء السماء

٢٥ ـ « نفنف » . نفنف كل هوى بين جبلين . نفت السحابة ماءها . مجته

٢٦ ـ « ننو » نيل

٢٧ ـ « نه » نهي ونهي وانهاء ونهى ونهاء : الغدران والاخاديد

٢٨ ـ « نى » نوض ونض نضنا أخرج الماء . نتة . حفرة يجتمع فيها الماء

٢٩ ـ « ترم » ؟

٣٠ ـ « نز » نز الماء نزاً اذا خرج من الارض. نزت الارض تحلب منها النز وصارت منابع

٣١ ـ « هنهت » الهت . الصبب

٣٢ ـ « حعت » (والعين حرف متحرك) حوض وحياض وأحواض من حاض الماء جمعه

٣٣ ـ « حعت » شمع : الحوض القبلي أى النيل الاعلى

٣٤ ـ « حعت محى » الحوض البحري أي النيل الاسفل

٣٥ ـ « حعب » يعبوب

٣٦ ـ « حبب » حبحب الماء : جرى وحباب الماء معظمه

٣٧ ـ « حرت » خريص : بحر

٣٨ ـ « نحح » منحاة . مسيل ملتوي من نحى

٣٩ ـ « خنب » . شنب ؟

٤٠ ـ « بحر » . بحر بحر

٤١ ـ « سرف » : زفر . بحر بالقلب

٤٢ ـ « سرم » . شرم : لجة البحر

٤٣ ـ « سخت » ؟

٤٤ ـ « سدف » . ستف وهو متعدي من الفعل دف : طاف=طوفاً ومنه الطوفان .

٤٥ ـ « قدنو » . قدن : الكفاية والحسب فى اللغتين والمراد منه هنا . كفاية المياه

٤٦ ـ « سمنو » ؟

٤٧ ـ « قبح » ؟

٤٨ ـ « قمر » . غمر واغمار . الماء الكثير معظم البحر

٤٩ ـ « كك » ؟

٥٠ ـ « تونو » ؟

٥١ « ات » آتى والجمع أتى كل مجرى ماء (اضاءة . غدير جه أضيات وأضى) ؛

٥٢ « شن » شن : صب . شن الماء على الشراب وعلى الارض انتثر وشانه حرشوان من السوائل كالرحبة . وقيل مدفع الوادي الصغير

هذا وقد ذكرت بعض الكلمات في الجدول الوارد فى قرطاس (أمثم أبو)

المحفوظ بمتحف لندرة وهو شامل لأسماء الغدران والبحيرات والآبار والبرك الخ لكن لانرى فيما ذكرناه من أسماء النيل مايدل على اليم مع أنه ذكر فى المصرية والقبطية والعربية بهذا اللفظ وقد نص عليه القرآن فى قوله تعالى . فالقه فى اليم ولا تخافى . وفى قوله فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدولى وعدوله . والضمير راجع الى سيدنا موسى عليه السلام حين ألقته امه فى النيل بعد أن وضعته فى سفط من البردى

أما ما ورد فى الجرائد عن (سيحور) و (شيحور) وغيرهما هى أسماء للنيل فلم أر فى نص من النصوص المصرية ما يدل على أنها اسم لهذا النهر فلذلك أقول انه قول مردود مادام لا يوجد فى اللغة المصرية نص يؤيد ذلك . هذا ما وفقنى الله اليه وربما يتيسر لى فى المستقبل أن أوفى كلامي هذا حقه حتى يكون حجة دامغة انتهى ».

وقد ذكر غير ما قدمناه عن لفظ « نيل » آراء مختلفة نذكرها كآراء لا كحقائق لأن حقيقة اللفظ مازالت سرا لكنها بنت البحث

قال بعضهم ان لفظة « نيل » مشتقة من « نى يالو » المصرية ولما كان البشارمة ينطقون الراء لاما فلا بد أن تكون الكلمة الأصلية « نى يارو » التى ربما اشتقت منها كلمة نهر وكان لهذه اللفظة مرادفات منها « دى اميرى » أى الفيضان النيلى ومازالوا في الصعيد يقولون « زمن الدميرة » وقد ذكر المؤرخون الأقدمون مثل ديدورو وبلوتارخ وسترابون وبطليموس الفلكى وغيرهم اسماء يونانية مختلفة فقالوا « ايجبتوس — ايتوس — اغاثودمنون — استابوراس — استابوس — استوساباس — استوسابيس — خريسورواس — جيون — تريتون — سيريس — الاقيانوس — ينجربس ميلو — ميلاس — ماجناس فلافيوس

وأن البحث فى لفظة النيل أو تاريخه عند قدماء المصريين فقط لتضيق عنه المعاجم ولكن محب البحث لايجد نصاً في الرجوع الى لفظة « نيل » فى دوائر المعارف الاوروبية لاسيما دائرة معارف بريتانيكا الانجليزية ودائرة المعارف الفرنسية

الـكبرى ودائرة المعارف الالمانية غير ماذكر فى هذا المقال من المراجع التاريخية والجغرافية . ونختم بحثنا فى موضوع النيل بكلمة مقتطفة من مقال للاهرام عن عيد النيروز لاختصاصها بالنيل اجمالا . « قديماً قدس المصريون من أعيادهم السنوية الاحتفال بعيد النيل واليك ما يقوله المؤرخ الانجليزي الكبير (ولـكنش فى كتاب مصر القديمة جزء أول صحيفة ٢٨٢) .

وكان من أفخر الاعياد السنوية عيد « النيلوا » أو دعوات التبرك بالفيضان الذى يقام للآلهة حامية النيل — وقد قل (هيليدورس) انه كان أحـد أعياد المصريين الـكبرى وكان يقع عند مايبلغ الصيف أشده ويأخذ فى الزيادة وكانت شـدة رغبة المصريين فى الفيضان العميم تجعلهم يبالغون فى الاحتفال به الى حد غير المعتاد ــ وأكد (لبانيوس) أنه كان لهذا العيد شأن عظيم عند المصريين الى درجة أنهم كانوا يعتقدون أنه اذا لم يقم ذو الشأن باقامة الاحتفالات اللائقة به فى حينها فان النيل يمتنع عن الزيادة ولا يغمر الماء الاراضى ــ وكانت هذه العقيدة المتأصلة عن تأثير الاحتفالات فى الفيضان تحملهم على اقامتها كل عام بدرجة هائلة فقـد كانت النساء والرجال فى جميع القطر يجتمعون فى أقاليمهم ويقيمون الاعياد وتختلط جميع الملاهى المعروفـة بوقار العيد المقـدس وكانت موسيقاهم والرقص والاغاني الخصيصة تنبئ بمقدار احترامهم لآلهة النيل وكانت القسس تحمل تمثالا خشبياً لتلك الآلهة ويسيرون فى القرى باحتفال شيق ليباركوا الناس ويستمطروا بركاته التي سيهبهم اياها .

ولا عجب ولا غرابة اذا قدس المصريون نيلهم المبارك واحتفلوا بزيادته من غابر الازمان وماضى الايام فهو أصل حياتهم . ولقد ألهوا هذا البحر العذب الذى يفيض على بلادهم تبرا ويملأ ارجاءها طيباً وندا .

فعلماء علم تكوين الارض وطبقاتها حققوا قول « هيرودوت » ــ أن مصر هبة النيل ــ فالوجه البحرى بأجمعه بل ان جزءاً عظيما فى الوجـه القبلى من تربته الذهبية السودانيـة ومن فيضه العميم في وقت معلوم لايتغير وان تأخر أو نقص

فيضه كان البلاء بل كان الويل العظيم على من بمصر من عالم الأحياء .وصدفيات البحر المالح وقواقعه وغير ذلك من مخلفاته لا تزال بجانب الاهرام وبصعيد مصر تؤيد انتصار هذا النهر الخضم وهـذا المعبود المصري القديم على الماء الأجاج والبحر المتلاطم بالأمواج . بحر - راقودة - اوسكندرية الفيحاء . والهرما — بور سعيد - الغناء حتى لقد جعل المصريون عيد أول سنتهم مطابقا للوقت الذي يصل فيه النيل الى أعلاه . وأيد ذلك ماجاء على لسان ملك الوجه القبلي وكان ملكا للنوبة بصنختي حينما غزا فرعون مصر البحرية توحيداً للتاجين وتقوية لدعائم الملك المصري فقال .

«أقسم بحياتي وبما يحمله قلبي من الحب والخشوع للاله - رع - وبما أسد له على الأب - آمون - من العطف والشرف لأذهبن بنفسي وانزلن النيل الى أرض - توبحت - وأقوص أركان ملكه وأقيم بنفسي الاحتفال بالسنة الجديدة وأقدم الهدايا للأب - آمون - وأجعله يظهر بمظهره القدسي في عيده الجميل في معبد الجنوب - معبد لقصر - في ليلة أول السنة في طيبة - عبت - ويتبوأ عرشه القدسي في معبده في هذا اليوم الذي يوافق اليوم الثاني من الشهر الثالث من أشهر الصيف و يومئذ أقول بأنني سأجعل أرض الشمال تحس بضغط أصابع يدي »

فمن هـذا يتبين لنا أن أول السنة المصرية القديمة كان يوافق أوائل الشهر الثالث من أشهر الصيف وأول سنتنا الزراعية - القبطية - تقع أيضا في هـذا الوقت من فصل الصيف وتبلغ زيادة النيل قوتها المعتادة فلا عجب اذا دعا اخواننا الاقباط أول يوم في توت «بعيد النيروز» الذي معناه عيد السنة الجديدة .

الفصل السادس عشر

دار الآثار المصرية

ظلت الآثار المصرية مشتتة في بقاع لاتحصى من وادي النيل لايعنى بغير مايجده من النفيس فيها أحد ولم يهتم حكام مصر بها حتى أواخر أيام محمد على الكبير الذي فتح مصر للاوروبيين فنشطت تجارة العاديات لاسيما بواسطة قناصل الدول الذين لم يفتروا عن تبديدها وارسالها الى بلادهم فتفرقت الآثار أيدي سبا وكانت بعثة نابليون لمصر قدجمعت من وادي النيل ذخيرة قيمة فى ابحاثها ولكن الانجليز باحتلالهم الاسكندرية استولوا على تلك الكنوز التي جمعتها البعثة وفيها حجر الرشيد المشهور وفى عام ١٨٢٧ أرسلت الحكومة الفرنسية بعثة يرأسها شامبليون الفرنسي مكتشف الابجدية الهيرغليفية وروزيلينى الأثري الأيطالي فبذلت هذه البعثة جهداً كبيرا وعملت أعمالا هامة لاسيما فى نقل المناظر والكتابات الكثيرة من النقوش. وفى عام ١٨٣٠ عرض شمبليون على محمد علي انشاء مصلحة خاصة بالآثار المصرية ولكن قناصل الدول الذين وجدوا فى مشروع شمبليون العظيم كساداً لتجارتهم حرضوا الوالي الكبير محمد على فلم ينفذ المشروع ولو أن النصيحة أثرت فى نفسه حتى أمر بعد ذلك بخمس سنوات بمنع تصدير الآثار الى خارج القطر والتي امتلأت بها متاحف العالم وقصور العظماء وفى شهر اغسطس عام ١٨٣٥ انشأ مصلحة للآثار لتعمل على حفظها والبحث عنها ولكنها لم تنتظم الا عام ١٨٤٩ اذ أمرت وزارة المعارف لينان بك أن يعمل فهرسا للآثار ويجمعها فى مكان واحد ولكن هيهات أن يمنع ذلك دون اختطافها وسرقتها وتبديدها حتى انه وليعجب القاريء ماشاء حينما نقلت الآثار الى القلعة بعد تلك المجهودات وانشاء مصلحة خاصة بها لم تملأ الا غرفة واحدة

وفى عام ١٨٥٠ أتى الى مصر العالم الأثري الفرنسي المشهور المسيو مرييت « مرييت باشا فيما بعد » المتوفي عام ١٨٨١ الذي أرسلته الحكومة الفرنسية لشراء

مخطوطات قبطية من وادي النيل ولكنه لشغفه بعالم الآثار ودراستها عكف على درس آثار سقارة حتى اكتشف بها السرابيوم المشهور أو مدفن العجل ابيس الذي خلد ذكر ماريت في عالم الآثار ولم تكن له علاقة بمصلحة الآثار المصرية وقتئذ ولكنه ساعدها كثيرا حتى زادت الآثار في عام ١٨٥٤ زيادة كبيرة ولكن لسوء حظه وحظ مصر زار مصر عام ١٨٥٥ الارشدوق مكسمليان النمسوي فسأل عباس باشا الأول أن يهديه شيئا من العاديات والآثار المصرية فسمح له الباشا بأن يجمع ويأخذ ماشاء من القلعة وهكذا فى لحظة صغيرة انتقلت أنفس الآثار الى فينا

أما المسيو مريت خادم مصر الأمين فظل منهمكا في الآثار وتوسط المسيو ديلبس عند الخديوي سعيد باشا فجعل ماريت منذ يوليه ١٨٥٨ مأموراً لأعمال العاديات بمصر ومنذ ذلك الحين عكف ماريت على البحث والتنقيب طول نهاره بين الأطلال وسعى فى تنظيم الآثار على قلة المال الذي كان يستمده لمشروعه العظيم ثم سمح له سعيد باشا بنقل الآثار الى مخازن فى بولاق أعدت لها ومات سعيد باشا فيئس مريت من نجاح مشروعه ولكن كان اسماعيل باشا أكبر من عضده وفى عام ١٨٧٨ فاض النيل وكاد يغرق مخزن الآثار ببلاق وما فيه ولكن ماريت حفظها في صناديق وبذل وسعه فى انقاذها ومات مريت تاركا وراءه بجده ومثابرته متحفا مصريا من أعظم متاحف العالم

وفي عام ١٨٩١ نقلت دار الآثار الى الجيزة وفى عام ١٩٠٢ نقلت الى مكانها الحالي وخلف المسيو مريت المسيو ماسبرو وخلف الأخير بعد خمس سنين المسيو جريبو ثم المسيو مورجان ثم أخذ المسيو جاستون ماسبرو على عاتقه العمل ثانية ولما مات أوصى بأن لا تفتح وصيته التاريخية الا بعد ثلاثين عاما من موته وقد أول الناس ذلك لفكرة سياسية وقيل بل هو لا يرغب فى أن تحتك أسرار المدنية المصرية بالمدنية الحديثة وسنعرف الحقيقة بعد مرور المدة وكان المرحوم المسيو

ماسبرو عالماً بالآثار محبوباً وله مؤلفات مشهورة وترجمات من الهيرغليفية الى الفرنسية مأثورة

ويرى الناظر الى دارالآثار الحالية بناء فخما رائعا تكلف تشييده أكثر من مائتى ألف جنيه حتى اذا ما دخل الى قاعاته رأى كنوزا لاتقدر بمال وتعلم من تلك الغرف المكتظة فى الطابقين شيأ هاماً عن المدنية المصرية القديمة التى ترجع الى أعماق الأجيال والعصور . هنا يقف الزائر بين بقايا آلاف السنين فيرى أمامه جثث الفراعنة العظام باقية فى حنوطها ولم تبل ويقف أمام التماثيل المملوءة بالأسرار ويشاهد عادات وأعمال وفنون وصنائع أولئك القوم الغابرين

وفى هذه الدار المصرية مازالت جثث عظيمة محفوظة مثل موميات الفراعنة (أمنحتب الأول وتحتمس الرابع وامنحتب الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى ومنفتاح وسيتى الثانى ورمسيس الثالث) ويمر بموميات الأمراء والعظماء ويقف أمام تماثيل الأسر الرابعة والخامسة والسادسة ويمر بشيخ البلد الخشبي الجميل وزوجه وكتابات أونا وتمثال خفرع بانى الهرم الثاني وقبر حوروحتب وأبى الهول وآثار تانيس وآثار بعنخي وملوك النوبة وتمثال امنارتا ولوحة سقارة ورسائل تل العمارنة المشهورة وأوراق البردى المتضمنة حكم آنى وأوارق الفيوم البردية وما في حجرة البردى وجواهر الملكة عاحتب وجواهر دهشور ومحتويات مقبرة تيوا ووالدي الملكة تي التي اكتشفها المستر دافيس عام ١٩٠٥ وفيها العربة الذهبية وبقرة حاتور التي اكتشفها بالدير البحري عام ١٩٠٦ الاستاذ نافيل وغيرها من أنفس العاديات وهل يسع هذا الكتاب قائمة لما فيها من أجمل الآثار .

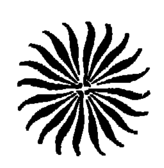


الفصل السابع عشر

بين أجداث سقارة وآثارها

ما الحياة إلا رحلة طويلة يلقى فيها المرء فرحاً وترحاً وكرباً ومرحاً حتى تؤدي به خاتمة المطاف الى ظلمة اللحود وهناك تهدأ الروح وتتعزى بذكريات تلك المرحلة التي اجتازتها مع الجسد لاسيما تذكارات الايام الحلوة التي قضتها فى السعادة ، وما أحلى أيام الانسان سوى تلك التي يقضيها ناعماً برؤية الغرائب والعجائب متجولا بين التذكار والآثار هناك مع صحائف السنين الدارسة بعيداً عن ضجيج المدن وزوابع المادة . حججنا الى سقارة الفنية باطلالها وذكريات الاجيال فوصل القطار من القاهرة الى البدرشين ومنها سرنا أكثر من ساعتين ونصف الى سقارة ومررنا بتلك العاصمة القديمة « ممفيس » التي مر عليها عصر كانت فيه من أكبر المدن وأكثرها سكانا وآثارا . . منف العظيمة أمست اليوم مغطاة بكفن من خضرة النخيل واكوام التراب . وقد سرنا في سبيل قامت على حراسة أشجار النخيل الباسقة فأكسبته جمالا وجلالا وهناك بالقرب قرية « ميت رهينا » رأينا تمثالى رمسيس الثانى الفاتح المشهور - التمثالين العظيمين الممثلين للعظمة الفرعونية والفنية أحدهما وأولهما اكتشف قبل ثانيهما واستلقى كل منهما على ظهره بعد أن تعب من القيام عدة عصور وترك أولهما ملتحفاً بالسماء يتطلع اليها بعيون ملؤها الطلاسم . ونام ثانيهما فى عشة خشبية تقيه لفحة الرمضاء أما طوله ف ٤٥ قدماً وله ساق مكسورة وأما عن بداعة صنعه ودقة نحتــه وعظم حجمه والابتسامة التي تبدو جلية فوق وجهه فكل ذلك يحتاج وصفاً دقيقاً غير مجمل وقد اكتشفه عام ١٨٢٠ (سلوان وكافيجليا) وأريد نصبه في فناء محطة القاهرة ليستقبل الزائر بعظمة مصرية رائعة فعارض بعضهم بحجة تكاليف نقله ولكن هل يأتي وقت نراه قائمــاً امامنا فى أكبر ميادين القاهرة ليذكر الناس بزمن عجيب . وسرنا من (ميت رهينا) الى قرية سقارة وبعدها يبتدئ السير فى الصحراء وهضابه وثمة تصادف المقابر العتيقة منتشرة فى

مسافة طولها ١٥ ميلا وعرضها ٣٠٠ قدم وقد فتحت تلك المقابر مرات عديدة . واسترحنا هناك من نصب التجوال بين الآثار في ذلك البيت الخشبي الصغير الذى بناه (مريت) حينما كان يجد فى البحث عن الآثار فى تلك الأنحاء وبعد برهة سرنا الى (السرابيوم) أو مدفن العجول المقدسة (أبيس) وقد رأينا على نور المصابيح فى ذلك الكهف الهائل تلك المقابر الرهيبة المودعة بطن الأرض ويحتاج وصف السرابيوم . وتاريخه الى تاريخ مستقل وخرجنا من السرابيوم الذى تضل فيه الظنون سبل النجاة لولا المرشدون وسرنا الى مصطبة (تى) التى يرجع تاريخها الى الأسرة الرابعة منذ ٤٥٠٠ سنة وكل البناء مدفون تحت الأرض ومع مرور الأجيال حفظت جدرانها تلك النقوش الجميلة التى زينت بها جدرانه وتلك الصور الغريبة التى ما زال بعضها ملوناً و يمكن المرء أن يستدل منها فقط على مجلد كبير من تاريخ قدماء المصريين وعاداتهم لكثرة النقوش الفنية بالأوصاف وقد اكتشف مستر مورجان عام ١٨٩٣ مقبرة ميرا وتحتوى على ٣١ غرفة فيها تمثال ميرا وتاريخه يرجع الى ٢٥٠٠ ق . م وهنا يطل على كل تلك الآثار المنتشرة فى سقارة هرم زوسر المدرج مؤسس الأسرة الثالثة وهو فاتحة الاهرامات وهناك هرم أوناس المشهور بني عام ٢٦٠٠ ق . م وثمة اهرامات عديدة متفرقة أهمها اهرام بيبي الاول ٢٥٣٠ ق . م



الفصل الثامن عشر

بين آثار الصعيد

فلنبدأ بالفيوم التى تعنى (اليم) أى الماء فكم مثلت على مسرحها روايات مشهورة وكان اليونان يسمونها «كروكود يلو بوليس» أى مسبح التماسيح التى كانت تعبد فى تلك الأنحاء وأقرب عهد لها فى أيام بطليموس الثانى اذ كانت تعد عاصمة القطر ولنحج الى بركة قارون التى كانت يوماً من الايام الغابرة مخزناً للمياه فى بحيرة موريس وتستمد مياهها من بحر يوسف وقد اكتشف الاستاذ فلندرس بيترى خارج مدينة الفيوم عمود هوارة وبجواره بقايا قصر اللابيرنت ثم سرنا الى آثار الصعيد حتى اذا ماقطع بنا البخار ٥٨٥ ميلا من القاهرة وقف عند اسوان الجالسة قبيل الجنادل والخزان على يمين النيل تطل على المنطقة الحارة والمعتدلة الشمالية المشهورة منذ القدم بجزيرتها (الفنتين) وأنس الوجود الجميل وما ألذ الشعور بالنسمات الجافة الصيفية أبان زمهرير الشتاء وبرده في الشمال فلا يرى سكان اسوان غير سماء زرقاء صافية قلما يغشاها سحاب جهام ومن أندر الصدف لديهم أن تمطرهم السماء رذاذا وهكذا انتقلنا من الشتاء الى الصيف في اقل من عشرين ساعة وفى صباح اليوم التالى كانت سفن النيل تعبر بنا نيل اسوان الى جزيرة (الفنتين) المشهورة ومررنا بحمامات كليو بطرا وهناك على شاطىء الجزيرة الصغيرة صعدنا في سبيل أدى بنا الى متحف اسوان الصغير وهناك رأينا آثار قدماء المصرين قبل التاريخ وقبل ان يعرف مينا وبجواره مقياس النيل الذى استخدمه قدماء المصريين منذ آلاف من السنين

ثم سارت بنا السفن ثانية الي الجبل فصعدنا ثم صعدنا ومررنا بمقابر قدماء اشراف مصر وسلم استعملوه فى اصعاد التوابيت من النيل الى الجبل وأدى بنا سبيل الصعود الى قبة الهواء ثم واصلنا السير بين المهامه والصحارى والتلال والصخور بعالمها الجيولجي العجيب حتى وصلنا الى جبل تجق وصعدنا بجوار قرية صغيرة ومررنا بدير

سمعان وسرنا في الصحراء الى مسلة قطعت من الجوانب الثلاثة ثم تركت ملتصقة بالارض وبعد ذلك عدنا ولسان حال كل منا يقول معي :

اسوان يابلد المهابة والسكو ن مرفرف في جوها المعطار
أسوان يابلد الجلال تحفها تلك المباخر عطرها سحار
قد أتينا اليوم نبقى لثمها ان اللحود طلاسم الأحرار

في اليوم التالى شق بنا المركب البخارى عباب النيل الزاهى باجمل حلله وازهى سرابيله في تلك الأنحاء الرائعة الجمال والرونق ومررنا من هاويس الخزان ـ خزان اسوان المشهور الذى وضع تصحيحه السير وليم ولككس وبدء مشروعه عام ١٨١٠ ووضع الخديوى اول حجر فى اساسه في ١٢ فبراير عام ١٨٩٩ وفتح فى ديسمبر عام ١٩٠٢ وطوله نحو كيلو مترين

وسارت بنا السفن بعد الخزان الى أن وصلنا الى معبد فيلة ـ ورأينا قصر انس الوجود المشهور مازال رافعاً رأسه رغم ماغمرته المياه بعد الخزان. هناك مأساة فيلة الجميلة التى غلبتها مياه النيل منذ عهد قريب وأنس الوجود المنفرد وسط مياه النيل تسكنه أرواح الآلهة المقدسة ويذكر المار بعهد البطالسة المجيد الذى انتعشت فيه البلاد.

وسافرنا الى كوم امبو حيث حججنا معبدها الجيلى ـ معبد امبوس الذى بناه البطالسة وما زال حافظا لرونقه وعظمته جالسا يطل على النيل من مرتفعه المهيب

ثم سرنا الى لقصر مدينة الأحلام والغرائب وزرنا وادى الملوك حيث انتشرت مقابر الملوك المصريين وفراعنتهم وزرنا مقبرة رمسيس التاسع بدهاليزها المدهشة ثم مقبرة توت عنخ آمون الذى قام العالم لاكتشافها الحديث وقعد ثم مقبرة رمسيس السادس وتضارع باقى القبور جمالا فى النقوش التى غطيت بها جدران الدهاليز والغرف غير ان سقفها يحير الرائى ثم الى مقبرة امنوفيس الثاني التى اكتشفها لورية الفرنسى وهى كسابقتها منقوشة بالألوان الزاهية كأنها قد صنعت بالأمس . ثم الى مقبرة رمسيس الثالث ثم الى مقبرة سيتي الاول ويمتاز

بنقوشه البارزة لا المحفورة . وقد اكتفينا بعد ساعات طوال برؤية هذا القليل الذى يستدعى وصفه مجلدات ضخمة ومن لنا بمن يفسر ما كتب على جدران المقابر وسقوفها ورأينا معبد الدير البحرى بعد ذلك وقد بنته حتشبسوت وسمي بالدير البحري لأن الاقباط اتخذوه في القديم ديرا وفى داخل المعبد نقوش وصور ملونة ورموز مما لاحصر لها

ثم سرنا الى الرمسيوم الذى بناه رمسيس الاكبر وثمة مساكن للقسس والأسرى ومعبد رمسيس الهائل باعمدته الكبيرة منقوشة بالرموز وكذلك جدرانه وفيه محل العيد و الدهليز ذو الاربعة عشر عمودا المشهورة وهناك أحجار كثيرة متكسره وتماثيل عـديدة لرمسيس الثاني وتمثال كبير يعدا كبر تمثال له اذ كان وزنه يقرب من الف طن وقد كسره الفرس في غزواتهم المعروفة ومازال منه جزء هائل ملقى بجوار المعبد وقد شرح العلامة ويجال في كتابه بالانجليزية المشهورة (الدليل الى الآثار المصرية) رموز الرمسيوم وأن من يصحب في رحلته هذه مثل هذا الدليل القيم لتتضاعف الفائدة التي يجنيها من دراسة الآثار . وسرنا بعدها الى مقبرة حتشبسوت ولعلها أجمل المقابر لبداعة نقوشها وجمال زخرفها وألوانها ثم الى مقبرة الامير آمون كوبيشنو بن رمسيس الثالث وهى بديعة النقوش و الالوان أيضا ثم الى قبر الأمير خامواش بن رمسيس الثالث وهذه المقابر التي زرناها أهم من باقى المقابر المنتشرة في ربوع وادى الملوك وسرنا الى معبد مدينـة آبو الواسع الفسيح ذى التماثيل الهائلة والجـدران الضخمة المهيبة والقاعات الممتلئة بالنقوش والرموز والكتابة . وقبل أن تغرب الشمس أوصلتنا الحمير الى تمثالى ممنون القائمين بين الحقول وهى من تلك الآثار الهائلة التي خلفها آمنوفيس الثالث منذ خمسة عشر قرنا قبل الميلاد اذ كان ولوعا بتشييد المبانى فى أنحاء البـلاد وهو مؤسس معبد لقصر وزاد فى معبد الكرنك ووصل بينهما بحديقة جميلة أنشأ فيها طريقا صف على جانبيه تماثيـل أبي الهول وهو المعروف بطريق الكباش كما تقـدم وهو صاحب الدهليز ذى الأربعة عشر عمودا . وفى اليوم التالي سرنا الى الكرنك ـ الكرنك

الفنى بآثاره وأطلاله — الكرنك الذي تضعه مصر جوهرة لا تقدر قيمتها فى تاج مجدها واجتزنا طريق الكباش ثم بوابة بطليموس الثالث من الأسرة الثالثة والثلاثين وهى جديدة للغاية ونقوشها واضحة وأمامها معبد رمسيس الثالث وقد زينه الرابع ثم الى صالة العبادة ثم قدس الاقداس الذي بناه امنحتب الثانى ثم معبد خونسو معبود القمر ثم الى حجرة إله التناسل ثم غرفة المعبود آمون رع والى معبد اوزيريس ومعبد إله جاموسة البحر الذي بناه بطليموس التاسع وتركنا معبد القمر الكبير الى معبد الشمس وسرنا في خرائب الكرنك المزدحمة بالآثار والمكتظة بتهاويل الفخار والمجد والعظمة والعبقرية الفنية وسرنا الى طريق الكباش المشهور ثم الى معبد آمون رع ثم الى البهو الكبير ذات الاعمدة العالية الهائلة وعددها ١٣٤ عموداً وطول العمود في الصف الامامي ٦٠ قدماً ومحيطه نحو ١٥ مترا وهنا تختلط آثار البطالسة مع آثار الفراعنة . ورأينا مسلة أخرى كبيرة ملونات حافظة لرونقها وزرنا معبد لقصر الذى يقع بجوار النيل وفيه عدة تماثيل لم يزل معظمها جديداً . ثم رأينا ورأينا من العجائب مالا يعد ولا يحصى .

الفصل التاسع عشر

بين الآثار المصرية فى أوروبا

يعلم القارىء أن في متاحف اوروبا آثارا مصرية لاتقدر بمال وقد زار متاحف النمسا والمانيا الاستاذ سليم افندي حسن فنشر فى الصحف عدة مقالات مفيدة عن هذه المتاحف ولما كان من الفائدة اثباتها ومن الصعب اثباتها جميعها لضيق المقام رأينا أن ننقل أحد هذه المقالات عن متحف المانيا وحده قال :

بعد أن أنجزت مهمتي في فينا غادرتها في اليوم السادس عشر من شهر يوليه عام ١٩٢٢ ميمما برلين فحللتها في السابع عشر بعد سفر ٢١ ساعة . وفي صباح اليوم التاسع عشر وليت وجهي شطر المتحف الخاص بالآثار المصرية القديمة ويدعى

عند الالمان بالمتحف الجديد غير أن ظاهره وباطنه لايدلان على انه جديد

دفعت ثلاثة مركات ثمن تذكرة الدخول ثم سألت أحد الحراس عن حجرة الاستاذ شيفر المدير العام للمتحف فأرشدني اليها . ولما سمح لى بالدخول سلمته خطابا كان قد أعطانيه الدكتور ينكر الأثري النمسوي وقد عرفه الأستاذ شيفر أنه من الاستاذ المذكور قبل أن يفض غلافه . ولما عرف أني الأمين المساعد بالمتحف المصري ابتدأ يخاطبني بالعربيـة وهو يحسنها بالقياس على غـيره من الاوروبيين .

وأخذ يسألني عن أحوال المتحف المصرى وعن صحة الاستاذ الاكبر احمد بك كال وبعد قليل قرع الجرس فحضر مساعداه وهما الدكتور انكنك والهر ولف وقدمني لهما ثم أوصاهما بان يرافقاني في المتحف مدة اقامتي فى برلين ويوقفاني على كل دقائق المتحف وخباياه فشكرت له تلك العناية . ولقد كان من اكبر سعودي أن أعرف هذين الفاضلين لانهما بذلا كل مجهود في خدمتي وقد أوقفتهما على غرضي من رحلتي من باديء الأمر . وهو (١) درس المتاحف الاوروبية درسا علميا (٢) أخذ صور فوتوغرافية وألواح الفانوس السحري لكل القطع التي لاتوجد في متحفنا (٣) التعرف بالعلماء الذين يشتغلون بهـذا الفن . ولما عرف الهر ولف قصدي أخذ يبذل كل مافي وسعه لمساعدتي

وكان أول من قدمت له من هؤلاء النبغاء الاستاذ ارمن اكبر اسـتاذ في اللغة المصرية في العالم قاطبة . وكان من حسن حظي انه القى في اليوم الذي قدمت له فيه محاضرة على نصائح امينمحعت لابنه اسرتش ثم تفسير حجر بني اسرائيل وقد استمرت محاضرته ساعتين ونصف ساعة وفي اليوم التالي لمقابلتي لهذا الاستاذ قابلت الدكتور برخارد المستشرق العظيم وتكلمت معه طويلا . .

كيف درست متحف برلين .

اتفق معي مساعد المتحف ومساعدته على أن أدرس كل يوم جزءا صغيراً باتقان حتى يمكنني أن أقف على كل دقائقه . وكان من أعظم أغراضى درس

ترتيب المتحف وقد نجحت في معرفته تماما واليك شيئا وجيزا عن ترتيب هـذا المتحف ونظامه .

يمتاز متحف برلين عن باقي متاحف اوربا بشيئين (أولا) انه مرتب ترتيبا تاريخيا منطقيا بحسب عصور التاريخ اذ ترى فيـه جميع الآثار التي وجدت قبل الاسرات في مكان خاص ثم آثار الدولة القديمة فآثار الدولة الوسطى فآثار الدولة الحديثـة فآثار العصر الصاوي فآثار عصر البطالسة فآثار الرومان ثم آثار العصر القبطي . وهذا العصر الأخير فى رأى الألمان تبتدىء آثاره من القرن الثالث من التاريخ الميلادي .

ولما كانت آثار تل العمارنة كثيرة جدا عندهم أفردوا لها هي وما عندهم من أوراق البردي الطبقة الثانية من البناء

والميزة الثانية لمتحف برلين انهـم وضعوا معظم الآثار التي وجدوها على ترتيبها الذي كانت عليـه فى مواضعها القديمة فتجد التابوت مثلا موضوعا وحوله كل الآثار التى كانت معه في القبر مرتبة حسب مواضعها الطبيعية فالمتفرج يستفيد من هذا الترتيب فائدتين احـداهما معرفة الآثار نفسها والثانية كيف كان ترتيبها الأصلي . هذا مافعله رجال متحف برلين وقد زادوا على ذلك أنهم جعلوا بعض حجر المتحف على شكل معابد مصرية فيجد الزائر وكأنه في معبد مصري محتفظ بنقوشه وهيئته بل وببعض تماثيله الضخمة (التى نقلت من مصر) ممايبهر الألباب ويقضي بالعجب العجاب ولقد تغالى الالمان فى نقل الآثار المصرية الى بلادهم حتى انهم نقلوا بعض مقابر بأكملها ووضعوها في متحفهم وغرضهم من ذلك تمثيل الحقيقة أمام الالماني الذي لايمكنه أن يتحمل مشاق السفر الى البلاد المصرية ومن أهم هذه المقابر مقبرة الأمير آب (بن الملك خوفو) من الأسرة الرابعة (أى ٢٧٠٠ ق . م) وكذلك حجرة قرابين متين وهو من كبار عمال سنفرو أحـد ملوك الأسرة الرابعة ويرى المتفرج في هذه الحجرة صورة المتوفي وأسماء الوظائف التي تقلدها وقد أخذت هذه المقبرة من بلدة أبي صير (بحرى سقارة)

ولما لم يكن في مقدورهم نقل الآثار الضخمة العظيمة اكتفوا بعمل نماذج لها من الجبس أو الحجر حتى يتمكن الطالب الالماني من درس تاريخ مصر درسا علميا اذ يرى المتفرج فى متحفهم نموذجا للهرم الاكبر وقد أعجبني كثيرا نموذجا صنعه الاستاذ برخارد لقبر اسحورح وهرمه (من الأسرة السادسة ٢٧٠٠ ق . م) وهذا الهرم قائم الآن في أبى صير بحري قرية سقارة . غير أن معالم المعبد الذي كان مجاوراً له قد زالت واليك وصف هذا النموذج تبتدىء المقبرة بطرقة مسقوفة توصل الى معبد الملك الذي يتوصل اليه بقاعة سماوية بغير عمد ثم يلي ذلك هرم الملك وعلى يساره هرم الملكة وفى هذه البلدة (أبو صير قام الألمان بحفائر من ١٩٠٧ ـ ٨) . وقد صنع الالمان نماذج غير ذلك كثيرة لاتوجد فى أى متحف من متاحف العالم .

كيف أسس متحف برلين ووصف بعض آثاره :

متحف برلين كغيره من متاحف اوروبا وليد القرن التاسع عشر ذلك العهد الذي اهتم فيه علماء الغرب بحل رموز اللغة المصرية القديمة ولا غرابة فانه منذ كشف شمبليون أسرار هذه اللغة أخذ الاهتمام بجمع الآثار المصرية القديمة بعظم وتسابق العلماء والتجار في ذلك الميدان وقد كان أسبق الناس الى ذلك وأوفرهم حظا فى ذلك العهد سفراء الدول الاوروبية في مصر . اذ كانوا يستعملون نفوذهم السياسي في ذلك . وكان المنفور له محمد على باشا بطبيعة مركزه السياسي فى تلك المدة مضطراً الى التساهل مع هؤلاء الساسة (التجار) فكانوا يعملون للحفائر فى كل أنحاء القطر ويستخرجون منها الكنوز المصرية ويكونون منها مجاميع ترسل اما هدايا لملوكهم أو تباع بأثمان باهظة لعشاق هذا الفن . وبهذه الطريقة أسست المتاحف المصرية القائمة الآن فى كل ممالك اوروبا على أن الملوك أنفسهم كانوا شغوفين بجمع الآثار قبل حل رموز اللغة المصرية القديمة وكان من أسبقهم الى ذلك البيت الملكى فى بروسيا فانه اشترى بعض الآثار المصرية القديمة من ايطاليا وهذه الآثار تعرف في المانيا بمجموعة (بلاوري) نسبة الى جامعها فكانت هذه

المجموعة الأساس الذي تكون منه متحف برلين

وفي خلال القرن التاسع عشر أهدى نفر من الامراء كالكنت (برتالى) والكنت (ساك) بعض الآثار المصرية القديمة للبيت الملكي

ولما أرادت حكومة بروسيا تأسيس متحف العاديات القديمة عامة عزمت على أن تخصص جزءا منه بالآثار المصرية ولهذا السبب أخذت تهتم بشراء الآثار المصرية . بنفسها فاشترت مجموعة القائد (منتولى) سنة ١٨٢٣ (وهو الذي فتح باب الهرم المدرج بسقارة)غير أن نصف هذه المجموعة قد ضاع غرقا عند منصب نهر الالب اذ غرقت السفينة التي كانت تحمل هذه الآثار ولم ينتشل الا نصفها فقط . ومما هو جدير بالذكر أن هذه المجموعة كانت تحتوي على ٥٠ ورقة بردي وفى عام ١٨٢٨ اشترت الحكومة مجموعة (بزلكفا) أحد أبناء تريستا وكان الاسكندر همبلدت اكبر علماء هذا العصر قد نصح الحكومة البروسية أن تشتري هذه المجموعة وهي نتيجة حفائره في طيبة ومنف . وتحتوي على تابوت منتحتب وصندوق زينة الملكة زوجته وكذلك تحتوي على لوحات مأتمية كبيرة الفائدة من الدولة الحديثة على أن أهم هذه المجموعة هو تابوت منتحتب أحد ملوك أواخر الاسرة الثانية عشرة وجده بزلكفا في حفيرته التي قام بها في طيبة وقد نقله بجميع ما وجد معه في القبر وهو الآن معروض في متحف برلين كما وجد . اذ ترى التابوت وحواليه كل ما كان يلزم الميت في آخرته من طعام وشراب وملبس وأدوات منزلية وآلات الزراعة وآلات الكتابة والحيوانات وغير ذلك مصنوعة بصور مصغرة وهذا الترتيب ليس له نظير في كل متاحف العالم (الا متحف هلدهيم)

وفي عام ١٨٣٧ باع درقتي معتمد فرنسا السياسي في الاسكندرية لملك بروسيا مجموعة ثمينة جدا منها تمثالان عظيمان جدا collossi أحدهما للملك اسرتسن الأول وثانيهما رمسيس الثاني وهذان التمثالان ليس لهما نظير في متاحف العالم من حيث دقة الصنع والضخامة . وقد كان منفتاح نقش اسمه عليها كما كانت عادة أبيه من قبله . وكذلك تحتوى هذه المجموعة على ستة توابيت عظيمة لامراء وقساوسة مصريين

وفي خلال هذه المدة (١٨٣١) أهـدى انستاسى المعتمد السويدى وصاحب الجاميع العظيمة تابوت (بهندنتر) رئيس قساوسة منف من الأسرة التاسعة عشر الى ولى عهد بروسيا (فرديك وليم الرابع فيما بعد) فأهداه هذا للمتحف البروسى . وفي عام ١٨٣٩ اشترت الحكومة آثارا من المسيو سولنيه وهي تشتمل على أحسن توابيت وأحسن تماثيـل من الدولة الحديثة منها تمثال (فتاح ماى) قسيس الالهة حوت . يرى المتفرج تمثال (فتاح ماي) جالسا وعلى يمينه زوجته (تويا) وعلى يساره أخته ووافف بينه وبين زوجته بنته الصغـيرة وبينه وبين أخته ابنه الصغير وهذا التمثال من أحسن ماصنع قدماء المصريين .

ومن هذه الجاميع ومن مجموعتين أخريين احداهما اشتريت من برشلدى والثانية من كولر وكيل معتمد النمسا السياسى (١٨٢٨) تكون التحف الأول للدولة الروسية وعرض رسميا في قصر مونبيجو . ومن هذا الوقت أخـذ القوم يهرعون لزيارته وابتدأت دراسة اللغة المصرية تأخذ مكانا مرضيا في هذه البلاد

(الى هـذا الوقت لم يكن قد انشىء في مصر متحف خاص بعادياتها) أراد فردريك الرابع بعد فتح المتحف أن يز يد فيه من الآثار المصرية وقد كان اهتمامه بذلك عظيما جدا فارسل عام ١٨٤٢ بعثة علمية الى الديار المصرية برئاسة العالم العظيم والاثرى الـكبير لبيسيوس lepsius للقيام بحفريات وقد مكثت فى البحث والتنقيب الى عام ١٨٤٥ والآثار التي عثرت عليها هـذه البعثة لها أهمية كبرى في التاريخ المصري القـديم وفي اللغة نفسها ومن أهمها أربعة تماثيـل للملـكـة حتشبسوت اكبر ملـكة حكمت مصر . اثنان منها بجسم سبع ورأس الملـكة ممثلة بهيئة رجـل اذ كان من عادتها الظهور بشكل رجـل والثالث يمثلها جالسة على عرش الملك متوجهة بشكل علامة الملـكية . والرابع رأسها بدون جسم (ومما يؤسف له انه ليس في المتحف المصرى تمثال جميل كهذه التماثيل لحتشبسوت) ومن الآثار التي جلبتها هده البعثة أيضا باب وحجرة من الحجر الجيري الابيض أخذا من داخل هرم الملك زوسر بسقارة والباب عرضه ٨٠ س وطوله ٢ م وهو

منقوش بنقوش عجيبة جدا في بابها منظم نظاما بديعا على صفوف متوازية مقسمة أقساما كل منها على هيئة البرميـل وكل صف مفصول عن الآخر بخرامين مشدودي الطرفين . والجميع مطلي بطلاء يشـبه الزجاج القديم . وأهمية هـذا الباب والحجرة عظيم جـدا اذ يظهران كيف كان تقـدم الصناعة عنـدهم في الاسرة الثالثة

ومن الآثار التي احضرها لبسيوس جانبي مقبرة من الجير الابيض مرسوم باعلاها جميع الاطعمة وأسمائها باللغة المصرية القديمة وفي أسفلها منقوش جميع الحيوانات الوحشية والبرية والطيور التى كانت تقدم قربانا الى (منفر) صاحب المقبرة وهو احد أمراء الاسرة الخامسة وكان يشغل مناصب عالية في عهد الملك اسيس (٣٦٠٠ ق م) . وأهمية هـذه اللوحـة أن نقوشها تبين حقيقـة صور الحيوانات والطيور مقرونة بأسمائها مما يسهل علي القارىء معرفة أنواعها بدون عناء وهذا الرسم فريد في بابه

ولما عادت بعثة لبسيوس من الديار المصرية كان المتحف الجديد الذي كانت قدشرعت الحكومة في بنائه لهذا الغرض قد تم (المتحف الجديد)وأصبح صالحا للاستعمال فنقلت العاديات المصرية اليه باحتفال عظيم وتعين الاستاذ لفتسو مديراً له . ثم خلفه الاستاذ لبسيوس سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٨٤ وكانت الحـكومة البروسية تواصل شراء الآثار المصرية القديمة اذ في عام ١٨٤٣ و ١٨٥٢ اشترت تمثال سمنوت مربى الزميره (رح نوفر) بنت الملـكة حتشبسوت وكذلك اشترت تمثال سيكو من الخشب . ويظهر أنه كان قساً وهو من أحسن التماثيل صنعاً . وفى هذه المدة اشترت الحـكومة كذلك أوراقا بردية من الدولة الوسطى تشتمل على شيء كثير من أدبيات هذا العصر وتاريخه .

ومن أهم الآثار التى في متحف برلين مجموعة الذهب التى اشتراها المتحف عام ١٨٤٤ من فريلينى Ferlini من أهمها حلى ملـكة نوبية وينحصر تاريخ حكمها ما بين القرن السابق للميلاد والقرن التالى له وقد وجدت هـذه المجموعة (جزء

منها في متحف مونيخ) في قدر وبجانبه لوح من الجرانيت الاحمر منقوش عليه خانة ملوكية (خرطوش) لم يهتد لحل نقوشها علماء اللغة الى الآن ولذلك بقى اسم الملكة صاحبة هذا المصوغ طلسماً الى الآن .

أما الحلى فدقيق الصنع ويشتمل على جمالين من الذهب وتماثيل خيل صغيرة وغزلان عادية . وعلى تماثيل آلهة كالاله اوزريس وآمون وعلى أسماك صغيرة وهررة عادية وتعاويذ على شكل العين كانت تستعمل عند المصريين ضد الحسد . وعلى أحجار كريمة من الياقوت صغيرة وكبيرة وعلى سباع ولبؤات وعلى خواتم من الذهب والفضة . ثم على عقد (لبة) منظم تنظيماً بديعاً يفتخر به الصائغ الحديث . كل هذا من خالص الذهب الا القليل من الفضة المطلية بطلاء من الذهب . ومن الغريب ان هذه المجموعة الفريدة فى بابها عرضها فراينى على معظم حكومات أوروبا ومتاحفها فلم ترق في اعينهم وظنوها حديثة الصنع لا قيمة لها وقد بقى ينتقل بها من متحف الى متحف حتى وقعت فى قبضة الالمان فعلموا حقيقتها وبادروا بشرائها واحتفظوا بها ولا يظهرونها للمشتغلين بهذا الفن ولا غرابة اذا كانت تقدر اليوم بنحو نصف مليون جنيه وفى عام ١٨٥٥ اشترى بنز المعتمد السياسى للدولة البروسية تمثال (امينمحمت) الثالث . وفى عامى ١٨٥٧ و ١٨٥٩ اشترت الحكومة عدة آثار من مجموعة انستاسى القنصل السويدى منها تمثالا وهو قطعة عظيمة من الشبه (أى البرنز) ليس له مثيل في الضخامة في كل متاحف العالم وابتاعت منتخبات ثمينة من مجموعة بلن المعتمد السويدى منها نقوش بارزة عجيبة فى بابها

ومن أعظم الافراد الذين كان لهم ضلع فى تأسيس هذا المتحف وجلب الآثار له اثنان أولها الاستاذ ابرس صاحب التآليف العجيبة وصاحب ورقة طب العيون المشهورة . جلب الى المتحف آثارا عظيمة فى عام ١٨٧٢ . والثانى هو الاستاذ الاعظم هنرى بروكس فانه كان اثناء اقامته بمتحف مصر يرسل الآثار الثمينة الى متحف بلاده

وفى عام ١٨٧١ وصل الى برلين حجر تاريخى عظيم منقوش عليه انتصار ملك الحبشة Nastesin على قمبيز ملك الفرس حينما أراد الاخيران يغزو بلاده

وكذلك اشترى المعتمد السياسى البروسى مجموعة (دوتله) في هذه المدة وتشتمل على آثار قيمة وفي عام ١٨٧٧ اشترى المتحف اوراق البردى المعروفة عندهم بأوراق الفيوم وكلها خاصة بالعصر اليونانى وقد ازداد عدد أوراق البردي فى المتحف بمشتروات ١٨٨٦ —١٨٨٧ و ١٨٩٦ —١٨٩٨ وبالهدايا التى قدمت للامبراطور غليوم الثانى

وفى عام ١٨٩٤ أخذت الحكومة تهتم بجانب خاص من الآثار المصرية القديمة وهو الاستراكا (الفخار المنقوشة عليه كتابات هيرغليفية) . فاشترت فى عام ١٨٩٤ مجموعة من هذا الصنف من الآثار ثم تزايد عددها بمشتروات فى السنين التى تلته

وفي عام ١٨٨٦ اشترت الحكومة ورقة قستكار نسبة الى بائعها . وهي من أهم القطع الادبية الخرافية في التاريخ المصرى على أن لها أهمية تاريخية كذلك . اذ يرجع عهدها من الوجهة التاريخية الى الاسرة الثالثة .

ومن أهم الهدايا النفيسة في هذا المتحف ألواح تل العمارنة التى قدمها (جيمس سيمون)هدية للملك عام ١٨٨٨ (وسنتكلم على آثار تل العمارنة فى مكان خاص)

ومن ابتداء عام ١٨٩٠ أخذت الحفائر تكثر فى مصر ببعثات اوربية ترسلها الحكومات للتنقيب عن الكنوز المدفونة . وكانت المتاحف تتهادى فيما بينها بالآثار التي تزيد عن حاجتهم وقد كان لالمانيا نصيب عظيم من هذه الهدايا فقد اهدت لها البعثات التي كانت تحفر فى تل بسطة وكاهون بالفيوم وتل العمارنة وقفط ونقادة بقنا وطيبة جزءا عظيما من الآثار .

وفى عام ١٨٩٢ قام الاستاذ بروكس بحفيرة أهدى معظم ما التقط منها لمتحف برلين ثم تلى بعد ذلك عدة مشتروات أهمها الرأس الأخضر (من العصر الصاوي) الذي اشتراه الدكتور جيمس سيمون سنة ١٨٩٤ وسمي بالرأس

الاخضر لأنه متخذ من حجر المسن الاخضر الضارب الى السواد وكانت العادة المتبعة عند النحاتين في هذا العصر صنع التماثيل من هـذا الحجر (وهذا العصر يسمى فى التاريخ المصرى عصر النهضة)

أجاد الصانع المصري فى نحت هذا الرأس فأظهر فيه تناسب أجزاء الوجه ودقة تقاطيعه وصدق ملامحته مما ينطبق تمام الانطباق على الوجه الطبيعى ثم أبان تجاعيد جلد الرأس ومنحنياته بمهارة أدهشت علماء التشريح من الوجهة الفنية وقد أجمع علماء الآثار على أنها أدق قطعة وجدت الى الآن فى كل التاريخ القديم وقد تغالى بعضهم حسداً وحقداً على قدماء المصريين ونسبها الى العصر الاغريقي وهذا الرأي ليس له نصيب من الصحة بل هو تعصب محض .

وفي نفس العام الآنف الذكر اشترى الدكتور دينهرت جملة آثار منها مسلة قائمة تستقبل الزائر في باب المتحف وهي من صنع رمسيس الثـاني . وكذلك اشترى آثارا من الأسرة الاولى وتمثالا وكتابات بارزة من الدولة الحديثة وموميات مكفنة وأسرة من العصر الروماني وورقة بردي من العصر القبطي .

وفي عام ١٨٩٦ اشترى الدكتور برخارد جملة آثار نفيسة منها قبر (هنوي) بأجمعه وناووس من معبد فيلة ومحراث جميل الصنع . وفي نفس العام أهدي للمتحف مجموعة الدكتور شمس وأهمها الملابس الرومانية البديعة فى بابها

ولما مات الدكتور ديبل dibal أحد استاذة الجامعة الروسية أوصى بما تركه من الآثار للمتحف وهو يشتمل على نقوش بارزة من الدولة القديمة و نقوش من تل العمارنة

وفى عام ١٩٠٧ قامت بعثة عظيمة المانية الى البلاد المصرية وواصلت البحث والتنقيب الى عام ١٩١١ وأهم آثارها موجودة الآن في متحف فينا ومتحف هلدسهيم ومتحف برلين وأهم قطعة وجدتها في متحف برلين من آثار هذه البعثة هو تمثال جمل عليه هودج وجده الدكتور شيفر (shafer) في بلدة أبي صير الملق وقد وضعه في آثار الدولة القديمة وقد تناقشت معه في موضوع هـذا الجمل فقال لى أن

الجمل كان موجودا عند قدماء المصريين قبل الأسرات بنحو الفين أو ثلاثة آلاف من السنين ثم تلاشى مدة من الزمن ثم ظهر في الدولة القديمة . فسألته كيف يمكن لقدماء المصريين أن يستعملوا حيوانا ويرسمونه ولا يعرفون اسمه (الجمل ليس له اسم باللغة المصرية القديمة فى ذلك العهد) فأجاب انهم كانوا يرونه من آونة لاخرى فى الصحراء الغربية أثناء اختلاطهم بالعرب (وقد أثبت لى أن أعراب الصحراء كان لهم اختلاط بقدماء المصريين فى رسالة كتبها الدكتور برخارد) على أن الجمل وجد فى عهد الأسرة التاسعة عشر غير أنه لم يشع استعماله عند المصريين الا فى عهد البطالسة

الفصل العشرون

بعثة تل العمارنة

لما عثر الالمان على آثار عظيمة الفائدة فى بعث ١٩٠٧ - ١٩١١ حبب لهم ذلك مواصلة البحث والتنقيب فى الجهات التي كانوا يظنون أن فيها آثارا توازي المشاق والمال الذي يصرفونه . من أجل ذلك قامت بعثة خاصة برئاسة الدكتور برخارد لكشف مابقي من آثار تل العمارنة . ولما كانت لهذه البعثة أهمية كبرى من الوجهة العلمية والفنية والتاريخية ولم ينشر عنها شيء بعد حتى فى المانيا وأردت أن أخصص لها بابا منفردا . وقد عني الالمان بالآثار التى عثروا عليها في هذه البعثة وخصوا لها الدور الأعلى من البناء مع أوراق البردي

فأول من قام بكشف خرائب تل العمارنة هو المستر فلندرز بتري الانجليزي الأثري الشهير حوالى عام ١٨٨٢ ثم تلاه المستر ديفز . ثم جاءت البعثة الالمانية وأخذت تواصل العمل من سنة ١٩١١ الى قيام الحرب الكبرى . وقد أماطت هذه الرحلة اللثام عن حقائق تاريخية لم تكن معلومة بعد وأهم ماوصلت اليه هذه البعثة من هذه المعلومات الجديدة ينحصر فى النقط الآتية

(١) عثر الاستاذ برخارد على حجرة الفني العظيم تحتمس وقد وجد في هذه الحجرة قوالب وجوه أدمية مصنوعة من الجبس بعضها يمثل وجوه موتى وبعضها يمثل وجوه أحياء وبعضها كان قد ابتدىء في صنعه ولم يتم بعد ومن الأخيرة امكن الاستاذ برخارد أن يقف على سر صنع هذه الوجوه وصبها . ومن الغريب أن المتفرج على هـذه الوجوه لا يتردد لحظة في تمييز قالب وجه الميت من قالب وجه الحي . اذ يظهر فيها الصانع تجاعيد الوجه وخطوط الجبهة وملامح المحيا مما لايراه الانسان في الأعصر التي سبقت هذا العهد الا قليلا

(٢) وقف الاستاذ برخارد على طريقة تخطيط المنازل عند قدماء المصريين ولم يكن ذلك معروفا الى الآن وذلك لان قدماء المصريين كانوا يشيدون منازلهم من اللبن فبادت وانمحت جميعها ولم يبق منها ما يدلنا على هيئة بيوتهم . عثر الاستاذ برخارد على جملة بيوت بل على شوارع بأ كملها في مدينة اخيناتون (تل العمارنة) عاصمة مصر في عهد اخناتون وقد رمم بيتاً من هـذه البيوت وسكنه أثناء حفرياته في هذه الجهات وقـد صنع نموذجاً لبيت مصرى من الخشب وهو معروض الآن في متحف برلين مع آثار تل العمارنة ولا أ كون مبالغاً اذا قلت ان التأنق الحديث والمدنية الفرنسية الغربية لم تأت بأحسن مما كان يفعله قدماء المصريين في بيوتهم من الوجهة الصحية وحسن الذوق . اذ يرى المتفرج في هذا النموذج أولا باباً عظيما مؤدبا الى حديقة غناء تجري فيها المياه وفزارات تخرج منها المياه ثم يلى ذلك قاعة عظيمة للاستقبال ويلى تلك الحجر الخاصة بصاحب المنزل الحجر الخاصة بحرمه وفي آخر البناء تجـد مكانا منفصـلا لانعامه كل ذلك محاط بسور محلى بالأشجار

(٣) برهنت هـذه البعثة على ان القيود الفنيـة القديمـة عنـد قدماء المصريين خصوصاً في النحت والتصوير قـد انقضى عهدها وان الفنون أصبحت حرة طليقة وبذلك أمكن كل فني أن يستعمل ذ كاءه وعبقريته . وقـد أثبتت النصوص المصرية القديمة ان بطل هذه الحركة هو أمنحوتب الرابع نفسه (اخيناتون)

اذ هو الذى أثر على معاصريه وجعلهم يتبعون آراءه ومعتقداته . وكان يظن قبل أن هذه الآراء وهذا الانقلاب الديني الذي حدث في عهد أمنحوتب الرابع قد جاء الى مصر بمؤثرات خارجية ولكن النقوش المصرية القديمة تدل دلالة صريحة على أن هذه الآراء من بنات أفكار اخناتون وأنه هو الذى كان يعلمها لرعيته اذ قلما نجد تمثالا ظريفاً أو رأيا فنياً بديعاً أوصورة جميلة الاونجد عليها العبارة الآتية (ان الملك هو الذي علمنا بنفسه كل ذلك) لذلك يرى المطلع على آثار هذا العصر أن الناحت والمصور والفني أصبح كل منهم طليقاً يمثل الحقائق كما هي ويرسم الصور بغير قيود تعوقه عن اظهار عبقريته كما كان الحال في عهد الملوك الذين سبقوا ولا مشاحة فان صور هذا العصر وتماثيله تكاد تضارع الصور الطبيعية فمثلا ترى الملك امنحوتب الرابع مرسوماً جالساً بين أفراد أسرته وأمامه الملكة زوجته جالسة وفى أحضان الملك ابنه الصغير يقبله وفى أحضان الملكة بنتها الصغيرة تقبلها . وفى صورة اخرى ترى الملك يقبل زوجته وهذه المناظر لم تر قبل في عهد أي ملك سبق . بل كانت العادة المتبعة أن يظهر الملك اما وحده أو مع الملكة منحوت بشكل خاص وبقيود كان لابد للمصور أن يقتفى أثرها

(٤) أثبت الاستاذ برخارد أن بلدة اخناتون (تل بنى عمران) أسست فى عهد اخناتون وان كان قد وجد بعض حفارين وسكاكين من حجر الظران تدل على أنها من الأسرة الثانية عشرة ومن المرجح بل من المحقق أن هذه الآثار قد أحضرها المهاجرون الى هذه البلدة معهم حينما أصبحت حاضرة البلاد ولما مات اخناتون تغلب حزب عبدة آمون اكبر معبودات طيبة في الأسرة الثامنة عشر على حزب اخناتون (عبدة القوة الكامنة وراء قرص الشمس أى الله) فهجرت مدينة اخناتون (تل العمارنة) دفعة واحدة . وقد حرم عبدة آمون على اتباع اخناتون أن ينقلوا معهم أي أثر يدل على عبادة الشمس أوعلى عهد أخناتون نفسه ولذلك بقيت آثار كل المدينة فيها فكان ذلك من حسن حظ التاريخ اذ عثر الباحثون على آثار نفيسة جداً توضح تاريخ هذا العصر ومدنيته بكل جلاء

وأهم ماعثر عليه من آثار هذه البلدة معروض في الدور الاعلى من المتحف ماعدا خطابات تل العمارنة فانها معروضة فى المتحف الاسيوي المجاور لهذا المتحف ويبلغ عددها نحو ٥٠٠ خطاب وقد زرت هذا المتحف مع أمينة المتحف المصري ومكثت فيه يوماً بأكمله للوقوف على أسرار هذه الخطابات .

الفصل الحادى والعشرون

أوراق البردى فى متحف برلين

بعد ان فرغت من درس آثار تل العمارنة دعانى الاستاذ شوبر المشرف على مجموعة أوراق البردي لزيارته فشكرت له حسن تفضله وهو رجل رقيق المزاج حسن المقابلة

دخلت الحجر المعدة لأوراق البردي فوجدتها مرتبة ترتيباً تاريخياً حسب عصور التاريخ وكل ورقة ملصوقة على لوح من الزجاج ولكل منها مكان خاص . وهي مقسمة الى مجاميع كل مجموعة يشرف عليها عامل خاص. وفي أثناء تفرجي على المجموعة حضر الفني الماهر إبشر مساعد الاستاذ شوبر فقدمني اليه وقد أخبرنى هذا الاستاذ أن الفضل الاكبر فى تكوين هذه المجموعة النفيسة يرجع الى الهر إبشر اذ من بضع سنين كان عدد مجموعة أوراق البردى لايزيد عن ٤٠٠٠ ورقة والآن يبلغ نحو ١٤٠٠٠ ورقة بردي . ولست مبالغاً اذا قلت ان الهر إبشر وحيد عصره في المهارة في تركيب قطع أوراق البردي البالية . اذ رأيته بعيني وأمامه كمية من البردي الصغير الحجم جداً تكاد تذوب من البلى ولا يكاد الانسان يمسها حتى تصير هباء ومع كل ذلك يخرج الهر ipocher إبشر من هذه الهباء ورقاً بردياً يقرأ تماماً بكل وضوح وجلاء . وقد أخبرني أمين المتحف أن هذا الرجل له فضل عظيم على كل متاحف العالم في اصلاح ورق البردي وقد رأيته بنفسي (وذلك من حسن الصدف) وهو يشتغل في جمع أجزاء ورقة يبلغ عدد

صحائفها نحو ١٣٥ قد أنجز منها نحو ٧٠ صحيفة فسألته عن موضوع هذه الورقة العظيمة فقال لى ان هذه الورقة أعطاها الاستاذ جردنر الانجليزى الاثري اللغوي العظيم الى الاستاذ زيتي الاثري الالمانى وهى محطمة كما تراها امامك وقد كلفنى الاخير ان أركب أجزاءها . وقد نجحت في اصلاح نحو ٧٠ صحيفة منها وقد حل الاستاذ زيتي الجزء الاول من هـذه الورقة واعلم انها رواية تمثيلية كتبت في عهد الاسرة الثانية عشر وقد كتم الاستاذ موضوع هذه الرواية حتى يتم ترجمتها فتكون أول رواية تمثيلية في كل عصور التاريخ القديم .

الفصل الثانى والعشرون

سيرة احمد باشا كمال وأعماله

هو المرحوم العالم المصري بالآثار المصرية احمد باشا كمال الذي توفى قريبا في اغسطس ١٩٢٣ وأن له أيادي بيضاء على الآثار وخدمتها اذ بذل جهده فى تعليم الشعب مجد آبائه سواء أكان بالقاء المحاضرات أو بتأليف الكتب أو بنشر المقالات كما بذل ما في وسعه لحمل الحكومة على بعث بعض الشبان لدراسة علوم الآثار وتاريخها في اوروبا وسعي أيضا في انشاء مدرسة لدراسة اللسان المصري القديم وعلم الآثار المصرية فقررت الوزارة انشاء المدرسة وعسانا نرى ثمرة هذا المشروع الجليل وألف المرحوم عدة مؤلفات فرنسية وعربية منها بالفرنسية .

(١) صفائح القبور في العصر اليونانى الرومانى — وهو كتاب أثري يقع في مجلدين في أولها نصوص مشروحة باللغة الفرنسية وفي ثانيها تسعون لوحة بها رسوم الصفائح

(٢) الدر المكنوز في الخبايا والكنوز في مجلدين أولها بالعربية والثانى بالفرنسية

(٣) الموائد القديمة من الطبقة الوسطى الى عهد الرومان وهو في مجلدين

الأول يتضمن نصوصا مشروحة بالفرنسية والثانى فيه ٥٥ لوحة بها رسوم الموائد
أما مؤلفاته العربية :

(٤) العقد الثمين في تاريخ مصر القديم

(٥) كتاب الحضارة القديمة وهى دروس ألقاها في الجامعة المصرية سنة افتتاحها

(٦) اللآلئ الدرية وهى اجرومية هيروغليفية

(٧) كتاب الفرائد البهية في تعلم اللغة القديمة المصرية طبع على الحجر وهو اجرومية كبيرة وافية بدراسة اللغة الهيرغليفية اذ فيها طريقة القراءة والكتابة وقواعد اللغة وفيها حكاية مصرية مترجمة الى العربية وفي ذيلها قاموس صغير للغة الهيرغليفية

(٨) كتاب بغية الطالبين في علوم قدماء المصريين وفيه أيضا أسماء المعبودات والحيوانات والمعادن مكتوبة بالمصرية القديمة ومرتبة على الحروف الأبجدية

(٩) ترويح النفس في مدينة عين شمس

(١٠) دليل متحف اسكندرية

(١١) دليل متحف القاهرة

(١٢) رسالة في مدينة منف

(١٣) قاموس النباتات المصرية القديمة مكتوب بالمصرية ومترجم بالعربية والفرنسية وفيه بعض الأسماء القبطية وفى آخره فهرست بأسماء النباتات والاشجار مرتب على الحروف الأبجدية

هذا غير ما نشره من النبذ التاريخية فى مجلة المتحف المصرى وقد ذكرنا فى هذا الكتيب بعضا من مقالاته التي نشرها فى الصحف وكان من رأى المرحوم أن اللغة الهيرغليفية هي أصل العربية وأثبت ذلك ونادى به ومن ذلك محاضرته التى القاها عام ١٩١٤ بمدرسة المعلمين منها

« اعلموا أيها السادة أن كثرة مطالعتي في اللغة المصرية القديمة منذ كنت في الثامنة عشر من عمري الى أن بلغت الستين مهدت لي سبل الوصول الى اكتشاف غريب مفيد ألا وهوان اللغةالعربية واللغةالمصرية القديمةمن أصل واحد هو لغة الاعناء ان لم تكونا لغة واحدة افترقتا بمادخلهما من القلب والابدال كما حصل فى كل اللغات القديمة . وكنت قبل الآن أدرس اللغة المصرية على الاسلوب الذي تلقيته من أستاذي هنري باشا بروكس فى مدرسة خاصة على نفقة الحكومة ولبثت مقتفيا منهاجه كغيرى من الآثريين الى قبل الآن بثماني سنوات . وفى أثناء ذلك كنت أرى للألفاظ العربية مثيلا فى اللغة المصرية القديمة وكنت أدونها شيئا فشيئاحتى كثرت وأخيراً اطلعت على مقالة أدرجها المعلم نافيل الأثري فى المجلة المسماة (recneil de travoucs) أبان فيهابناء على النص المنقوش فى الدير البحري من زمن الدولة الثامنة عشرة ان المصريين الاول اشتهروا باسم الاعناء (ومعناه فى العربية أقوام من قبائل شتى) ولم يذكر النص من اين جاءوا لكن المدن التي أسسوها باسمهم هذا في مافوق طيبة من الجنوب الى بعد منف تدلنا على أنهم استعمروا تلك الجهة في بدايتهم ثم كثروا وانتشروا . ويقال في النص المشار اليه آنفا ان فريقا منهم هاجر الى جهة القيروان وتونس والجزائر وسمى نفسه اعناء التحنو وذهب فريق آخر الى أواسط افريقية وسمى نفسه اعناء الستو ومضى فريق ثالث لعله بعض من الفريق الثاني الى بلاد الصومال ثم اجتاز البحر الأحمر الى بلاد العرب وانتشر فيها وسار من هناك الى جنوب فلسطين وسمى نفسه اعناء (منتو) فبهذا الانتشار يتضح لنا أن الأعناء سكنوا تلك الجهات الشاسعة والمناطق الواسعة وبثوا فيها لغتهم فصارت لغة أصلية للبلاد

ثم استنبط اعناء وادي النيل طريقة الكتابة فكان لهم الفضل على غيرهم لكنهم حصروها في ضفاف النيل ودونوا كتابتهم على الآثار بقلم الحفر البارز أو المجوف كما أنهم رقشوها على ورق البردي أو الأحجار أو الأقمشة أوالخشب

ونحو ذلك مما نشاهده الآن في المتاحف وفي الآثار القائمة في أماكنها

وكانت أول كتابتهم رسم الأشياء بصورها فالأذن مثلا وضعت للدلالة على الاذن . والشفة على الشفة والرجل الرافع يديه على الفرح واليد على هذه الجارحة وهلم جرا ثم رأوا أن الكتابة بهذا الوضع لا يستدل منها الخلف على حقيقة لفظ هذه الصور لعدم كتابتها وقيدها ولا يهتدى بها الى المعنى المراد فاضطروا ان يكتبوا الفاظها مع بقاء الصور خلفها للدلالة عليها . . وبهذه الطريقة أمنوا اللبس في المعنى مع ضبط الفاظ الكلمات

ولا ننكر أن الغربيين الذين اجتهدوا في حل رموز هـذه اللغة القديمة منذ ١٢٠ سنة ذللوا مصاعبها بمقابلة الفاظها بالقبطية أو بالعبرية أو بالعربية أو بالارامية أو بسياق الكلام الخ وفرضوا لها ألفاظا متضاربة فالالمانيون اتخذوا لهم طريقة في القراءة تخالف الطريقة الفرنسية وكلاهما وضع اللفظ على قدر الاستطاعة مع علمهم أن حقيقة اللفظ واللهجة القومية لا تزال مجهولة . ولم ترق في نظري كلتا الطريقتين لذلك اتخذت لقاموسي الذي انجزت منه الى الآن ثلاثة عشر مجلدا طريقة سهلة وهي تحليل الكلمة الى اجزائها . . . . الخ

ولما وقفت على أصول اللغتين العربية والمصرية وعلى مافيهما من القلب والابدال أمكنني الخوض في مقارنتهما بالبراهين القاطعة التي تظهر لنا حقائق المعاني وتبين لنا فحوي النصوص التي وضعت . لا افتخر بذلك ولا أبرىء نفسي من الغلط في مثل هذا المجال الواسع لكني سلكت طريقا أضمن وأرقى من غيره وهو تطبيق اللغة المصرية القديمة على اللغة العربية مع بيان القلب والابدال في بعض كلماتها اقتداء بالمصريين أنفسهم حتي تظهر لنا حقيقة المعنى لوجودها محفوظة في اللغتين . الخ . . . »

الفصل الثالث والعشرون

جغرافية مصر القديمة

تدعى مصر في اللغة المصرية القديمة وفي اللغة القبطية أو « ارض» « كيمى » ومعناها الأرض السوداء نسبة الى لون أرضها وهذا مايذكرنا بحام ونسله .وكان يدعوها الشعب العبرانى « مصرايم » ومعناها «المصران» ومنها اسمها في العربية اليوم . أما معنى تسمية العبرانيين لمصر قطنه مشتقا من قولهم «صر »في العبرانية ومعناها الشدة والضيق « ومصر » اسم مكان من صر أى مكان الشدة . واعلها إشارة الى ماقاساه الشعب العبراني من الشدة والاضطهاد في هذه البلاد الى عهد موسى . أما كونها على صيغة المثنى فربما نتج عن تسميتهم أولا أحد قسمي مصر البحري والقبلي بهذا الاسم ثم جعلوه على صيغة المثنى للدلالة على القسمين معاً . أما اليونانيون فكانوا يسمونها « ايجبتوس » ومنها اسمها في لغات أوروبا الحديثة « ايجيبت »

ويستفاد من مصادر تاريخ مصر القـديم أن القطر المصري كان يقسم الى قسمين عظيمين الواحد يدعى أرض الشمال أو الوجـه البحري والآخر أرض الجنوب أو الوجه القبلي وكان الوجه البحرى ممتداً من منف (البدرشين وميت رهينة) الى البحر الأبيض المتوسط ويدعوه اليونان« الدلتا» لمشابهته بحرف الدال عندهم . أما الوجه القبلي فيمتد جنوبا من منف الى جزيرة الفنتين مقابل اصوان وهذا ماندعوه اليوم بأرض الصعيد . وكان من ألقاب ملوك مصر القدماء قولهم «سلطان البرين» اشارة الى تسلطه على الوجهين البحري والقبلي

وكل من هذين القسمين يقسم عندهم إلى أقسام دعاها اليونان « لوفس »أى مقاطعات ومجموعها في الوجهين يختلف عداً باختلاف الرواة . فقد ورد في القوائم المصرية القديمة أنها ٤٤ وقال استرابو وديودورس أنها ٣٦ والمعول عليه أنها ٤٢ منها ٢٠ في الوجـه البحري و ٢٢ في القبلي ولكل منها عاصمة مختصة بها فيها مقر الحاكم ومركز العبادة . وهاك جدولا يتضمن اسماء المقاطعات باليونانيـة واسماء عواصمها بالمصرية واليونانية والعربية :-

مقاطعات الوجه القبلي وعواصمها

اسماء المقاطعات

باليونانية	بالمصرية القديمة	باليونانية	بالعربية
١) اوبيتس	ابو	امبوس	كوم امبو
٢) ابولينوبوليتس	تب	ابولينوبولس مانيا	ادفو
٣) لاتوبوليتس	نخب	لاتوبولس (ابليثيا)	اسنا (الكب)
٤) هرموثيتس	هرمونت	هرمونش	ارمنت
٥) باثيريتس			العزنة
٦) ديوسبولتس	نوامس	ديوسبولس مانيا	الكرنك والاقصر
٧) كوبيتيتس	كوبتي	كوبتوس	قفط
٨) تنتيريتس	تنتيرير	تنتيرا	دندره
٩) ديوسبولتس	ها	ديوسبولس بارفا	هو
١٠) ثيننس	ابدو	ثيس . ابيدوس	البربة . العرابة المدفونة
١١) بانوبوليتس	ابو	بانوبولس	اخميم
١٢) امزوديتوبوليتس	تبو	امزود يتوبولس	العطف
١٣) انتوبوليتس	بيانتباك	انتيوبولس	قاو الكبير
١٤) هبسيليتس	شاسحوتب	هيبسليس	شرب
١٥) ليكوبوليتس	سيوت	ليكوبولس	اسيوط
١٦) انثينويتس		انتينوبولس	الشيخ عبادة
١٧) هرموبوليتس	خمنو	هرموبوليس مانيا	اشمونين
١٨) سينوبوليتس	كوسا	سينوبوليس	القيس
١٩) اوكسيرنخيتس	بماسا	اوكسيرنخيس	بهنسا
٢٠) هيراكليوبوليتس	خيننسو	هيراكليوبولس	اهناس المدينة
٢١) ارسينوبتس		كركودينوبولس	مدينة الفيوم
٢٢) افروديتوبوليتس	تبباه	أفروديتوبولس	عطفية

مقاطعات الوجه البحري وعواصمها

أسماء المقاطعات

باليونانية	بالمصرى القديم	باليونانية	بالعربية
١) ممفيتس	منوفر	ممفيس	ميت رهينه
٢) ليتوبوليتس	سوخم	ليتوبولس	
٣) ليبيا	قيانتهابى	ايبس	
٤) سايتس	زوكا	كافوبوس	
٥) سايتشس	صا	سايس	صا الحجر
٦) خوتيس	خسون	خويس	سخا
٧) متليتس	سونتينوفر	متليس	فوه
٨) شيروتيس	ثوكوت	سيبزوى	
٩) بوسيريتس	بيوسير	بوسيرس	بوصير
١٠) أتريبيتس	حاتاحيراب	أتريس	تل أتريب. بنهاالعسل
١١) كاباسيتس	كاهبيس	كاباسا	كوم شباس
١٢) سبنيتس	ثبنوتر	سبنيتوس	سمنهود
١٣) هيليوبوليتس	أنو	أون. هيليوبواس	المطرية
١٤) تانيتس	زوان	تانس	صان
١٥) هرموبوليتس	بيثوت	هرموبولس بارفا	دمنهور
١٦) منديسيوس	بيبينبداد	مندس	أشمون
١٧) ديوسوليتس	بيخون ان امن	ديوسبولس	
١٨) بوباستيتس	بيباست	بوباستس	تل بسطة (الزقازيق)
١٩) بثينستس	بيوتو	بوتو	
٢٠) فارثبيتس	كوسم	فاربيثوس	هريت

ويظهر ان هذين القسمين الكبيرين جعلا بعد ذلك ثلاثة عرفت بمصر العليا والوسطى والسفلى . فمصر العليا تدعى أيضاً باليونانية ثيبايد نسبة الي ثيبس (طيبة) وتمتد من آخر الحدود القبلية الى ديروط . والوسطى يدعوها اليونان هبتانومس أى ذات السبع المقاطعات وتمتد من ديروط إلي رأس الدلتا . والسفلى تمتد من رأس الدلتا إلى البحر المتوسط وقسمت مصر السفلى في آخر عهد اليونان إلى اربعة أقاليم كبيرة تحت كل منها عدة مقاطعات

ودعيت مصر السفلى في أيام أركاديوس بن ثيودوسيوس الاعظم «اركاويا» نسبة إليه . وقسمت مصر العليا أيضاً إلي قسمين أو أقليمين دعيا ثيبايد العليا وثيبايد السفلى تفصل بينهما اخميم أو مايجاورها . وتكاثر عدد المقاطعات في آخر أيام اليونان حتى بلغ ٥٧ مقاطعة منها ٣٤ في الدلتا فقط

ثم ان بين ملوك مصر القدماء من وسع نطاق المملكة إلى ماوراء اصوان وعلى الخصوص العائلة الخامسة والعشرون لأن ملوكها كانوا أثيوبيين فامتد حكمهم إلى جبل برقل. أما فى حكم اليونان فبلغت حدود المملكة المصرية إلى موغراكا وراء وادى حلفا

الفصل الرابع والعشرون

قدماء المصريين فى التوراة

كتبت التوراة فى عهد الاسرات القديمة من قدماء المصريين ولا سيما الاسفار الأولى التى كتبها موسى النبي وقد ورد ذكر فرعون ومصر كثيراً لاسيا فى قصتي يوسف الصديق ووزارته لفرعون وقصة موسي وخروج بنى اسرائيل من أرض مصر وماجرى من الحوادث المشهورة

ويبدأ سفر التكوين في التوراة فى الاصحاح التاسع والثلاثين عن نزول يوسف الى مصر ليمثل روايته المعروفة بما يأتى « وأما يوسف فأنزل الى مصر واشتراه فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرطة رجل مصري من يد الاسمعيليين الذين

أنزلوه الى هناك » ومن الاصحاح التاسع والثلاثين يرى القارىء ماحدث فى أيام احد الفراعنة الذين لم يعرف بعد أيهم وتضاربت الاقوال فيه كما تضاربت في فرعون موسى

ويرى القارىء في الاصحاح السابع والاربعين عدد ١٩ من سفر التكوين في خطاب الشعب المصري ليوسف الصديق : « لماذا نموت امام عينيك نحن وأرضنا جميعاً . اشترنا وأرضنا بالخبز فنصير نحن وأرضنا عبيداً لفرعون . . . » وفي عدد ٢٠ « فاشترى يوسف كل أرض مصر لفرعون اذ باع المصريون كل واحد حقله لان الجوع اشتد عليهم فصارت الارض لفرعون وأما الشعب فنقلهم الى المدن من أقصى حد مصر الى أقصاه إلا أن أرض الكهنة لم يشترها إذ كانت للكهنة فريضة من قبل فرعون . فأ كلوا فريضتهم التي أعطاهم فرعون لذلك لم يبيعوا أرضهم »

ويستطيع القارىء أن يستنتج من سفر التكوين أنه حدث في مصر مجاعة لكنها أخف وطأة مما حدث في الاقاليم المجاورة كسوريا وأن نفوذ فرعون وسلطانه لم يضعف وانه انتزع ملكية الارض « إلا أن أرض الكهنة وحدهم لم تصر لفرعون » وان بني اسرائيل هاجروا الى مصر وكثروا « وسكن اسرائيل في أرض مصر في أرض جاسان وتملكوا فيها وأثمروا وكثروا جداً »

ويجد القارئ في الكتاب الثانى من التوراة أي سفر الخروج سيرة موسى في مصر وانه كان عظيما جداً في أرض مصر في عيون عبيد فرعون وعيون الشعب ويجد ماحدث في مصر من تلك القصة المشهورة وخروج بني اسرائيل من مصر الى صحراء سينا .

وجاء في سفر الملوك الاول الاصحاح التاسع عدد ١٥ — ١٧ فى سيرة النبي سليمان بن داود « وهذا هو سبب التسخير الذي جعله الملك سليمان لبناء بيت الرب وبيته والقلعة وسور أورشليم وحاصور ومجدو وجازر . صعد فرعون ملك مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين السا كنين في المدينة وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان »

وورد في سفر الملوك الاول الاصحاح الرابع عشر عـدد ٢٥ : « وفي السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر الى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شئ وأخذ جميع أتراس الذهب التى عملها سليمان »

وورد في سفر الملوك الثانى في الاصحاح الثامن عشر عدد ٢١ : « فالآن هو ذا قد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة على مصر التي اذا توكأ أحد عليها دخلت في كفة وثقبتها . هكذا هو فرعون ملك مصر لجميع المتكلين عليه » وفي الاصحاح الرابع والعشرين عدد ٧ . « ولم يعـد أيضاً ملك مصر يخرج من أرضه لان ملك بابل أخذ من نهر الفرات كل ما كان لملك مصر »

وورد في الاصحاح التاسع عشر من سفر اشعياء النبي نبؤه عن مصائب تحل بمصر . « وحى من جهة مصر . هوذا الرب راكب على سحابة سريعه وقادم الى مصر فترتجف أوثان مصر من وجهه ويذوب قلب مصر داخلها . وأهيج مصريين على مصريين فيحاربون كل واحد أخاه وكل واحـد صاحبه مدينة مدينة ومملكة مملكة وتهراق روح مصر داخلها وأفني مشورتها فيسألون الاوثان والعازفين وأصحاب التوابع والعرافين وأغلق على المصريين في يدمولي قاس فيتسلط عليهم ملك عزيز يقول السيد رب الجنود . وتنشف المياه من البحر ويجف النهر وييبس وتنتن الانهار وتضعف وتجف سواقى مصر ويتلف القصب والاسل والرياض على النيل على حافة النيل وكل مزرعة على النيل تيبس وتتبدد ولا تكون والصيادون يئنون وكل الذين يلقون شصا فى النيل ينوحون والذين يبسطون شبكة على وجه المياه يحزنون ويخزى الذين يعـملون الكتان المشطة والذين يحيكون الانسجة البيضاء وتكون عمدها مسحوقة وكل العاملين بالاجرة مكتئبي النفس . ان رؤساء صوعن أغبياء . حكماء مشيري فرعون مشورتهم بهيمية . كيف تقولون لفرعون أنا ابن حكماء ابن ملوك قدماء فاين هم حكماؤك فليخبروك ليعرفوا ماذا قضى به رب الجنود على مصر . رؤساء صوعن صاروا أغبياء . رؤساء نوف انخـدعوا وأضل مصر وجوه أساطها . مزج الرب في وسطها روح غى فأضلوا مصر فى كل

عملها كترنح السكران في قيئه . . . . . الى آخر الاصحاح . . . في ذلك اليوم تكون سكة من مصر الى اشور فيجيء الأشوريون الى مصر والمصريون الى أشور ويعبد المصريون مع الأشوريين . في ذلك اليوم يكون اسرائيل ثلثا لمصر ولأشور بركة فى الأرض . بهـا يبارك رب الجنود قائلا مبارك شعبي مصر وعمل يدي أشور وميراثي اسرائيل »

وفي الاصحاح العشرين من سفر أشعياء : «فقال الرب كما مشى عبدي إشعياء معرى وحافيا ثلاث سنين آية واعجوبة على مصر وعلى كوش هكذا يسوق ملك آشور سبي مصر وجلاد كوش الفتيان والشيوخ عراة وحفاة ومكشوفي الأستاه خزيا لمصر »

وفي سفر إرميا النبي الاصحاح الثالث والأربعون عدد ٨ : ١٣ نبوة عن سبي نبوخذ راصر ملك بابل لمصر « وقل لهم . هكذا قال رب الجنود اله اسرائيل . هأنذا أرسل وآخذ نبوخذراصر ملك بابل عبدي وأضع كرسيه فوق هذه الحجارة التي طمرتها فيبسط ديباجة عليها ويأتي ويضرب أرض مصر الذي للموت فللموت والذي للسبي فللسبي والذي للسيف فللسيف وأوقد ناراً في بيوت آلهة مصر فيحرقها ويسبيها ويلبس أرض مصر كما يلبس الداعى رداءه ثم يخرج من هناك بسلام . ويكسر انصاب بيت شمس التي في أرض مصر ويحرق بيوت آلهة مصر بالنار »

وورد فى الأصحاح السادس والأربعين من سفر إرمياء . « كلمة الرب التي صارت الى ارمياء النبي عن الأمم . عن مصر عن جيش فرعون « نخو » ملك مصر الذي كان على نهر الفرات في كركميس الذي ضربه نبوخذراصر ملك بابل فى السنة الرابعة ليهوياقيم بن يوشيا ملك يهوذا . . . . » وفى هذا الأصحاح وصف الجيوش البابلية القادمة بخيولها وفرسانها وهزيمة المصريين والى ماهناك من سبي وقتال.»

وفى الأصحاح السابع والأربعون كلمة الرب التي صارت الى ارمياء النبي عن الفلسطينيين قبل ضرب فرعون غزة .

وورد فى الاصحاح الثلاثين من سفر حزقيال وصف الخراب الذي تفعله يد

نبوخذ راصر ملك بابل في مصر هو وشعبه «فيجردون سيوفهم على مصر ويملأون الأرض من القتلى » . « وأبيد الأصنام وأبطل الأوثان من نوف ولا يكون بعد رئيس من أرض مصر وألقى الرعب فى أرض مصر وأخرب فتروس وأضرم ناراً فى صوعن وأجرى أحكاما فى نو وأسكب غضبي سين جصن مصر واستأصل جمهور نو واضرم ناراً فى مصر . سين تتوجع توجعاً ونو تكون للتمزيق ولنوف ضيقات كل يوم . شبان آون وفيبسته يسقطون بالسيف وهما تذهبان الى السبي . . »

الفصل الخامس والعشرون

مكانة مصر فى التاريخ البشرى

القى المؤرخ الشهير الدكتور برستد محاضرة فى الجمعية التاريخية المصرية يوم ٢٢ مارس ٩٢٣ فى الحفلة التي أقامتها هذه الجمعية بالقاهرة اكراما له قال ماملخصه

ان من أعظم دواعى السرور أن يتاح لى أن أقف هنا لأحيي ممثلى بلاد حرة كبلادي بعد أن كرست حياتي لدرس تاريخ أجدادكم وصرت أشعر أن المصريين الحاليين أجدر أهل الأرض بالفخار لأنهم يستطيعون أن ينظروا خلفهم إلى مدارج تقدم الحضارة التي سلكها آباؤهم منذ أزمان بعيدة . .

ولذا سأبدأ ايضاحى بهذه الأزمنة السحيقة . يعلم كثير منكم أنه في العصور الجيولوجية الغابرة — تلك العصور التي لا تقدر بالسنين — كان الثلج الذي يغطي القطب الشمالي الآن ينزل من حين الى آخر ويتهدد البحر الأبيض المتوسط وان لم يستطع ذلك في الواقع . وقد زحف هذا الثلج جنوبا أربع مرات في أزمنة مختلفة استغرقت كل منها آلاف السنين ثم ارتد شمالا .

وفي أثناء هذه العصور كان الانسان قد نشأ أي من مدة ١٥٠ الف سنة مضت على التقريب بل قبل ذلك بكثير حسب ماتشير اليه بعض الابحاث الحديثة . واذ ذاك كان الانسان الأول في أوروبا اكثر وحشية من أقدم سكان افريقيا

الشمالية . فقد تأخر تقدم الانسان في قارة اوربا بسبب مغالبة الثلج إياه المرة بعد المرة.

أما مصر فقد حماها من الثلج البحر الأبيض المتوسط ونطاق واسع دافيء المناخ فلم يتقدم الثلج جنوبا ولم يعرقل الحياة في وادي النيل . ولا تزال هذه الحقيقة الهـامة مهملة بعض الاهمال الى الآن وهي أن مصر كانت تتمتع بمركز فذو جو معتدل وأمان تام من جو الشمال الشديد البرودة الذي عاق رقى الانسان الهمجي في أوروبا

وكانت هضاب مصر قديماً منطقة تسقيها الأمطار بهيم فيها أقدم أجـداد المصريين الحاليين كصيادين متوحشين في منطقة شمال افريقيا . وفى هذا الطور كان أهل أفريقيا وأهل اوروبا سواء في هـذه الوحشية فكان يحيط بالبحر الأبيض المتوسط أناس همج الى أن غطى الثلج شمال هذا البحر وأثر فيه دون جنوبه .

وأنك اذا اعتليت الهضبة الغربية للنيل — غرب وادي الملوك عنـد قبر توت عنخ آمون مثلا — رأيت على وجه الصحراء آثاراً باقية الى الآن من عمل يد الانسان القديم ورأيت نقشاً على الصخور يمكن تتبعه الى شمال تونس بدليل وجود الحيوانات نفسها منقوشة نقشاً بسيطاً على الصخر في مصر وتونس والجزائر.

ولمـا حدث الاخدود الذي هو وادي النيل لم يكن فيه تربة مطلقا فلما أخذ يمتلىء بالرواسب التي جلبها النيل من الحبشة كما تعلمون انتقل الصيادون من الهضبة الى الوادي فوجدوا حيوانات صيد بديعة لو وجدت الآن لجعلت مصر بلاداً جميلة جداً الا أنها تعوق الزراعة طبعا . ولم يكن أحد على ظهر الأرض قد زرع الى ذلك الحين حبة واحدة من القمح أو أي مادة أخرى . وبمضي الزمن بدأ صيادو الوادي يستلذون الخضر وتمكنوا نهائياً من استعمال النباتات وزرعها في البقاع التي وجدوها خالية على حافات وادي النيل وبتحسن الزراعة ظهر القمح المستنبت والذرة ونبات آخر غير معروف الآن كان يسمى (الآما) وبعد أن تم الانتقال من هضبة الصحراء وأخـذ الجو في الجفاف وأصبحت هضبة الصحراء قاحلة اضطر الصيادون ان يقيموا بالوادي .

وفي سنة ١٨٥١ منحت جمعية الفلسفة الملكية بلوندرا جائزة لقسيس انجليزي اسمه هورنر horner فحضر الى مصر وأمده المرحوم عباس باشا الأول بالمساعدة فقام بعمل سلسلتين متقاطعتين من الحفائر احداهما في عرض وادي النيل من المقطم الى المطرية والأخرى مارة بسقارة فحفر التربة السوداء الى أن وصل الى الصخر الذي تحتها فوجد في قاع كل حفرة تقريبا قطعا من الخزف وآثاراً بشرية أخرى ولا أدري ماذا جرى لهذه الآثار ولكني أعلم أن هورنر طبع نتائج أبحاثه وهي تدل على أنه على عمق ٣٠ قدماً من سطح الوادي الحالي كان يوجد آباؤكم الذين عاشوا فى الصحراء وأنه عند مابلغ سمك الرواسب خمس أقدام كان هؤلاء قد أحسنوا الزراعة واستأنسوا الوعل والثور. وهذان الموردان الغذائيان — الحيوان والحبوب — نقلا أجدادكم من حالة الهمج والترحال الى حالة الاقامة والاستقرار لحرث الأرض وتربية الماشية

***

تقرب آباؤكم بعضهم الى بعض وتعلموا أن يعيشوا جماعات تعمل معا فنشأ من ذلك نظام اجتماعي ولتوضيح ذلك أقول :

انه بعد أن صار الجو جافاً وقلت الأمطار في الوادي وصار النيل وحده واسطة الري احتاجت قرية ما في جهة خاصة الى ماء تأتي به ترعة هي ملك قرية أخرى أعلى (أى جنوبا) وأصبح من اللازم اقتسام الترعة والعناية باصلاحها وبذا تعلم اباؤكم كيف يعيشون مجتمعين . فأقاموا أول نظام اجتماعي في العالم ولم يكن أحد على وجه البسيطة قد سبقهم اليه .

وقد صحب هذا التقدم الاجتماعي والحكومي اشياء كثيرة ساعدت كلها على رفع المصري القديم الى مستوي الحضارة . ولا أحاول هنا أن أحدد معنى الحضارة فقد قيل لنا اننا حاربنا من اجلها في الحرب العظمى ولكنني لا أدري ماهو الشيء الذي أنقذناه بهذه الحرب . على أنه ان صعب تعريف الحضارة فليس بصعب تعريف أشياء قليلة تعد من لوازم الحضارة ولا تقوم حضارة بدونها فمن تجارب

المصري القديم نشأت تدريجاً حياة قومية نمت نمواً بطيئاً ولم يبلغ غايته الى الآن — تذكروا انه لما كشف الاسبان النصف الغربي من الكرة الأرضية لم يكن كل من وجدوا هناك متوحشين بل وجدوا فى امريكا الوسطى وهي القنطرة بين الامريكتين قوماً متحضرين كان لديهم معادن وكانوا يزرعون الحبوب والخضر وهم وان لم يكن لديهم حيوانات داجنة الا انهم كانوا سائرين فى سبيل الحضارة ومن هذه القنطرة انتشرت الحضارة جنوبا الى امريكا الجنوبية وشمالا الى مايسمى الآن بالولايات المتحدة — أو ليس من العجيب متى عرفنا موقع امريكا الوسطى ان نجد هذا العمل نفسه قد حصل فى مصر قبل ذلك بستة آلاف سنة فان مصر هي ايضا قنطرة بين قارتي أوراسيا (اوروباواسيا) وافريقيا

على هاتين القنطرتين فقط نشأت الحضارة او مايقرب منها حيث قامت الزراعة والصناعة وامتازت مصر باستئناس الحيوان . هاتان القنطرتان هما وحدهما منشأ الحضارة ومصر أقدمهما بستة آلاف سنة واما مايتوهم البعض او يتطرق الى بعض الأذهان من ان للصين او الهند حضارة أقدم من مصر فلا دليل عليه البتة نشأت الحضارة فى وادي النيل وحده وطلع فجرها من الجنوب الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ووصلت أشعة هذا النور الى جهات أخرى. وفى عصر معين لا أحاول أن أحدد تاريخه وجدت قنطرة بين شمالي أفريقيا وايطاليا وأخرى الى اسبانيا عن طريق جبل طارق ومن الحقائق الممتعة أنه في العصر الحجري كان لدي سكان سويسرا نفس الحبوب والحيوانات الداجنة التى كانت عند قدماء المصريين و الليبيين فقد وجد أثر في أحد متاحف أوربا يدل على ان أحد الفراعنة فتح بلاد لوبيا الغربية وكان بين غنائمه حمير وغنم وماعز وهذه هى الحيوانات التي استأنسها أهل سويسرا اذ ذاك

وفي يوم مشهور كان مصري يتجول في شبه جزيرة سينا ويضرم ناره بين حجارة وجدها على وجه الصحراء اذ سخنت الحجارة وأثر فيها الفحم النباتى الناشئ من حرق الخشب فخرج شئ كان في الحجارة . ولما أصبح للمصري وجد في

الرماد قطعة صغيرة لامعة حملها الى مصر ثم وصل الى مصر من هذه المادة اللامعة قطع أخرى استعملت قلائد في أعناق النساء . وهذه المادة اللامعة هي النحاس وهو وان لم يكن عظيم القيمة في القلائد الا أنه في ذات يوم وجد المصري ان هذه المادة يمكن مدها وجعلها مستطيلة ونظر الى ابرة زوجه المصنوعة من العظم وقال لها « ان في امكاني أن أصنع لك أحسن من هـذه » فكان من ذلك أول ابرة نحاسية بل أول اداة معدنية استعملها الانسان وكان ذلك قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة .

ليت شعري هل تصور المصري الانقلاب الذي بدأه بصناعة هذه الابرة ؟ وهل نظر فى مستقبل الايام ورأى الآلات البخارية والسيارات والمصانع وآلاف الاشياء الاخرى التي عليها تقوم الحضارة وعلى كل حال قد فطن المصريون في الحال الى وجود المعادن وصنعوا الآلات منها بعد أن كانت تصنع من غيرها . وما ادراك ماهى الآلات أولها وأبسطها المثقاب وقد استعمله المصري ثم ركب فى أعلاه حجرين فأمكنه بحده القاطع أن يثقب أشد الصخور صلابة وان السيارت التى تملأ الطرقات اليوم لم تكن لتوجد لو لم يصنع المصرى هذه الآلة . وبتحسين الآلات ارتقت صناعة الجلود والفخار والعظم والعاج والخشب وبالاختصار قام ما نسميه بالحرف والصناعات وهأنتم قد شرعتم معشر المصريين تقيمون صناعات لكم واعتقد أن أصدقاءنا الانجليز لا يعارضون فى قيام صناعة القطن مثلا في مصر واني أرجو لكم النجاح في ذلك وقد زرت في مصر من أيام معرض الصناعات الجميل الذي أقامته مصلحة التجارة والصناعة فتساءلت هل يدري القائمون بأمر هذا المعرض الى أي عهد يرجع قدم هذه المصنوعات في مصر !

اذاً فقد عرفت بمصر الزراعة وتربية الماشية والصناعة وهى أشياء كلها مادية ولكن مصر لم تقف عند هذا الحد بل نشأ بها تدريجاً نظام الحكومة وهل تتصور حكومة بلا كتابة ؟ انه بدون الكتابة يتعذر معرفة ما اذا كان الفلاح قد دفع ماعليه من الضرائب عن العام الماضى أولا فالكتابة اذا ضرورية كما نعتقد الآن ولكن أباءكم الاقدمين لم يكونوا يعرفون الكتابة قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة

وانما أدى الى اختراع الكتابة محاولة ايجاد صلات بين الجهات المختلفة المتباعدة اذ لم يكن يستطاع انشاء حكومة قبل أن يتم ذلك . ولننظر في فائدة الكتابة للفرد أن مواهب العبقري تفني معه اذا لم توجد الكتابة التي تقيد أفكاره وبذا تفني مواهب كل عبقري في البلاد . وعلى ذلك يمكن القول بأن مصر قد بدأت تحي كامة متحضرة عند ما اخترعت الكتابة : هذا هو أصل الكتابة كما نعرفها الآن . ولقد ورثت أنا حروف الأبجدية من الرومان وورثتم أنتم حروفكم من قوم يعيشون فى غرب أسيا ولكن لامجال للشك فى أن هؤلاء جميعاً قد ورثوا حروفهم من الحروف الفينيقية التى هى بنت المصرية مباشرة

فاذكروا مركز مصر الخاص حين كانت الدنيا كلها فى حالة وحشية تامة وأنتم يا أحفاد ذلك الشعب الذي وهب لنا هذا الرقى السامى يحق لكم ان تنظروا الى التاريخ مفاخرين . انني لم أحضر لالقى موعظة ولكنني أرجو من هذه الجمعية المصرية الناشئة التى يعرف أعضاؤها قيمة تاريخ مصر المجيد أن يستفيدوا من هذه الحقيقة وهى أن الحضارة مرت من مصر الى الجنوب الشرقي لاوربا ومن ثم الى أمريكا

أما نحن فلا ننسى ان الحضارة مرت منكم الينا وأرجو ألا تنسوا ذلك وان تذكروا انه بارثكم لهذه الحضارة صارت عليكم مسؤلية عظمى ومهمة كبيرة فان عظم ماضى اسلافكم يستنهضكم ويناديكم ان تكونوا جديرين به وله مستحقين



الفصل السادس والعشرون

الخلود عند قدماء المصريين

عقدت مجلة الهلال مقالا في الخلود عند قدماء المصريين ومصير النفس الى الفردوس قالت :

« لما فتحت الغرفة الداخلية في قبر توت انخ آمون وجد تمثال لابن آوى وقد وقف ديدباناً يحرس المومياء . وفي هذا معنى من معانى الايمان عند قدماء المصريين فقد كانوا يعتقدون ان النفس اذا فارقت الجسد صارت فى تيه تحتاج فيه الى مايهديها سواء السبيل الى الملكوت الاعلى . وكان القدماء يعدون ابن آوى من طلائع الاسد يكشف له الطريق ويدله على الصيد فكان للاسد بمثابة الكلب للانسان . دع عنك ان ابن آوى يغشى الجبانات فرؤيته فى هذه الاماكن وشهرته فى انه طليعة الاسد هما فى الاغلب الصفتان اللتان حملتا بالمصريين الى الاعتقاد بان ابن آوى هو دليل الموتى فرفعوه الى مصاف الآلهة وجعلوا اسمه انوبيس . ولا يجب ان ننسى انه لا يزال من اعتقادات الناس الفاشية عند جميع الأمم ان اهلال الكلب اى ذلك النباح الخاص الذى نسمعه منه احياناً فى الليل نذير الموت وحادى عزرائيل الى قبض الروح . .

وكانت مهمة انوبيس فى عهد توت انخ آمون حراسة الجثة وقيادة النفس الى الفردوس . .

وتدل الكتابات الهيروغليفية على ان اعتقاد المصريين بالعالم الثانى قد تقلب وتطور فكانوا أولا يعتقدون وجوده في الغرب ثم ظهرت عبادة الشمس فاعتقدوا وجوده في الشرق حيث اشراق الشمس ومطلعها وكانوا يعتقدون ان النفس اذا فارقت الجسد عادت طفلة تحتاج الى الرضاع والعناية حتى تنشأ وتشب . ولكن تقدم فن التحنيط غير هذا الاعتقاد وجعلهم يؤمنون بان الجسم يدخل العالم الآخر كما هو دون نشأة أخرى

وكثيراً مايذكر في هذه الكتابات أن النفس تحمل الى العلا على درج نحو ماذكر يعقوب في التوراة . ثم هناك كتابات أخرى تقول ان النفس تحمل على الدخان وعلى السحاب

وكانت النفس تصور بهيئة طائر . فبين الأقوال المنقوشة في حيطان القبور نجد هذه الجملة : «أنك تطيرين الى السماء كالصقر » وهذه الجملة الأخرى : « لقد حططت على السحاب كما يحط الطائر على قمة صارى السفينة»
وكانت السماء في اعتقادهم مشيدة من حديد وكانت أبوابها تحتاج الى أدعية لكي تفك طلسمها وتفتحها . فاذا ذهبت النفس الى المشرق حيث تصهر الشمس رأت عجائب هذا العالم وكان في صحبتها « را » من جملة أرباب مصر . ثم يرشد النفس الرب هورس حتى ترد معه بحيرة فى وسط « حقل الحياة » وفى وسط هذه البحيرة توجد جزيرة تنمو عليها شجرة الحياة والى جانبها بئر الحياة . .

وكانت هذه الشجرة محط خيال القساوسة وأهل الدين يصورونها فى كل شكل . فكانت الربة نوت تخرج من هذه الشجرة وفى احدى يديها ابريق وفي الاخرى فطير وفاكهة . وكانوا أحيانا أخرى يصورونها والربة فوقها تصب ماء الحياة من الابريق فوق يدى فرعون ومن يدها الأخرى يسيل ماء الى فم النفس . وأحياناً أخرى ترى مصورة قاعدة الى جانب الشجرة وأمامها فرعون خاشع يتعبدها.

وفي منقوشات الاهرام اشارت الى « طعام الصباح » مما يتناوله فرعون من شجرة الحياة وما يتناوله ايضاً من « آلاف الأرغفة » و «ألوف الثيران » و « ألوف الاشياء التي تعيش عليها الآلهة » . .

وهناك أيضا نقوش تصور النفس تركب زورق الرب «را» بعد أن تكون قد تغلبت على أعدائها وخصومها . ويجلس في الزورق كاتب الرب . فيكسر فرعون قلم الكاتب ولوحه ويأخذ مكانه فيصير هو كاتب الرب . وقد تطور فرعون بمرور الزمن وملف الكهنة حتى صار يأخذ مكان الرب نفسه ..

وفي كل يوم يقوم فرعون فيجوب النيل السماوي ويقطعه من الشرق الى

الغرب فاذا غربت الشمس نزل الزورق الى العالم السفلي فمر في النيل الذي يمر تحت الارض وكان مقسوما الى اثنى عشر قسما كل قسم يحتاج في قطعه الى ساعة زمنية . وكان هذا المكان مثوى نفوس الناس باختلاف طبقاتهم . وللكهنة أقوال وأوصاف في هذا العالم السفلي يسهبون فيها ويتركون للخيال أعنته . فاذا مر الرب « را » رب النور استبشرت به النفوس وتهللت فاذا جازها « مزقت شعرها حزناً وأسى » ثم هناك في أحد الأقسام بحيرات من النار حيث يعذب أعداء « را » من الناس الذين خالفوا أوامره وهم في قيد الحياة . فتقطع رؤوس البعض ويغرق آخرون في الهاوية بينما تخرج أجسام الآخرين بسكاكين يضربهم بها شياطين مردة . .

وكان « رع» نفسه في مروره في هذا العالم السفلي يضطر الى مكافحة أعدائه من الثعابين التي تلتهم النفوس والأفاعي التي تفح النار وغيرها . .

فاذا خرج «رع» من العالم السفلي وفي صحبته كاتبه فرعون عاد الى « حقل الحياة » فيتطهر الاثنان ويأكلان وينتعشان وينظران عندئذ في شؤون هذا العالم الذي يحكمانه . :

وهذا الاعتقاد يبلغ في قدمه عصر بناء الاهرام وقد زيدت عليه أشياء ولكنه بقي هو كالأصل المعول عليه . .

وكان الفردوس الشمس هذا الذي يتولى شؤونه «رع» رب الضوء وقفاً في الأصل على فرعون ثم صار مشاعاً لكل نفس يحنط جسمها . .

ولكن هذا الفردوس كان محرما على الآثمين الخاطئين لأن « الخلاص » كان رهناً على الأعمال . فكان الموتى يخبرون ويحاكمون قبل أن يحصلوا على جواز الدخول الى الفردوس . فاذا قام الميت من قبره دخل الى قاعة الحكم حيث يتبوأ أوزيريس مقعد القاضي وبين يديه شارات القضاء . ويحف به من الجانبين آلهة أقسام القطر المصري . وفي وسط القاعة ينصب الميزان وفي احدى كفتيه قلب الميت حيث ضميره وفي الكفة الاخرى ريشة الحق . والى جانب الميزان تجلس

شيطانة انثى لها رأس التمساح وجسم فرس النهر وارجل الاسد وهي مرصدة لالتهام الخاطئين

وكان الرب هورس يقود الميت الى قاعة الحكم فاذا دخل سجد أمام اوزيريس وحياه داعياً اياه بأنه « رب الحق » ثم يتلو دعاء محفوظاً يبرئ فيه نفسه من اثنين وأربعين خطيئة منها الكذب والغش والسرقة والاغتيال وسرقة مياه الري من الجيران واطفاء المشاعل المقدسة وما ذلك . فاذا انتهى من تلاوة هذه البراءة صمت اوزيريس وصمتت الآلهة وساد السكوت المكان . فيؤخذ عندئذ قلبه الى الميزان فاذا فاز حمل الى الفردوس واذا ظهر للآلهة انه التهمته الشيطانة أو سلخته الآلهة خنزيراً أسود فيرسل الى مكان العقاب والاعدام

وقد كان يوم انتصاب الميزان من الخواطر التى تشغل بال المصرى وتدعوه الى تصديق أقوال الكهنة وتعاويذهم التى كانوا يوهمون السذج بأنها تقيهم يوم الحساب . ولكن الشك كان يداخل قلوبهم أحياناً . فمن أناشيدهم القديمة التى ترجع الى سنة ٢٥٠٠ ق . م هذه القطعة : —

« لم تعد الينا نفس لكي تخبرنا عما رأت فتعزينا وتفرحنا . . . فعلى الاحياء ان يتمتعوا بالحياة الى أن يصير الجسم مومياء لا يسمع صوت النادبين على القبر ولا كلماتهم التى لا معنى لها عند الموتى الصامتين » ونختم هذه المقالة بالقطعة المشجية التالية التى تدل على أن مأساة الحياة لا تزال الآن أمامنا كما كانت فى عهد الفراعنة — وهي منقوشة على شاهد قبر امرأة ماتت فى عصر الاغريق في مصر وهي تخاطب زوجها وتنصح له بأن « يأكل ويشرب من كأس الهناء والحب » والا يترك قلبه يكابد الأسى والحزن بخواطر الموت « لأن الغرب نوم وظلام ومثوى كآبة لمن يسكنونه . فهم يرقدون هناك نائمين ولا يريمون ولا هم ينتبهون لكى يروا ذوى قراباتهم . . . ويجيء أنى لا أعرف أين أنا . . . اما من ماء جار أشرب منه . . . فلعله ينعشني ويختم آلامي »

الفصل السابع والعشرون

كلمة فى مؤسس المتحف المصرى « ماريت باشا »

(ولد عام ١٨١١ وتوفى سنة ١٨٨٠ م)

(الآثار المصرية) :

ما برحت مصر منذ أجيال متطاولة مطمحاً لأنظار الرواد والمستطلعين من سائر الامم والشعوب على اختلاف الزمان والمكان ينظرون فى آثارها ويعجبون لما خلفه الفراعنة من الهياكل والاهرام والمدافن والاصنام مما يستوقف الطرف ويبهر العقل ولم يكد يقوم مؤرخ عمومى قبل المسيح أو بعده إلا ذكر آثار المصريين وأعجب بضخامتها وبعد عهدها وأشهر هؤلاء المؤرخين هيرودتس واسترابون وغيرهما من مؤرخى اليونان والرومان . أما العرب فقد ذكرها كثيرون منهم كالمسعودى وابن الاثير وابن خلدون وعبد اللطيف البغدادى ولكن هذا الاخير جاء الى الديار المصرية بنفسه فى القرن السادس للهجرة فتفقد تلك الآثار وأفاض فى وصفها وأكثر من الاعجاب بضخامتها ودقة صنعها مما تراه مفصلا فى كتابه « الافادة والاعتبار » ناهيك بمن كان يتعاطر اليها من جالية الافرنج فى القرون الأخيرة وخصوصا بعد أن وطئها نابليون بونابرت . .

ويرى الناظر ما كتبه هؤلاء أنها كانت فى أقدم الازمنة أكثر عددا وأكبر مساحة مما هى عليه الآن وان الدول التى توالت على مصر بعد الفراعنة كانت تستخدم كثيراً أحجارها في ما بنته من القصور والكنائس والجوامع حتى كثيراً ما تعمدوا هدمها لغير نفع يرجونه من انقاضها كما فعل الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين فأمر بهدم الاهرام العظمى بدأ بالصغير منها فاخرج اليه النقابين

والحجارين قضوا ثمانية أشهر يعملون بكرة وأصيلا فلم يهدموا الا جزءا صغيراً فكفوا عن العمل

ومن هذا القبيل مافعله بهاء الدين قراقوش وزير السلطان صلاح الدين فانه

نقل كثيراً من أنقاض الاهرام وغيرها فبنى بها سوراً يحيط بالفسطاط والقاهرة

وبالجملة فقد كانت تلك الآثار عرضة للهدم والنقب أجيالا متوالية فضلا عما كان يأتيه عامة المصريين وغيرهم من التنقيب عن الكنوز والمطالب فيفتحون القبور يستخرجون منها الذهب والفضة والآنية من النحاس وغيره وكثيراً ما كانوا يبيعون قطع الميومياء والمحنطات الأخرى بيعاً بخساً

وقد ذكر البغدادى مايؤيدذلك بقوله « وأما مايوجد في أجوافهم وأدمغتهم مما يسمونه مومياء فكثير جداً يجلبه أهل الريف الى المدينة و يباع بالشيء النذر ولقداشتريت ثلاثة أرؤس مملوءة منه بنصف درهم مصرى وأراني بائع جواليق مملوءا من ذلك وكان فيه الصدر والبطن وحشوه الخ

وناهيك بما كان يتعمده بعضهم من السرقة والنهب وأكثر ما سرق منها في هذا القرن على أثر انتباه الافرنج لحفظ الآثار فكانت فرنسا أو انكلترا أو غيرهما تبعث بالنقابين على نفقاتها يستخرجون مافي جوف الهيا كل من التماثيل أو المومياء أو المصاغ أوغيره فيحملونه الى متاحفهم أو معارضهم . وأول من نبه الاذهان الى ذلك اللجنة العلمية التي رافقت حملة بونابرت ولم يكن يهم الافرنج قبل ذلك من الآثار إلا مايتعلق منها بصناعة البناء كالاهرام وأبي الهول ونحوها لجهلهم الكتابة الهيرغليفية وقد كانوا يظنونها رسوماً لامعنى لها حتى أتيح لشامبليون حل رموزها فعرف الناس قدر تلك الآثار فتسابقت دول أوروبا الى احرازها لا يدخرون وسعاً في ذلك ولو استطاعوا حمل الاهرام والهيا كل لنقلوها واذا زرت متحف لندرا أو باريس أو غيرهما الآن رأيت فيها من الآثار المصرية شيأ كثيراً وفيه مالو بيع لجاء بالملايين من الجنيهات. ومازالت الحال على ما تقدم حتى تولى المغفور له محمد على باشا فانتبه في أواخر حكمه الى ما يترتب على ذلك من الخسائر الفادحة فأصدر أمراً بمنع الافرنج من حمل هذه الآثار الى بلادهم على أنهم كانوا يحملونها خلسة فقيض لها الله المرحوم ماريت باشا فجمع ما بقى من شتاتها في بناء سماه المتحف المصرى كما سيجيء . . «ماريت باشا» هوفرنسوأوغست فردينان

ماريت ولد في بولون سيرمير من أعمال فرنسا في ١١ فبراير سنة ١٨٢١ وكان أبوه رئيسا في بعض دوائر الحكومة فكان يجب ان ينشأ ماريت مرشحاً لمثل هذه الخدمة ولكنه نشأ ميالا الى الاسفار محباً للاكتشاف منذ نعومة أظفاره فاتفق له قبل أن يدرك الحلم أنه دخل دهليزا تحت الارض في بولون لا يعرف آخره فحدثته نفسه أن يتبعه الى آخره فمازال سائراً حتى خرج من طرفه الآخر

وكانت عائلته في ضيق من دنياها فأسرع في العمل لمساعدتها فتعين سنة ١٨٣٩ معلماً للرسم واللغة الفرنساوية في مدرسة استرافورد بانكلترا وهو لم يتم دروسه بعد . فنمت فيه موهبة الرسم العملي ولكن ميله الى العلم تغلب عليه فعاد الى بولون لنيل رتبة البكلورية ونظراً لضيق ذات يده اضطر لمعاطاة مهنة التعليم لتحصيل ما يقوم بنفقات التعلم ولكنه مل هذه المهنة ولم تعد نفسه تطيق الاعراب والنحو وطمحت أنظاره نحو العلى فأحب صناعة الكتابة فتولى تحرير جريدة فرنسوية اسمها الشارح البولوني (annotateur boulonnais) فاشتهر بحسن الاسلوب في الانشاء

وكان الرحالة الموسيو دينون رفيق حملة بونابرت الى مصر قد أهدى الى متحف بولون سنة ١٨٤٧ تابوتا مصريا فيه مومياء فاتفق لماريت أنه رأى ما على التابوت من الصور الهيرغليفيه فتاقت نفسه الى حل رموزها فاستعان بكتابين لشامبليون احدهما في نحو اللغة الهيرغليفية والآخر معجم لحل الفاظها فوفق الى فهم بعض تلك الرموز فشعر بلذة حببت اليه لغة الهيرغليف فما برح من ذلك الحين يتردد الى المتحف يقضي أوقاته بين الآثار المصرية حتى تمكن من تلك اللغة فلم يعد يقنعه غير الشخوص الى مصر . فعرض نظارة المعارف الفرنساوية أن تعينه في مهمة يسير بها الى وادي النيل للبحث في آثارها فابت فالتمس أن تأذن له بالمسير على أن لا يكلفها الا نفقة السفر فلم ترض فاستأذن في الذهاب الى باريس برخصة فأذنت له فسافر وانقطع الى متحف اللوفر يقرأ ما فيه من الآثار المصرية ثم كانت ثورة سنة ١٨٤٨ فتضعضعت الاحوال وانقطع راتبه فتوسط له بعض أصدقائه

بمنصب صغير في متحف اللوفر تمكن بواسطته من التبحر في اللغة الهيرغليفة والف كتابا يتعلق بالكتب القبطية

واتفق سنة ١٨٥٠ أن الانكليز أنفذوا الى مصر وفداً لغويا يبحث في مكاتب الديور المصرية عن الكتابات القبطية القديمة فعثروا في دير بوادي النطرون على أوراق كثيرة ارسلوها الى لندرا فاقتدى الفرنساويون بهم وكانوا انما يرجون بأبحاثهم هذه الوقوف على حقائق جديدة تتعلق بتاريخ اليونان وكان ماريت قد اشتهر بينهم بمعرفة هذه اللغة فعينوه في هذه المهمة براتب مقداره ثمانية آلاف فرنك فسافر في ٤ سبتمبر سنة ١٨٥٠ حتى جاء القاهرة فرأى أنه لا يستطيع الذهاب الى ذلك الدير أو غيره الا بوصية من البطريرك وكان البطريرك قد غضب من تصرف الوفد الانكليزي لأنهم حملوا ما حملوه من الكتب القبطية جبراً . وبعد السعي والالتماس رضي أن يكتب لماريت كتاب توصية باسم رئيس دير الانبا مقار على أن ماريت لم يكن يرجو الحصول على ذلك الكتاب قبل مضي ١٥ يوماً فلكي لا يضيع الفرصة عمد الى تفقد مشاهد القاهرة فسار الى القلعة وكان ذهابه اليها سبباً لتغيير عظيم في مستقبل حياته لأنه اشرف من سورها على ضواحي العاصمة فرأى اهرام الجيزة واهرام سقارة فتاقت نفسه الى زيارتها وقد نسي ماجاء من أجله فركب الى سقارة وتوغل في صحرائها يتوقع العثور على آثار مهمة لقربها من انقاض منف العظمى فوقف يتفرس في تلك الرمال القاحلة فرأى فيها حجراً ناتئاً يشبه رأس الانسان فتأمله فاذا هو رأس ابي الهول وكان قد شاهد أمثال هذا التمثال قبلا فلم يهمه ذلك الاكتشاف لغرابته ولكنه توسم منه خيراً لما سبق الى ذهنه مما قرأه في استرابون عن آثار منف وكان استرابون قد زارها في القرن الأول للميلاد فكتب عنها ما ترجمته « ورأينا هناك هيكل سرابيوم (Serapium) فاذا هو قائم في بقعة مغمورة برمال تقذفها الرياح عن آكات هناك ورأينا تماثيل أبي الهول عند زيارتنا هذه مغطاة بالرمال الا بعضها لا تزال رؤوسها ظاهرة وبعضاً آخر رأينا نصف أبدانها مكشوفة فتمثل لنا المشقة التي كان المصريون القدماء

يقاسونها في طريقهم الى هذا الهيكل من شدة العواصف »

وكان من عادة المصريين القدماء أن يجعلوا أمام هيا كلهم صفين من هذه التماثيل يسير الناس بينهما الى الهيكل فتحقق ماريت أن رأس التمثال الذي رآه سيهديه الى ذلك الهيكل فبحث في غربيه فعثر على تمثال آخر فما زال يتتبع بحثه حتى اكتشف ١٣٤ تمثالا ولما وصل الى المئة والخامس والثلاثين آنس بالقرب منه منحدراً فكشف مافيه من التماثيل حتى انتهى الى التمثال المئة والحادي والأربعين فوصل الى قنطرة عليها أشباه بعض آلهة اليونان وفلاسفتهم فواصل النقب من جهة اليمين فانتهى الى دهليز استطرق منه الى أورقة تحت الأرض عثر في أوائلها على تماثيل أسود وعجول وغيرها فرقص قلبه طربا وتحقق أنه عثر بضالته والهيكل المشار اليه لا يزال مقصداً للرواد والمستطلعين الى اليوم ويعرف بمدافن سقارة . وكان محمد علي باشا كما قدمنا قد منع الافرنج وغيرهم من النقب عن الآثار فلما توفي أغفل ذلك المنع وعاد الناقبون الى أعمالهم

فلما اكتشف ماريت هذا الهيكل العظيم اتصل خبره بمدير الجيزة فابلغه الى عباس باشا الأول والي مصر اذ ذاك فبعث الى ماريت أن يكف عن العمل ويتخلى عما اكتشفه من التحف فأجاب ان الجواب على ذلك من متعلقات قنصل فرنسا فأغضى عباس باشا عن المطالبة ولكن العملة الذين كان يستخدمهم ماريت فى الحفر تقاعدوا عن العمل بايعاز المدير فتوقف الحفر شهراً

وبلغ خبر هذا الاكتشاف مسامع حكومة فرنسا فنسيت الكتب القبطية والبحث عنها وبذلت لماريت ٣٠٠٠٠ فرنك أخرى تنفق في سبيل نقل هذه التحف الى باريس سراً فبلغ الخبر مسامع الحكومة المصرية فارسلت مندوبا يستطلع تلك المكتشفات ويلقى الحجز عليها . والمظنون أن انكلترا هي التي حرضت الحكومة على ذلك غيرة وحسداً وبلغ عدد المكتشفات ٥١٣ قطعة بين تماثيل ومومياء وغيرها . فأبى ماريت تسليمها إلا بأمر من حكومته فكتب اسطفان بك بالنيابة عن عباس باشا كتابا الى ماريت يقول له فيه (ان الحكومة المصرية لم

تسكت عما أجراه من النقب الا لاتفاقها مع قنصل فرنسا بان تبقى التحف المكتشفة ملكا لها » فبقى ماريت على اصراره ودارت المداولة بهذا الشأن بين الحكومتين المصرية والفرنساوية حتى انتهت على الشروط الآتية (١) ان تتخلى الحكومة عما اكتشف من الآثار الى ذلك الحين لجمهورية فرنسا (٢) أن يتوقف النقب مؤقتا (٣) أن يباح للحكومة الفرنساوية العود اليه على أن يكون ماتكتشفه بعد ذلك ملكا لمصر .

وفي سنة ١٨١٤ عاد ماريت الى فرنسا بسبعة آلاف قطعة من الآثار المصرية على اختلاف الأشكال والأقدار

وفي سنة ١٨٦٣ توفي سعيد باشا وخلفه اسماعيل فثبت ماريت فى منصبه وأمره ببناء متحف مصري في ساحة الازبكية يكون وسطا يسهل تردد الناس اليه ثم لم يكد يشرع فيه حتى ورد على اسماعيل باشا من الاستانة أن ساكن الجنان السلطان عبد العزيز عازم على زيارة وادي النيل قريباً فاشتغل عن بناء المتحف باعداد معدات الاستقبال وأمر أن تجعل الآثار المصرية في بناء يليق بها ليشاهدها السلطان ريثما يتيسر بناء المتحف فى فرصة أخرى فوضعوها فى بناء رحب على ضفة النيل فى بولاق

وظل المتحف المصري فى بولاق حتى نقلته الحكومة المصرية الى سراى الجيزة ثم قررت سنة ١٨٩٣ بناء متحف جديد بجوار قصر النيل



الفصل الثامن والعشرون

مؤلفات ماريت باشا

ألف ماريت باشا مؤلفات كثيرة بالفرنساوية يزيد عددهم على ٦٣ بين صغير وكبير بعضهاطبع على حدة وبعضهانشر في الجرائد العلمية فى أوروبا أهمها .

١ سرابيوم منف
٢ جدول سقارة
٣ ملخص تاريخ مصر من أقدم أزمانها الى فتوح الاسلام
٤ زيارة متحف بولاق
٥ ايبدوس وهو كتاب فى ٣ مجلدات
٦ وصف هيكل دندره الكبير طبع فى ٥ مجلدات أو ٦
٧ اطلس متحف بولاق
٨ مصر العليا
٩ ملاحظات
١٠ وصف هيكل الكرنك وتاريخه
١١ الدير البحري
١٢ سياحته فى مصر العليا وغير ذلك شيء كثير



الفصل التاسع والعشرون

مدة حكم الفراعنة

يرى الباحث في الجدول الآتي الذي ذكره برستدتواريخ ملوك مصر من الأسرة الأولى الى عصورنا الحالية ومدة حكم كل ملك منهم حتى يرجع الى ذلك التاريخ المعتبر من أوثق المصادر (والسنين قبل الميلاد)

(الاسرة الأولى والثانية) ٣٤٠٠ — ٢٩٨٠ ق . م

تولى مينا الحكم وتأسيس الاسرة الاولى عام ٣٤٠٠ ق . م
وحكم فى الأسرتين ١٨ ملكا حكموا ٤٢٠ سنة

(الاسرة الثالثة) ٢٩٨٠ — ٢٩٠٠ ق . م

من زوسر الى سنفرو ٨٠ سنة

(الاسرة الرابعة) ٢٩٠٠ — ٢٧٥٠ ق . م

خوفو	حكم ٢٣	سنة
ديدفرع	« ٨	«
خفرع	« ؟	«
منقرع	« ؟	«
——	« ؟	«
——	« ١٨	«
شبسكان	« ٤	«
——	« ٢	«

فجموعها ٥٥ سنة وحكمت الاسرة نحو ١٥٠ سنة

(الأسرة الخامسة) ٢٧٥٠ — ٢٦٢٥ ق٠م

اوزركاف	حكم	٧	سنوات
ساهور	»	١٢	»
نفريرقرع	»	؟	»
شبسسقرع	»	٧	»
خانفرع	»	؟	»
نوسرع	»	٣٠	»
منكهور	»	٨	»
ديدقرع ايزيسي	»	٢٨	»
اونسى	»	٣٠	»

ومدة حكمها ١٢٥ سنة

(الاسرة السادسة) ٢٦٢٥ — ٢٤٧٥ ق ٠ م

تيتي الثاني	؟	سنة
بزدقرع	؟	سنة
ببي الاول	٢١	سنة
مرنرع الاول	٤	»
ببي الثاني	٩٠	»
مرنرع الثاني	١	»

والمجموع ١١٦ سنة ويعرف عن حكمها ١٥٠ سنة

(الاسرتان التاسعة والعاشرة) ٢٤٤٥ — ٢١٦٠ ق٠م

١٨ ملكا حكموا نحو ٢٨٥ سنة

(الاسرة الحادية عشر)

هورس واهنخ انثف الاول ٥٠ سنة

هورس نختنب تبنفرانتف الثاني .... سنة
» سنخبتاو منتحتب الاول .... »
نبحابتر منتحتب الثاني .... »
نبتاوير منتحتب الثالث ٢ »
نبحابتر منتحتب الرابع ٤٦ »
سنخكير منتوحيت الخامس ٨ »
ويعرف عن مدتها ١٦٠ سنة

(الاسرة الثانية عشر) ٢٠٠٠ — ١٧٨٨ ق م

امنمحت الاول ٣٠ سنة (٢٠٠٠ ـ ١٩٧٠)ق٠م
سيزوستريس الاول ٤٥ » (١٩٨٠ ـ ١٩٣٥) »
امنمحت الثاني ٣٥ » (١٩٣٨ ـ ١٩٠٣) »
سيزوستريس الثاني ١٩ » (١٩٠٦ ـ ١٨٨٧) »
» الثالث ٣٨ » (١٨٨٧ ـ ١٨٤٩) »
امنمحت الثالث ٤٨ » (١٨٤٩ ـ ١٨٠١) »
سبخنفرورع ٤ سنة (١٧٩٢ ـ ١٧٨٨) »
ويعرف عن مدة حكمها ٢١٣ سنة

(الاسرة الثالثة عشرة الى السابعة عشرة)١٧٨٨ ـ ١٥٨٠ ق٠م
ومعها حكم الهكسوس ٢٠٨ سنة

(الاسرة الثامنة عشر) ١٥٨٠ ـ ١٣٥٠ ق٠م

احمس الاول ٢٢ سنة (١٥٨٠ ـ ١٥٥٧) ق٠م
امنحتب الاول ١٠ » } (١٥٥٧ـ١٥٠١) ق٠م
تحتمس الاول ٣٠ » }

تحتمس الثانى ٥٤سنة } مع تحتمس الثالث
حتشبسوت

تحتمس الثالث (٣ مايو سنة ١٥٠١ ـ ١٧ مارس ١٤٤٧)

امنحتب الثاني ٢٦ سنة ١٤٤٨—١٤٢٠) ق٠م

تحتمس الرابع	٨ »	(١٤٢٠ ـ ١٤١١) ق ٠ م	
امنحتب الثالث	٣٦ »	(١٤١١ ـ ١٣٧٥)	»
امنحتب الرابع	١٧ »	(١٣٧٥ ـ ١٣٨٥)	»

ساقيرع
توت عنخ آمون } (١٣٥٨ ـ ١٣٥٠)
آى

ومقدار حكم الاسرة ٢٣٠ سنة

(الاسرة التاسعة عشرة) ١٣٥٠ ـ ١٢٠٥ ق ٠ م

صرمحب	٣٤ سنة	(١٣٥٠ ـ ١٣١٥)	
رمسيس الأول	٢ »	(١٣١٥ ـ ١٣١٤) ق ٠ م	
سيتى الاول	٢١ »	(١٣١٣ ـ ١٢٩٢)	»
رمسيس الثانى	٦٧ »	(١٢٩٢ ـ ١٢٢٥)	»
مرنبتاح	١٠ »	(١٢٢٥ ـ ١٢١٥)	»
أمنمسيس	؟ »	(١٢١٥)	
سبتاح	٦ »	(١٢١٥ ـ ١٢٠٩)	»
سيتى الثانى	٢ »	(١٢٠٩ ـ ١٢٠٥)	»

ويقدر لها ١٤٥سنة

مدةحكم غاصب سورى ٥ سنوات(١٢٠٥ ـ ١٢٠٠) ق ٠ م

(الاسرة العشرون) ١٢٠٠ ـ ١٠٩٠ ق ٠ م

ستنخت	١ سنة	(١٢٠٠ ـ ١١٩٨) ق.م
رمسيس الثالث	٣١ «	(١١٩٨ ـ ١١٦٧) «
رمسيس الرابع	٦ «	(١١٦٧ ـ ١١٦١) «
رمسيس الخامس	٤ «	(١١٦١ ـ ١١٥٧) «
رمسيس السادس رمسيس السابع رمسيس الثامن	١٥ سنة	(١١٥٧ ـ ١١٤٢) «
رمسيس التاسع	١٩ سنة	(١١٤٢ ـ ١١٢٣) «
رمسيس العاشر	١ «	(١١٢٣ ـ ١١٢١) «
رمسيس الحادي عشر	؟ «	(١١٢١ ـ ١١١٨) «
رمسيس الثاني عشر	٢٧ «	(١١١٨ ـ ١٠٩٠) «

ومدة حكم الاسرة ١١٠ سنة

(الاسرة الحادية والعشرون) ١٠٩٠ ـ ٩٤٥

نسابنبدد حرحور		(١٠٩٠ ـ ١٠٨٥) ق.م
بسيبخنو الأول	١٨ سنة	(١٠٨٥ ـ ١٠٦٧) ق.م
بينوزم الاول	٤٠ «	(١٠٦٧ ـ ١٠٢٦) «
امنحوتب	٤٩ «	(١٠٢٦ ـ ٩٧٦) «
سيامون	١٦ «	(٩٧٦ ـ ٩٥٨) «
بسيبخنو الثاني	١٢ «	(٩٥٨ ـ ٩٤٥) «

ومدة حكم الاسرة ١٤٥ سنة

(الاسرة الثانية والعشرون) ٩٤٥ ـ ٧٤٥ ق.م

شسحنك الأول	٢١ سنة	(٩٤٥ ـ ٩٢٤) «

اوزركون الأول	٣٦	سنة	(٩٢٤ ـ ٨٩٥)ق م
تاكلوت الاول	٢٣	«	(٨٩٥ ـ ٨٧٤) «
اوزركون الثانى	٣٠	«	(٨٧٤ ـ ٨٥٣) «
شسحنك الثانى	٤٠	«	(٨٦٠ ـ ٨٣٤) «
تاكلوت الثانى	٢٥	«	(٨٣٤ ـ ٧٨٤) «
شسحنك الثالث	٥٢	سنة	(٧٨٤ ـ ٧٨٢) «
بيمو	٦	«	
شسحنك الرابع	٣٧	«	(٧٨٢ ـ ٧٤٥) «

ومدة حكم الاسرة ٢٠٠ سنة

(الاسرة ٢٣) ٧٤٥ ـ ٧١٨ ق . م

بديباست	٢٣	(٧٤٥ ـ ٧٢١)
اوزركون الثالث	١٤	
تاكلوت الثالث		

متوسط حكمها ٢٧ سنة

الاسرة ٢٤ (٧١٨ ـ ٧١٢) ق . م

بكنرانف (بكخورس)	٦	(٧١٨ ـ ٧١٢) «

(الاسرة ٢٥) ٧١٢ ـ ٦٦٣

شباكا	١٢	سنة	(٧١٢ ـ ٧٠٠) «
شباتاكا	١٢	«	(٧٠٠ ـ ٦٨٨) «
تاهارقا	٢٦	«	(٦٨٨ ـ ٦٦٣) «

ومدة حكمها ٥٠ سنة

الاسرة ٢٦ (٦٦٣ ـ ٥٢٥)

ابساتيك الاول	٥٤	(٦٦٣ ـ ٦٠٩) ق . م	
نخو	١٦	(٦٠٩ ـ ٥٩٣) «	
ابساتيك الثانى	٥	(٥٩٣ ـ ٥٨٨) «	
ابريس (خوفرا)	١٩ «	(٥٨٨ ـ ٥٦٩) «	
احمس الثانى	٤٤ «	(٥٦٩ ـ ٥٢٥) «	
ابساتيك الثالث		ـ ٥٢٥	

الاسرة ٢٧

فتح الفرس عام ٥٢٥ ق . م

الاسرة ٢٨ ـ ٣٠

٥٢٥ ـ ٣٤٢ تحت الفرس

الاسكندر الاكبر حكم مصر عام ٣٣٢

مصر تحت حكم الاسكندر والبطالسة (٣٣٢ ـ ٣٠) ق . م

مصر تحت الرومان سنة ٣٠ ق . م

الفصل الثلاثون

كتب هامة ومراجع قيمة

نذكر هنا نقطة من بحر ما كتب عن المصريين القدماء أما اذا حاولنا ذكر معظمها فلا يتسع مثل هذا الكتاب كله لاسمائها وان المصري لفى حاجة كبرى لقراءة بعض منها لأننا انتخبنا أهم وأشهر المؤلفات وقد ذكرنا أسماء ثلاثة عشر كتابا للأثري المرحوم احمد كمال ولنضف اليها ما يأتى :

١٤ تاريخ مصر — للمؤرخ الاغريقي هيرودوت أبي التاريخ (الذي ولد بمدينة هاليسكرناس عام ٤٨٤ ق . م ومات بمدينة توريوم بايطاليا عام ٤٠٦ ق . م وقد ترك مسقط رأسه لقصد السياحة في العشرين من عمره أي عام ٤٦٤ق.م فزار مصر أولا وزار فيها مدن منفيس وهليوبوليس وطيبة وكتب عنها في كتابه المشهور كثيراً واصفا معابدها وما فيها من تماثيل وأفاض في وصف عادات قدماء المصريين واحتفالاتهم الدينية واحترامهم لبعض الحيوانات كالقط والتمساح وأبي قردان وخصوصا العجل أبيس ثم شرح تاريخهم بادئا من الملك مينا أو مينيس ووصف اهرامات الجيزة وقصر اللابيرنت المسمى بالهيرغليفية (لابورامنت) أي معبد فم البر ثم بحيرة موريس بالفيوم وكتب هيرودون كتابه باليونانية فكان وصفه للبلاد جميلا وجديرا بالثقة به ولكن معظم ما كتبه عن تاريخ مصر لايوثق به كثيرا لأنه مستمد من القصص الشائعة على ألسنة العامة في ذلك العصر ولأنه لما زار مصر كانت الديانة المصرية على وشك الزوال والاضمحلال .

١٥ تاريخ مصر — للكاهن المصري مانيتون حوالى سنة ٢٦٣ ق . م وقد كتبه باليونانية في عصر بطليموس فيلادلف ومعظم هذا الكتاب قد ضاع ولم يصل الينا الا ماعنى بنقله وحفظه مؤرخو العصور الأولى للميلاد وقد حصر فيه مانيتون ملوك مصر مبتدئا من مينا وقسم مابعده من الملوك الى ٣١ أسرة حكمت ٣٥٥٥ سنة

١٦ تاريخ مصر — لديودورو الصقلي الاغريقي في أوائل ظهور المسيحية وفي كلامه مايحتاج الى برهان

١٧ تاريخ مصر — لاسترابون الاغريقي في أوائل ظهور المسيحية (strabo)

١٨ تاريخ مصر — لهور أبوللون باليونانية

١٩ كتاب وصف مصر في ٢٦ جزءا الذى كتبه علماء حملة نابليون المشهورة في مصر . طبع باريس ١٨٢٠ — ١٨٣٠ وفيه مالايحصى من آثار وادي النيل

ورسومها وغير ذلك
٢٠ تاريخ مصر ـ تأليف بدج budge بالانجليزية في ثمانية أجزاء (لندن)
٢١ تاريخ مصر لفلندرس بيتري في ثلاثة أجزاء (لندن) وله غيره من المؤلفات
٢٢ تاريخ مصر تحت حكم الفراعنة لبروجش Brnesch بالانجليزية
٢٣ تاريخ المصريين لبستنج (برلين ١٩٠٤)
٢٤ تاريخ مختصر لقدماء المصريين (لندن ١٩٠٤)
٢٥ تاريخ مصر تحت حكم البطالسة لمهافى (لندن ١٨٩٨)
٢٦ آثار مصر ونوبيا لشامبليون فى أربعة أجزاء (باريس ١٨٣٥ ـ ١٨٤٥)
٢٧ آثار مصر ونوبيا لروزلين فى ثلاثة أجزاء (بيزا بايطاليا ١٨٣٤)
٢٨ وصف أفريقيا للادريسى وفيه تاريخ مصر وجغرافيتها
٢٩ وصف مصر لابن دقماق طبع بولاق بمصر
٣٠ تاريخ المقريزي
٣١ تاريخ قدماء المصريين لادوارد ماير بالالمانية (برلين ١٨٨٧)
٣٢ التاريخ المصرى لويدمان الالمانى (برلين ٢٨٨٤)
٣٣ تاريخ قدماء المصريين لجيمس برستد ـ استاذ علم الآثار المصرية والتاريخ الشرقي فى جامعة شكاغو بامريكا
٣٤ الازمنة الغابرة ـ تاريخ الدنيا الاولى ـ ويحتوي مقدمة لدراسة التاريخ القديم والانسان الأول (لندن ١٩١٥) للدكتور جيمس برستد
٣٥ تاريخ مصر من الازمنة الاولى الى الفتح الفارسى لبرستد(نيويورك ١٩١٥)
٣٦ تقارير قديمة لمصر ـ وشواهد تاريخية من الأزمنة الأولى الى الفتح الفارسى جمعها وترجمها برستد
٣٧ تاريخ الفراعنة ـ لبروكش المشهور
٣٨ تاريخ الفن القديم الجزء الأول لبرووشبيز perrot, chipiez
٣٩ علم الآثار المصرية لماسبرو الفرنسي

٤٠ متون الاهرام ترجمها ماسبرو ومترجم الى الانجليزية
٤١ الحياة في مصر القديمة وأشوريا لماسبرو وترجمه للانجليزية مورتون (لندن ١٨٩٢)
٤٢ عادات وخلق قدماء المصريين لولكنسون ثلاثة أجزاء (لندن ١٨٧٨)
٤٣ الحياة فى مصر القديمة للعالم الالمانى ارمان ترجمه تيرارد الى الانجليزية طبع بالالمانية في المانيا عام ١٨٨٥
٤٤ قصص مصرية لبيتري لندن
٤٥ التعليم السري لمدام ﻫ بلافاتاسكى
٤٦ بيت الأماكن الخفية لمارشام آدم
٤٧ كتاب المعلم لمارشام آدم
٤٨ دليل الآثار المصرية للعالم ويجال حنا فرنساوى
٤٩ تاريخ الشعوب الشرقية تأليف مونستربية ١٦٨٣ فيه عن مصر كثيرة
٥٠ كتاب بني اسرائيل في مصر تأليف بريل طبع اترخت
٥١ ديانة المصريين لارمان ترجمه الى الانجليزية جريفث لندن ١٩٠٧
٥٢ ديانة قدماء المصريين لويدمان المانى ١٨٩٠ ترجم الى الانجليزية
٥٣ ديانة قدماء المصريين لاستندورف (steindorff) العالم الالماني وقد عربه سليم أفندي حسن وهو مجموع محاضرات القاها ذلك العالم في اكثر من ثمان عشرة جامعة امريكية وتتضمن محاضراته الخمس (١) الديانة المصرية في شأنها الأول ومركزها في تاريخ العالم (٢) نحو الديانة المصرية وارتقاؤها (٣) في المعابد والاحتفالات (٤) فن السحر والحياة بعد الموت (٥) القبور والدفن والديانة المصرية خارج مصر
٥٤ كتاب آلهة المصريين لبيرج جزئين لندن ١٩٠٢
٥٥ كتاب الموتى ترجمة بدج ٣ جزء لندن ١٨٩٨
٥٦ مجموعة نماذج وجوه لقبل التاريخ نشرها بيتري في جريدة علم الانسان عام

١٩٠١ عدد ٢٤٨

٥٧ نتائج اليوت سميت ـ الجريدة العلمية بالقاهرة الجزء الثالث ١٩٠٩ مارس

٥٨ ورقة نسياسو البردية ترجمة بدج ١٨٩١ لندن

٥٩ التقارير السنوية لعلم الآثار في الاكتشافات بمصر

٦٠ (الكتالوج) العام لدار الآثار المصرية بالفرنسية (في متحف القاهرة)

٦١ عجائب الماضي بالانجليزية في ثلاثة أجزاء

٦٢ كتاب المدرسة البريطانية لعلم الآثار ـ وكذا مدرسة ليفربول ـ وتقرير البعثة الالمانية الشرقية ـ وتقرير تيودور دايفس عن حفره بمقابر الملوك لمس فوسيت foucett عن قياس الجماجم المصرية القديمة (١٩٠٢)

٦٣ كتاب الرقص القديم والحديث . كاهوزاك ـ ١٧٥٤ . ـ رقص قدماء المصريين

٦٤ كتاب الرقص القديم والحديث وضع لافاج ١٨٤٤ « « « «

٦٥ كتاب الرقص القديم والحديث وضع مونسترية ١٦٨٣ « « « «

٦٦ اجرومية في اللغة الهيرغليفية للعالم دي روجية الفرنسي

٦٧ « « « « « « بروكش الانجليزي

٦٨ « « « « « « برتش «

٦٩ « « « « « « لاباج دينون الالماني

٧٠ « « « « « « لوريه الفرنسي

٧١ « « « « « « ارمن الالماني

٧٢ « « « « « « ستيندورف الروسي

٧٣ كتاب في الهيرغليفية وضعه حورس المصري وترجم الى اليونان

٧٤ مجلة اللغة المصرية والعاديات ـ أسسها سترن وأرمان وهنري بروجش باشا وفيها ابحاث نفيسة بالالمان والفرنسية والانجليزية ومديرها الآن العالم الاثري الكبير «استندورف» استاذ اللغة المصرية بجامعة ليبزج وصاحب المؤلفات القيمة

٧٥ تاريخ الكيمياء لارسبت ماير وترجمه الانجليزية جوابه فيه مايختص بالمصريين

٧٦ قاموس شمبليون واجروميته في اللغة الهيرغليفية
٧٧ سفر الخروج بالتوراة
٧٨ تاريخ المعادن واستخراجها تأليف بليني . فيه نبذ عن المصريين مهمه
٧٩ stromates وضعه اكليمندس الاسكندري في القرن الأول للميلاد وقال
فيه أن للمصريين ثلاثة خطوط الهيرغليفية والهراطيقية والديموطيقية
٨٠ جميع دوائر معارف العالم تحت كلمة مصر Egypte لاسيما دائرة المعارف
البريطانية والفرنسية الكبرى والالمانية
٨١ جنة المصريين وجحيمهم لبدج
٨٢ كتاب توت عنخ آمون وغيره للمستر هوارد كارتر ومستر ميس في عدة مجلدات
٨٣ الجريدة الامريكية عن اللغات السامية
٨٤ رسائل تل العمارنة (ونكلر)
٨٥ الفيوم وبحيرة موريس (براون)
٨٦ واقعة قادس للاستاذ برستد
٨٧ ابيدوس « ماريت
٨٨ المصاطب « «
٨٩ آثار متفرقة « «
٩٠ المومياء الملكية الاستاذ ماسبرو
٩١ اهرامات ومعابد الجيزة للاستاذ بيتري
٩٢ اللاهون « «
٩٣ قائمة الآثار المكتشفة في شبه جزيرة سينا للاستاذ بيتري
٩٤ كاهون وجوروب وهواره للاستاذ بيتري
٩٥ كتاب مطالعة للمبتدئين في المصرية للاستاذ بدج
٩٦ كتب عن مصر وكلدانيا « «
٩٧ الديانة المصرية « «

٩٨ السحر المصري للاستاذ بدج
٩٩ اللغة المصرية » »
١٠٠ مفردات من كتاب الموتى » »
١٠١ الأدب المصرى (جزءان) » »
١٠٢ الخطوات الأولى في اللغة المصرية » »

الفصل الحادى والثلاثون

نصائح الحكيم المصرى آنى

وهي مجموعة نصائح قدمها الحكيم آنى لتلميذه خونسوهتب في عصر مصر الذهبي في عهد الملك العظيم (توت عنخ آمون) أى منذ ٣٣٠٠ سنة تقريباً.

وهذه النصائح مكتوبة باللغة الهيراطيقية وتقع في تسع صحائف عثر عليها ماريت باشا الذي سبق الكلام عليه في احدى مقابر الدير البحري بطيبة بالاقصر سنة ١٨٧٠ م. وهي محفوظة بالمتحف المصري بالطبقة العليا بالقاعة حرف S. وقد ترجمها الى الفرنسية العالمان الأثريان شاباس ودي روجيه والى الالمانية العالم الأثري أرمن وللانكليزية الاستاذ ماسبرو وللعربية حضرة أنطون أفندي زكري الأمين بالمتحف المصري

وقد اشتهرت وسميت بورقة بولاق لأنها حفظت بالمتحف المصري يوم كان في بولاق.

وهذه المجموعة عبارة عن خمسين نبذة وهى :-

١ ـ أخلص لله تعالى في أعمالك لتتقرب اليه وتبرهن على صدق عبوديتك حتى تنالك رحمته وتلحظك عنايته فانه يهمل من توانى فى خدمته

٢ ـ لاتتقرب الى ربك بما يكرهه ولا تبحث أسرار ملكوته فهي فوق مدارك العقول واحفظ وصاياه وارشاداته فانه يرفع من يمجده

٣ ـ احترم الاعياد وأد شعائرها والا قد خالفت أوامر الله

٤ ـ لاتستعمل الغوغاء والضجيج في بيت الله أيام أعيادك وادع ربك تضرعا وخفية بقلب مخلص فذلك أقرب للاجابة

٥ ـ اذا استشارك أحد فأشر عليه بما تقتضيه الكتب المنزلة .

٦ ـ تتهذب النفوس بالحسنات والترنيمات والسجود

٧ ـ من اتهم زوراً فليرفع مظلمته الى الله تعالى فانه كفيل باظهار الحق وازهاق الباطل

٨ ـ اجعل لك مبدأ صالحاً وضع نصب عينيك في جميع أحوالك غاية شريفة تسعى اليها لتصل الى شيخوخة حميدة وتهيء لك مكانا في الآخرة فان الابرار لاتزعجهم سكرات الموت

٩ ـ صن لسانك عن مساوى الناس فان اللسان سبب كل الشرور وتحر محاسن الكلام واجتنب قبائحه فانك ستسأل يوم القيامة عن كل لفظة .

١٠ ـ تزوج حديث السن لترى لك ولداً في ريعان شبابك يكون سببا في احترامك واجلالك وبرهانا على صلاحك وتقواك

١١ ـ لاتهمل الترحم على والديك وتحر لهما من أعمال الخير والبر أكثرها نفعاً وأرجأها قبولا ومتى قمت لهما بهذا الواجب قام به لك ولدك .

١٢ ـ ان الله سخر لك أما كابدت كل مشقة حين حملتك وولدتك وأرضعتك ثلاث سنوات وربتك ولم تأنف من فضلاتك ولم تسأم معاناة تربيتك ولم تكل امرك لغيرها يوماما وكانت تبر أساتذتك وتواسيهم كل يوم ليعتنوا بتعليمك والآن صار لك أولاد فاعتن بهم كما اعتنت بك أمك ولا تغضبها لئلا ترفع يديها الى الله فيستجيب دعاءها عليك .

١٣ ـ اترك لاخيك البيت المشترك بينكما متى رأيت ماينغصك حرصا على الرابطة العائلية واستبقاء لمودته حتى يكون معوانا لك في مصالحك الاخرى المشتركة معه

١٤ ـ اذا كانت زوجتك كاملة مدبرة فلاتعاملها بالخشونة والغلظة وراقب اطوارها لتكتشف احوالها . ولا تتسرع معها في الغضب لئلا تزرع شجرة الشقاق والنزاع في بيتك فتكون ثمرتها التنغيص فان كثيراً من الناس يضعون أساس

الخراب فى بيوتهم لجهلهم حقوق المرأة .

١٥ ـ اذا كنت قوي الارادة فلا تدع المرأة تتسلط على قلبك

١٦ ـ اذا وقعت عينك على جارتك فاياك ان تتمادى أو تتعمد رؤيتها ثانيا . واحذر أن تخبر بذلك غيرك فتستوجب الهلاك .

١٧ ـ اياك أن تميل الى امرأة فتلعب بدينك وشرفك ولا تحدث ضميرك بشأنها فانها كالماء العميق الذي لا يعرف لها قرار . واذا كاتبتك امرأة تعرف أن زوجها غائب عنها لتوقعك في شباكها فاياك أن تصبو اليها لئلا توقع نفسك في حبائل الهلاك . فان الشهوات طريق للموبقات

١٨ ـ لاتدخل بيت السكير ولو أفادك مجداً وشرفاً

١٩ ـ لاتتردد على محال الخمور احتراسا من عواقبها الوخيمة . لان لشارب الخمر فلتات يستفظع صدورها من نفسه متى أفاق . وهو دائما مبتذل محتقر عند الناس حتى بين اخوانه الذين يشاركونه في غروره وشروره

٢٠ ـ النظام في البيت يكسبه حياة حقيقية

٢١ ـ أسلك سبيل الاستقامة دائما تصل الى الرتب العالية

٢٢ ـ كن شهماً شجاعاً فان الجبان لايستفيد من الحياة غير ماوهب الله له

٢٣ ـ لاتجلس في حال وقوف من هو اكبر منك سناً ولو كنت أرقى منه رتبة.

٢٤ ـ الزم بيتك ولا تغادره الا لموجب . واذا لقيت في طريقك من يتجاهلك فغض طرفك عنه. وزر أصدقائك وأحباءك

٢٥ ـ اذا فاتتك فرصة فترقب غيرها

٢٦ ـ لاتعاشر الاسافل لئلا تذهب هيبتك .

٢٧ ـ لاتكثر الكلام ولا تتظاهر بالفصاحة في التحقيق . وتكلم بحجتك بعد التروي والتفكر . فذلك أدعى لخلاصك

٢٨ ـ لاتجرح بكلامك شعور الناس فيستهان بك .

٢٩ ـ لاتنطق بالشر فتعود عاقبته عليك

٣٠ ـ اذا قاومت نفسك في مصرانها استطعت ردعها عن شهواتها

٣١ ـ انك لاتجني من الشوك العنب

٣٢ ـ ليكن حديث كل انسان في شؤونه ولا يشتغل بشؤون غيره

٣٣ ـ اذا تخلقت باللطف والسكينة صرت محبوبا عند الناس ووجدت منهم عضداً ونصيراً في جميع شؤونك

٣٤ ـ ليست السعادة بالثروة وحيازة الاموال انما هي في استنارة العقول بالفضيلة والتخلق بالقناعة والرضا والكفاف

٣٥ ـ من تعود الجد والنشاط لايحتاج الى حث واستنهاض

٣٦ ـ اذا رأيت مالا ترضاه فى مجتمع فاجتنبه ولا سيما اذا كنت لاتستطيع التغلب على عواطفك

٣٧ ـ اذا خاطبك رئيسك بحدة وانفعال فابتعد عنه حتى يسكن غضبه . واستعمل اللين والرفق مع كل من يخاطبك بتهيج . فهذا هو الدواء الوحيد لذهاب غيظه وعلى العموم ان الكلام اللين يجذب القلوب

٣٨ ـ لاتستسلم الى اليأس والقنوط مهما قام في سبيلك من العقبات والشدائد

٣٩ ـ الزم الصمت اذا لم يكن داع للكلام

٤٠ اذا اتخذت وكيلا فانتخبه أمينا عاقلا وثق به مع مراقبته فاذا كان حازما نسب لك هذا الحزم

٤١ ـ لاتثق بالناس المجهولة مبادئهم ولو خدعوك بتقديم أنفسهم لخدمتك متظاهرين بالاخلاص فانهم يجرونك الى الخراب العاجل

٤٢ ـ تنبه في أعمالك ولا تتهاون فيها فان التهاون عاقبته الخيبة والفقر

٤٣ ـ اذا كنت متبحراً في العلم فانقش علمك فى صحيفة فؤادك

٤٤ ـ اذا وليت منصباً فاظهر براعتك فيه فتؤهل نفسك لارقي منه

٤٥ ـ العالم ذو منزلة عند الكبراء وان كان فقيرا فعز العلم ثروته ومجد العلم حمايته .

٤٦ ـ اذا جاءك ضيف فانزله منزلته من التحية والاكرام وتلطف معه لتعرف

الغرض من زيارته . ثم حادثه بشاشة ولا تسمح له بالتطرف في الحرية حتى يخرج عن حدود الاحتشام

٤٧ ـ اذا أكلت وحولك من ينظر الى طعامك فاطعمه منه ولو شيأ يسيراً فكم رجل كان في نعمة ورئاسة . فاصبح في بؤس وتعاسة والنعمة لا تدوم الا مع المحسنين

٤٨ ـ لا تكن شرهاً فان الانسان لم يخلق ليأكل بل يأكل ليحيي حياة طيبة يجعلها طريقاً للحياة الأبدية .

٤٩ ـ كل شيء يأتي عليه الدهر لابد ان يتغير وضعه حتى يفنى أثره . ومن كان مطيته الليل والنهار فلا بد أن ينهار فكم تغيرت الانهار بالجزر والمدمن مبدأ خلقتها . واذا كان التغير والتحول من لوازم الطبيعة فلا يوجد رجل واحد ذو ارادة ثابتة

٥٠ ـ الحب أعمى لأنه يصور قبيح المحبوب جميلا لشدة ميل النفس اليه

الفصل الثاني والثلاثون

تمثالا ممنون

تمثالا ممنون اللذان يدعوهما العامة في شاطىء طيبة الغربي بالصنمات يطالعان المرء على مسافة بعد هائل من جميع الجهات وكأنهما الخلف الوحيد للجيل الذى كاد ينسى يجلسان منفردين على السهل الاخضر النضير بين النهر العذب الخالد والتلال الوردية الفاتنة وكأنه قد قضي عليهما أن يعيشا مدى الدهر بعيدين عن كل ما عداهما حاشا النهر الذى يركض تحت قدميهما مرة كل عام ويعانقهما بشغف اذ يسر اليهما بشرى الخصب والبركة التى جاء ليـذيعها في الوادى وحاشا السماء الصافيـة التى تبسم أبداً لصبرها وطول أناتهما حاشا التـلال التى تتعضن كل صباح لسماع أغنيتهما

وزعم البعض فى العهد الروماني أن التمثال البحرى كان لممنون بن أيوس أى الفجر وابن تيثوناس وهو إله نوبى مثل أنتيلوخس بن نسطور الشجاع فى خلال حرب تروادة التى قتله فيها أخيلاس وكان ممنون هذا أحد الابطال العظماء فى تلك الحرب وقيل انه قاد جيشاً من الاثيوبيين لمحاصرة تلك المدينة لان اليونان أخطؤا فى قراءة أسماء أمنيوفيس الثالث (الذي شيد التمثالين)فقرأوها «ممنون» وقد عرف أن بطل تروادة المسمى بهذا الاسم قد جاء من تلك البلاد ولذلك عدوا التمثالين للبطل الترودى والحقيقة انهما تمثلان أمنيوفيس الثالث وبجانب قدمي التمثالين تمثال صغير لقرينة الملك من الجهة اليمنى وآخر لامه من الجهة اليسري وعلى جانبي العرش رسوم آلهة النيل فى مصر العليا ومصر السفلى وهما يضمان البلدين الى بعضهما بضفر جذوع بنات الحندقوق والبردي اللذين يرمزان الى مصر العليا ومصر السفلى والتمثالان مصنوعان من الحجر الرملي المقتلع من حجر السلسلة وكانا من حجر واحد فى الاصل ولكن التمثال البحري هوى قليلا ورمم فقطع من الحجر الرملي فى عهد الامبراطور سبتموس سيفروس (١٩٣ - ٢١١ م) وكان ارتفاع التمثال البحرى ٥٢ قدماً أو ٦٥ قدماً بما فيها القاعدة أو سبعين قدماً بما فيها التاج الذى تهشم واضمحل و بلغ طول كل رجل عشرة أقدام ونصف أما الاتساع ما بين الكتفين فهو عشرون قدماً وطول الاصبع الوسطى في اليد أربعة أقدام ونصف قدم ويحتمل أن يكون التمثال البحرى قد تشقق في الزلزال الذي حدث سنة ٢٧ بعد المسيح وصارت له شهرة فى عهد الحكم الرومانى بسبب الصوت الغريب المنبعث منه في الاصباح وقد اتجهت اليه الاسماع في عهد حكم نيرون فحاكي السياح الرومانيون أسطورة لطيفة لتعليل ذلك الصوت مفادها أن ممنون الذي قتل فى حرب تروادة ظهر كتمثال حجري فى طيبة وحيا أمه أيوس بنغمة حلوة حزينة كلما ظهرت ساعة الفجر فسمعت الآلهة تلك النغمة وكانت انداء الصباح دموعها التي سكبتها رثاء لابنها المحبوب وكانوا يعتقدون أن الآله ممنون غضبان اذا لم يسمع الصوت المنبعث من تمثاله وفى سنة ٢٤ قبل المسيح زار

استرابو التمثال بعد حدوث الزلزلة بثلاث سنوات وقرر أن الجزء الأعلى قد تشقق وأنه سمع صوتاً منبعثاً منه ولكنه شك أن بعض الأهالى قد خدعوه وأوهموه لسماع ذلك الصوت وقد أكثر السياح والشعراء بعد ذلك العهد من كتابة مقطوعات وأبيات شعرية جميلة وتواريخ زياراتهم على قاعدة ذلك التمثال ومما يحسن ذكره هنا أن بلبلا الشاعرة كتبت أبيات فى وصف زيارة هدريانوس وزوجه سبينه سانيا لذلك التمثال (سنة ١٣٠ بعد المسيح)



فهرس تاريخ توت عنخ آمون

الكتاب الاول : توت عنخ آمون

الكتاب الثانى : فى عالم تاريخ قدماء المصريين

الكتاب الثالث : كلمة عن حضارة قدماء المصريين

الكتاب الرابع : لمحة الى مصر القديمة

الكتاب الخامس : كتب وشؤون قدماء المصريين